أبنـــاء المطـــر

أبنـاء المطـــر

محمد بدرخان

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد رحب عواد

رقم الإيداع : 22101 /2017

I.S.B.N: 978-977-488-526-5



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

أبنـــاء المطـــر

رواية

محمد بدرخان



دار اكتب للنشر والتوزيع

"سيدتي!

لا تجزعي، إن لم تسعفنا الأيام لنلتقي في هذه الحياة..

سنلتقي في الحياة الأخرى.. نحن على موعد"

إلى القلوب الخافقة بالحب

إلهي

استمدت أرواح النهر الدفء من أشعة شمس الفجر، فخرجت من لُدن الماء، على شكل أبخرة، راحت تتراقص كعرائس الأحلام الموعودة، لتنطلق إلى الفضاء الكوني، من حيث تساقطت ذات يوم، على شكل حبات مطر أو وذق أو بَرَدٍ أو نُدف ثلج.

اختلط الأمر في ذهن الإمام الأزهري الشاب، عندما شعر بقشعريرة تسري في عروق دمه، أتراها بسبب لسعة برد الصباح، أم من هالة ما كان يراه على سطح الماء الرقراق؟ فقرر أن يصلي ركعتين، أمام بهاء الخالق الذي أبدع هذا الكون بجماله الفتَّان.

كان الإمام عبد الواحد قد وصل إلى مجرى النهر، مع بزوغ الشمس، بصحبة جواديه الأحمر الضارب إلى السواد والأبيض المُرقَّط، المرشوم بنقاط زرقاء ساحرة الجمال، ليشربا الماء العذب، قبل أن ينطلق وراء عبد الغفار، الذي سبقه بالمشي وراء حماره المُحمَّل بعدل كبير من بذار القمح إلى حقل الملطية.

ترجَّل الإمام عنْ حصانه الأحمر، المحمل بخرج يحتوي على زوادة الطعام، و منجل أهيف ضئيل، وبعض الأدوات الزراعية الصغيرة، ثم أرخى رسنه، ليجرَّ رفيقه في الكدح، الحصان الأبيض الضارب إلى الزرقة، والمحمل بمحراث الحقل الخشبي، والمساس، وسكة الحديد، إلى عمق النهر، الذي اتسع مجراه أمام القرية، ليبدو كنهرٍ عظيم.

إلهي– نطق الإمام مُبتهلًا إلى الله، بعد أن جلس القرفصاء قرب حافة النهر– أنت الأول لا أول لك، وأنت الآخر لا آخر لك، يُسبِّح لك ما في السموات والأرض. ثم قرأ بصوت خافت:

"ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم". (البقرة)

ثم انتصب واقفًا ليضع إبهاميه خلف شحمتي أذنيه، وليعلو صوته قليلًا:

-- الله أكبر.

اندفعت أسراب الأسماك الصغيرة،من أمام قوائم الحصانين، اللذين يمخران عباب الماء الدافئ، وينفثان زفير الهواء الساخن من خياشيمهما، وهما يبحثان عن مكان، يروق لهما لشُربِ الماء الطاهر، المتدفق من نبع صغير،تحيط به أشجار الميس والأكاسيا والصفصاف والزيزفون، والمدرّع بأكوام من شُجيرات توت العليق، التي اختمرت حباتها النضرة السوداء وفاحت برائحة النضوج، وباتت تنتظر يدًا طاهرة، تُقدِّس سِرَّ وجودها، لتنتزعها من بين الأشواك راضية مرضية.

مُغمض العينين، أنهى الإمام الأزهري صلاته، لُمبدِع هذا الكون، وشعر أن صلاته قد طالت لخمسين ألف عام خلت في ذات المكان، فسلَّم على المَلَكين، وفتح عينيه، لتتساقط أمامه بعضٌ من حبات توت العليق، من راحتين لَدِنَتين، تحملان حفنة من الحبيبات السوداء اللامعة تحت أشعة الشمس كحبيبات لأحجار كريمة.

– صباح الخير يا مولاي...

قالت – وخطت خطوتين، لتقف أمامه، بعدما انتهى من صلاته، ثم جلست القرفصاء، ومدت راحتي يديها بحفنة توت العليق إلى فم الإمام، الذي ارتعدت أوصاله، وتخثّر الدم في عروقه، ولم يعد قادرًا على الحراك، أو النطق بأي حرف، فأغمض عينيه، ليسترد أنفاسه، بالعودة ذهنيًّا إلى خالق الكون، فتمتم:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

وكررها عشر مرات بالعد على رؤوس أصابع يديه،كما أوصاه معلمه الجليل الشيخ جمال الدين، ذات يوم، لطرد الشيطان، أو سحقه، إن طالَتْهُ التعويذة، قبل أن يفرَّ هاربًا مُرتعدًا من ذكر الله.

لكنها لم تختف، ولم تتراجع عن مكانها قيد أنملة، لم تفرّ كما تفرُّ شياطين الليل بعد سماعها لذكر الله، بل تحركت ببطء كبطة برية زاهية الألوان واقتربت قليلًا بصدرها العارم، ففاحت منه رائحة الحقول،ثم استندت بركبتيها على الأرض فاندفعت كواعبها المشدودة نحو الإمام وقالت:

- رأيتك وقد عزمت على الصلاة فقطفتُ بعض التوت البري لأطعمك إياه بيديّ هاتين، فأنت بركتنا يا شيخ عبد الواحد. ألا تأكل من يديّ؟

تأكد الإمام أن الصوت الذي يتحدث إليه، لم يكن صوت شيطان مقامر تجرأ على الظهور جليًا تحت نور الله، أو ملاك، حطّ فجأة، من غياهب السماء، ليشاركه صلاته وحمده وتسبيحه لله العلي القدير، بين أحضان الطبيعة، بل صوت أنثى بشرية، تفوح منها رائحة خمر البرية قبل سباتها الشتوي، إنه صوت أمينة، وأن ما رآه كان ثوبها القرمزي، الذي يلفُّ جسدها المكتنز، النابض بشهوة الحياة، وأهدابها الوطفاء المكحلة المحيطة بعينيها الشهلاوين، وهي تحاول إخفاء تلك النظرة الأنثوية، الشكوكة المغرمة المتدفقة، عسل مصفّى، من شهد عينيها ومن بشرتها القمحية المتوردة الوجنتين.

- أين كنت تختبئين؟

سأل الإمام متلعثمًا وقد تحشرج صوته، وتلاحمت رموش عينيه كتلاحم السيوف، في معركة حامية، تكاد تقترب من نهايتها، والفوز فيها لمن يصبر، ويثبت، في تلك اللحظات الحرجة.

- ولماذا أختبيء يا مولاي!

تساءلت أمينة في غنج، وقد نفحت بأنفاسها الحارة لتلامس وجه الإمام، الذي استنشق أريجها، فتنفس الصعداء، وعاد وأغمض عينيه.. فأضافت:

- كنتُ أغسلُ ثيابي وثياب إخوتي.. ألم تلحظ كل ذاك الغسيل المنشور والمعلق على أغصان الأشجار ينتظر حرارة الشمس؟

نظر الإمام إلى أغصان الأشجار، المحيطة بمجرى النهر، وشاهد قطع الملابس بألوانها الزاهية، منتشرة هنا وهناك، وشعر بذنب عظيم، لأنه لم يَرَ كل ذلك، وفكّر لحظة وقال في سرِّه:

- لا بد أن روحًا خبيثة المُنى والمآرب، قد أعمت بصري وبصيرتي، لأقع فريسة أهواء امرأة لعوب، معروفة بطيشها، ورعونتها، وفجورها الذي يتحدث عنه معظم رجال القرية وشبابها، بل فتيانها الصغار، الذين يحلمون بالانقضاض على هذا الجسد الشهي وافتراسه..

لا بد أن إبليس الرجيم، قد أنزلني عن حصاني، وجرَّني من ساعدي في غفلة من الوعي ليوقعني في إثم كبير..أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

نطق الإمام وتساءل في عُمق صدره الذي ضاقت أنفاسه:

- كيف لإبليس أن يجرَّني إلى الصلاة؟ لا هذا مستحيل! لن يدعوني إبليس إلى الصلاة لرب الكون، لكنه، من الجائز أن يكون قد وضع غشاوة على عيني، وها هو الآن يريد أن يزيغ فؤادي عن دربي الذي اخترتُه بإرادتي، واختاره الله لي، وعليَّ أن أُبعِدَه عني، بتعويذات شيخي، الإمام الفاضل جمال الدين.

فناجاه بصوت خافتٍ:

- أين أنت يا معلمي؟ أنا عبد الواحد تلميذك النجيب، أعوذ بك من بعد الرحمن، بأن تزيل عن عيني تلك الغشاوة وتجعل من أمري رُشدًا.

ونهض واقفًا بعد أن تجمعت قواه من جديد.

– ألا تحب التوت البري يا مولاي؟!

سألته أمينة وأضافت:

– لقد مضت أيام عيد الصليب،وهذا أفضل وقت لقطافه، ألا تشتمُّ رائحته؟ ألا تشتهيه؟ صحيح أن المطر لم يغسله في هذه السنة، كما يفعل عادة، لكن طعمه كالعسل بشهده، وأنت تحب العسل بشهده، أليس كذلك؟

للحظة دنا بفمه من راحتيها ليلتقط بشفتيه بعضًا من حبات التوت البري.. ثم تراجع خائفًا مذعورًا، وقد تمالك نفسه من جديد، وتلفّت حوله بحثًا عن الحصانين اللذين كانا قد شقّا طريقهما صعودًا على الدرب الذي اعتادا السير عليه جيئةً وذهابًا، في مواعيد تحددها حركة الشمس في الصباح وفي المساء..

فأسرع خُطاه لاحقًا بالجوادين دون أن يلتفت إلى الخلف، حيث جلست أمينة، وابتسامة ساخرة علقت على شفتيها المُحمرَّتين، اللتين سرعان ما انغمستا في عناق شَبِقٍ مع حبات توت العليق، وهي تشعر بنشوة فريدة من نوعها لم تعهدها من قبل.

فهي المرة الأولى في حياتها التي حاولت فيها إغواء رجل، لم يحاول قط أن يوقعها في شباكه، كما يفعل بقية شُبَّان القرية، بل شُبان القرى المجاورة، الشجعان منهم على وجه الخصوص،الذين حاولوا مرات عديدة النفاذ إليها في ظلام الليل، فتصدى لغزوهم رجال القرية وفتيانها، كمدافعين أشداء، عن "شرف القرية"، من اعتداء الغرباء، الذين تصادف

لهم أن شاهدوا أمينة في طُرقات القرية، أو في حفلات الأعراس ففتنتهم بسحر جمالها وأنوثتها الطاغية.

كانت حفلات الأعراس غالبًا ما تقام مع نهاية الصيف، بعد جَني المحاصيل الزراعية، من قمح وشعير وعدس وحمص وعباد شمس وبيقية والقطن الذي بات يحتل الأراضي المروية من مياه الجداول الصغيرة، وكان أهل القرية يطلقون اسم الأرض الزوراء على الأراضي المروية بمياه الأنهار الصغيرة التي تحيط بالقرية من الجنوب إلى الشرق لتصل نهر العاصي في الشمال.

كانت الصدامات الليلية ما تنفكُّ تتجدد مع كل شتاء، بين غزاة الليل الملثمين، وفتيان القرية المرابطين كحراس أوفياء حول بيت أمينة، استعملت فيها العصي والخناجر وأمواس الغجر- القرباط الحادة والمعكوفة النّصال، والمعروفة بقدرتها على حلاقة شعر اليد إذا ما مرت به، وغالبًا ما كانت تتحول تلك المناوشات، مع الأيام إلى معارك بطولية، ويصبح لها أبطال حقيقيون، بأسماء محددة، تطالب بحقوقها المشروعة من جسد أمينة، التي اعتادت سماع تلك الادّعاءات، ولم تَعُدْ تكترث لها.

***

أمينة

- سأكشف لك عن سِرِّ جمالك يا ابنتي.

قالت أم أمينة لابنتها..

- كنتُ أغسلُ جسدك، وأطهره بأعشاب البرية المنقوعة بماء المطر في قرية الطالوعة.. قريتنا البعيدة. لهذا تفوح منك رائحة الغيث التي يخرُّ لها الرجال ويتضرعون لاستنشاقها. لمعان شعرك الكستنائي أخذته من عصير ثمار الشجرة المباركة من زيت الزيتون، لدانة راحتي كفيكِ من وريقات شجيرات العنب البري.

لكن أيام السعد والهناءة لا تدوم..فجأة تنهار الجبال، تجفُّ السواقي، تحترق الكروم، ويختال الشيطان الأسود بانتصاره. كنتِ في شتائك الثالث، حين رحلنا في عتمة الليل من قريتنا، واتجهنا نحو منبع الشمس بحثًا عن مكان آمن نلوذ به من شرِّ بيت العباس الذين يفاخرون بأنهم استقبلوا في قصرهم ذات ضيف الرئيس الفرنسي شارل ديجول مدة ثلاثة أيام، وهم الذين حكموا على أبيك المسكين بالموت، دون رحمة أو شفقة..

تحدثت إلى السيد العباس، رجوته، قبّلت يديه وقدميه، وعدته بأن أنذر نفسي ما حييت لخدمة مزار جده العباس الكبير، لكنه أبعدني بنعل جزمته الجلدية السوداء، جزمة الرئيس الفرنسي شارل ديجول، التي لبسها مدة ثلاثة أيام في أثناء مشاوير الصيد التي قام بها مع ثُلةٍ من وجهاء المنطقة، وراء الخنزير البري، ثم تركها هدية لسيدنا العباس. الخنازير البرية كثيرة في تلك المناطق وتسرح في قطعان في أثناء الليل. لقد حَدَثَ ما حدث في تلك الأيام البعيدة، لكنَّ أحدًا - وحتى يومنا هذا - لا يعلم سِرَّ قبول ديجول، دعوة آل العباس، حين حَلَّ ضيفا في قصرهم البديع، ولم يقبل النزول عند أحد من وجهاء المسيحيين الكبار، الذين يملؤون الوادي حتى البحر، وهم لا يقلون ثراء عن بيت العباس، بل يفوقونهم ثراء وجاهًا، كآل بشور، ومرهج والخوري.. ربما يعود السبب لكونهم من أتباع الكنيسة المشرقية، ولم يلتحقوا بركب الموارنة الأكثر غنى في كل المنطقة، لا أحد يمكنه أن يفسر ما حدث.

في ليلة ظلماء ماطرة، يخاف الجنُّ الأحمر أن يخرج فيها من مخابئه.. ارتحلنا. كان برق السماء بومضاته المرعبة، يضيء لنا الدرب المنحدر إلى الوادي الكبير، الذي تجمعت في قعره السيول الجارفة، وشكلت نهرًا صاخبًا هادرًا يقتلع الأشجار ويحملها نحو البحر.. لكننا استطعنا عبوره بمساعدة الأولياء الصالحين الذين استجابوا لدعائي، كرمى لك ولإخوتك الصغار.

بعد أن عبرنا النهر شعرنا بالأمان واتجهنا إلى كهف صغير يعرفه والدك، وأمضينا ليلتنا الأولى بعيدًا عن منزلنا، أقصد منزل العباس الذي كنا نعيش فيه ونقوم على خدمته ليل نهار. منحنا الكهف إحساسًا

بالطمأنينة، شعرنا بأننا نجونا وأصبحنا بعيدين عن قبضة أزلام بيت العباس ورصاص بنادقهم، مع أننا لم نكن في الواقع قد ابتعدنا سوى مسافة وادٍ وجبل. لكن اجتيازنا للنهر الجارف أعطانا ذلك الشعور. لم يكن لأحد أن يتجرأ على الخروج من منزله في تلك الليلة الماطرة، كانت الصواعق تصيب أشجار الصنوبر الباسقة فتشعل النار فيها لثوانٍ، ثم يطفئها المطر المنهمر بغزارة. كان والدك يردد، إذا كان الله قد كتبً لنا الموت فلن ننجو، وإن كان قد كتب لنا الحياة فلن تنفع أحكام آل العباس في تغيير مشيئته، لأن الله أقوى من آل العباس وأقوى من كل رجاله المسلحين بالبنادق الفرنسية.

في صبيحة اليوم التالي غابت السحب الماطرة عن قبة السماء، وصار النهار أشبه بيوم صيفي حار.. إرادة الله فوق كل إرادة يا ابنتي.. كما قلتُ لك.. وضعنا الشمس نُصبَ أعيننا وخطونا خطوتنا الأولى.. بقينا ثلاثة أسابيع ويومًا، نبيت في العراء، في الوديان والكهوف، في المقابر والدور المهجورة،في حظائر الحيوانات، لم يُرحِّب بنا أحد، فالعباس يرعب الجميع.

أخيرًا قادتنا أقدامنا إلى ديرفول حيث نحن الآن، فرحبوا بنا وقدَّموا لنا المأوى والمؤونة.

لم تفلح كلمات أم أمينة في إنعاش ذاكرة ابنتها لتتذكر ربوع قريتها التي وُلدت فيها، ذات ليلة حالكة الظلام، قبل تسعة عشر شتاء، ولم تُعِرْ ذلك المكان – الذي كانت تسمع عنه قصصًا خيالية من أبيها وأمها وإخوتها الشبان الثلاثة، في سهاد الليل – أدنى اهتمام.

كانت تعتبر ما تسمعه خلسة في حكاياهم الليلية،مجرد أوهام وأساطير لا أساس لها من الصحة، تشبه إلى حدٍّ بعيد، قصص الأبطال النشامى، المرابطين حول مترلها للنيل منها، بحجة الدفاع عن شرفها وكرامتها وعزها، والتصدي للمعتدين في غياهب الليل، الذي تطول ساعاته في الشتاء، ليصبح مرتعًا خصبًا لخيالهم الممزوج بقصص الجِنّ والأنبياء والسحرة وأولياء الله الصالحين، الذين يظهرون بلباسهم الناصع البياض كالثلج، في حلكة الليل المُدلَهِمِّ، طوال أشهر البرد القارس.

كان البرد الشديد يجبر الناس على ملازمة بيوهم الطينية، ليتحلقوا حول مواقدهم، التي تنفث الدخان من فوهات الأسطوانات الطينية التي تعلو أسطح البيوت، التي غالبًا ما تنهار مع نهاية كل شتاء، لتعود وتتجدد في أوقات الصليب، وقبل هطول الأمطار الغزيرة في التشرينين. (أكتوبر و نوفمبر).

كانت قرية والديّ أمينة، الطالوعة، تقع إلى الجنوب من برج بورغاس الحجري الشاهق الذي شيَّده الصليبيون أيام غزوهم ساحل بلاد الشام، فوق أساسات معبد فينيقي عتيق. يتألف البناء المنتصب بقامته الرشيقة، من طابقين اثنين، شُيِّدا على الطراز القوطي، حيث تتلاقى متممات الأعمدة الضخمة، في منتصف سقف البناء، لترسم شارة الصليب. خُصِّص الطابق الأول منه للعبادة وهو الآن مقر لمطرانية الكنيسة الأرثوذكسية، في حين، كان الطابق الثاني مُجهَّز بطلاقات للسهام، وكان جنود الرب، يتخذون منه مقرًا، للقيادة والسيطرة والتحكم، والدفاع إذا ما اقتضت الحاجة.

لكن الأسوار الحصينة المحيطة بقمة الجبل الذي يتربع عليه البرج كمارد انهارت فجأة، وكيف لا تنهار أمام ضربات جيش الملك الظاهر بيبرس الذي ظهر بغتةً في حوران مع آلاف من الجنود المصريين الأشداء وكتائب لا تُحصى من الفرسان الأتراك والشركس والصرب الذين اعتنقوا الإسلام ونذروا أنفسهم لطرد الغاصبين. كما كان البرج يُمثِّل نقطة تلقٍّ وإرسال للإشارات الليلية بين القلاع الصليبية، المتناثرة فوق الهضاب في الشرق، وعلى ذُرى جبال الشريط الساحلي في الغرب.

كانت أشجار الزيتون المعمرة، والتي يؤكد أصحابها أنها تعود لزمن السيد المسيح تغطي الوديان المتزلقة بهدوء نحو مطلع الشمس، لتلامس أطراف السهول الخصبة المخصصة لزراعة كروم العنب وشتى أنواع الحبوب والبقوليات التي تشكل عماد الطعام اليومي للناس البسطاء.

لم تكن أمينة تهتمُّ بكل ما قيل عن الطالوعة وجمالها الأخاذ، كان حُبُّها لبيوت ديرفول الطينية يفوق الخيال، وكانت مفتونة بجمال الجدول وصفاء مائه العذب، بتلك الأسماك التي تدغدغ ساقيها، حين تتركهما في الماء البارد لبضع ثوانٍ، لينتعش جسدها المتعرق من شدة العمل طوال أيام الصيف الحارة.

– هل يوجد نهر في قريتك يا أماه؟

سألت أمينة أمها لإغاظتها.

– لا، لا يوجد نهر في الطالوعة.

كانت تجيب الأم عن سؤال ابنتها بحسرة وتنهيدة.

– انتهى الأمر.

تقول أمينة في كيد نسائي لطيف.

– كيف لي أن أحبَّ قرية لا يوجد فيها جدول بارد أخمد به حرارة بدني طوال الصيف!؟ ومن أين كنتم تشربون الماء يا أماه في الصيف الحار؟

– كنا نجمع ماء أمطار الشتاء في مخازن حفرناها داخل الصخر، وكانت تكفينا طوال الصيف.

– هذا يعني أنكم كنتم تشربون مياها راكنة، بائتة.

وتضحك أمينة لتغيظ والدها وتضيف:

– مثل طبخة بائتة، يعني "محمضة"، كيف تفعلون ذلك! انظري إلى والدي، إنه لا يرضى أن يشرب الماء من الجرة إن كنت قد حملتها له منذ الصباح! ألا يطلب الماء النقي العذب صباح مساء؟ ثم كيف كنتم تغتسلون؟ هل كِنتم تغتسلون طوال الصيف؟

سمعت والدي يقول:

إن الماء لم يكن يلامس أجسادكم طوال الصيف..هل يكذب والدي؟

وعندئذ، تكون أم أمينة قد شعرت بالصداع يتسرب إلى رأسها، فتأخذ ما تقع يدها عليه وتقذفه على ابنتها، التي تفرُّ هاربة إلى أزقة القرية، وقد ملأت الكون بضحكاتها الصاخبة.

***

طيور السمان

أسراب من طيور السمان (الدَّلون) تحطُّ على حقل الإمام الأزهري، حيث كانت تتناثر على سطحه، حبيبات القمح من يد "المبروك" عبد الغفار، لتتلألأ بنور الله، الذي سطع فوق البرية، كنثرات تبرٍ رشقها الخالق، فوق هذه الأرض الصلدة، التي لم تكن قد لانت تربتها لتأخر هطول المطر لهذا العام.

في قبة السماء كانت أمهات الطيور يرفرفن ويزقزقن بأصواتهن الفَرِحَة لدعوة فراخهنَّ بالطير سريعًا لتناول وجبة دسمة من حبات القمح، قبل أن تقلب سكة المحراث الخشبي برأسه الحديدي التراب وتطمرها في جوف الأرض.

كانت الطيور تحوم بأسراب لا تُحصى أعدادها فوق الإمام، الذي توقف لحظةً عن دفع سكة المحراث، خلف الجياد المنهكة، ورفع راحتي يديه نحو السماء وقرأ في سِرِّه:

"وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون". (الأنعام)

ثم مسح جبينه المتعرق براحتي كفيه، وعاد وأمسك بقبضة المحراث، ونادى الجوادين ليجرّا المحراث من جديد. كان الجوادان قد أُرهقا، وتصبَّب العرقُ منهما، وكاد يسيل من بطن الحصان الأحمر، الذي تغير لونه، وبات يبدو كحصان أسود من شدة التعرق.

أما المبروك عبد الغفار المعروف ببطء حركته، فكان ينثر الحبّ، من مذراته المعلقة على كتفه وحول عنقه، في الهواء الطلق في فرح غامر، و كأنه بحركته تلك، كان يدعو الطيور يشير لها إلى مكان تساقط بذار القمح، لتحط في أسراب غفيرة من حوله وهي تغرد سعيدة متفائلة بروعة الحياة وجمالها، كما تفعل الدجاجات حين تقوم ربَّةُ البيت عند كل صباح بنثر حبات القمح أو الشعير لهنَّ.

كانت أيام البذار ونثر القمح فوق التراب، وتَجَمُّعِ طيور البرية، لتلتقط منه بمناقيرها ما تستطيع، من أسعد الأيام التي تُدخل الحبورَ إلى قلب الإمام، وتُسعد المبروكَ عبد الغفار، فيبدوان كولدين يلعبان مع الطيور،في تناغم وانسجام أزليين. كانا طوال أيام الشتاء والربيع والصيف ينتظران في شوق وجودي، عودة أيام الخريف، بفارغ الصبر، ليعودا إلى لعبتهما الساحرة سنة تلو أخرى لنثر الحبوب في أرض الله التي لم تبخل عليهما بالعطاء يومًا.

كان الإمام يحرص في كل عام، على اصطحاب "الأبله، المجنون عبد الغفار"، كما يُسميه أهلُ القرية معه إلى الحقل، لنثر بذار القمح والشعير، لاعتقاده أن يد عبد الغفار مباركة من الله العلي القدير، الذي قسَّم الأرزاق بين الكائنات، فلن يأخذ طير حبة قمح زيادة أو نقصانًا، عما كتبه الله له، ولن ينال إنسان قرشًا واحدًا زيادة عما قسمه الله له. لكن

الإنسان طماع بطبعه، ولا يعرف الشبع كبقية الحيوانات، التي سرعان ما تخلد للراحة، والاستمتاع بجمال الخالق، حالما تنجز مهمتها، سواء أكانت من أجل الطعام، أم من أجل التكاثر، وكان جُل ما يدهشه، هو قدرة الإنسان على ممارسة الجنس، في أي وقت من أوقات السنة، على عكس الحيوانات التي تعرف ميعاد إخصابها باليوم والساعة.. الجنس.. هو سر شره الإنسان الذي لا يعرف حدودًا، الجنس هو المحرك الخفي لشقاء الإنسان، وابتعاده عن الخالق الرازق الوهاب.

وصل الإمام إلى حدِّ الحقل، وقرر أن يمنح الحصانيين قليلًا من الراحة والطعام، ليحافظا على عزيمتهما، لاستكمال حراثة الحقل المنثور بحبيبات القمح، التي كانت تختفي أمام ناظريه، وشعر بأن أرض الله قد خلت من الطعام لتجتمع كل طيور البرية في حقله لتأكل القمح المنثور في مساحات واسعة، ثم أحسَّ بالذنب لهذا الشعور الكئيب فاستغفر الله على تلك الفكرة السيئة التي نالت منه لحظةً، وعادت الابتسامة إلى مُحيَّاهُ وقرأ في سِرِّه:

ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطيرُ صافات كُلٌّ قد علِمَ صلاته، وتسبيحه، والله عليم بما يفعلون. (النور)

مع انبلاج فم الإمام عن ابتسامة لسحر الكون، غابت الابتسامة عن وجه المبروك عبد الغفار، واقترب من الإمام ليسأله، إن كان قد أحضر بيضتين مسلوقتين مع رغيف من خبز التنور وبصلة كما وعده يوم أمس، عندما طلب منه الإمام أن يرافقه الى الحقل لزراعته، فاشترط عبد الغفار على الإمام أن يحصل ما ذكره إضافة لخمسة وعشرين قرشًا، قطعة

واحدة، وليس فكة كفرنكات، وكان الإمام يعرف، سر شرط عبد الغفار بالحصول على ربع ليرة قطعة واحدة..

السر يكمن ببساطة، في أن قطع "الربع ليرة" المعدنية كانت مصنوعة من الفضة الخالصة، أما الفرنكات، فكانت مصنوعة من حديد أو نحاس، وعبد الغفار، لا يثق بها، مع أن قيمتها في الشراء تعادل تمامًا قيمة الربع ليرة، بيد أن عبد الغفار لم يسبق له قط أن صرف ما جناه بعرق جبينه. لم يَرَهُ أحدٌ أن اشترى شيئًا.. كان يدخر ما يحصل عليه من مال، ويخفيه في حُلكة الليل، في أماكن سرية، لأسباب مجهولة عن الناس جميعًا.

أشار الإمام بسبابته إلى الخرج، فهرع عبد الغفار إلى فك رباط الزوادة ليجد البيض المسلوق والبصل وأرغفة الخبز، إضافة لقطعة من جبن الغنم المزين بحبة البركة، فطفت الابتسامة على وجهه، وجلس يأكل طعامه بلذة مفرطة، لأنه شعر براحة غير معتادة، إذ لم يكن أحد يزاحمه التهامَ الطعام، وكان الإمام يدرك ذلك الإحساس الغريزي الذي يرافق عبد الغفار في أثناء تناوله للطعام، فيبتعد عنه ويتركه يأكل ما يشاء على راحته.

لم يكن عبد الغفار خمولًا، بل بطيئًا، لم يكن بليدًا، بل هادئًا، وكان بعض رجال القرية يعتبرونه أبله، مجنونًا، ويتخذونه هُزوًا لهم، كانوا يسخرون منه ويسألونه عن سبب ادخاره للقطع النقدية الفضية، وكان يجيبهم بضحكة فيها شيء من الازدراء، لنقص في عقولهم، وكأنه كان يقول لهم: كم أنتم حمقى! وحده الإمام كان يدرك دون سؤال أو جواب، بأن روحًا لا بشرية، تسكن في هذا الجسد، المقاوم للبرد،

للعطش، وللجوع أيامًا لا تُحصى،إذ كان عبد الغفار لا يأكل من الطعام إلا ما يتصدق به الناس عليه، خشية منه، أو شفقة عليه.

وحده الإمام من كان يتصدَّى للشبان، ويزجرهم حين يجعلون من عبد الغفار لعبة يتسلون بها.

كان عبد الغفار يستجيب لألعابهم الخشنة، فتارة كان يقلد نهيق الحمار مقابل "نَفَسٍ" من عقب سيجارة، أو أن يمتطي ظهره أحد الشبان ليجول به في أزقة القرية و"يعنفص" كالدواب حالما تظهر حواء سواء أكانت امرأة أو فتاة، مقابل قطعة من حلوى الراحة.

كان الإمام يقرّع الشبان وينهيهم عما يفعلونه بهذا الكائن الغريب، وأحيانًا كان الإمام يهددهم بعقاب شديد من الله، لأن الله يرى أفعالهم الخبيثة الدنيئة، وأن الملائكة تدون على لوح محفوظ إلى يوم الحساب العسير كل ما يقومون به، سواء أكان خيرًا أم شَرًّا، ومن ثم يمسك بيد عبد الغفار ليبعده عن هؤلاء الأشرار. لكن المفارقة كانت أن عبد الغفار لم يكن يُذعِنْ طواعيةً لأوامر الإمام، كما أنه لم يكن قادرًا على معصيته.

هناك سِرٌّ دفين في أعماق كليهما،لا يدركه العقل البشري المحسوس.. يجمعهما.

***

عبد الغفار

كتعاقُب الليل والنهار، كانت تبدو درجات السلم، المؤدي إلى غرفة عبد الغفار، في الطابق العلوي، من منزله الذي يتشاطره مع شقيقه الأصغر، النجار أبي بشير. كانت بلاطة بازلتية زرقاء ضاربة للسواد، تعلو بلاطة كلسية ناصعة البياض، تليها أخرى سوداء، في ديمومة سرمدية لا تعرف مُستقرًّا لها.

كان عبد الغفار قد حرص أشد الحرص على قدّ تلك البلاطات من الصخر، والاعتناء الشديد بنعومة وجهها العلوي، وترتيبها كمتوالية تبحث عن فُرجةٍ في أعالي السماء، كما حَرَصَ على أن يبدأ الصعود أو النزول بحجر أبيض، وهذا ما اضطره ذات يوم إلى رفع مستوى سقف العنبر السفلي لنصف ذراع إضافي، خلافًا لما اعتاده البناؤون في تلك الأيام، وقام شقيقه النجار الحاذق،بصنع درابزين بديع من خشب الجوز، رافق الدرجات صعودًا، ليمتدَّ إلى سور الشرفة، وطلاه بلون السماء الزرقاء بناء على طلبه.

قبل اثني عشر عامًا انتهى عبد الغفار من تشييد قصره الصغير البديع، والمؤلَّف من غرفة واحدة، مع شرفة تطل على أرض الديار الواسعة. بدت الغرفة للناظرين كتحفة فنية منسجمة الألوان، متناسقة الأبعاد. تابع عبد الغفار عمله بشغف وصبر قل نظيرهما، وراح يهيئ بصمت مطبق، وهدوء تام، مستلزمات الغرفة، من سرير وفراش وستائر وشراشف ومناشف حتى امتلأت الكتيبات الأنيقة بها.

كان عبد الغفار بطيء الحركة، هادئ الطباع، يعمل برتابة، ويأكل بنعومة، وكأنه فاقد للإحساس بالزمن المتغير دومًا، أو ربما كان على النقيض، كجزء لا ينفصم عن الزمن السرمدي.

كان عبد الغفار يعمل بكدٍّ دون تذمُّر وبثقة تامة في بناء عشه الصغير لتحط فيه حمامته البيضاء بديعة، التي رآها ذات يوم في صبيحة أول أيام عيد الفطر، وهي تمرُّ من قرب المسجد الكبير، بعد صلاة العيد، مسرعة نحو المقبرة، تحمل عيدان الآس الخضراء لتضعها على قبر والدها التي فارقت الحياة عندما كانت طفلة صغيرة. لم يكلمها عبد الغفار قط، لم يرسل إليها خطابًا، أو إشارة، لم يترصد رؤيتها مرة ثانية كما يفعل الشبان عادة حين يقعون في الحب، كان على قناعة تامة أن مشاعره نحوها تصل إليها، وأنها ستشاركه عشه الذي شيَّده بتأنٍّ و"تؤدة"، كما كان يقول، عندما يحثه أحدهم على الإسراع بالعمل، فيجيبه بثقة تامة بالنفس "بالتؤدة". بالنسبة له كان كل شيء يسير بانتظام محكم إلى أجل معلوم. لم يكن عبد الغفار يهتم قط بمظهره الخارجي، كان يبدو كدرويش على باب الله، لكنه كان واثقًا، بل مؤمنًا، إيمانًا راسخًا، أن ما يقوم به قد كتبه الذي رفع السماء بلا عمد، ولن يستطيع أحد تغيير

مساره. بديعة، الحمامة البيضاء التي شاهدها ذات يوم، في أول يوم من أيام عيد الفطر، لا بد أنها تتابع إنجازاته، ولا بد أنها سعيدة بما يفعله ويُخطِّط له، وهي في أحرِّ الشوق لرؤيته واستقباله ساعة ينتهي من عمله، ليتقدم واثق الخطوة، لطلب يدها من والدها البيطار.

لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.. ارتحلت الحمامة ظهيرة أحد الأيام الحارقة من شهر آب (أغسطس) اللّهاب، ارتحلت ولم يكن هناك أيُّ أمل في عودها..

في مساء ذلك اليوم المشؤوم الذي نسيه كل أهل القرية، أوصد عبد الغفار باب الغرفة وراءه، ثم تكوم على نفسه في الزاوية الغربية الشمالية للغرفة، وراح يبكي في الظلام بصمت حتى انبلاج الفجر.

لم يعلم أحد سر انقلابه الشديد، لم يفصح لأحد عن سِرِّ حزنه وانطوائه. منذ ذلك اليوم، أي قبل سبع سنين خلت، لم يحدث قط، أن تأخر عبد الغفار كما تأخر اليوم، عن ميعاد وُلوجِه إلى غرفته المحكمة الصُنع. كان ميعاده دقيقًا، مرتبطًا بميعاد غروب الشمس، خلف جبال لبنان المكسوة بطرحات العرائس، ولم يحدث قط أن أشعل قنديلًا، أو فانوسًا، أو شمعة، أو أوقد نارًا، في الموقد الجميل المزين من جانبيه ببجعتين، تمتد أعناقهما نحو السماء لتتعانقا في الأعالي. لم يكن في الغرفة عود ثقاب، أو قداحة (ولاعة) يمكن لأحد أن يشعل النار في الغرفة عن طريق الخطأ.

وحدها كانت أشعة الشمس قادرة على إضاءة معالم الغرفة، حين تلجها منذ الصباح عبر نافذتين أنيقتين مطليتين بلون أزرق غامق، تنسدل خلفهما ستارتان بيضاوان مزينتان بسربين من الطيور المهاجرة على شكل مثلث متساوي الضلعين.

هلعًا، صعد عبد الغفار درجات ثلاث على سلم الليل والنهار، ثم تراجع إلى الأسفل بحذر شديد، بعد أن لاحظ أن الضوء المنبعث من نوافذ منزل شقيقه، يكشف باب العنبر، في الطابق الأرضي تحت غرفته. كان الباب مفتوحًا قليلًا. سرت قشعريرة في جسده.

وقف حائرًا لا يدري ما عليه أن يفعله. هل يتفقد العنبر؟ أم يصعد الدرج إلى غرفته وقد تأخر عن ميعاده كثيرًا.

. لا.. لا.. لن ألمسه، سأدعه حتى الصباح، سوف أسأل شقيقي عنه في صباح الغد - قال عبد الغفار في نفسه - وعاد ليصعد الدرجات. مَدَّ يده إلى مشكاة قرب الباب، ليأخذ مفتاح باب قصره الجميل، فلم يجده في مكانه المعتاد. هل تعرضت للسرقة؟ أم تراها تجلس غاضبة في انتظاري.؟ الويل لي، قال عبد الغفار في سره واقترب من الباب وسمع صوت التكات الثلاث للسان الغال والغال من الأغلال. انفتح الباب أمامه. اندفع هواء حارٌّ من جوف الغرفة، فتراجع عبد الغفار خطوة إلى الوراء مذعورًا، أراد أن يصرخ، لكن يدًا قوية، قبضت عليه من خلف عنقه، وقذفت بجسده إلى داخل العتمة كريشة في الهواء ليصطدم بوجهه بالجدار ويتهاوى على الأرض.

بطيئة كانت حركة عبد الغفار.. لْملَمَ ساقيه، ورفع جسده على يديه، والتفت إلى الخلف.. جحظت عيناه من هول ما رآه.. امتدت ذراعه اليمنى في رجاء، لتدفع عن نفسه الغضب المستعر الجاثم أمامه، وسال الدم من أنفه الكبير. جلس على مؤخرته..نكس من رأسه وأجهش في البكاء..بكاء من يعترف بذنبه، مَن يُقرُّ بأنه ارتكب خطيئة لا يمكن غفرانها، ولم يكن قادرًا على طلب الرحمة،وممن يطلبها، وهو الآثم النكير؟

- كنت أتجنب هذا اللقاء.

قال عبد الغفار..

- لكني كنتُ في أعماقي أنتظركَ، لأني أعلم علم اليقين أن لا مفر من هذه المواجهة، فالذي سيحدث، لا بد أن يحدث. أعرف أني لا أستطيع الهروب منك أبد الدهر، حسنًا، هأنذا أمامك، فافعل بي ما تريد.. أعلم أني غير قادر على مواجهتك، فقِواك تفوق قواي آلاف المرات. ما سيقع.. سيقع، فعَجّلْ به.

وفاحت رائحة النار، ولسعت عينيه وأحرقت حاجبيه، فأجاب عبد الغفار:

- لا، لم أفعل.. أنا لم أسرق زوجك، ولم أكن أعلم أنها قرينتك.

ومن جديد، أحس بنفحة من الهواء الحار تلامس وجهه، فقال:

- أنا لا أكذب، يمكنك أن تسألها لتتيقّن من صدق كلامي.

ثم طار في الهواء ليسقط على السرير الخشبي الذي لم يتمدد، أو ينم عليه من قبل قط. ورفع رأسه وقال:

– صحيح، حدث ذلك فيما بعد، بعد أن التقينا، بعد أن اكتويت بنار حبها، كلمتني عنك، حدثتني طويلًا عن قدراتك، عن فنونك، عن شبابك الدائم. أنا لم أفعل شيئًا لأوقعها بحبائلي، وأنت خير من يعلم، أنه ليس بمقدوري رؤيتها، لو لم يتجسد لي طيفها حقيقة بإرادتها النابعة من رغبتها في الإغواء. أنا لم أكن لأعرف معنى كلمة الإغواء، لو لم تغوِني بسحرها، بفتنتها.

ومرة أخرى طار عبد الغفار في الهواء، وارتطم بالأرض فاهتزَّ قصره البديع وتأرجَحَ في مكانه، فخرج صوته الحبيس صارخًا، مستنجدًا بشقيقه.

فتح أبو بشير باب غرفته في الطابق الأرضي، بعد أن سمع صراخ شقيقه في الأعلى، وصاح بأعلى صوته:

-- ما بك؟ ما الذي يحدث عندك في العلّية؟

بيد أن أحدًا لم يُجبْه.. فقط كان صراخ عبد الغفار يعلو ويعلو، وأركان قصره تهتز، كأن عاصفة قد سُلطت عليه لاقتلاعه من أساساته.

حمل أبو بشير بيده عصا من السنديان كان يسند بها البوابة الصغيرة المصنعة في وسط الباب الكبير، وصعد الدرجات ليقترب من باب غرفة عبد الغفار، ثم توقف، بعد أن سمع صوت شقيقه يحذره من الدخول إليه قائلًا:

-- لا تدخل، لا تفتح الباب، سيقتلك، إياك أن تدخل..

ثم ارتطم جسده بالأرض وتلاشى صوته.. لينفتح الباب، ولتندفع منه رياح حارة، كادت تحرق وجه أبي بشير الذي كتم صراخه من شدة الهلع.

- لا تفعل شيئًا.. لقد رحل.

قال عبد الغفار بصوتٍ متحشرج.

- حسنًا، انتظر قليلًا لأجلب الفانوس.

- إياك أن تفعل.. عُد إلى فراشك، ودعني وشأني.. لا تقلق.. لم يستطع قتلي.. أخرق وجبان.. سأجعل منه هباء تحمله الريح.. عد إلى غرفتك،وإن سمعت صوتي يستنجد بك مرة أخرى، فلا تُعِرْني اهتمامك.. لأنك لن تقدر على فعل أي شيء.

- مَن كان عندك؟

سأل أبو بشير أخاه، فجاءه الرد ممزوجًا بضحكة خرقاء..

- لقد خرج من الباب أمام عينيك.. هل رأته عيناك؟

- لا، لم أرَ شيئًا.

- ولن تراه. لهذا أقول لك، إن استغثتُ بك مرة أخرى، فاحشُ أذنيك بالقطن، كيلا تسمع صوت استغاثتي.

- وماذا أقول لأم بشير؟

- لا أعلم.. عُدْ إليها ودعني وشأني.

قال عبد الغفار وبصق الدم من فمه.

- حسنًا.

قال أبو بشير:

- لن أسمعك مرة أخرى، لا بد أن الشياطين الزرق قد سكنت روحك يا أخي.. وداعًا.

ونزل أبو بشير درجات السلم وقد خارت قواه.. أراد أن يجلس ليرتاح قليلًا.. لكنه أدرك أنها فكرة خرقاء، فتابع خطواته نحو شطره من المنزل.

***

الاستسقاء

بعد أدائه صلاةَ الفجر، شرب الإمام الأزهري كأسين من البابونج الحار، ثم تسلق درجات السلم الخشبي المؤدي إلى سطح منزله، المطل على جهات القرية الأربع. وقف الإمام متجهًا نحو القبلة، حيث يقع البيت الحرام إلى الجنوب من بلاد الشام، فبدت له بساتين القرية، وأشجار الحور الباسقة العارية، وقد مدَّت يديها نحو السماء في ابتهال أزلي، يُقدِّس الخلود، كديمومة لأسرار القدرة الإلهية.

فتح الإمام راحتي كفيه، وردد بصوت خافت تكاد لا تسمعه أذناه:

الله، يا حنَّان يا منَّان، اسقِ العطاش تكرُّمًا..

ثم قرأ سورة الفاتحة، لتسقط دمعتان حارتان من عينيه عندما قال بصوت عالٍ:

– ولا الضالين. آمين.

مسح جبينه والدمعتين ونظر نحو المشرق، فشاهد الكرة البرتقالية تنبعث من مرقدها، تنهض جبارة، فتية، قوية، دافئة، رهيبة، معلنة أنها سيدة هذا الوجود، لا منافس لها..

- قال الإمام في سرِّه- الشمس وحدها القادرة على طرد الظلمات، وتفجير الينابيع، الشمس مَن تحرق الأخضر واليابس، الشمس من تنعش النبات والحيوان والإنسان، وكل حي على وجه البسيطة.. الشمس.. وسقط الإمام منهارًا، خاشعًا على ركبتيه، كأن قوة خفية قد دفعته ليخر عاجزًا.. رفع يديه مرة أخرى، ولاحظ كيف تخترق أشعة الشمس أصابع يديه، لتكشف عن سُلاميات عظام كفيه المكسوة بقليل من اللحم ورقيق الجلد، فلمعت عيناه ببريق الخلق، وأسراره العظمى، ثم قرأ في سرِّه:

"لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون".(فصلت).

ثم أغمض عينيه وقرأ بصوت عالٍ ليتأكد بسمعه مما كان يتلوه:

"إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم".(الأنعام)

نهض الإمام واتجه بنظره نحو الشمال، فراعته شاهدات الأجداث البازلتية الضخمة المنتصبة عند رؤوس الأجداد الغابرين، وقد أدارت ظهرها للشمس واتجهت نحو الغرب، تعبيرًا عن أفول شمس حياتها الأرضية. كانت أشعة شمس الصباح تُنير معالم تلك الأحجار الصلدة، فشعر الإمام كأن أرواح الأولين يشاركونه ابتهاله لرب العزة ويشدون من أزره، يقفون خلفه بثقة تامة، بإيمانه المطلق، بعظمة خلق الله، فتوجَّه إلى الله بالدعاء لهم، بأن يكونوا في أحسن حال، بين يدي رحمته، وأن يجمعه وإياهم في جنان الخلد.

لم يقطع ابتهالات الإمام سوى صوت حشرجة الشيخ عبد الله، الذي خرج من باب منزله المجاور لمنزل الإمام، بقامته القصيرة، بلحيته التي تلامس سرته،بطربوشه الأبيض، بعكازه الكثير العقد،المصنوع من أشجار الميس، ليتجه شمالًا، نحو المقبرة، ليشرف بنفسه على الحدث الجلل، الذي ستشهده القرية في هذا اليوم من أيام تشرين الثاني، (نوفمبر)، إذ كان أهل القرية قد عزموا بالأمس، على إقامة صلاة الاستسقاء، بسرعة كلية، بعد أن خاب أملهم بهطول الأمطار في مواعيدها المعتادة من كل سنة، ولم يبقَ أمامهم سوى التضرع إلى مُنزِلِ الماء من المُزن، ليحيي به الأرض الميتة قبل فوات الأوان.

لم يكد يصل الشيخ عبد الله إلى سور "الجبانة"، وهي الكلمة البديلة التي يحب الناس استخدامها بدلًا من المقبرة، حتى ظهر العُجّز من رجال القرية، عبر أزقتها الضيقة، مستعينين بعكاكيزهم، واتجهوا نحو الشيخ، الذي أصبح كنقطة علام، ليتجمهروا حوله.

أما النساء اللواتي ظهرن كطيور السنونو في ملاءاتهن السود، فقد حملن القدور النحاسية الكبيرة، ذات المقابض الجانبية، واتجهن بها نحو السور الشرقي للمواقد، وهن يثرثرن بكلمات لاتعد ولا تُحصى، ولا يمكن لأحد سواهن، أن يدرك معناها، أو هدفها ومبتغاها، لكنهن حرصن على خفض أصواتهن، كيلا يثرن غضب الرجال، أو يفسدن عزيمتهم، على إقامة شعائر الاستسقاء، لأن صوت النساء يعوق أفئدة الرجال ويحرفها عن التواصل مع رب العزة المستوي فوق السماء السابعة، كما يقول الشيخ عبد الله.

صنعت النساء المواقد،من لَبنات أحضرهن بعض الفتية، وثبّتن القدور النحاسية الضخمة عليها، ثم بدأنً بتحطيم أغصان الأشجار اليابسة، ووضعها فوق قُعال الكروم، السريعة الاشتعال، والتي يسمونها بعيدان "الجرزون"، وحشونها بترتيب أنيق، تحت القدور، وجلسن ينتظرن بفارغ الصبر، المتصدقين بالقمح، لملء القدور الكبيرة.

كان يقع على عاتقهن إنجاز تلك المهمة من سلق القمح وتوزيعه على الأطفال الفقراء قبل صلاة الظهر؛ لأن دعاء الأطفال الفقراء مستجاب عند الله أكثر من أولاد الأغنياء.

أما شباب القرية المحرومون من المشاركة، في إقامة صلاة الاستسقاء والدعاء لرب العزة، حسب أوامر الشيخ عبد الله، التي أطلقها يوم أمس، بعد صلاة الظهر، عقابًا لهم لرعونتهم وفجورهم ولهاثهم وراء الملذات الدنيوية، فقد انقسموا إلى مجموعات تتناسب وأهواءهم وأفكارهم الملوثة، قليلًا أو كثيرًا، برياح الغرب الأمريكي، أو الشمال الموسكوفي.

بعد صلاة ظهر يوم أمس، حدَّد الشيخ عبد الله مَن يحقُّ لهم المشاركة في الصلاة والدعاء قائلًا:

الأطفال الفقراء أولًا، لأن دعاءهم، سيكون صادقًا، نابعًا من قلوبهم الضعيفة، والرجال العُجز، المشهود لهم بتُقاهم، وحرصهم على إقامة الصلاة في المسجد، كما يسمح للأطفال كافة ممن لم يصلوا بعدُ، سن البلوغ، بالمشاركة في هذا الواجب المقدس.

أما النساء الحُيَّض، أكُنّ متزوجات، أم لم يعرفن الزواج، فيُمنعن منعًا قطعيًّا من الاقتراب من المكان، وعليهن أن يحبسن أنفسهن في بيوتهن، ولا يظهرن لوجه الخالق في هذا اليوم العظيم. وانتقلت كلمات الشيخ عبد الله إلى مخادع النساء بسرعة البرق، فتساءلت زوجة (العمدة):

– ألا يستطيع الله رؤية وجوهنا، إن حبسنا أنفسنا في البيوت؟

فأخرستها يد المختار بلطمة على فمها.

كان لتعليمات الشيخ عبد الله، أثر كبير، في إجبار نساء القرية وفتياتها كافة على المساهمة الفعلية في إقامة هذا الاحتفال العظيم. لأن مَن تتأخر، أو لا تشارك فيه، يعني أنها حائض، ويا للعار! فمن من النساء تتجرأ على الكشف عن ميعاد حيضها للناس جميعًا؟ فهذا عيب ما بعده عيب، وعار ما بعده عار!

لم يكن أحد من المتصدقين قد ظهر بعد، حين انتهت النساء من تجهيز ثلاثة قدور تتميز بدرجات حجمها، كبير ووسط وصغير يتسع لخمس مسحات من القمح، وهذا ما أربك النساء وأخافهن.. فلُذن بالصمت حائرات فيما يفعلنه.

كان الخوف من حلول السنوات العجاف، قد انتشر في عقول الناس، وأمسكهم عن تقديم الصدقات، كما كانوا يفعلون عادة في سنوات الخير دون تذمر أو تلكؤ، وراح الرجال كبار السن يروون ما مَرَّ عليهم من جوع شديد في سالف الزمان، وكانوا يبالغون، في سرد قصص خيالية تقشعر لها الأبدان، وترتعد من هولها القلوب، خوفًا من مصير مجهول، فبعضهم كان يؤكد، أن كثيرًا من الناس، اضطروا لأكل

لحم القطط أو الجرذان لإسكات جوعهم، وأن كثيرًا من الخلق، مات جوعًا، أو عطشًا، كما كان يحدث في بلاد القبط- قال الحاج يعقوب - أيام النبي يوسف عليه السلام، الذي فسَّر لفرعون رؤياه وأنقذ مصر وشعبها من هلاك محتوم.

- لكن مصر، لا تعتمد في زراعتها على المطر.. يا حاج يعقوب.. مصر تكاد لا تعرف الزراعات البعلية مثلنا في بلاد الشام.. مصر تروي حقولها من مياه نهر النيل العظيم، وأنا أعرف ذلك جيدًا.. عشتُ فيها ثلاث سنوات.. لم أشهد فيها مطرًا، ولم أسمع أن نهر النيل قد جف من قبل، لتحل بهم السنوات العجاف.

في مصر يمكنك أن "تزرع زرعك وتسقيه برجلك كبستان بقُول" (سفر التثنية، الإصحاح 11) أرضها السوداء تختلف عن أراضينا المكونة من "جبال وبقاع، من مطر السماء تشرب، أرض يعتني بها الرب". (سفر التثنية 11) قال الحاج خضر ردًّا على الحاج يعقوب المعروف بعصبيته وعدم اتزانه.

- أتكذِّب ما ورد في القرآن الكريم يا حاج خضر! هل وصل بك الأمر لتكذب كلام الله؟ ألم يقل سبحانه وتعالى في مُحكم آياته: "وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤيتي إن كنتم للرؤيا تعبرون" (يوسف).

ثم جاء نبي الله، يوسف، أجمل إخوته وأصدقهم وأرقهم، وفسَّر حلم فرعون، فأنقذ أهل مصر من المجاعة؟

- أنا لا أُكذِّب ما جاء في القرآن الكريم يا حاج يعقوب. لكني أقول ما شاهدته بأم عيني... لا يوجد في مصر زراعات بعلية، إلا ما ندر، كما أن سيناء غير مصر.

- استغفر الله أيها الفرمصوني (الماسوني) وتُبْ إليه.

قال الحاج يعقوب..

- خاصة في هذا اليوم، فلعل الله يقبل توبتك، ويجعلك من التوابين. أنتم الفرمصونيون تنشرون الإلحاد في بلاد المؤمنين؛ ولهذا حبست السماء المطر عنا..اذهب إلى بيتك يا حاج خضر..ابتعد عني،لأنك أثرت غضبي، ولا تضطرني لضربك بعكازي. ألا ترى ما فعله الله بك؟ انظر إلى نفسك.

وكان الحاج خضر مُصابًا بمرض الشلل الرَّعاش، فامتدت يداه ليلتقط عكازه بصعوبة بالغة،وقد شعر بأنه أخطأ كثيرًا في اختيار التوقيت لمناقشة مسائل كهذه.

تجمهر أهل القرية من رجال ونساء وفتيان وفتيات وأولاد صغار في مجموعات متعددة ينتظرون قدوم تلاميذ المدرسة، وبقيت القدور فارغة يلعب فيها الهواء، إذ لم يقدم أحد بعد على تقديم القمح لملئها بالحَبِّ وظهر القلق على وجه الشيخ عبد الله بعد أن لاحظ إحجام الناس عن التبرُّع بقليل من القمح لإقامة هذا الطقس الفريد والمهيب.

- يا الله.

قال الإمام عبد الواحد، وسكب نصف مسحة من القمح، في قعر القِدر الكبير الفارغ وأضاف:

– اللهم أغثنا غيثًا، سحبًا، ودقًا، غدقًا، نافعًا، لا ضرر فيه، وانشر رحمتك على عبادك يا أرحم الراحمين.

ثم غادر المكان كما ظهر فجأة، دون أن يلحظه أحد من الرجال الملتفين حول الشيخ الكبير.

كان الإمام –ولأسباب لا يدرك حقيقتها – يتجنب المشاركة في مثل تلك الطقوس البعلية، في الوقت الذي لم يكن يدينها، أو يستنكرها، كما يفعل آخرون ويعتبروها بِدعًا، أو طقوسًا وثنية حرَّمها الإسلام الحنيف، بينما كان آخرون ينظرون إليها كواجب ديني مقدس.

عاد الإمام ليعتلي السُّلم الخشبي المؤدي إلى سطح منزله، والتفت نحو الشمال قبل أن تطأ قدمه السطح الطيني فشاهد النساء، وقد تهافتن من كل صوب، يحملن المسحات، أو الصفائح المعدنية الممتلئة بالحنطة، ليسكبنها في القدور الكبيرة التي راحت تمتلئ رويدًا رويدًا.. كما ظهر تلاميذ المدرسة الابتدائية المختلطة من ذكور وإناث برفقة مدير المدرسة الأستاذ بدر، يرافقه المعلم الجديد الأستاذ الأنيق إلياس مراد، القادم من وادي النصارى.

– لماذا تأخرتم؟

صرخ الشيخ عبد الله بوجه الأستاذ بدر الذي شعر بالحرج الشديد من أعين التلاميذ وهم يرون أن شخصًا آخر في هذه الدنيا يمكنه الصراخ في وجه مدير المدرسة. كما أحسَّ بالخجل العميق من الأستاذ إلياس الذي رَمَقَه بنظرة فيها كثير من التساؤل عما سيفعله لاسترداد مكانته في أعين التلاميذ.

- يا شيخ عبد الله.

قال الأستاذ بدر..

- هل تعلم أني أخالف نظام التعليم بمجيئي مع التلاميذ إليكم؟

أتعرف ماذا يعني ذلك؟ أقسم بالله العظيم، لولا تشجيع الأستاذ إلياس، لما جئت بهم إليك، ولا أخذت برجائك، لكن الأستاذ إلياس الخلوق أصرَّ على تلبية طلبك، والامتثال لرغبتك المخالفة للقوانين، فجئنا بهم معا ليشاركوك الدعاء إلى رب العزة ليغدق علينا من خيره، أنت تعلم أن هذا الوقت مخصص لتعليم التلاميذ، وليس لصلاة الاستسقاء.. كان بإمكانكم القيام بها بعد صلاة العصر، فليس هناك من وقت محدد لإقامتها حسب معرفتي، وإن كنتِ أتجنبِ الخوض في مثل هذه المسائل.

- هل تريد أن تعلمني متى وكيف تُقام صلاة الاستسقاء يا أستاذ بدر!؟ وأنت الذي لم أرَه مرة واحدة يصلي في المسجد؟! بأي وجه ستلتقي بأبيك الشيخ محمد، صَدِيقي رحمة الله عليه! هل كان ليرضى بما تقوله؟ صحيح من قال إن الوردة تخلف شوكة.

- عفوك أيها الشيخ الجليل..

قال إلياس في محاولة منه لإنقاذ زميله..

- الأستاذ بدر يمازحك ليرى ردة فعلك، أليس كذلك يا أستاذ بدر؟

لكن الشيخ عبد الله، لم يسمح للأستاذ بدر بالإجابة وقال:

- يمازحني؟ هل جُنَّ جُنونك يا أستاذ؟ من يتجرأ على ممازحة الشيخ عبد الله! لا بد أن هذه علامة من علامات يوم الساعة، قال يمازحني.. هِهه عال والله.

حسمًا لهذا النقاش العقيم، أطلق الأستاذ بدر صفرة من صافرته المعدنية التي أخرجها من جيبه، فاصطف التلاميذ أمامه، بعد أن كانوا قد تبعثروا هنا وهناك، وقال مخاطبًا الشيخ عبد الله:

- ها هم تلاميذ المدرسة تحت إمرتك.. السلام عليكم.

ثم أخذ الأستاذ إلياس من تحت إبطه ليبتعد به عن الشيخ عبد الله.

وقف الشيخ عبد الله بقامته القصيرة أمام التلاميذ الذين حبسوا أنفاسهم في صدورهم خشية وخشوعًا، فقال الشيخ آمرًا:

- لتخرج الإناث من الصفوف في الحال..اذهبن إلى أمهاتكن الجالسات قرب المواقد.. هيا.

وانطلقت التلميذات مبتعدات، فرحات، بهذا الفرج الكبير، وهن لا يدركن سبب إبعادهن عن المشاركة في هذا الدعاء العظيم. ومن ثم تلا الشيخ عبد الله، بعضًا من آيات الذكر الحكيم، ثم طلب من التلاميذ أن يرفعوا أيديهم نحو السماء بتضرع وأن يرددوا كلمة "آمين" بعد كل دعاء.

امتلأت القدور بالقمح الذهبي، وفاجأت العجائز الصبايا بطلب الماء لملء القدور.. فانطلقن ضاحكات، مسرعات إلى بيوتهن، لحمل الجرار إلى النبع لجلب الماء منه.. أما من وجدن الجرار مليئة فأسرعن وصببن الماء في القدور، وعجّلن باللحاق بصويحباتهن إلى النبع لملء الجرار من جديد.

- أما الآن..

قال الشيخ عبد الله للتلاميذ..

فعليكم أن ترددوا خلفي ما تسمعونه، سندور حول المقبرة التي يسكنها العديد من أولياء الله الصالحين، سبع دورات متتاليات، بعدد السموات، ونحن نردد الدعاء،وأكفنا مرفوعة نحو الأعالي، لعل الله يراكم ويستجيب لدعائكم.. سيروا ورائي وردّدوا ما تسمعونه..

وسار بخطواته البطيئة، وصاح بصوته الأجش:

- قرعنا باب بارينا..

قلة من التلاميذ سمعوا كلمات الشيخ ذي الصوت المبحوح الأجش ورددوا خلفه النشيد، وهذا ما أغضبه، فطلب منهم التجمع حوله، ليستمعوا إلى كلماته، وكرر الدعاء مرة ثانية:

- قرعنا باب بارينا..

وعلا صوت التلاميذ، عاليا، شاقًا الفضاء، نحو الأعالي، فأكمل الشيخ قائلًا وهم سائرون، يردّدون خلفه:

قرعنا باب بارينا .. وقد جفت أراضينا

فجاءت مِنّة المولى.... بأن الله يسقينا

بأشياخٍ لنا ركعْ.... وأطفالٍ لنا رضعْ

أجب يا ربنا واسمعْ... دعاءَ المستغيثينَ

وصل التلاميذ، وهم يرددون الدعاء خلف الشيخ إلى جمهرة النساء، ولاحظ الشيخ عبد الله، أن النساء لم يضرمن النار بعد في المواقد..

فطلب من التلاميذ متابعة الإنشاد، والدوران حول المقبرة سبع دورات كاملات، وهدَّد من يتخلف منهم بعقاب شديد، ثم اتجه نحو النساء ليستوضح الأمر منهنَّ، فشرحت له زوجة المختار، أن الفتيات اللواتي ذهبن إلى النبع لجلب الماء لم يَعُدْنَ بعد، وكانت بذلك، قد ألقت بالذنب على الفتيات، دون قصد منها.

غادر الشبان المقبرة مسرعين إلى النبع لمشاهدة الفتيات وملاقاتهن والمزاح معهن.

في الدورة الثانية، من الدورات السبع حول المقبرة، ظهر للفتيان خلف التلة الولد الشقي وحيد الحايك، ظهر حاملًا بيديه لعبة "أم الغيث"، وهي أشبه ما تكون بفزاعة عصافير، على هيئة امرأة، تتدلى منها قطع قماشية مهترئة مختلفة الألوان، جَمَعَها محمود من مكبات الزبالة، وزين بها أم الغيث المصنوعة من العيدان، ولف رأسها بكتلة من القماش الأحمر، فبدت مثل لعبة جميلة، شد وثاقها إلى عصاة طويلة، ثم رفعها عاليًا واقترب من التلاميذ، الذين رحبوا به، وصفقوا له فرحًا. سرعان ما احتل وحيد مكان الشيخ عبد الله، وراح يردد دعاء الاستسقاء بصوته القوي، لكن كلمات الدعاء كانت قد اختلفت، في صيغتها وطريقة أدائها.. باتت أكثر قُربًا إلى روح الأطفال، إلى لغتهم، إلى مشاعرهم، إلى فهمهم، فدبت الحماسة في قلوب التلاميذ وهم يرددون الكلمات الشعبية، خلف وحيد، دون تضرع أو خشوع أو خشية من أحد:

أم الغيث يا ربة ... عبي جبابنا مية

جبابينا نشفانة ... يا ربي تصبح مليانة

أم الغيث غيثينا ... و شتي على زراعينا

زراعينا عطشانة ... يا ربي تصبح روبانة

واحدة إثر أخرى، عادت الفتيات الحاملات للجرار الممتلئة بماء النبع سعيدات فرحات، وسكبن الماء في القدور، فأضرمت العجائز من النساء النار في الأغصان اليابسة الرطبة فأطلقت الدخان الكثيف الذي أحاط بالمواقد، قبل أن تشبَّ النيران فيها، ويتبعثر الدخان في الفضاء الرحب.

في هذه اللحظة ظهرت ثلة التلاميذ، وهي تردد كلمات دعاء وحيد الحايك، بحماسة منقطعة النظير، وشاهد الشيخ عبد الله، عبر نظارته السميكة، الملتصقة بعينيه، "أم الغيث" وهي ترقص، وتتراقص مختالة، على العصاة،وتتطاير ضفائرها في الهواء، فاضطربت دقات قلبه، ارتعشت لحيته من الغضب الشديد، كما ارتعشت شفتاه، ولم تخرج الكلمات من فمه، إلا بصعوبة كبيرة قائلًا:

– هذا وثن، كفار، ما تحملونه يعدُّ وثنًا، أيها الكفار الزناديق.. سأحرقكم بنار جهنم، وبئس المصير، ثم نهض مُلوِّحًا بعكازه.

لكن في هذه اللحظة وقع ما لم يكن في الحسبان..

في غفلة من أعين النساء اللاتي غمرهن الفرح باشتعال النيران، ومتابعة غضب الشيخ عبد الله، تقدَّمت أمينة حاملة على رأسها جرة من الماء،وسكبتها في القدر الكبير، وهي سعيدة بمساهمتها في الاحتفال بإقامة هذا الطقس البديع، وكيف لا تشارك بدعاء الاستسقاء وهي ابنة المطر.

– نجست اللعينة "الماعون".

قالت أم إسماعيل زوجة الحاج يعقوب، بعد أن ضربت كفًّا بكفٍّ، تعبيرًا عن عجزها في إيجاد حل لتلك المصيبة التي وقعت بغتة ودون حساب.

جمد الشيخ عبد الله في مكانه غير قادر على الحركة. نعم، لقد شاهدها بأم عينه، وهي تسكب الماء في القدر الكبير.. لم يوقفها.. لم يصرخ في وجهها.. لم يزجرها.. لم يمنعها ..كان جل اهتمامه مُنصبًّا على وثن أم الغيث، الذي ظهر فجأة أمام عينيه، ضاربًا بكل معتقداته عرض الحائط.. أي شيطان يسكن جسد هذه المرأة اللعين؟! هي وحدها مَن صنعت أم الغيث لوحيد الحايك لتخدعنا، لتشتت انتباهنا، لتنجس طعامنا..ليحل بنا القحط و الجفاف، (المحل) لتمتنع السماء عن عطائها.. يا الله كيف أرضيك؟ وأنا غير قادر على تطبيق أحكامك وشرعك؟ كيف، لي أن أحكم برجم تلك الزانية الفاجرة للخلاص من شرها وفتنتها؟

اقترب الشيخ عبد الله بخطوات هادئة من القدر الكبير، وألقى نظرة فيه، ثم نظر إلى أمينة التي بادرته بسؤالها وابتسامة ساحرة في عينيها:

-- هل أذنبت بشيء يا سيدي؟

كان الجواب صارمًا، مفاجئًا، حاسمًا، إذ كان الشيخ قد شجَّ رأسها بضربة من عكازه، فتراجعت أمينة خطوتين إلى الخلف،لتتجنب الضربات المتتالية للشيخ قصير القامة، الذي استمدَّ قواه من السماء الصافية، فطاردها بخطواته الصغيرة، وانهال عليها ضربًا، وهي تردد متسائلة:

-- ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟

استعرت مشاعر النساء،وأحاسيسهن الغريزية، فاهلن عليها بالشتائم والسباب، وهن يقرّعنها بأبشع الألفاظ،ثم انقضضن عليها كلبوءاتٍ جسورات، ليمزقن ثيابها، وعلا صوت الشيخ عبد الله:

– ارجموها، ارجموها، ارجموا الشيطانة الآثمة.

فأمطرت النساء أمينة بالحجارة ولاحقنها ضربًا بالعصي، بل إن أم إسماعيل زوجة الحاج يعقوب سحبت غصنا ثخينا من الموقد لتنقض به على الآثمة الفاجرة أمينة، التي لم تكن تستوعب ما يجري وأي حكم إلهي صدر بحقها.

الموت يداهمك يا أمينة، اهربي قبل فوات الأوان، اهربي..

سمعت أمينة صوت الإمام يأتيها من بعيد، عاليًا، صاخبًا، متوسلا، منذرًا، يأمرها بالفرار، من بين براثن النسوة اللواتي تحولن إلى ذئبات مفترسات.

استدركت أمينة حالتها الخطرة، وعرفت أن النساء عازمات على تقديمها كقربان لرب العزة، تطهيرًا للقمح الذي نجسته بماء النبع حين سكبته من جرتها، فجمعت بعضًا من قواها، وولت هاربة، تطاردها الحجارة واللعنات، التي شقت طريقها نحو السماء، بدلًا من دعاء الاستسقاء.

– تالله لأرجمنّك رجم رسول الله للغامدية.

قال الشيخ عبد الله، وجلس على الأرض منهارًا، وقد خارت قواه.

***

غزل الحصادين

قبل ثلاث سنوات، التقت عيناها بأمواج عينيه البحريتين.

في شهر حزيران من كل عام، يتوافد الحصادون، من القرى الغربية الجبلية، نساء ورجالًا، من مختلف الأعمار، إلى سهول القرى الشرقية الممتدة على مدّ النظر، للعمل أجراء في جمع المحاصيل، من شعير وقمح وعدس وحمص. وفي التشرينين، (أكتوبر، نوفمبر) ينقلب المسار، فيذهب الفلاحون الشغيلة من السهول الشرقية إلى الجبال الساحلية الممتدة من إنطاكيا إلى فلسطين مرورًا بلبنان، للعمل أجراء في قطاف ثمار الزيتون.

كان الفاعل من الحصادين يتقاضى مائة وخمسين قرشًا مقابل يوم عمل واحد يمتدُّ من الفجر وحتى غروب الشمس، وهذا يعني ما قيمته نصف جرام ذهب و"حبة مسك"، لأن سعر جرام الذهب في تلك الأيام، لم يتجاوز الثلاث ليرات إلا ربعًا. أما إن اقتصر العمل، من الفجر إلى الظهيرة، فكانوا يتقاضون ليرة واحدة من الفضة الصافية، وهذا ما كان يحدث طوال شهر حزيران، في أيام حصاد الشعير، إذ كان من العسير، متابعة حصاد الشعير، بعد اشتداد حرارة الشمس، لأن سنابله، كانت

تنفصل عن سويقاتها لمجرد لمسها، من شدة جفافها ونضوجها، أما موسم حصاد القمح، فكان يبدأ فعليا في شهر تموز من كل عام، بعد الانتهاء من موسم حصاد الشعير. وللقمح مذاق آخر غير الشعير.

لهذه الأسباب،كان الأجراء من الفلاحين الفقراء المعدومين البؤساء يبعثون بأفراد أسرهم من نساء وفتيان وبنات في مُقتبَل صباهنَّ للعمل في الحصاد مع بداية شهر حزيران، أما الحصادون الأشداء الأقوياء، فلم يكونوا يظهرون إلا مع بداية شهر تموز، ولدموزي حكايات وأساطير، تمتدُّ عميقًا في الزمان والمكان، إلى عصر السومريين، الذين كانوا، أول من اكتشف القمح وزرعوه، ليتجنبوا الوقوع في المجاعة، كما حصل لهم قبل الطوفان الكبير، في بلاد ما بين النهرين. وهم أول قومٍ، فاض الغذاء عن حاجتهم، فالتفتوا إلى بناء المساكن والقصور والمدارس والمعابد المقدسة والمدن العامرة، وأسسوا بذلك الحياة الحضرية، عندما عرفوا الاستقرار الناتج أساسًا عن وفرة الغذاء.

"ملء السنابل انحنت بتواضع" نحو الشمس مثقلة بحملها الكبير.. كانت سنة خير، لم تعرفها الحقول خلال عقود عديدة – يقول المزارعون عندما يتذكرون تلك السنة الجيدة، ويضيفون مبالغين:

كان الزرع في الزوراء يغمر الخيّال، أي إن سنابل القمح، كانت بعلو فارس يمتطي جواده، أما سويقات السنابل فكانت أشبه بأغصان أشجار الصفصاف،وتحتاج لجنيها إلى مناجل ثقيلة وعريضة، تلك المناجل التي لا يملكها إلا الحصادون المهرة، الأشداء، من أصحاب الأجساد

"المعروقة"، أي إن أجسادهم، كانت مُكوَّنة من عظمٍ وعضلات وعروق وجلد، لا مكان للشحوم فيها؛ ولهذا كانت عروق دمائهم تبدو جليةً، نافرةً، تحيط بعضلاتهم المفصلة تفصيلًا.

في غسق يوم نديٍّ من أيام تموز، وصلت أمينة مع زميلاتها من الحاصدات إلى الحقل، على متن عربة تجرُّها الخيول، كانت مخصصة لنقل النساء لا غير، أما الشُّبان فكان عليهم السير على أقدامهم ليصلوا إلى الحقول البعيدة. ترجلت الحاصدات، ضاحكات من العربة وهن يتفنن باختراع الكلمات ذات الدلالات الجنسية،وتلك كانت تسليتهن المفضلة طوال اليوم؛ لأنها تساعدهن على تمرير الوقت دون أن يشعرن بالتعب، أو يتذمرن من شدة القيظ.

قبل أن تلامس قدما أمينة الثرى، أبصرت زرقة عينيه، وأمواجًا هائجة تدفقت منها، فحملتها على راحتيها إلى الأعالي، وهبطت بها على الأرض، فتعثرت قدماها، وسقطت منكبة على وجهها، فانفجرت زميلاتها في ضحكات خبيثة الدلالات.

كان جالسًا على نتوء صخري، ينفث الدخان من لفافة تبغ سميكة، وعلى كتفه يلمع نصل منجل ضخم، مزين بخرزتين زرقاوين عند مقبضه الخشبي. عندما نهضت،حدجها بنظرات حادة و جريئة مارا بثنايا جسدها من أخمص قدميها، حتى رأسها، تلك النظرات التي لم تعهدها من قبل من أيٍّ من الشبان، الذين كانوا يمازحونها طوال النهار بكلمات ذات معانٍ لا حصر لها.

- يلعن أبوك.

قالت أمينة في صوت خافت، وشعرت بالإثم، وربما بالخوف، لأنها شتمته في سرها دون أن يقترف ذنبًا، فهو لم يبرح مكانه، كل ما فعله، كان أن نظر إليها فحملتها أمواج عينه وحطّت بها.

- سامحني يا الله.

قالت أمينة في قلبها..

- ما ذنبه لأشتمه؟ لا بد أنه من المتعثرين، المغلولين، التعساء في حياتهم، وإلا لما قذفته الريح إلينا، ليشاركنا هذا الشقاء.

لم يسبق لأمينة أن رأت منجلًا مزينًا بخرزات زرق تحرسه من عيون الحساد. ترى هل زيّن منجله بالخرزات لحمايته من الإصابة من أصحاب العيون الحسودة، أم لحماية نفسه؟ تساءلت أمينة في سرها.

لكن ما علاقة الخرزات الزرق بما أصابني؟ أنا متأكدة - أضافت أمينة - أني شاهدت البحر وأمواجه المتلاطمة، كما وصفته لي أمي عشرات المرات، حين رمقني بنظرته الثاقبة الواثقة التي لا تعرف معنى للخوف، فأربكني، وكشف عن سريرتي.

أخذ الحصادون أماكنهم في الثلث الأيمن من الحقل الواسع، الرجال من الميسرة والنساء في الميمنة. بصق "طارود" (معلم) الحصادين في راحة كفّه اليسرى ومسحها براحته الأخرى قبل أن يمسك بقبضة المنجل ليقول بصوت عالٍ:

– يا الله.

وانطلقت نصال المناجل تحصد سويقات القمح، بوتيرة متناغمة، كأنها تعزف لحن الأرض، القمح، الخبز الدافئ، نبض الحياة.كانت أكف الحصادين "الشمالية" تتلقف ما تحصده زنودهم اليمنى في "شمائل" متناسقة، يرمونها خلفهم، ليقوم " المغمرجي" بجدلها في ضفائر كجدائل النساء الشقراوات.

مع أن أمينة لم ترفع رأسها لحظة واحدة، عن سنابل القمح، لكنها كانت تشعر، بوخز نظراته، مثل إبر حَسَكِ السنابل الواخزة، التي ما انفكت تخدش يديها اللدنتين، فقررت أن تتباطأ وتتخلف بمقدار خطوة عن زميلاتها، لتتجنب سهام عينيه الجارحة.. أو هكذا كانت تشعر.

– ما بك أمينة؟ أأنت على ما يرام؟ لماذا تتأخرين عني؟

سألتها غريمتها خولة.

– لا، أنا بصحة جيدة، لا تجزعي. الغبار يضايقني.

– غبار؟ ما زلنا في أول النهار، والقمح رطب جدًّا من الندى، كأن السماء أمطرت في الليل.

– قلتُ لك ألا تقلقي، سأكون خلفك تمامًا، على بعد خطوة، فلا تجزعي.

– لا بأس، لكن إن أردت أن أساعدك فلا تخجلي.

وعادت خولة لتقص سويقات السنابل بمنجلها الحاد، تلاحقها أمينة المضطربة.

- يا ربي.

قالت أمينة في سرها..

- يا مَن تراني ولا أراك، أهذا ما يدعونه الحب من أول نظرة؟ لا..لا.. مستحيل.. لقدَ أخافني، فكيف أحبه! ثم إني ما زلتُ في السادسة عشرة من عمري، فكيف لي أن أعرف ما هو الحب! ربما كنت واهمة حين شعرت بالموج يتدفق من عينيه، لكن لماذا لا تفارق مخيلتي نظرتُه الحادة التي رمقني بها؟ لقد اخترقني بسهامه، عرف أني ضعفت أمام نظراته، فحملني بأمواجه، وأسقطني، فتعثرت قدماي كطفلة. هل سخر مني في سرِّه عندما شاهدني أنكبُّ على وجهي؟ أم أن أردافي قد كبرت وباتت ثقيلة، تبحث في صمت عم من يفترشها؟ هل فقدت رشاقتي للقفز من الغربة كالصبيان كما كنتُ أفعل عادة؟

لا..لا.. هذه من بنات أفكاري وهواجسي.. فأنا ما زلتُ وسأبقى رشيقة القد، ولن أسمح لعُجيزتي، التي يطاردني شبان القرية من أجل تأملها بصبابة، أن تعوقني عن الحركة. لن أدع جسدي يترهل كجسد أمي. أمي التي لم يعد أحد يعيرها اهتمامًا منذ أن فقدت قدرتها على العطاء، حتى والدي. سأبقى صبية، فتية، قوية الشكيمة، متناسقة القد، كشجر الميس، الذي يزداد قوة وصلابة وعنفوانًا مع مرور الأيام. شجر

الميس كثير العقد، دائم الخضرة، مرن الأغصان، ثابت في وجه الرياح ولا يقبل الانحناء لأحد، وهذا سِرُّ افتنان الرجال والطيور بها.

لرجال يفتنون بتضاريس المرأة، بجبالها ووهادها، بهضابها ووديانها كما تقول أمي. أنا أكره شجر الحور.. هش.. ضعيف.. يتعرى من أول هبة ريح، لن تأخذني عبارات الشبان المعسولة، وحركاتهم الساذجة المغرية.. هم لم يعودوا ينظرون إلى جمال عيني، بل إلى تكوُّر ثديي، إلى خصري النحيل، إلى كِفلي المشدود كفرسٍ أصيلة، كما سمعتهم وهم يتحدثون عني وأنا أحمل الجرة على رأسي من النبع إلى القرية..

أنا أعرفهم واحدًا واحدًا، أعرف الجبناء الأخسَّاء منهم، وأُميِّز الشجعان والكرماء من نظرة.

لم يسبق لي أن سمعت كلامًا معسولًا من شابٍّ تمنيت أن يلقي عليّ تحية الصباح ويقول لي: "صباح الخير يا أمينة".. أنا من كنتُ أبادرُ بإلقاء السلام على هذا النوع من الشبان، فيردون بحياء "صباح النور" ويمضون في طريقهم من دون أن تتعثر خطواتهم. واحد منهم أجابني ذات يوم" صباح النور أمينة"، وظننت أنه وقع في حبي، حلمت به ليالي طوالًا، لكنة لم يكررها مرة أخرى.. فكرهته. سأحرمكم من لمس تضاريس جسدي أو مسِّها أيها الخبثاء المحتالون، لن تنالوا مني.. أنا أمينة.. أنا ابنة المطر.. الودقُ الذي انهمر مدرارًا يوم شَجَّ الشيخ عبد الله رأسها بعكازه الغليظ.

***

الوَدْقُ

بُعيد منتصف الليل، رحل القمر، وتكاثفت السحب، وانهمر الودق مدرارًا، عاصفًا، شديدًا وقد أطبقت السماء على الأرض بغتة، دون سابق إنذار، أو تلميح. وصهلت الخيول في الإسطبلات، وتجمعت المواشي على بعضها بعضًا في الحظائر، خوفًا من رجيف الرعد ووميض البرق الذي كان يمحو عتمة الليل ويضيء الكون ويخطف الأبصار لحظاتٍ قصار ثم يضمحل خلف السحب السوداء الرابضة في قبة السماء. لم تمضِ سوى برهة قصيرة من الزمن حتى تدفقت المياه في مزاريب السطوح المصنعة من تنك الصفائح أو الفخار، كشلالات هادرة، واندفعت إلى الطرقات الصخرية، لتنحدر عبرها بصخب إلى ساحات القرية، ومن ثم نحو مجرى النهر لتشكل سيلًا جارفًا، مريعًا عرمًا.

استيقظ الناس من هجيعهم هلعين مذعورين، وراحوا يلملمون أشياءهم المتناثرة في أرض الديار، والتي يمكنها أن تفسد ويصيبها العفن وتتلف إذا ما طالها المطر. لم يكن أحد يتوقع أن يأتيهم المطر في ذلك اليوم، خاصة بعد انقلاب شعائر الاستسقاء إلى طقس أشبه بالرجم

الصحراوي. منهم من لعن أمينة، وتمنى لها الموت العاجل، ومنهم من تجرأ على التساؤل:

ماذا فعلت لتنجس الماء والقمح؟ كل ما فعلته، أنها سكبت ماء النبع من جرتها، لعلها أرادت أن تعلن توبتها إلى الله، من يدري؟

أما آخرون فقالوا:

وكيف لا تنجس الدست بكل ما فيه وهي عاهرة قذرة يعرفها الجميع، كما أنها لا تخفي صنيعها، وهذا دليل على فجورها التام، والرسول يقول: إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا، أما هي فتفعل العكس، بل تكاد تفاخر بارتكابها للمعاصي والفواحش، فهي إذًا نجسة وكل ما تلمسه يتنجس بها، ولم تخطئ أم إسماعيل زوجة الحاج يعقوب حين حذرت الناس من وقوع المصيبة. فأمينة حملت الماء بجرتها النجسة فتنجس الماء بجرتها التي تنجست بها، ولهذا السبب أمر الشيخ بغسل الدست سبع مرات لتطهيره! إن كانت جرتها نجسة وكل ما تلمسه أمينة يصبح نجسًا؟

رد أحدهم معترضًا ساخرًا:

– فهذا يعني أن كل مياه النبع نجسة أيضًا، ونحن جميعًا، نشرب منها، بل إن أمينة تنقل الماء لبعض العائلات بجرتها صباح مساء، ومنهم الأستاذ بدر.

– لا، مياه النبع جارية.

قال آخر..

– والمياه الجارية غير نجسة. أمّا الأستاذ بدر فهو كافر مثلها. هل سبق لأحد منكم أن شاهده يصلي في المسجد؟ قطعًا لا، ولا نعلم إن كان يصوم شهر رمضان، فهو يدعي بذلك أمامنا، لكن من يدري ماذا يفعل عندما يعود إلى مترله؟ لقد شممت رائحة البيض المقلي تفوح من بيته عند الظهيرة في يوم من أيام رمضان.

– دعونا من هذا الحوار العقيم.

قال آخر..

– هذا النقاش لن يفضي بنا إلى الخير، بل إلى الشر الذي سيحلُّ علينا جميعًا. من الأفضل أن نفكر بطريقة ندرأ بها عن أنفسنا خطر المجاعة الذي سيحل بنا في العام القادم، إن لم تسعفنا السماء برحمتها.

– اللهم، سحبا، غدقا، ودقا، نافعا غير ضار.

قال الإمام الأزهري بعد أن فتح باب غرفته، المطلة على أرض الديار، وشاهد الأمطار تهطل من السماء بغزارة لا مثيل لها. ثم تلا:

"ألم تر أن الله يزجي سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار". (النور)

ثم خطا نحو أرض الديار ليلملم كثيرًا من الأشياء المبعثرة هنا وهناك، ليدخلها إلى العنابر، أو المستودعات، لصونها من الأمطار، التي بقيت طوال شهرين، حبيسة السماء.

رفع الخرج بما فيه من أشياء عديدة، وعلّقه على وتد غُرز في الجدار خصيصى له، تحت الشرفة، وحمل سكة المحراث الحديدية إلى العنبر كيلا يصيبها الصدأ، كما نقل الفؤوس و المجارف إلى المستودع الصغير الخاص بالأدوات الزراعية الصغيرة التي يحتاجها يوميًّا.

كان الإمام ينظر بين الفينة والأخرى إلى السماء الحالكة، فتلمع عيناه من سنا البرق الخاطف، فيسرع إلى رفع ما تبقى من أشياء عديدة، متناثرة، هنا وهناك، وهو يلوم نفسه على هذا الإهمال اللامعتاد في حياته.

تبلل الإمام بماء السماء الذي بات يسيل من أطرافه، وشعر بانقباض في صدره لم يعهده من قبل، وضاقت أنفاسه، أحسَّ أن هناك شيئًا ما خفيًّا، غامضًا منذرًا، يعتصر قلبه، فقال:

– رحمتك يا الله!

ثم تذكر قوله تعالى: "ولقد أتوا على القرية التي أُمطرت مطر السَوءِ أفلم يكونوا يروها بل كانوا لا يرجون نشورا".(الفرقان).

إلهي أبعد عنا مطر السوء، اللهم اغفر لي إن كنت قد أخطأت في إنقاذ أمينة، اللهم ثبت إيماني، فأنا مجرد بشر، والبشر خطاؤون. أنا لا علم لي إلا ما علمتني إياه، فإن كانت أمينة مذنبة، وتستحق العقاب والرجم وأنت العليم، فأمطرها بحجارتك، اللهم أبعد غضبك عنا، ولا تأخذ عبادك الصالحين الطيبين بجريرتها، اللهم ارحمنا، واعفُ عنا، وآتنا من رحمتك يا أرحم الرحمين.

فجأة توقف الإمام عن الحركة، وأضاء برق السماء يده اليمنى وهي ترسم في الهواء سؤالًا واسعًا وكبيرًا! عَصَرَ الإمام ذاكرته.. لكن .. لكن..– وتردد الإمام في إطلاق سؤاله – لماذا لم يذكر الله المطر، إلا وألحقه بفعل عقابي؟ إلهي عفوك ورضاك.. هل كلمة المطر سيئة أم حسنة؟ أنا حافظ عن غيب لسور و آيات كتاب الله منذ أن وعيت على هذه الدنيا! لا أذكر أن كلمة المطر وردت في الكتاب إلا..

عفوك ورضاك يا ألله.. "وأمطرنا عليهم حجارة".. "ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر"، "وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل" وأخشى أن يكون هذا اليوم كما قال عنه رب العزة: "يومًا عبوسًا قمطريرًا"، أما كلمة الودق، والغيث فجاءت في أماكن ومواضع تدل على حلمك ورحمتك يا ألله وليس غضبك.. ثم تلا: "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد". (الشورى). اللهم اجعل من هذا المطر غيثًا للفقراء واليتامى والأرامل والمساكين وأصحاب السبيل. وسمع الإمام قرعًا على الباب.

توقف لحظة وحبس أنفاسه ليتأكد مما سمع..

تكرر الطرق..

شعر بخوف شديد..تُرى من يقف خلف بابه في هذه الساعة؟ من يخرج من بيته؟ من.؟ إني أسألك عفوك ورضاك يا ألله؟ قال الإمام في سِرِّه ثم علا صوته:

- مَن الطارق؟

فجاءه الصوت خافتا مرتعشا:

- أنا أبو بشير.

***

عاد الناس إلى مخادعهم، والتحفوا بأغطية صوفية سميكة اشتاقوا إليها، وإلى دفئها. وحده عبد الغفار بقي مستندًا إلى الجدار الطيني، قابعًا على الدرج الحجري متشبثًا به لا يقبل مفارقته، وقد صالب مرفقيه أمام صدره يرتعد من الخوف..أو من البرد.

- هو بهذه الحالة، منذ ذلك اليوم الذي ذهب معك فيه إلى الملطية ليساعدك في بذار القمح.

قال أبو بشير واصفًا حالة شقيقه، متجنبًا ذكر ما حدث لأخيه في تلك الليلة، فشعر الإمام أن أبا بشير يلمح في باطن كلماته إلى إساءة ما حصلت من قبله، وأوقعت ضررًا بعبد الغفار، وبالتالي يحمله مسؤولية ما يحدث لشقيقه المبروك فقال الإمام مشدوهًا:

- تركته سعيدًا، حبورًا.. لا أعرف ماذا حلّ به. شيء ما أصابه.

قال أبو بشير بشيء من المكر.

- رباه.. ما الذي أصابه؟

سأل الإمام واقترب من عبد الغفار الجالس على درجات السلم، مستندًا إلى جدار طيني راح المطر يحفر فيه عميقًا، وقد عصب رأسه بقطع من القماش الأبيض ليخفي جراحه الثخينة، التي لم تندمل بعد، بل ربما ازدادت تفسخًا، وهي تنزّ القيح، الذي لوّث القماش الأبيض، وأصبح بلون الجدران الطينية.

- أهو حي أم ميت؟

وجّه الإمام سؤاله لأبي بشير الذي هزَّ كتفيه معبرًا عن عدم معرفته.

منذ تلك المواجهة العنيفة التي دارت، بينه وبين الزوج الغيور، في تلك الليلة الرهيبة، لم يدخل عبد الغفار غرفته ليلًا. كان يمضي ليله جالسًا على الدرج منتظرًا بزوغ الشمس حتى تخرج الكائنات اللامرئية من قصره البديع فيلج إليه، متعبًا، منهك القوى، فينام طوال النهار حتى اقتراب ساعة الغروب، ليخرج من جديد. لكن الأمر اختلف جذريًّا في هذه الليلة الماطرة.

مع انقضاء تلك الليلة الرهيبة، وانبلاج الفجر، شاهد عبد الغفار وجهه المثلوم، المدمى، في المرآة التي ابتاعها ذات يوم لحمامته البيضاء من دون علمها.. فهاله ما رأى.. كانت الجراح عميقة، مثخنة، تقطر دمًا، يسيل على ثيابه، ليمتزج بغبار الحقول العالقة عليه، منذ سنوات وسنوات، منذ ذلك اليوم الذي رحلت فيه بديعة دون أي أمل في عودتها.

كانت بديعة، قد دعت صديقاتها، لتمضية "عصرونية" أحد الأيام الحارة، من شهر آب، في كرم عنب والدها، المطل على القرية بجفناته لكبيرة،التي تدلت منها عناقيد العنب، حمراء، بيضاء، صفراء. زاهية الألوان، كثريات الذهب، وكانت نسائم الهواء العليل، تداعب شعرها الفحمي، الذي تطاير مع النسائم، ليجفف عرق النهار، على جسدها البض المتناسق المشدود، كجفنة عنب فَرعَنتْ من قوتها الطافحة. من بين صديقاتها المدعوات، كانت هدى، التي احتفلت بديعة بزواجها، منذ أكثر من عام ونصف، وها هي تلبي دعوتها، وتأتي مع فلذة كبدها عبد المطلب، تحمله بحنان ورقة، وقد قمطته بأجمل الأغطية المزينة بأزهار، حمراء وزرقاء، صنعتها من خيوط الكنويشا، بمسلة اشترتها خصيصى ذات يوم من سوق النساء في المدينة.

فيما كانت الفتيات يلعبن، ويتراشقن بحبات العنب الزاهية الألوان، جلست هدى ترضع طفلها الجميل الطلة عبد المطلب، الذي أخذه النوم وشفتاه ما زالتا عالقتين بثديها المعطاء. كانت كلما حاولت هدى إخراج حلمتها من فم الرضيع لتلحق بأترابها، كان عبد المطلب يستيقظ من سباته ويتمسك بها، وحرك شفتيه بشغف ليمتص مزيدًا من الحليب الدافئ، ثم يعود ليغفو من جديد، والهواء الطلق يلامس شعيرات رأسه.

أخيرًا، استطاعت هدى أن تتملص من وليدها المتشبث بها، فأراحته على كومة من الأعشاب، في ظل جفنة كبيرة، وركضت نحو بديعة قائلة:

-- الحمد لله نام الصبي، فصلوا على النبي.

عندئذ، تحلقت الفتيات حول هدى، وأجلسنها على الأرض، وطلبن منها بإلحاح شديد، أن تحدثهن عن ليلتها الأولى مع زوجها.

– ألا تخجلن من أنفسكن يا بنات.

قالت هدى.

لكن الفتيات، ما بين المزح والجد، وعدن هدى بعدم البوح بأسرار ليلتها الأولى، فاستسلمت هدى لزعيقهن، كما استسلمت لزوجها في تلك الليلة، بعد جدل عقيم.

جلست الفتيات وقد أطبقن شفاههن ينتظرن سحر الرواية.

شعرت هدى أنها سترتكب إثمًا عظيمًا باعترافها، فقررت أن تطلق الحرية لخيالها الخصب، وتحدثهن عن أساطير الزواج، التي طالما سمعت بها من أفواه النساء العجائز.

عرفت بديعة أن صديقتها تروي حكاية مخالفة بكل تفاصيلها، من ألفها ليائها، لما سبق أن حدثتها به على انفراد ذات يوم، ولم ترغب مُطلقًا أن تحرجها أمام صديقاتها المتسمرات والمتحلقات حولها، أو أن تتهمها بالكذب، فأطلقت غمزة صغيرة من رموش عينيها، لتقول لها أنها تتفهم سبب شططها في الرواية، ثم انسحبت متذرعة بقضاء حاجة، طالبة من هدى أن تتوقف عن سرد الرواية ريثما تعود، لكن هيهات أن تستطيع هدى إغلاق فمها، والبنات من حولها.

ذهبت بديعة إلى حيث ينام الطفل الوديع عبد المطلب، وارتعشت ساقاها.. فغرت فمها.. حين شاهدت أفعى صفراء بلون السُّم، مرقطة

بنقاط بنية ناعمة، تعبر من فوق الطفل النائم وقد خفق لسانها الأحمر المتشعب مهتزًّا في حركات لجوجة متسارعة.. ربما كانت تبحث عن فوهة وكرها الليلي.. ربما.. لا أحد يعرف الحقيقة..خطت بديعة خطوتين واثقتين، لا تعرفان التردد أو الخوف، وأمسكت بذيل الأفعى الصفراء، ورفعتها بقوة في الهواء، بعيدًا عن الطفل النائم، فانقضت الأفعى في حركة مجنونة، وقد داهمها خطر الموت، لتنشب أنيابها السامة، في عنق بديعة التي صرخت عاليًا، ثم لاحت بالأفعى في الهواء، لتدقها بالأرض، مرة تلو أخرى، حتى فقدت الأفعى قواها، وأصبحت كخرقة بالية، غير قادرة على الحراك، داست بديعة رأسها و سحقته بعقبها، ثم سقطت وهي ترتعش على الأرض، قرب كومة القش حيث ينام عبد المطلب، وأخذت تلهث بتسارع وقد ضاقت أنفاسها وجحظت عيناها، ثم فغرت فمها لتستنشق آخر نسمة عليلة من الهواء المنعش الرطب وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهها حين شاهدت صديقتها هدى ترفع الطفل عبد المطلب عن الأرض سالمًا مُعافًى و...!

في ذاك اليوم لم يسمع عبد الغفار بوفاة بديعة. عاد من عمله المعتاد في الحقول البعيدة، واستسلم للنوم سريعًا. في ضحى اليوم الثاني، سمع صوت المؤذن عثمان يعلن عن وفاتها، ويدعو الناس إلى صلاة الجنازة. هُرع عبد الغفار إلى المسجد.. لكن ما حدث كان قد حدث. ومنذ تلك الساعة، لم يعد عبد الغفار للصلاة في المسجد.. لم يشارك في صلاة جنازتها.. لم يساهم بحمل نعشها إلى المقبرة، وكيف له أن يحمل حمامته البيضاء إلى مثواها الأخير، دون أن يعرض أو يستعرض، ما جهزه لها

طوال سنوات عديدة؟ من عرق جبينه، بحبه المتفاني، بوله بخيالها الذي كان يطوف الغرفة الأنيقة بنوافذها الزرق.. كيف له أن يودع طيفًا رآه مرة واحدة في أول أيام عيد فطر سعيد وبعيد؟!

– تأخرتَ عليَّ كثيرًا.

قال عبد الغفار..

– بعد أن فتح عينيه ورأى الإمام يقف أمامه متسمرًا.

– لم أعلم، لم يخبرني أحد، بأنك مريض يا عبد الغفار، سامحني إن ناديتي في سرك ولم أسمعك. فأنا لا علم لي بالغيب..هيا .. هيا انهض وادخل غرفتك، كفاك جنونًا.

– لا يا عبد الواحد، لن أدخل، فقواي منهارة، وجراحي عميقة، ولا أستطيع مواجهته..لكني أعدك أني سأجعله هباءً منثورًا، حالما أستعيد قوتي.. عُدْ إلى بيتك ولا تقلق بشأني.

– من يريد بك الأذى يا عبد الغفار؟ عمَّن تتحدث؟

ضحك عبد الغفار، وقال:

– حتى أنت يا عبد الواحد!؟ إن كنت أنت العالم تجهل من أواجه فمن يعلم غيرك من البشر الفانين. البشر فانون لأنهم من تراب وإلى تراب يعودون يا عبد الواحد ولا قيمة لهم. الخلود وحده من يعطي القيمة للكون. أنتم مجرد كائنات ذائبة كالملح، لا أثر لها. القوة في الخلود وحده، ولا شيء سواه. من يقهر الموتَ يستحق الحياة. ولا معنى للحياة ما لم تكن أزلية، أبدية، سرمدية، ليس لها بداية أو نهاية.

تبادل الإمام وأبو بشير نظرات متسائلة، تبحث عن أجوبة هي من علمِ الله وحده. فقال الإمام وقد ساءه ما سمع من عبد الغفار:

– والآن دعنا من ترهاتك وأفكارك الخبيثة.. هيا بنا انهض ولا تضطرني لحملك.

– غريب أمرك يا عبد الواحد.. ظننت أنك الوحيد الذي يستطيع فهمي ومساعدتي، وهأنت تثبت لي أنك مجرد كائن بشري لا حول له ولا قوة.. أحمق، أخرق، كغيرك من البشر. أنتم جميعًا، بُله، بُهم، مغفلون، لا تعرفون معنى للحياة سوى المأكل والمشرب؛ ولهذا فأنتم فانون، كل من يأكل ويشرب ..فانٍ.

وقف الإمام مشدوهًا، حائرًا من كلمات عبد الغفار الجارحة، فالتفت نحو شقيقه وسأله: هل هو في الغرفة؟ فحرَّك أبو بشير كتفيه معبرًا عن عدم معرفته بمن هو داخل الغرفة متنصلًا من البوح بأي شيء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الإمام وصعد بقية الدرجات نحو الغرفة المسكونة.

– لا تدخلها، سيقتلك.. إياك أن تخطو خطوة واحدة داخل الغرفة يا عبد الواحد.

صاح عبد الغفار:

– أنت لا تضاهيه بقواك..سيقذفك كخرقة بالية،سيحطم أضلاعك، وربما يكبلك بأغلال لا تراها عينك، فتتكور على نفسك وتمضي ليلتك في أنين حتى الفجر. إياك أن تدخل ما لم تكن واثقًا بقدراتك الخفية.

ارتعد الإمام..وقف حائرًا.. صاغرًا، نظر حوله لحظةً كأنه يبحث عن عصا يُقاتل بها.. لم يجد شيئًا..أرعدت السماء.. ثم أضاء البرق معالم عبد الغفار وعينيه الخائفتين.. وفي هذه اللحظة دفع الإمام الباب واقتحم الغرفة..

غاب عبد الغفار عن وعيه.

- أنا لا أرى شيئًا.. الغرفة دافئة.

قال الإمام، وصاح بأبي بشير:

- ساعده على الصعود.

- لقد غاب عن وعيه، تعالَ واحمله أنت، فأنا لا أستطيع الدخول إلى الغرفة مثلك. لقد حذرني من الدخول إليها.

خرج الإمام من الغرفة. اقترب من عبد الغفار..وحمله على كتفه.. صَعَدَ به الدرج. توقف لحظة أمام الباب فأبرقت السماء بوميضها فعاد ليترل الدرج حاملًا عبد الغفار.

- سأحمله إلى بيتي، لأنه بحاجة للرعاية.

قال الإمام وتابع خطواته الواثقة خارجًا من المترل.

لم تكن المسافة بعيدة بين المترلين، لكن أنفاس الإمام تقطعت من التعب والإرهاق، وكان البخار يخرج من فمه في أثناء الزفير، فدعا الله أن يمده بالقوة، ويساعده على الوصول بهذا الحمل الثقيل إلى مترله.

كانت الأزقة قد تحولت إلى أنهار متدفقة، وكأن الله أعلن عن طوفان جديد.

لم يتبقَّ سوى بضع خطوات ليصل الإمام إلى منزله حين سقط عبد الغفار عن كتفه. كسيخ ناري سرت قُشعريرة في جسد الإمام، حين شاهد شبحًا يقف أمام باب داره في انتظاره.

– مَن أنت؟ سأل الإمام، لكن صوته لم يخرج من فمه، وأتاه الردُّ:

– أنا أمينة.

***

السيل العرم

غسلت أمينة جرحها النازف بمياه النهر الباردة، ثم شقت بعصا صغيرة لنفسها دربًا، في الغابة الشوكية بين أحراش توت العليق، حيث وجدت فيها ملاذًا آمنا، بعيدًا عن غضب نساء القرية وحجارتهن التي أصابتها في مواضع مختلفة من جسدها.

لم تحتمِ أمينة بأبيها، ولم تلجأ إلى حضن أمها، ولم تستعن بإخوتها الشبان الثلاثة، الذين اعتادوا "فصولها الناقصة"، لأنهم كانوا يتمنون الموت لها، ليتخلصوا من هذا العار، الذي يُجلّلهم أينما اتجهوا.

مطأطئي الرؤوس، خانعين، أذلاء، كانوا يعبرون أزقة القرية عندما يتوجهون إلى عملهم في الحقول. لم يكونوا يتبادلون التحيات مع أحد، كما يفعل أهل القرية عادة، كانوا شبه منبوذين، وقد نبذوا أنفسهم بأنفسهم. لا يغسل العار إلا الدم المراق..تلك هي قناعتهم ومعتقدهم، بل معتقد كل من يعرفونه من البشر.. وحدها أم أمينة، كانت تقف لهم بالمرصاد، تحرس ابنتها من غلوهم، وتمنعهم من غسل العار. لقد أنقذت ابنتها أكثر من مرة، بعد أن اجتمع الإخوة على سفك دمها، فتصدت لهم، وقفت حاجزًا منيعًا في وجههم، وهي تصرخ:

– اقتلوني أولًا، قبل أن تقتلوها.

لم تذهب أمينة إلى البيت في هذا اليوم، خافت من صدور حكم شرعي برجمها أمام الناس في ساحة القرية.. سيجرُّونها من شعرها – هكذا كانت أمينة تتخيل ما سيحدث لها – سيمزقون ثيابها، ثم سيتلو الشيخ عبد الله حكمه الإلهي، لتنهال الحجارة عليها. هل ستقدر على الفرار منهم كما فعلت اليوم؟ لن تقدر.. سيحيطون بها من كل صوب.. سيعلو صراخها.. وكلما ازداد صراخها ستزداد كمية الحجارة المُنصبَّة عليها.. ستزداد قسوتهم، بحجة الانتهاء من تنفيذ الحكم لتخليصها من العذاب الفظيع.

من سيقف في وجه الشيخ عبد الله إذا ما أصدر حكمًا برجمها؟ من سيمنعه من تنفيذ حكم الله؟ من يتجرأ على فتح فمه؟ ستضطر أمها إلى تسليمها لهم.. وسيفرح إخوتها بذلك، بل ربما سيشاركون الناس فعلتهم ليغسلوا العار الذي سببته لهم.. لا، لن أدعهم يتلذذون بقتلي، سأقتل نفسي بنفسي.

قالت أمينة:

– سأشتري شفرة حلاقة وأخبئُها في طرف منديلي.. سأحتفظ بها أينما توجهت.. وعند الحاجة سأقطع شراييني.. لكني، لا أريد الانتحار.. أنا أحبُّ الحياة وأكره الموت.

صنعت أمينة لنفسها كوخًا صغيرًا، ثم أغلقت فوهته بعيدان العليق الشائكة، واطمأنت إلى أن أيًا من الحيوانات المفترسة لن تطالها في صومعتها تلك، ولا خوف عليها من الأفاعي، فهن في سبات شتوي عميق.. هنا سيكون مأوايَ.. لن أكشف سرَّه لأحد.. سأعيشُ كما تعيش حيوانات البرية وطيورها.. سأشرب الماء من النهر، سأصطاد السمك، سآكل توت العليق.. ما الذي ينقصني؟ لا شيء – كانت أمينة تحدث نفسها – أرض الله واسعة. لكن لماذا لا أنطلق لأجوب الدنيا بحثًا عنه؟ لقد وعدني أن يعود ولم يَعُدْ. هل حنثَ بوعده؟ هل خدعني ومَرَّ بجسدي كنسمة هواء منعشة في صيف حار ثم رماني بعد أن امتص رحيقي؟ لكن إن رحلتُ وراء طيف، كيف لي أن أعيش بعيدًا عن ديرفول؟ لا سأختنق شوقًا إليها.. أنا لا أستطيع العيش في مكان آخر.. ثم كيف لي أن أذهب للبحث عنه؟ إن عاد فجأة ولم يجدني فماذا يمكنه أن يفعل؟ سيخبرونه باختفائي وسينتهي الأمر.. سأبقى أنتظره ما حييتُ. واستسلمت أمينة لهذيانها، كما استسلمت للنوم الذي تسرب إليها مع غياب الشمس.

استيقظت أمينة على وقع هدير السماء وقصف الرعود.

ابتلت الأرض، طاف النهر، اقتحمت المياه كوخها الصغير.. لم تكن قادرة على الوقوف على قامتها داخل الكوخ الذي غابت معالمه..

– يا الله لِمَ كل هذا الغضب عليّ؟ تساءلت وهي تغادر الكوخ بسرعة.. لتعبر النهر الذي تضاعفت مياهه في لحظات قصار.. سيجرفني السيل إلى بلاد بعيدة.

قالت أمينة، وجرت مسرعة نحو بيوت القرية تبحث عن ملاذ لها.

هامت على وجهها.. تتنقل بين زقاق وآخر، تسمع أصوات أصحاب البيوت وهم يجمعون أشياءهم. من يستطيع حمايتها من هذا الغضب الكوني؟ لعل السماء أرادت أن تغرقها، أن تمحو أثرها، أن تغسل العار عن إخوتها.. مَن يدري؟ مَن يستطيع تفسير كل ما يحدث؟ لا أحد، الله وحده من يقرر مصيرها.. وتذكرت صوت الإمام وهو ينادي بها أن تهرب من وجههم.. لا لم تَرَه يناديها.. بل سمعت صوته، وربما تخيلت ذلك.. فتوجهت إليه.

في الضحى توقفت الأمطار عن الهطول،وانزاحت السُّحب البركانية، وصعد الناس إلى أسطح منازلهم الطينية لتفقد حالتها، كانت المياه الجارفة قد خلعت المزاريب وقذفتها إلى الأزقة الصخرية، لم تكن المزاريب قادرة على استيعاب هذا الكم الهائل من مياه الأمطار التي انهمرت دفعة واحدة حين أطبقت السماء على الأرض، وها هي الآن قد توقفت، وتلاشت السحب البركانية عن قبة السماء، لكن السيل العرمرم لم يتوقف. شاهد الناس من على أسطح المنازل عشرات الحيوانات، من نعاج، وكلاب وحمير أهلكها السيل، كما شاهدوا مئات القطع المنزلية من فراش وحصر وسجاد وبسط غابت ألوانها الزاهية، وبعض الأبقار الحية تخور مستنجدة وتحاول الوقوف على أرجلها فيدفعها السيل بعيدًا، كما حلقت الطيور الجارحة من غربان، وصقور فوق مجرى السيل، تترصد ما سيقذفه من جيف على حافتيه.

أشعل الأستاذ بدر المدفأة اليبرودية، التي اتخذت اسمها من بلدة يبرود الواقعة في جبال القلمون، وكانت هي المدفاة الوحيدة في القرية التي تعمل على المازوت (الديزل) بعدما اجتمعت لديه ثلة من الرجال والشبان. كان الأستاذ بدر قد عمل في أماكن متعددة، بل يمكن القول، إنه جاب البلاد بطولها وعرضها، من قرى حوران في الجنوب إلى قرى الحسكة، ثم قرى حلب، ثم مدينة حلب، حيث استقر فيها ثلاث سنوات قبل أن ينتقل أخيرًا إلى قريته ومسقط رأسه مديرًا للمدرسة الابتدائية.

في حلب ابتاع بدر المدفأة اليبرودية، وهناك تعرف إلى مجموعة من طلاب ضباط الكلية الجوية، الذين حافظوا على صداقتهم معه، إذ كانوا يقومون بزيارته أيام الصيف لتمضية بعض الوقت في شهر العنب بعد أن تخرجوا في الكلية وأصبحوا ضباطًا طيارين يحسب لهم ألف حساب.

تميَّز الأستاذ بدر بأناقته وحبه الشديد للنظام والترتيب، كما حافَظَ -على غير العادة- على لباس العقال والكوفية فوق بذلة كحلية اللون، فكان يبدو كنصف فلاح ونصف موظف. كما تميز بذكائه الحاد. وكان بعضهم، يرى في ذكائه نوعًا من الخبث أو المكر، خاصة عندما كان يوقع غريمه في الحوار في جملة من المتناقضات التي كان يجيد حبكها. كان الشبان يصفونه بـ"المُلعّب" أو "المذبذب"، فتارة يبدو مدافعًا شرسًا عن القوميين السوريين وأفكارهم العقائدية، وهو يردد بعضًا من شعارات أنطون سعادة، وفي تارة أخرى، كان يبدو قوميًا عربيًا يدافع بشراسة عن مصالح وقضايا الأمة العربية وأهدافها القومية، لكنه في الوقت ذاته، لم

يكن يحب جمال عبد الناصر، الذي سطع نجمه زعيمًا للأمة العربية، كان يعتبره أفّاقًا ويصفه ب"الطبل" الفارغ، لأنه– كما كان يقول – لا يمتلك فكرًا، ولا يعرف كُنهَ ما يتلفظ به من شعارات، إنه يردد كلام ميشيل عفلق والبيطار، دون أن يدرك فحوى فلسفتهم، هو ببساطة شديدة سرق شعار البعث: وحدة، حرية، اشتراكية، وقام بتشويهه حين أعاد صياغته، بأن قدم كلمة الحرية على الوحدة ليصبح: حرية وحدة اشتراكية، هذا هو منجز عبد الناصر الوحيد على الصعيد الفكري..قال الأستاذ بدر بثقة تامة. وهذا ما كان يروق للأستاذ إلياس مراد في بعض منه، ويخالفه في شطره الثاني. رشف إلياس من كأس الشاي الساخن وقال بعد أن أنصت جيدًا لكلام بدر: كلام صحيح مئة بالمئة. البعثيون وحدهم من أحيوا التراث العربي، والقومية العربية، هم وحدهم من وقفوا فكريًا في وجه المستعمر العثمانلي الذي كان يحكمنا باسم الدين مدة أربعمائة سنة.. انظروا في أي حال نحن.

أنا مسيحي... كلكم يعرف ذلك، ما يجمعني بكم ليس الدين، بل لغة الضاد، لغة العروبة، نحن جميعنا عرب، وننتمي إلى ثقافة عربية ضاربة الجذور. ما الذي يجمعني بالعثمانلي؟ لا شيء. لا الدين يجمعني بهم ولا اللغة. أمتنا العربية واحدة.. من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي.. تجمعنا اللغة والهدف والمصير المشترك بغض النظر أكنا مسلمين أو مسيحيين، لكن مع ذلك فإن ما يفتقر إليه البعثيون هو القائد، الرمز، المجسد الحي للأفكار، فما الفرق الفظيع؟ وما أهمية تقديم هذه الكلمة، أو

تأخير تلك ما بقيت هدفًا نسعى إليه؟ لا شيء. الجماهير تندفع بحماستها وراء القائد الفذ، وهي مجمعة على زعامة ناصر.

– سمعتُ – قال رياض المتدين– أن والدك كان ضابطًا في الجيش الفرنسي أيام الاحتلال، فما الذي كان يجمعه مع الفرنسيين؟ لا بد أنه يتقاضى معاشًا تقاعديًّا عاليًا.. أليس كذلك؟

– لا تشخصنوا المسائل.

قال الأستاذ بدر في محاولة لإنقاذ الأستاذ إلياس.

– أنا لا أقصد الشخصنة.

رد رياض..

– لكن لحمه المكنوز يعود لفضل الفرنسيين، فكيف له أن يتكلم عن رابط العروبة، وهل أصبح الفرنسيون عربًا، والأتراك المسلمون مثلنا عجمًا.

– أنا اتحدث عن قناعتي، وقد أختلف مع والدي.

قال إلياس:

– لكن من أين جئت بهذه المعلومة؟ هل تستخبر عني من وراء ظهري.. اسألني ما تريد وسأجيبك، وليس هناك داعٍ لتسأل عني أحدًا.. صدقني لن أخفي عنك شيئًا.

– والد رياض.

قال بدر..

- كان من المجاهدين ضد الفرنسيين واستشهد، لهذا يجد فظاظة في مسألة والدك.

- بل خيانة.

قال رياض.

- أوههووووعاد.

قال بدر محتدًا..

- أنا أخمدها وأنت تشعلها.. لا يستقيم الحوار بهذه الطريقة.. ثم إننا، لم نجتمع هنا لمناقشة تاريخ أجدادنا.. لكل منا بالوعته..

- صحيح.

قال ياسر الأمي.

فأضاف بدر بحذر شديد:

- لكن هذا لا يعني أني أتفقُ مع رأي الأستاذ إلياس. السوريون ليسوا عربًا فقط، وإن كانت اللغة الرسمية هي اللغة العربية. لقد عملت كمعلم في مناطق عديدة، ففي الحسكة تكاد تنعدم اللغة العربية.. الناس يتحدثون بلغات متعددة، الكردية والسريانية والأرمنية والتركية والعربية.. تبدو الحسكة كبابل بعد أن بلبلها و بددها الله.

- لن تقنعهم يا أستاذ إلياس أنهم عرب.. إنهم يموتون غيظًا عندما تنعتهم بالعروبة.. العرب بالنسبة لهم هم "الشوايا" واللصوص الذين يسرقون ما تقع عليه أيديهم في المدينة ليختفوا في البادية.

- ما أعلمه.

قال إلياس..

- أن السريان والآشوريين والكلدانيين من أصول عربية، هم والعرب سواء، هذا ما يقوله المؤرخون.

- هم ساميون، كما العرب، وفقًا لهذا المصطلح الغريب، وليسوا عربًا، وإن كانوا كذلك كما تقول، فهل يقبل العرب أن تسميهم سريانًا؟

- أنا أستغرب منكم هذا النقاش أيها الأساتذة المتعلمون.

قال ياسر الأممي..

- فما الذي يجمعني وأنا العربي الفقير مع ذاك الثري العربي أو الكردي؟ هذا وذاك يستغلان جهدي ليزدادا ثراء. هل صدف أن تعاطف ثري عربي، أو أيًا كانت قوميته مع فقير لأنه من قوميته؟ لا..لم يحدث..الفقراء هم الفقراء، والأغنياء هم الأغنياء، بغض النظر عن قوميتهم أو دينهم. ألم يتعاطف الشيوعيون الفرنسيون مع مطالب شعبنا بالاستقلال يوم كانت فرنسا تحتل بلادنا؟ لقد فعلوا، ووقفوا ضد أثرياء

بلدهم، واتُّهموا بالخيانة العظمى.. العالم مقسوم بين عمال وفلاحين فقراء من جانب، ورأسماليين جشعين من جانب آخر.

أنا أتضامنُ مع الفقير التركي والعربي والكردي والفرنسي، لأن لغتنا واحدة، ومصالحنا واحدة..انظروا إلى شعوب الاتحاد السوفييتي العظيم.. انظروا إلى قوتهم.. أين كانت روسيا قبل الثورة الاشتراكية؟ وأين هي الآن؟. في كل جمعية تعاونية للفلاحين جرار زراعي وحصادة.. ولم يتوقف ياسر عن كلامه إلا عندما صفق الأستاذ بدر بيديه قائلًا:

– برافو عليك حافظ درسك على التمام.. لكنك لا تذكر أن روسيا تستورد القمح من أمريكا.. روسيا جائعة.. ويعيش شعبها في سجن كبير يُدعى الاتحاد السوفييتي،حاول أن تنبس بكلمة واحدة، لترى ماذا سيحل بك؟

– تلك كانت في أيام ستالين.

قال ياسر:

– أما الآن فالوضع مختلف.

– ما بني على باطل فهو باطل.

قال إلياس.

– أنا لم أقل إن ستالين كان مخطئًا، لا، ستالين لم يخطئ. كانت أمام ستالين مهمة القضاء على الأعداء الطبقيين للثورة الاشتراكية، وقد نفّذ

المهمة بنجاح. هذا هو دوره التاريخي. ثم أنجزَ التحرير الكبير لشعوب أوروبا. لقد دحرَ النازية عدوة البشرية جمعاء. الفضل لستالين فيما نحن فيه الآن، وإلا لاستعمرَنا الألمان..

- دعونا من هذا الكلام الذي دون طائل وحدثوني عن أمينة؟

سأل إلياس.

- لماذا أراد الشيخ عبد الله رجمها؟ ما الذي فعلته؟ يا رجل انتصب شعر رأسي عندما شاهدت البارحة كيف رجموها بالحجارة. من أمينة وأين هي الآن؟

ضحك الأستاذ بدر ملء شدقيه، وقال:

- ستأخذنا من تحت الدلف لتحت المزراب. دعك من أمينة ومن سيرتها، فهي لا تخصُّك وإن كانت من مناطقكم. لا تقترب منها.. لن تجد خيرًا..

***

الخنزير البري

تلوَّنت وجوه الحصادين بلون الشفق، بعدما انتهوا من يوم عمل شاقٍّ ومضنٍ، واتجهوا غربًا نحو الطريق الترابي الممتد صعودًا نحو القرية. اصطفت العربة تنتظر الحاصدات، المنهكات، لتقلهنَّ بسرعة إلى بيوتهن، حيث ينتظرهن العديد من الأعمال المنزلية، فهذه يترتب عليها حلب البقرة وإسقائها وتقديم العلف لها، وتلك عليها أن تجلب جرة ماء من النبع، وثالثة عليها أن تعجن الطحين وتوقد النار لخبز الصاج لينضج بسرعة لتقديم العشاء لأفراد العائلة، فواجبات المرأة لا تنتهي، حتى بعد أن يرقدن في فراشهن.

فجأة سمع الحصادون صوتًا شجيًّا يتصاعد بموال شجن جبلي، صافٍ، يبعث بتحياته إلى أحبائه حيث مرقد الشمس.

التفت الحاصدات إلى مصدر الصوت الشجي، فقالت خولة:

– والله وصوته حلو أيضًا! كيف يخرج صوته بهذه القوة بعد كل هذا التعب؟

استمع الحصادون لمواله.. فحيّوه شاكرين، وتابعوا سيرهم.

فجأة انقادت إليه أمينة، بعد أن تحاشت طوال اليوم التحدث إليه، أو النظر في عينيه، وسألته:

– مِن أين جئت؟

– من قرية الطالوعة، هل سمعت بها؟

– لا، لا، لم أسمع بها.

أجابت أمينة وقد بوغتت بجوابه وأضافت:

– أنا لم أتخطَّ حدود قريتنا ديرفول.. ديرفول روحي وحياتي.

– ديرفول حلوة.

أجابها ولم يكن يقصد القرية بحد ذاتها، بل كان يعنيها هي بالذات، فهكذا هو غزل الفلاحين بالإيماء. وأضاف:

– أينما تنظري،وحيثما تتجهي،ستجدين ساقية أو نبعًا يروي ظمأك.. ديرفول لا ترد عطشان.

لم تلحظ أمينة كيف انساقت بقدميها إليه! كيف تخلت عن صديقتها خولة، وسارت إلى جانبه لتتبادل معه أطراف الحديث! كيف نظرت في عينيه بتحدا! وفي رأسها عشرات الأسئلة الخفية والمبهمة عن قرية والديها.

اعتلت النسوة العربة، ونادين على أمينة أن تصعد معهن كما هي العادة، لكنها أعلنتها صراحة، ودون مواربة، أنها ستمضي إلى القرية برفقة الرجال الحصادين سيرًا على الأقدام. ضحكت الفتيات وهامسن بكلمات ساخرة عن جرأة أمينة اللامعتادة من قبل النسوة.

انطلقت العربة، ولوَّحت النسوة بأيديهن لأمينة يودعنها، وكأنها فارقت عالمهم، وانتقلت إلى عالم آخر، ولم يبخلن عليها بتعليقات ساخرة: لا تتأخري الليل غدار، انتبهي إلى نفسك ولا تحيدي عن الطريق، لا تخافي من الذئاب في الليل، بل من الرجال.. وابتعدت العربة وتناثر الحصادون على الطريق يلاحقون آخر ما تبقى من ضوء الشمس.

قبل أن تخلد أمينة إلى النوم بجانب أمها، روت لأمها تفاصيل لقائها بيوسف العبود، تحدثت عن روعة صوته، عن زرقة عينيه، عن قوة عضلاته، وعن حزنه، فقاطعتها أمها بعد أن تدثرت بغطاء رقيق يحميها من لسعة برد الفجر، إذ كن قد افترشن سطح المنزل للنوم، كما يفعل أهالي القرية طوال الصيف الحار، بحثًا عن نسمة هواء عليلة:

– ألم تسأليه من أين جاء؟ من أي قرية؟ من أي منطقة؟

– سألته طبعًا، وكيف لا أسأله. لكني لن أجيبك عن سؤالك.

– وهل في الأمر سِرٌّ! أم أنك تخفين شيئًا عني؟

– يوسف من ضيعتك يا أمي، من الطالوعة.

– يا شحاري.

قالت أم يوسف، ونهضت لتجلس مستندة على ذراعها، بعد أن غادر ملاك النوم عينيها.

هل قلت له إننا من الطالوعة؟ هل قلت ذلك؟

– لا تجزعي يا أماه، لم أخبره. عندما علمت أنه قادم من الطالوعة قررت مرافقته. تركت النسوة وسرت مع الحصادين، استمعتُ إليه طوال الطريق، حدثني عن قريتك، وعن ولديه اللذين تركهما عند جدهما وجاء للعمل معنا.

– هل جاء مع زوجته للعمل حتى يتركهما عند جدهما؟

– لا، قال إن زوجته فاطمة، توفيت منذ ثمانية أشهر، بمرض غريب عجيب، لم يجد الأطباء له علاجًا حتى في طرابلس.

– الله يجيرنا.

قالت أم أمينة.

إياك أن تحدثيه عنا، إياك أن تتفوهي بأي كلمة، وإلا سأقصُّ لسانك. نحن من ديرفول وانتهى الأمر. الله يلعن أبو الطالوعة وسيرتها، لا أذكر أني عشتُ فيها يوما هنيئا. كلها ذل بذل.

– غريب أمرك يا أماه، طوال الوقت كنت تحدثينني عن جمالها و..

– كذب، كل ما ذكرته لك من محض خيالي..هم قساة، فاسقون.. لصوص.. لا يميزون بين الحلال والحرام.

- أمي.

قالت أمينة..

- لا داعي لهذا الخوف، فأنا لستُ مغرمة به، كل ما حدث أني رافقته في الطريق، وقد تعمدت ذلك كيلا أثير الشكوك، لا تخافي على ابنتك أمينة.. أحببتُ أن أعرف منه أخبار قريتك لأحدثك عنها.

- وماذا قال؟

- قال إن قصر العباس أصبح خاليًا، أصحابه لا يأتون إليه إلا في الصيف لجمع المواسم. لقد رحلوا إلى المدينة لتوفر الكهرباء فيها. كم أحب أن أرى هذه الكهرباء اللعينة التي يتحدثون عنها.

- الله يبعدها عنا الكهرباء مثل الشيطان بالبيت. تصبحين على خير.

قالت أم أمينة، وعادت للنوم. لكن صور قريتها لم تكن لتفارق مخيلتها.

بدت نجوم السماء المتلألئة بصخب قريبة جدًّا من عيني أمينة، وكان نقيق الضفادع، وعرير جعال البرية، يتزاحمان في التعبير عن فرخهم بوفرة الخيرات، التي أنعم بها الله عليهم في هذا الصيف الحار، وكانت بعض من نسيمات الهواء الرطب قد تسربت خلسة عبر مسامات الجلد لتنعش الفؤاد الذي لم يهدأ باله بعد. وتذكرت يوسف حين قال لها:

والله لو أني كنت حرًّا، لما تركتك لحظة واحدة، لكن أمامي مهمة صعبة.. عليَّ تنشئة ولدين وتربيتهما.. تلك هي مشيئة الرب.. لقد حُرما

أمهما.. أنا لهما كل شيء.. صوت بكائهما لا يفارق أذني، عندما تركتهما في بيت جدهما.. لقد ظنّا أني راحل كما رحلت أمهما بلا عودة.. سأنحت الصخر من أجلهما.

– كم جميل ورائع أنت يا يوسف!

قالت أمينة..

– لن يخذلك الله، سيكون إلى جانبك.. إلى جانب ولديك فلا تخشَ شيئًا، وإن ضاقت بك الدنيا فتعالَ إلينا.. ديرفول لا ترد عطشان كما قلت، وأؤكد لك أنها لا ترد جائعًا أبدًا.. فكيف تردك أنت!؟

ثم توجهت بالحديث لأمها بعد أن شعرت أنها لم تنم هي الأخرى فسألتها:

– قولي لي الحقيقة يا أمي، لماذا غادرتم الطالوعة؟ أرجوك أريد سماع الحقيقة وحدها.

فلطمتها أمها على قفاها قائلة:

– إلى ماذا تلمحين أيتها الشقية؟ هل سبق لي وكذبت عليك؟ كيف تتجرئين على اتهام والدتك بالكذب؟

– أنا، أعوذ بالله! أريد فقط أن أعرف الحقيقة، ولأنك تخفينها عني فأخاف أن تروي لي قصة أخرى.

– يا ابنتي، لم يكن ديجول قد أصبح رئيسًا بعد. وكانوا يقولون إن الألمان احتلوا فرنسا العظمى.. كيف تكون عظمى ومحتلة؟ لا أعرف.

- لا تقولي إن ديجول كان السبب.

- نعم يا ابنتي.. طبعًا لم يقصد ذلك.. فهو لم يعرنا اهتمامًا.. لم يتحدث إلينا.. لكنه حَلَّ ضيفا على بيت العباس كما ذكرت لك.. أما أمك الشقية هذه، فكانت تقيم مع والدك البائس في ذاك القصر.. كنت أفضل وأشطر طباخة (طاهية).. لم يكن العباس يتناول طعامًا إلا من صنع يدي.. كانت جرار السمن والعسل مرصوفة في العنبر إلى جانب بعضها البعض. كان الخير كثيرًا، وفيرًا في بيت العباس. في كل يوم، كان والدك يذبح ديكًا وينتف ريشه لأعده للغداء، وكان العباس مِضيافًا، كريمًا، رجلًا بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ. كانوا يقصدونه من أماكن بعيدة لحل كثير من القضايا العالقة، فيده طائلة، وكلمته مسموعة، لا تقع على الأرض.

في اليوم الثالث من زيارة ديجول، أُنهك العباس من كثرة استقبال الناس وتوديعهم وإكرامهم، وشعر ديجول بذلك، فطلب منه ملازمة البيت وأعفاه من مشاركته في رحلة الصيد. سُرَّ العباس بذلك، ووجدها فرصة ليأخذ قسطًا من الراحة.

ذهب ديجول برفقة عددٍ من وجهاء المنطقة كما هي العادة، من بيت الخوري وسلوم وبشور وطعمة.. لا أعرف يا ابنتي كلما أتذكر ذلك اليوم يفيض الدمع من عيني.

جلس العباس في فيء شجرة الصنوبر الباسقة، وطلب مني أن أحضر له كأسًا من الزوفا..كان مغمومًا.. حزينًا، ولا أعرف السبب. ربما وقع خلاف بينه وبين وجهاء المنطقة، وفوجئ بموقف ديجول المناصر لهم، أقول ربما، لا أعرف الحقيقة. هكذا سمعت.

شرب الزوفا، وذهب إلى منامته في الطابق العلوي. وطلب منا عدم إيقاظه حتى عودة الضيف الكبير، كانوا يسمونه الجنرال.. لم يكن قد أصبح رئيسًا بعد. أنا لم أحبه قط. كان الجميع هائمًا مفتونًا به، والكل يسعى لمقابلته، للجلوس معه، ولو برهةً قصيرة. لا أعرف لماذا؟ كانت الزيارة سرية! لكن! كيف يمكنك أن تخفي الجنرال ديجول عن أعين الناس. أنا لا أدري كيف يعرفونه؟ ربما كانوا يميزونه من أنفه الكبير، كان أنفه أشبه بمنقار "الغرغر". (ديك الحبش).

نام العباس وعَلا صوت شخيره – وضحكت أم أمينة وتابعت سرد حكايتها –كان شخيره كخوار الثور حينما ينام. كنت أسمع شخيره من نافذة الطابق العلوي.

لم يغب الصيادون طويلًا، عادوا فجأة، وهم يهللون ويطلقون النار فرحًا بانتصارهم، لقد اصطادوا خنزيرًا بريًّا هائلًا، وجاؤوا به إلينا. لقد شاهدته بأم عيني.. كان هائلًا مفزعًا.. رأسه أكبر من حجم خروف وأنيابه.. يا الله كم هو مقرف! فزعنا جميعا من شكله، ومن ضخامته. لم يسبق لي أن رأيت خنزيرًا بريًّا قبل ذلك اليوم، مع أني كنت أسمع كثيرًا عن رحلات الصيد التي يقوم بها الموارنة الذين كانوا يأتون إلينا من

لبنان. في منطقتنا قطعان من الخنازير البرية، كانوا يأتون خصيصى إلينا من بيروت وزغرتا لاصطيادها.

- هذا ما سنفعله بهتلر.

قال ديجول وأشار إلى الخنزير البري الهامد..

- أريد أن آكل من لحمه على الغداء.

ساد صمت فظيع. شعر العباس بوخزة في قلبه، لكنه اضطر لمحاباة ابتسامة ديجول المنتصرة..أقول لك الصدق،منذ ذلك اليوم، تغير العباس. أصبح رجلًا آخر. فقد كرامته وعزته وأنَفَتَه، فقد الثقة بنفسه وبمن حوله، تحول إلى وحش ضارٍ لا يعرف الشفقة.

- يعني صار خنزيرًا؟

ربما.. لا أعرف. ربما استبدل بروحه روح الخنزير البري.

نحن النسوة، وضعنا أيدينا على رؤوسنا، و دعونا الله أن يبعد عنا تلك المصيبة. يا الله سينجس الخنزير كل القدور النحاسية، والصحون المذهبة،سينجس قصر العباس بأكمله، سينجسنا جميعًا، من سيغفر للعباس فعلته، إن قبل بطهي خنزير بري في منزله؟ من سيقبل يده بعد الآن؟ بل، من سيقبل بمصافحته إن امتثل لطلب ديجول؟

عشرات الأسئلة دارت في رأس العباس، وهو يعاين الخنزير البري المقتول بتسع رصاصات.. لكن العباس كان مُكرهًا.. كان مُجبرًا.. مقهورًا.. ذليلًا.

ما أبشع قهر الرجال يا أمينة! النساء يبكين فورًا، فتعذرهن، أما الرجال فتنفطر قلوبهم حين يخفون دموعهم.

جال العباس بنظره علينا، كان يبدو كأبله..لأول مرة رأيت العباس فاقدًا لهيبته وتوازنه، وكرامته، كانت نظراته تستنجد بنا أن نجد له حلًّا. صدقيني يا ابنتي، لو كنتُ مكانه لرميتُ ديجول والخنزير إلى المزبلة.

- أماه.. لماذا نُحرِّم نحن أكل لحم الخنزير؟ لماذا نكرهه إلى هذه الدرجة؟

- كيف لا نكرهه! وقد طعن الخِضر بأنيابه في خاصرته. الخنزير ملعون يا ابنتي، وعندما تريد الناس وصف شخص بأبشع الصفات تشبهه بالخنزير. الخنزير البري غدار وقاتل للروح.

- وماذا فعل العباس بعد ذلك؟ هل أذعن لطلب ديجول؟

- قلت لك، كان مكرهًا، جال بعينيه، ووقع نظره على أبيك المسكين، فأمره أن يسلخ جلد الخنزير ويقطعه، كما يفعل عادة مع الخرفان. امتقع لون أبيك. غاب الدم عن وجهه. شحب لونه وأصبح بلون الشمع، وسقط مغشيًّا عليه. اقترب منه العباس ورفسه في ظهره.

سحبت والدك من بين يدي العباس. ثم قطّعت بصلًا ووضعته على أنفه فعادت الروح إليه..

كرَّر العباس أمره. هزَّ والدُك رأسَه موافقًا. ثم استأذن أن يغسل وجهه ليسترد أنفاسه. سمح له العباس بذلك، وفرّ والدك إلى الأحراش. فَرَّ هاربًا كثعلب فزع. آنذاك كان والدك شابًّا وقويًّا.. صحيح أنه قصير القامة، لكنه كان قويًّا وسريعًا.. فَرَّ والدك وغضبُ العباس حَلَّ بنا.

بعد يومين اكتشفتُ مخبأه.. بحثتُ عنه طوال يومين متتاليين، وعثرت عليه. كان ديجول قد رحلَ. الله لا يرده. هذا ما حصل يا ابنتي.

– وهل أكل ديجول من خنزيره في ذلك اليوم؟

– نعم. أكل، ويقولون إن العباس شاركه الطعام، وتحوّل إلى خنزير. جاؤوا بجزار من برج بورغاس وقام بعمله على أكمل وجه، وفي الظهيرة فاحت رائحة الشواء. يا لطيف كم رائحته كريهة يا ابنتي!

– ألا تبالغين يا أماه؟

– ربما. لكن هذا ما كنا نحس به.

في صبيحة اليوم التالي أمرنا العباس بغسل القدور والصحون والملاعق سبع مرات بالرماد وأخرى بالصابون. لكن رائحة الخنزير ظلت تفوح من النحاس ولم تغادره قط.

أخذ العباس القدور وكل مستلزمات المطبخ وباعها في سوق المدينة. وظلت الرائحة تفوح من القصر كله، من الأرائك والفراش، من الأغطية والستائر الإسطنبولية، من كل شيء.

عندئذ بدأ العباس يتغير. لبس جزمة ديجول، وصار يقلده في خطاه، وفي طريقة إصداره للأوامر. لم يعد لطيفًا، لم يعد يمازحنا كما كان يفعل، وهناك من يقول، إنه أصيب بمرض الجنرال، ولا أعرف ماذا يعني ذلك.

أقسم العباس أنه سيقتل أباك حين يقبض عليه، لرفضه تنفيذ أوامره. رجوته. قبّلتُ يديه وقدميه. نعم قبلت جزمة ديجول اللعينة من أجل أبيك. لكن لم يكن بالإمكان تغيير ما قد وقع. أصبح العباس كثور هائج، يُحطّم كل ما يقع أمامه. كان طويل القامة وبصحة جيدة.. لم يكن صعلوكًا كديجول.. أصبح مرعبا وقاسي القلب، وفَقَدَ حب الناس.. كُنا نُحبه ونشفق عليه، لكن لم يكن بإمكاننا مواجهته، أو إشفائه من مرضه. بدأ يضربني، ويطلب مني أن أجد والدك ليدوس رأسه بجزمته. سبحان مغير الأحوال. صبرنا كثيرًا على عذابه، كانت غطرسته تزداد يومًا تلو الآخر. غادرته الرحمة، وكان علينا أن نغادره.

***

القناع

لم يتذمر عبد الغفار، لم يصرخ، حتى أنه لم يفتح عينيه، ربما حاول، لكن تورُّم جراح وجهه حال دونهما، كان أشبه بجثة تلفظ آخر أنفاسها، وقد فقدت الإحساس بالألم، وهذا يعني أنه فَقَدَ الحياة، أو أنه في حالة موت سريري كما يقولون.

الإحساس بالألم، وحده من يميزنا كأحياء – هذا ما قاله الشيخ جمال الدين لتلميذه ذات يوم – إن فقدناه، بتنا في عداد الأموات.

لقد اكتشف الإنسان هذا السر الكبير منذ أمد بعيد، منذ أن استخدم الفراعنة المخدر لإجراء العمليات الجراحية، وماذا يعني أن تخدر الإنسان لتقوم بجراحته، يعني أن تجعله والميت سواء، مثله مثل حجر أو ماء أو تراب.. لكن ما أدرانا إن كان للتراب إحساس أو مشاعر؟ من يدري؟ ما الفرق بين الماء والتراب والهواء أو الصخر أو الحديد؟ لقد شاهدتُ بعيني عشرات المرات، كيف تنبت الأعشاب من الصخر.

"يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي"، (يونس) فماذا يعني ذلك؟ ويقول: "وجعلنا من الماء كل شيء حي".(الأنبياء)، إذاً الماء ميت.

لكن الأحياء من نبات وحيوان، خُلقت من الماء أولًا، في طور من أطوارها، وحده الإنسان جاء مكتملًا، خَلَقَ من الماء بشرًا "وهو الذي خلق من الماء بشرًا، فجعله نسبًا وصهرًا" (الفرقان) أو كما قال تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". (التين) أو "على صورته" (سفر التكوين، الإصحاح 27،1) كما تذكر الكتب القديمة، فريدًا منذ ولادته.. عفوك يا الله.. منذ خلقه.. الولادة جاءت في مرحلة أخرى.

قطعت أمينة سلسلة أفكار الإمام حين دخلت الغرفة وهي تحمل إبريقًا من مغلي البابونج، وصبت المغلي في كأس ووضعت معه قليلًا من السكر. اقترب الإمام من عبد الغفار، رفع رأسه بيده اليسرى، وراح يسقيه المغلي بالملعقة الصغيرة، واحدة تلو الأخرى، وهو يتمتم بأدعية إلى مَن بيده الموت والحياة.

أعاد الإمام رأس عبد الغفار إلى الوسادة، وأشار لأمينة أن تشرب كأسًا من البابونج، فسعدت لذلك.

عاد الإمام إلى جلسته، وفتح كتاب الله ليتلو بعضًا من آيات سورة الأحقاف، بينما كانت أمينة ترشف البابونج المغلي بلذة عميقة، وقد شعرت بأنها كسبت ثقة الإمام،وتعاطفه معها، وأنه لن يتركها للمجهول.

قرأ الإمام سورة الأحقاف، ثم أخذ يرش البابونج الذي أصبح فاترًا على القماش الملتف حول رأس عبد الغفار، ليتسرب قليلًا قليلًا إلى جراح وجهه الملتهبة.

ثم جلس ينتظر مرور الوقت الذي بدا ثقيلًا مرهقًا وكئيبًا.

في أي ورطة وضعت نفسي والإمام؟

تحدثتْ أمينة في سرِّها. لكن ما الذي يمكنني فعله؟ سأكون خادمة له، كما كانت أمي في بيت العباس. ثم هو من جنى على نفسه، هو من صاح بي أن أهربَ من وجههم. لو لم يفعل، لكنتُ الآن مدفونة تحت التراب.

هو مَن ربط مصيره بمصيري. هو إمام تقر بعلمه ومعرفته كل المنطقة الشرقية. يأتون إليه لحل أعقد المسائل. ولم يسبق أن اعترض على حكمه أحد. الكل يلتزم بأمره. إنه كالسحر يخرج الجميع من عنده راضين مهتدين بأمر الله. وهو من أمرني بالفرار. لكن، إلى أين يمكنني أن أذهب؟- هو مَن ناداني، وأنا لبيتُ نداءه.

خرج الإمام الأزهري من الغرفة. تفقد أحوال المنزل بنظرة من عينيه كما يفعل كعادته، لكن شيئًا لم يلفت انتباهه. كان في حالة من الهذيان.

اتجه نحو باب الدار وأقفله جيدًا، ووضع المفتاح في جيبه. لم يعد أحد قادرًا على الدخول دون إذنه، كما كانوا يفعلون سابقًا. وشكر الله أن أحدًا لم يقرع بابه حتى اللحظة، ثم عاد أدراجه ونزع القناع عن وجه عبد الغفار.

صرخت أمينة من شدة الفزع، وهي ترى وجه عبد الغفار المُدمى، وكادت يد الإمام تلطمها على وجهها، لولا أن تدارك الموقف وتداركته.

أخذ الإمام منقوع البابونج وغسل به وجه عبد الغفار بتأنٍّ شديد، ثم أعاد رأسه إلى الوسادة، وخرج من المترل. قفلَ الباب خلفه، ووضع المفتاح بجيبه على غير عادة.

تضاءل منسوب السيل كثيرًا، وبدأت الحياة تعود إلى مجراها، وتجمهر الناس قرب الساحة يراقبون انخفاض مستوى المياه الجارفة. لم تعد تظهر لهم على سطح الماء حيوانات أو جذوع أشجار.

وقف الإمام بين الجموع المحتشدة، وسمع أحاديث مختلفة. كاد بعضها يفقده صبره وصوابه. فأم أمينة كانت تبحث عن ابنتها، وتؤكد أنها لم تعد إلى البيت، في حين أكد شهود عيان أنهم رأوها تتجه هاربة نحو مجرى النهر، لتختبئ في الحرش الكبير.

– هذا يعني أن السيل قد جرفها إلى أحد الوديان البعيدة.

قالت أم أمينة باكية:

– نكون قد خلصنا منها – قال أحدهم متشفيًا – لا مفر من حكم الله. ظنت أنها ستهرب من الموت، والموت حق. لا أحد يستطيع الهروب من الموت حين يحلُّ أجله.

– أراد الله أن يمحو أثرها عن الوجود. ستكون عبرة لكل النساء.

قال ثالث.

– إلهي ماذا أفعل الآن؟

حدّث الإمام نفسه.

– إنهم سعداء بمحو أثرها، كيف لي أن أخبرهم أنها حية ترزق في منزلي؟ لن يتوانى الشيخ عبد الله عن إصدار حكم بحقي ويتهمني بالزنا! إنها فرصته ليثبت جدارته وصواب رأيه.

إلهي لماذا يلتم الناس حول كارهيهم؟ لماذا يلتمون حول قتلتهم؟ ألأنهم يخشون بطشهم أم لأن الحياة قاسية هي الأخرى؟ أم أنهم يلتفون حول الأشياء الملموسة، من قهر وعقاب وبأس، لأنها تشكل تطهيرًا لذنوبهم. لعلهم يرون في رجم النساء رجمًا لخطاياهم الدفينة! ألهذا الحد نحن أشرار! إلهي عفوك ورضاك.

طأطأ الإمام رأسه المثقل بأفكار يتصارع فيها الموت مع الحياة، بدأ القلق والخوف من المجهول يأكلان عقله. خوف من أن يكون قد ارتكب إثمًا بحقِّ رب العزة، يستحقُّ العقاب عليه في الدنيا والآخرة، وخوفٌ من أن يُفتضح أمره، أمام الملأ، ويصبح هُزوًا أمام الناس جميعًا.

الناس في الكانونين الأول والثاني، (ديسمبر و يناير) لا هَمّ لهم سوى ما تتفتق عنه قريحتهم، من ألعاب وفصول ساخرة، يتسلون بها لقضاء فصل الشتاء، وما يرافقه من مللٍ وخمول،إذ كانوا يتفننون بصنع المكايد، والألعاب الساخرة، التي تزداد قباحة مع ازدياد شدة البرد. كما تنتشر قصص الجن، والعفاريت والخرافات، وقصص الأولياء الصالحين، والمعجزات التي سرعان ما تتلاشى، مع بدء النشاط العضلي في فصل

الربيع، فالخمول الجسدي يُولِّد خمولًا عقليًّا، قال الإمام في سره، ثم قرأ من سورة الفرقان: "وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هُزوًا أهذا الذي بعث الله رسولًا".

وارتسمت على محياه ابتسامة واثقة، بعدما تذكر ما تعرض له رسول الله من تجريح وإهانة، حتى من أقرب الناس إليه، من أعمامه، وخاصة من عمه عبد العزى، وولديه عتبة وعتيبة، زوجي ابنتي رسول الله رقية وأم كلثوم، فأمرهما والدهما عبد العزى بطلاقهما، فذهب عتبة إلى رسول الله وقال له: كفرت بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، وطلّق بنت رسول الله، وانطلق في تجارته إلى بلاد الشام، ليتزوجها عثمان بن عفان. وليتزوج الثانية فيما بعد.

استيقظت أمينة من نومها عندما دخل الإمام الغرفة، ورحَّبت به بابتسامة لطيفة وقالت:

– أخذني النوم يا مولاي. كنت متعبة جدًّا.

فقاطع الإمام حديثها وقال لها وكأنه يسألها عما يجب عليه فعله:

– أمك تبحث عنك.

نكست أمينة رأسها، وانكمشت على نفسها خائفة، فهي ذاتها، من كانت تبحث عن جواب، عما يجب عليها أن تفعله.

شعرت أمينة بضعف الإمام وتردده. كان في باطن كلامه اعتراف صريح بعجزه، بعدم قدرته على حمايتها. وكيف له أن يحمي عاهرة في بيته؟

ظلت أمينة واجمة، صامتة. حبست أنفاسها في صدرها، وحدجته بنظرة عتاب، وهزت برأسها، وكأنها تقول له:

– ستسلمني إذًا؟

شعر الإمام بحرج شديد من نظرتها الحادة والجارحة. أرادها أن تختار طريقًا لنفسها، أن تفعل ما تشاء، أن تبتعد عنه، أن تجنبه هذا العذاب الروحي القاتل، فأضاف:

– أهل القرية يظنون أن السيل العرم قد سحبك بعيدًا..ليمحو أثرك.

أراد الإمام أن يقول لها أنه بإمكانها مغادرة القرية مطمئنة إلى أي مكان آخر تختاره، فلن يبحثوا عنها، وعليها أن تشير إلى الجهة ليساعدها في الفرار بعيدًا عن أعين الناس. يمكنها أن تبدأ حياتها من جديد، فهي ما زالت في ريعان صباها، قوية وصبورة، وقادرة على مواجهة الصعاب. لكن أمينة التي أدركت فحوى قول الإمام قالت:

– الموت أسهل عليَّ من مبارحة ديرفول، عندما صرخت بي أن أهرب من وجههم فعلتُ، وكان بوسعي متابعة طريقي إلى عالم مجهول، لكني يا مولاي ما زلتُ أنتظره. أنا على يقين من أنه سيعود إليَّ. هو لا يكذب، ولم يكذب. سيعود. سأصحو ذات يوم على وقع خطاه. كما صحوت قبل قليل على وقع خطاك.

– إياك وهذه المقاربة مرة ثانية.

قال الإمام بحزم شديد.

- عذرًا يا مولاي، فأنا لم أقصد الإساءة. لكني أشعر أن روحه من روحك.

- قلتَ لك، ألا تذكري ذلك مرة أخرى. لا تجبريني على الكره والبغضاء. أنا أحبُّ الناس، ولا أمقتُ أحدًا. لم تعرف البغضاء موضعًا لها في قلبي، فلا تجبريني.

- حسنًا. لكَ ما شئتَ. لكن هل أمعنتَ النظر في مصيبة عبد الغفار؟ أنظر إلى وجهه. سأغدو مثله ذات يوم، إن كتب الله لي عمرًا. أتعرف ما مصيبته؟

- لستُ حكيمًا. لكني أرى في مرضه نوعًا من غضب الله على البشر الآثمين. من يدري؟ قد يكون آثمًا، وإن بعض الظن إثم.

- هذا مرض الهوى يا مولاي، ولا شفاء منه. أشعر بذلك. لأني أعرفه. لا أحد يدري سر مرضه. ولكن ألم تسمع ما يتحدث به الجميع عن قصره الجميل؟ ألم تسأل نفسك لمن كان يشيده طوال سنوات وسنوات؟ يقولون إن لديه جهاز عروس كاملًا، فلمن كان يجهز كل تلك الأغطية والشراشف والقدور؟ لمن؟ لنفسه؟

- لا أعرف. قد يكون كلامك صحيحًا. هيا، هيا دعينا نسقه شيئًا من البابونج وإن كان باردًا.

ورفع الإمام رأس عبد الغفار، وراحت أمينة تسقيه مغلي البابونج قطرةً قطرة.

نفسان، جسدان، خطيئتان، قربان من جسد الإمام وروحه. إلهي يا مولاي قال الإمام في سرِّه، كيف جمعتهما في منزلي!؟ زانية، فاجرة، وممسوس بالجن! هل تمتحن إيماني بك يا الله؟ أريد أن أقذف بهما إلى الشارع ليُلاقيا مصيرهما. ما الذي دفعني لأحمل عبد الغفار على كتفي إلى منزلي؟ ما الذي دفعني لأصرخ بها لتهرب من بين أيديهن، وقد عزمن على الفتك بها؟ هل أنا مسؤول عنهما؟ لا، بالتأكيد، فأنت خالقهما وأنت رازقهما، وأنت من يعرف أجَلهما. إلهي أطلب منك العفو والمغفرة إن أخطأتُ، وأطلب منك الرحمة وحُسن الختام. لا تجعلني سخرية للآخرين، لا تجعل مني ألعوبة بأيدي هؤلاء. إلهي إن كل ما أقوم به وأفعله نابع من خفقات الإيمان في قلبي. إلهي إياك أعبد وإياك أستعين.

فجأة سمع الإمام حشرجة عبد الغفار، وخرج صوته متألمًا، ليعود ويغيب مرة أخرى عن الوعي..

ابتسم الإمام وقال:

– شكرًا لله.. لقد عاد الألم إليه.

***

الزنبق

أزهار الزنبق المائي بألوانها البيضاء والصفراء والليلكية، تغطي بعضًا من سطح ماء الساقية الصغيرة،وتتفيأ بأغصان أشجار الصفصاف الوارفة الظلال، لتفوح بشذا عطرها الندي، لتفتن قلوب العاشقين.

كيف لا تفعل وهي زهرة اللوتس المقدسة، التي انبثقت من لجة الماء، لتولد أولى أساطير الخلق، والحب، في بلاد الهلال الخصيب، وبلاد النيل. زهرة الزنبق، هي من أزاحت بنورها جزءًا من الظلام الدامس، الذي كان يسود الكون مع الفوضى، لتقسم اليوم، إلى ليل ونهار – كما تقول الأسطورة – ليلد إله الخلق مع كل صباح، ويتربع على تاجها، ليوزع النور على الكون كله، ثم ليغيب مع المساء، محميًّا ببتلاتها حتى يبزغ من جديد. الزنبق موطن إله الخلق، الذي بعث الروح في الكائنات الحية، صاحبة الإرادة في حق الاختيار. فلولاه لما استفاق كائن من نومه الأبدي.

كان الكون في ثبات حي.

– بللتَ ثوبي.

قالت أمينة ضاحكة، بعد أن رمى يوسف، كومة من أزهار الزنبق المائي على صدرها، حيث كانا يتقاسمان فيء أشجار الصفصاف، مع الحصادين، الذين انتهوا من عملهم في الظهيرة، فعاد الحصادون من أهل القرية إلى بيوتهم، بينما بقي القادمون، من قرى الساحل، ينتظرون وجبة الإطعام، المكونة عادة من عصيدة البرغل مع العدس و التي تسمى "المجدرة"، مع كيل من اللبن الرائب المنعش.

- أنت تشبهين الزنبق، لأنك تحبين الماء كثيرًا.

- لولا كلام الناس لغطست في الماء، لكن ثوبي سيلتصق بجسدي وستأكلني عيونهم دون ملح.

- عيونهم؟ أم عيوني؟

- يوسف- ونظرت إليه - لا تُثقل بكلامك معي.

أنا لا أخفيك أني معجبة بك، وبصوتك، وبرجولتك، لقد ساعدتني طوال تلك الأيام في الحصاد. كنت تحمل عني كتفًا كبيرًا. لكنك لا تعلم السبب الحقيقي وراء اهتمامي بك، ولن أفصح لك عنه مهما تحاول. كل ما أطلبه منك عندما ننتهي من موسم الحصاد وتعود إلى ضيعتك، أن تذكرني، ألّا تنساني، لأني لن أنساك. تعالَ إلينا حين تشاء.. سأكون في انتظارك. لا تخف لن تموت جوعًا بيننا. سنطعمك أنت وأولادك. سنجد لك عملًا، وتذكر أن أمينة قد وعدتك بذلك.

حمل زنبقة من الأزهار المتناثرة حولها وتمدَّد بظهره على الأرض وقال لها:

– حين أسمعك، يعتريني شعور. أني لن أفارقك أبدًا. ربما عليَّ أن أذهب لآتي بولديّ لأعيش قربك. كيف لي أن أنساك! فأنت من أعادت لي الأمل بالحياة. صدقيني، لم أعرف الضحك منذ أن غادرت فاطمة حياتنا. كانت مثلك تحب الحياة والمرح. لكنها رحلت، وخلفت في قلبي حزنًا بوزن الجبال.

– يعجبني فيك أنك تحترم ذكراها، يعجبني فيك أنك كنت تحبها. أنا على ثقة من أنها ترقد مرتاحة البال، لأنك لن تخون ذكراها. أليس كذلك؟

– لا أعرف، إن كانت مرتاحة البال أم لا، لكني على يقين، أني سألقاها في حياتنا الثانية على شكل ملاك طاهر. كانت ملاكًا. لم أسمع منها كلمة سيئة، كانت تهمس همسًا، أو تغرد كالطيور. كان صوتها شجيًّا، وكنا نتنافس في قول العتاب. كثيرًا ما كان حوارنا يتم عبر المواويل. كانتِ تنشد موالًا حين تريد شيئًا ما. كانت صبورًا، لم تطلب مني شيئًا فوق طاقتي، بل طاقتنا، لأنها كانت تعمل أكثر مني. وفجأة قالت لي:

– يا يوسف، أحسُّ أني سأفارقك عن قريب.

لم أعرْ اهتمامًا لكلامها. ظننتُ أنها تردد ما تقوله والدتي عن نفسها، منذ أن وعيتُ على الدنيا، وهي ما زالت على قيد الحياة والحمد لله.

– الله يطول بعمرها.

قالت أمينة.

– شكرًا لك.

أحست أمينة بغصة في حلقها. نظرت إليه لثوانٍ، لترتاح يدها في يده، وساد صمت طويل

حين فتحت أمينة باب الغرفة التي ينام فيها الإمام وعبد الغفار، لتتفقد أحوالهما عند صلاة الفجر لم تجد أيًّا منهما. حتى أنها أحست ببرودة الغرفة، ولم تشتم رائحة النوم فيها.

– ترى هل ذهبا لصلاة الفجر في المسجد؟

تساءلت أمينة في سرها، لكن ليس من عادة الإمام الصلاة فيه. لقد وجهتُ إليه هذا السؤال قبل عشرين يومًا، حين كنتُ أساعده في غسيل عبد الغفار، بمغلي الزعتر البري عند الصباح، فأجابها، بأنه يشعر بقربه من الله أكثر، عندما يصلي وحيدًا، بل إنه أضاف:

إن صلاة الجماعة، فيها شيء من أجل الجماعة. وهذا ما لم تفهمه أمينة، وقال لها:

– إن الله سبحانه وتعالى، لم يفرض صلاة الجماعة في تنزيله الحكيم، وهناك من يرى أن صلاة يوم الجمعة وحدها هي صلاة جماعية، وأن تسمية يوم الجمعة جاءت منها، وقد يكونون على حق وصواب. لا أدري.

كان المسلمون في بداية الدعوة، لا يعيرون اهتمامًا لمواقيت الصلاة، ولا يلتزمون بها، وخاصة التجار منهم، وقد شعر نبي الأميين بالحرج الشديد من عدم التزامهم بمواعيد الصلاة، وسعيهم الدؤوب وراء تجارتهم، وربحهم، ولهوهم، مقارنة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

النصارى يرون في الأحد يومًا مقدسًا، لأنهم يعتقدون أن السيد المسيح قام من بيت الأموات في يوم الأحد، وتلك كانت كبرى معجزات ابن مريم عليه السلام. أما اليهود فيكرسون سبتهم سبتًا لله وحده، الذي أخرجهم من مصر، وخلّصهم من طغيان الفراعنة وعبوديتهم، الدائمة ليل نهار. كانوا عبيدًا لا قيمة لهم، وأصبحوا أحرارًا، فكيف لا يُكرِّسون يومًا واحدًا لعبادة الواحد الأحد، ليذكروا نعمة الله عليهم، الذي حرَّرهم من قهر، وآمنهم من إذلال ملوك النيل وعبوديتهم.

طالَبَ اليهود فرعون، أن يعطيهم في الأسبوع يومًا للراحة، من عملهم الدؤوب والمضني، ليستريحوا هم وحيواناتهم، التي كانت تموت من التعب والعطش، فرفض فرعون ذلك، واعتبره تمردًا، فحدث لهم ما حدث. لهذا يحرص اليهود على سبتهم، ويمتنعون عن أداء أي عمل، ليستريحوا، وتستريح معهم بهائمهم لأن الله العلي القدير،

"خلق السماواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش"، (الأعراف) و"استراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدّسه، لأنه استراح من جميع عمله الذي عَمِلَ الله خالقًا". (سفر التكوين. الإصحاح 1)

لم يعرف العرب العبودية الحقيقية في صحرائهم بمعناها الدنيوي، لأن حياتهم البسيطة لم تكن قائمة على استثمار الجهد العضلي في بناء القصور، أو شق الترع، أو تعبيد الطرقات أو تشييد القلاع، فحصنهم الصحراء، ومنزلهم بيت الشعر، أما هم فكانوا إما رعاة، وإما صعاليك، وإما تجارًا يجوبون الطرقاتِ على سفنهم الصحْراوية، قاطعين المسافاتِ بجَلَدٍ وصبر لا مثيل لهما. كانوا يعتبرون العبيد عالة زائدة عليهم، لا نفع منهم. العبودية في مجتمعهم البدوي، تعني العبادة، وقد تجلت في عبادة الأوثان، والأصنام، أما العبيد وإن احتاجوا إليهم قليلًا في المدن، فكانوا يأتون بهم من بقاع الأرض، وخاصة من بلاد الحبشة. كان التجار والأثرياء منهم، بحاجة للإماء أكثر من العبيد الذكور. لهذا كانوا يشترون النساء والجواري البيض، الحور العين، من بلاد الشام ويحملونهن إلى عمق الصحراء، فالحور تعني البيض في لغة أهل الشام القديمة.

من تجوالهم في البلدان المحيطة بهم، أدرك العرب معنى العبودية الدنيوية، أي حين يغتصب إنسان حق إنسان آخر في الحياة، ويعتبره ملكًا له، وهذا لم يكن معروفًا لديهم، لأنهم في غزواتهم كانوا يقتلون كل ذكر، صغيرًا كان أم كبيرًا، ويسبون النساء كما كان يفعل اليهود في

غابر الزمان. ومن هنا ميَّز العرب ما بين العبيد والعِباد. العبيدُ من فقدوا حريتهم، والعباد هم عباد الله جَلَّ جلاله. ولذا لم تُعطِ الرسالةُ السماوية موضوعَ العبيد أهمية خاصة، بل ركزت على العباد، عباد الله. الأحرار. الناس جميعًا هم عباد الله. ولهذا السبب أيضًا، كان من الصعب إلزامهم أو التزامهم.

لهذا السبب الجلي، أنزل الله سبحانه وتعالى سورة الجمعة، التي طالب فيها المسلمينَ أن يتركوا أعمالهم وتجارتهم ولهوهم، ويلتفتوا للصلاة، لأنهم كانوا يتركون النبي وحده قائمًا في الصلاة ويذهبون إلى لهوهم وتجارتهم، فخاطبهم الله قائلًا: "وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها وتركُوكَ قائمًا قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين". (الجمعة)

لكن إلى أين يمكنهما الذهاب مع الفجر إن لم يذهبا إلى الصلاة؟ تساءلت أمينة.

***

استعاد عبد الغفار شيئًا من عافيته، وبات قادرًا على قضاء حاجاته دون مساعدة، بعد ثلاثين يومًا من العناية المركزة، كان فيها الإمام يغسل وجهه بمغلي الزعتر صباحًا، وبمغلي البابونج مساء. اندملت الجراح، وزال الانتفاخ من وجهه، وعاد يبصر طريقه بعينيه، وانفتحت شهيته إلى

الطعام، الذي كانت تعده أمينة، في سرية تامة، كيلا ينفضح أمرها بين الناس.

غابت قصة أمينة ومشكلتها عن ذهن الإمام، وأصبحت جزءًا من حياته السرية اليومية المعتادة. ساعده على ذلك، البرد القارس، الذي كان يجبر الناس على ملازمة بيوتهم في الليل قرب المواقد، خاصة أن أمينة قد جرفها السيل، ولم يعد الشبان يحومون حول بيتها لحراسته من فجار الليل.

انصبَّ اهتمام الإمام، على شفاء عبد الغفار، من جراحه البدنية والروحية، كان يقرأ له في كل ليلة بعضًا من آيات الذكر الحكيم، فينام عبد الغفار مطمئنًا، فيسعد الإمام بصنيعه، ليتدثر تحت غطائه في راحة تامة، وليغطَّ في نوم عميق، حتى إذا ما جاء الفجر وعلا صوت المؤذن عثمان، تكون أمينة قد أعدت إبريقًا جديدًا، من شراب الزعتر، أو البابونج الحار، ليبدأ مشوار يوم جديد، محاطًا بالسرية التامة.

انتصف الليل، وأطلقت الديكة صيحاتها المبحوحة المتشنجة بسبب الصقيع الشديد، إذ كانت قناديل الجليد تتدلى من المزاريب، ومن عيدان العنب بطول نصف ذراع، وكان التلاميذ يتخذون منها سيوفًا للعلب، سرعان ما تتحطم، عند أول اشتباك فيعمُّ الضحك، ويتصاعد البخار من أفواههم الصغيرة.

نهض عبد الغفار من فراشه وأعلن بصوته الخافت:

- سأجعل منه هباء منثورًا.

لم يستطع الإمام إثناء عبد الغفار عن عزمه على المواجهة الكبرى، بعد أن استعاد نشاطه وحيوته. فرافقه إلى بيته، بعد أن غطى نفسه بعباءة الرعاة، المصنوعة من صوف الحملان والجوخ الإنكليزي.

***

استيقظ أبو بشير على قرع الباب، فاستعاذ بالله من الشيطان، وفتح الباب لهما.

صعد عبد الغفار الدرجات، بثقة تامة، يرافقه الإمام، حتى وصلا إلى باب الغرفة، فانهار عبد الغفار وتراجع، وقد عاد الهلع إلى عينيه.

- إنه في الداخل، ينتظرني.. سيغدر بي. إنه ينتظرني خلف الباب. سأنتظر بزوغ الفجر. سيفر هاربًا ومن ثم سأدخل وأكمن له.

قال عبد الغفار وعاد ليجلس على درجات السلم.

- ستموت من البرد.

قال الإمام.

- أعطني عباءتك، وعُدْ أنت من حيث أتيت.

- من الأفضل أن تعود معي إلى البيت، والصباح رباح.

- لا، لن أغادر منزلي. هيا، هيا اذهب ودعني وشأني. صوتك يزعجني. أريد أن أنام. حان وقت النوم.

طلب الإمام من أبي بشير لحافًا ليغطي به أخاه، فرفض أبو بشير التضحية بلحاف من الصوف قائلًا:

- دعه يَمُتْ من البرد، فأرتاح منه وترتاح أنت. ماذا يمكننا أن نفعل له؟ هل نشاركه جنونه؟ ليذهب هو وشياطينه الزرق إلى الجحيم.

وعاد أبو بشير إلى غرفته وأوصد الباب خلفه.

وقف الإمام حائرًا، مُرتابًا، عاجزًا عن فعل أي شيء. لم يكن بمقدوره في هذا الصقيع أن يحمل عبد الغفار على كتفه مرة أخرى إلى منزله، خاصة أنه سيمانع، وسيقاوم، ولن يصغي لرجائه.

أسرع الإمام إلى منزله، وحمل من الموقد بقايا الجمر المغطى بالرماد في صفيحة معدنية، مع بعض من أغصان الأشجار اليابسة، وعاد إلى عبد الغفار، وجلس قربه، ليغطيه بطرف عباءته الكبيرة، بعد أن أوقد النار في الصفيحة. فابتسم عبد الغفار سعيدًا بما صنعه الإمام.

لم يتحرك عبد الغفار من مكانه، بقي جاثمًا حتى بزوغ الفجر، في حين كان الإمام يتحرك بين الفينة والأخرى، باحثًا عن الدفء، فيقترب من الصفيحة، ويضع فيها مزيدًا من الحطب لتشتعل فيها النيران من جديد وتشيع الدفء في المكان.

مع آذان الفجر اشتدَّ البرد كثيرًا، وكاد الإمام يسقط مريضًا، لولا أن وقف عبد الغفار فجأة وقال للإمام:

- لقد رَحَلَ.

ثم صعد الدرجات إلى غرفته، ودخل من الباب، وأغلقه خلفه في وجه الإمام، وكأن شيئًا لم يكن.

– الحمد لله.

قال الإمام، وغادر المكان، وقد بدأ الضباب يهبط على القرية، ويخيم على منازلها رويدًا رويدًا.

وجد الإمام إبريق مغلي الزعتر حارًّا، وقد عبقت رائحته، فسُرَّ بذلك، وصَبَّ لنفسه كأسًا، وارتشف منها يتلذذ وهو يستعيد الحرارة لجسده المرتعش.

مع تسرب الدفء إلى جسده، توقدت عيناه، وقد غزى حديث نبي الأمين عقله:

"ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما". إلهي عفوك ورضاك! ماذا أفعل الآن؟ كيف أتركها في منزلي؟ هذا لا يجوز. هذا أمر يخالف كل الأعراف والقوانين. لقد نسيتُ أمرها. ربما تناسيتُ؟ لا أعرف. الوهن أصابني. عليَّ أن أجد حلًّا سريعًا. عليها أن تغادر منزلي. هل أطردها الآن قبل أن يخرج الناس من مراقدهم الدافئة؟ أم عليَّ أن أساعدها على إيجاد حلٍّ لمشكلتها المستعصية؟ ومن أنا لأساعدها؟ كيف لي أن أعينها؟ رأفتك يا الله.

انتفض واقفًا وقال في سِرِّه:

– هذا ما يجب عليَّ فعله.

صهل الحصان الأحمر سعيدًا بدخول الإمام إلى الإسطبل، بينما حرك الأزرق رأسه مُرحِّبًا به كعادهما في كل صباح، حين يأتيهما الإمام بالتبن المختلط بحبيبات الشعير. كان الحصانان يبحثان عن حبات الشعير بين نثرات التبن، ويتلذذان بمضغها أولًا، ومن ثم يأكلان التبن طوال النهار على مضض. وضع الإمام لهما الطعام، وربت بكفه على ظهريهما، فدفعه الحصان الأحمر بحركة ودودٍ من رأسه، فقام الإمام بمداعبة الحصان من أسفل عنقه، فأزفر الحصان الهواء الحار من خياشيمه، شاكرًا، وعاد ليتابع طعامه.

لكن الإمام لم يغادر الإسطبل كما يفعل عادة بعد الانتهاء من عمله، بل وضع الجلالين (البردعتين) على ظهريهما، ثم سرج رأسيهما بوثاقين مصنوعين من شعر الماعز، ثم قال لهما:

كُلا بسرعة ومن دون دلال، فأمامنا طريق طويل. هيا.

وخرج ليجهز ما يلزمهما في رحلتهما البعيدة.

خرجت أمينة من غرفتها، بعد أن تأكدت بحدسها، أن الإمام كان يحثُّها على الاستيقاظ والنهوض من فراشها، وذلك من خلال إصداره بعض الأصوات المرتفعة، على غير عادته.

التقت نظراهما المتسائلة الخائفة.

أشار لها الإمام أن تستعد للرحيل فورًا.

– إلى أين؟

سألته أمينة.

– ستعلمين فيما بعد.

قال الإمام.

لم يكن لأمينة أن تفعل شيئًا إضافيًا لتستعد، فهي تنام وتقوم بثيابها. فطلب منها الإمام أن تجهز زوادة طعام كبيرة، تكفيهما لعدة أيام، مع كل ما تبقى من خبز في النملية. أعطاها معطفه الشتوي لترتديه، مع منديل رجالي تلف به رأسها. نفذت أمينة تعاليم الإمام سعيدة، وقد أدركت بحسها الأنثوي، أنه عزم على عمل ما هو لصالحها.

لكن هيهات أن تخفي تضاريس جسد امرأة، بمعطف ومنديل رجاليين – قال الإمام في سره – لعل الضباب يخفينا عن أعين الناس. سترك يا الله.

كشبحين يلفهما الضباب غادرا القرية بصمت نحو الغروب.

شرقًا كان الصيادان الصديقان يوشع و زكريا يسيران بخطًى واثقة، وقد علّقا على أكتافهما بنادق الصيد، وحزما خصريهما بجنادين من الخرطوش، مختلف العيارات، منه ما هو مُخصَّص لصيد البط العابر الزاهي الألوان، ونوع ناعم الخردق لصيد طيور الزرازير الفاحمة، التي كانت تحط بكثافة، مع غروب الشمس على رؤوس القصب المزروع حول ضفاف الجداول، التي تتجمع في أرض "المجمع"، لتشكل نهرًا صاخبًا في الشتاء، يندفع بقوة إلى مصبه في نهر العاصي.

مع أن المسافة ما بين الصيّادين من جانب، والإمام الأزهري وأمينة من جانب آخر لم تكن بعيدة، لكن كثافة الضباب حالت دون أن يروا بعضهم بعضًا، فمرا بسلامٍ دون سلام.

لم يرهما أحد من أهالي القرية أو رعاتها. وحدها الطيور فوجئت بوقع حوافر الخيل، فخفقت بأجنحتها، وأقلعت من مكامنها الدافئة، من بين الأغصان الكثيفة لأشجار السرو والصنوبر، وهي تصيح منذرةً بقية الطيور، أن نهارًا جديدًا قد بدأ.

***

الأستاذ إلياس مراد

أنا من بلد البغاء المقدس.. في بلدي تلد العذارى آلهةً نُمجدها، نكتب لها التراتيل والترانيم والأناشيد، لنغوص في لجة من العذاب والألم الروحيين، لنزهوَ بالموت المقدس كضحايا، وبالانبعاث من رماد الخطايا، في ديمومة من الشغف الجنسي، بحثًا عن خلود فقدناه، بُغية معرفة الأسرار الغامضة لكُنْهِ الوجود، تلك الحقيقة التي باتت تؤرقنا، لأننا لا نستطيع الاستسلام، لفكرة تحوّلنا، في لحظة مبهمة، إلى مجرد هياكل فانية.

أحس إلياس بالتعب من القراءة فأطبق مجلد "تاريخ الأساطير السورية " ورماه على السرير المعدني، ليرشف ما تبقى من شاي فاتر، في قعر الكأس الصغيرة، وتوجَّه ليلقي ببعض العيدان اليابسة، مع قطعتين من الحطب، في الموقد، لتتأجج النار فيه من جديد.

أشعل لفافة تبغٍ بجمرِ عود يحترقْ، ثم اقترب من النافذة، ليطل على بيوت القرية، المغطاة بالثلج منذ ثلاثة أيام خلت. الدخان يتصاعد بتكاسل من أسطوانات الطين التي تعتلي أسطح المنازل، متصديًا للبرد المخيم عليها. عصافير الدوري تبحث عن طعام تحت الشرفات، التي لم

يغمرها الثلج. أسراب من طيور البط والإوز البري، تسرع نحو الجنوب حيث الدفء.

– ديرفول، كم أنتِ ساحرة!

– حدّث نفسه – لا أخفي مشاعر حبي نحوك، كما لا أخفي أني فزعت عندما قرأت قرار تعييني معلمًا في مدرستك الريفية. لم أسمع بكِ من قبل. مع أني مهتم بتاريخ كل شبر من بلاد الشام. هنا يعيش القوقازيون إلى جانب العرب البدو من قبائل النعيم والعكيدات، هنا تجد عائلات من جذور أرمنية، وأخرى كردية، هنا يعيش التركمان وبعض الأسر العلوية، وهناك أسرة يزيدية، وأخرى فلسطينية، هنا تسمع أصوات نساء المدينة الحمصيات اللواتي تزوجن بعض رجال القرية وهجرن المدينة. في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، تسمع صوت الطبل والمزمار إلى جانب الأكورديون. ركام من التاريخ يمتدُّ لآلاف السنين، من ممالك آمورية وحثية وهكسوس.

ديرفول كانت حصنًا كبيرًا للهكسوس الذين عادوا إليها من مصر بعد أن عبروها باتجاه أرض النيل المعطاءة، هنا تجد آثار شلومو الأول، وسرغون، وتجد مغائر وكهوف وصوامع المسيحيين القدامى. ديرفول مثلها، مثل أي قطعة مأهولة من بلاد الشام. من يستطيع جمع كل هذا الخليط وهذه الثقافات في شعب واحد؟ لا أعرف. ربما تكون العروبة هي مفتاح لحل مسألة الهوية. لكني بتُّ أشكُّ في ذلك. كيف تقنع الناس بالعروبة، وهم ليسوا بعرب؟ إنهم يفاخرون بعلومهم باللغة العربية، بحبهم

وعشقهم للشعر العربي، القديم منه والحديث، لكنهم يتأففون في صمت، عندما تقول لهم إنهم عرب ككل العرب.

عبقري من اخترع فكرة العرب، والعرب العاربة والعرب المستعربة. مقنعة، بغض النظر، إن كانت تجافي الحقيقة أم لا. وقد تكون حلًّا منطقيًّا لتلاحُم الناس في هوية واحدة. ما الذي يمكن أن يجمع سركسيان مع عبد الله!؟ تَعِبْتُ.

حسنًا سأذهب إلى الأستاذ بدر لأقنعه بالذهاب إلى بيت أمينة. أنا لا أصدق أن السيل جرفها بعيدًا. هي فلاحة، وابنة القرية. لكن قد يحدث هذا. ولِمَ لا يحدث؟ عندما قصَّ عليَّ بدر حكايتها، ظننتُ أني أسمع إحدى أساطير العالم القديم. إنها الجدلية بذاتها في ثوب جديد. من يدري ما تخبئه لنا الأيام؟ هي مغرية ولا شك.

عندما ترتكب الأنثى الفقيرة خطيئة تتحول إلى مدنسة أو عاهرة، وقد تُرجم بالحجارة، بناء على تعاليم الكتاب المقدس "يُخرِجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها عملت قباحة". (تثنية اصحاح 22) أو تطعن بالخناجر غسلًا للعار، فتكبر المأساة بسفك الدم. الدم لم يغسل عارًا قط، بل يعمل على تدوينه بخط قرمزي على صفحات التاريخ لتطّلع عليه الأجيال القادمة. أما الثرية، فأمامها خيارات متعددة. قد تصبح مثالًا لتحرر المرأة، أو مضربا للتضحية من أجل الوفاء بالحب، فتكتب عنها الروايات، وقد تتحول إلى قديسةٍ أو أُمٍّ لأنصاف الآلهة.

- انتظرتك طويلًا على الغداء فلم تأتِ..

قال بدر مُرحِّبًا بالأستاذ إلياس.

- أخذتني القراءة.

أجاب إلياس، وألقى التحية على الحاضرين، فرد عليه السلام كل من رياض وعبد الرحمن الأعمى والحاج خضر، أما ياسر الأمي المتدثر بعباءة مصنوعة من الفراء فبقي نائمًا، مستمتعًا بالدفء.

- الحقيقة جئت لأصطحبك في زيارة لا أريد أن أقوم بها وحدي.

أضاف إلياس.

هَزَّ الأستاذ بدر برأسه، وأدرك بفطنته، أن زميله ينوي زيارة بيت أمينة، ولكي يتجنب فتح هذه السيرة أمام الحاضرين قال:

- إياك والعجلة فالشتاء طويل. استرح وسنتحدث فيما بعد.

- وإن كنت في عجلة من أمري. أنا متضايق جدًا ولا أصدق...

فقاطعه بدر بذكائه المعتاد:

- في التأني السلامة وفي العجلة الندامة. استرح وسنجد الفرصة المناسبة.

استكان إلياس وجلس بعد أن أدرك أن الأستاذ بدر لن يشاركه في هذه المغامرة التي قد تودي بسمعته كونه معلمًا إلى التهلكة. كيف لمعلم المدرسة أن يزور بيت عاهرة؟

جلس إلياس على مضض، ولم يجد بدر وسيلة لتهدئته سوى أن يعرفه بوجه جديد من وجوه القرية قائلًا:

– سأعرفك بأحد وجوه قريتنا، هذا هو الحاج خضر الفزمصوني. خاض الحرب العالمية الأولى مع لورنس العرب، ويعرف المنطقة العربية شبرًا شبرًا. كان في مصر وفي فلسطين وفي الحجاز والأردن، ثم تطوع في جيش مصطفى كمال أتاتورك وخاض معارك جاناقلعة ضد الإنكليز والفرنسيين. لا داع لقراءة التاريخ اسأله فيجيبك.

– هذا يعني أنك سبب بلاء الأمة العربية– قال إلياس – الماسونية أخطر منظمة صهيونية، إرهابية في العالم، وهي المسؤولة عن كل الجرائم السياسية في العالم أجمع.

حاول الحاج خضر الإمساك بعكازه بيديه المرتعشتين، مشيرًا إلى رغبته بمغادرة هذا المجلس. لكن بدر أوقفه قائلًا:

– رد عليه، لماذا تفر من المواجهة يا حاج خضر؟

– كيف أردُّ على من يريد تعليق مشنقتي. الأيديولوجيون لا يُناقشون، ما لم يتحرروا من فكرة حوزتهم على الحقيقة المطلقة. هم مؤمنون، والمؤمن لا يناقش في عقيدته، فهذا شأنه الخاص.

– يعني عليَّ أن أسلّم سلفًا أني على خطأ لتقبل الحوار معي!؟

- يا أستاذ، الحوار يتطلب عقلًا منفتحًا على الآخر. لا أطلب منك التسليم بشيء. ولكن أتح لدماغك فرصة للتأمل. قد أكون مخطئًا، وقد تكون أنت، وقد نكون الاثنان على خطأ. من يدري؟

- حوار مع المستعمر؟ مع الصهيونية! مع من يدمر أمتنا العربية! لكني أطمئنك أن مشاريعكم ستنهار أمام زعيم الأمة، سينهار حلف بغداد الاستعماري الذي تدعون إليه، وستتوحد الأمة العربية بزعامة عبد الناصر. بدأ الشعب العربي يعي الحقيقة، أن الوحدة هي الخلاص.

- ومن يمنعكم من التوحد في دولة واحدة، عندما تجد الشعوب مصلحتها في الوحدة، لن يمنعها أحد. الماسونية لا تتدخل في السياسة. إنما حركة إعمار، ترى أن الله واحد لجميع البشر، وأن الإنسان مكلف بإعمار الأرض، وليس بتدميرها. الماسونية لا تفرق بين لون أو عرق، أو جنس، فعين الله ترعى الجميع، جميع الخيرين الطيبين البنائين الأحرار.

- ولماذا تأخذ من الأهرام والنجمة السداسية رمزًا لها؟ ما علاقتهم بأهرامات مصر ليضعوا نجمة داود عليها ولتصبح شعارًا لهم، أليس بهدف إقامة دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل؟ الماسونية هي البنك المركزي الأمريكي، الذي يمول كل الحروب، ويرفض تمويل مشروع إنمائي واحد.

- يا أستاذ، أهرامات مصر رمز للمنجز الحضاري لكل البشرية، الأهرامات أقدم بناء خالد يفاخر به الإنسان المهندس، وعين الرب ترعاه

من السماء. الماسونية تنظيم عالمي ومن حقها أن تضع أي منجز حضاري بشري زمزًا لها.

– لو قرأت بروتكولات حكماء صهيون لعرفت عما أتحدث عنه.

– بروتوكولات حكماء صهيون، مؤلف من المخابرات الروسية، استفاد منه القياصرة وستالين.

– لا أسمح بهذا الاتهام الباطل للرفاق السوفييت.

– قال ياسر الأمي الذي استفاق فجأة – الصهيونية روسية، والماسونية روسية، ثم تهرولون لشراء السلاح منهم، لم تمضِ أشهر على طلب عبد الناصر للسلاحِ حتى تدفق إليه من تشيكوسلوفاكيا لمحاربة إسرائيل، ثم تتهمون الاتحاد السوفييتي بأباطيلكم.

– ليست روسيا سوى سجن كبير.

– قال بدر بصوت خافت. البلد الذي لا يحترم حرية الكلمة، لا يحترم شعبه. عليهم بالخوار كالبقر بصوت واحد.

– تلك كانت مرحلة ضرورية للقضاء على أعداء الثورة الطبقيين من بقايا البرجوازية والقيصرية العفنة، أما خروشوف فشيء آخر.

– إذن ما فرق الماركسية عن الميكافيللية.. الغاية تبرر الوسيلة.

واستغل إلياس الفرصة ليقول:

– لهذا وضع عبد الناصر كلمة الحرية أولًا وقبل الوحدة، على خلاف البعثيين. الحرية أولًا، لتتخذ الشعوب قرارها بإرادتها الحرة بالوحدة. لا يمكن للوحدة أن تتم دون امتلاك الشعب لحريته في الاختيار، والوحدة خيارنا الوحيد، وهذا ما سيفعله الزعيم عبد الناصر..

– ما دام هدف عبد الناصر هو الوحدة

– قال بدر – فلماذا فصل مصر عن السودان؟ عشرون يومًا مضت على إعلان إسماعيل الأزهري استقلال السودان عن مصر.. لماذا وافق عبد الناصر ولم يحرك ساكنًا. الملك فاروق سلّم المملكة لمحمد نجيب قائد ثورة يوليو موحدة، فماذا فعل عبد الناصر؟ زجَّ بمحمد نجيب السوداني الأصل في السجن، ثم فصل السودان عن مصر، ومن ثم تقول لي وحدة عربية بقيادة زعيم الأمة؟

– بريطانيا من فصلت السودان عن مصر. ثم إن محمد نجيب لم يكن مؤمنًا بأهداف الثورة، إنه يمثل بقايا النظام الملكي الرجعي، كان يعمل لإعادة السلطة إلى البرلمان، أي من كان يعمل للقضاء على الثورة، ثم إنه كان يرى أن مصر جزء من الدولة العثمانية عدونا الأكبر.

– لهذا رتب له عبد الناصر خازوق الإسكندرية.

قال بدر وضحك باستهزاء واضح.

– أوتشكك في مصداقية محاولة اغتيال زعيم الأمة؟ غريب أمرك أستاذ بدر؟

– أنا لا أشكك، هذا ما يقولونه.

– هم أعداء الأمة، الرجعيون من يرددون تلك الشائعات بهدف ضرب المشروع القومي العربي النهضوي.

– إذا وقفَ السوفييت مع عبد الناصر فلن يصيبه مكروه. المستقبل للسوفييت، للاشتراكية العلمية، وليس لهذه الترهات الفكرية الضحلة.

قال ياسر.

– اسمحوا لي بالذهاب.

قال الحاج خضر وأمسك بعكازه بيديه المرتعشتين.

***

العقرب الأسود

مَرَّ الإمام بمحاذاة العقرب الأسود الكبير المنحوت في الصخر البازلتي، بعد أن عبر البوابة الخشبية الضخمة للمسجد النوري الكبير في مدينة حمص (أميسا)، ثم توجَّه إلى صنابير الماء النافرة من أساسات معبد الشمس في صحن المسجد، ليتوضأ قبل أن يدخل المسجد لصلاة العشاء.

ركائز وقواعد الأعمدة البازلتية الضخمة ما زالت ترسم معالم المعبد القديم. لم يَحتَجْها بناؤو المسجد حين شيدوه حول الهيكل العتيق. اكتفوا بنزع الأعمدة الضخمة، ليستخدموها في بناء المسجد النوري الكبير. ما زالت آثار معبد الشمس، وعلى الأدق، معبد الحجر الأسود، شاهدة على عظمة ذلك البنيان وجماله.

عقربان متقابلان منحوتان في الصخر البازلتي يزينان مدخل المعبد، المتموضع على ارتفاع متر من الأرض وقد أحيطت جدرانه بأحجار ثقيلة، ضخمة مفصلة بدقة متناهية، أما أرضية المعبد، فكانت مرصوفة بالحجارة السوداء، المزينة بأحجار بيضاء، فأميسا (حمص) الحجار السود.

العقرب الأسود رمز أميسا، فالمدينة مرصودة بتعويذات تمنع العقارب من العيش فيها، وقد اتخذه بناة معبد الشمس رمزا لمدينتهم الساحرة، أما المعاصرون فيقولون: إن ارتفاع نسبة الزئبق في أراضي حمص، تجعل من تربتها، غير ملائمة لعيش العقارب، وبغض النظر عن صحة هذا الرأي أو ذاك فالعقارب لا تعيش فيها مطلقًا.

في هذا المعبد العتيق المتجدد، كانت تُقام حفلات رأس السنة في الربيع، وما يرافقها من طقوس البغاء المقدس.

كانت العذارى يطفن حول الحجر الأسود المغطى بمثلث على شكل هرم مرصع بالجواهر وهن ينشدن التراتيل لقيام بعل من موته الشتائي. أحجار المعبد شاهدة على أروع قصص الحب في التاريخ، وعلى أكبر الدسائس السياسية في العالم أجمع.

هنا أوقعتا الفاتنة الجمال ابن جوليا دومنا ذات الشعر الأجعد والشفتين النديتين قائد الجيوش الرومانية ذي الأصول الليبية سيبتيموس سيفيريوس في حبها، فطلّق زوجته الرومانية و تزوج من تلك الفاتنة المغناجة الداهية، صاحبة الأرداف العريضة. وكيف لا يفعل وهي ابنة باسايانوس كبير كهنة معبد الحجر الأسود.

كان المعبد عقدة وصل بين معبد بعلبك في الهرمل، ومعبد تدمر في الصحراء المترامية الأطراف. وكانت أملاكه تمتد من جبال لبنان الشرقية وصولًا إلى البادية.

ذات يوم انطلقت جوليا دومنا من هذا المكان، لتصبح سيدة روما الأولى، ولتنجب ابنها الفاسق الفاجر الذي سمته على اسم والدها باسيانوس، لكن الشعب أعطاه اسمًا آخر "كوركالا". باسيانوس قتل شقيقه غيتا، في حضن أمه، ليصبح سيد العالم وسيدًا على جسدها. سماه الناس كوركالا، وتعني الجبة، لأنه كان يرتدي غطاء أيبيريا بقبعة، ليخفي وجهه، في أثناء تصيده لفتيات روما، واختطافهن. كوركالا، سمّم والده، وقتل أخيه، واستولى على أمه الشهية، قبل أن يستولي على عرش أبيه.

من بوابة هذا المعبد، خرج ذات يوم إيلبعل وعمره أربعة عشر عامًا، برفقة جدته، جوليا ميزا أو ميساء كما يحب البعض تسميتها و هي شقيقة جوليا دومنا الشهيرة، والدة الإمبراطور الأرعن كاراكلا، بموكب الحجر الأسود الذي حمّله على عربة مذهبة تجرها الخيول الأصيلة، وتحيط بها قارعات الدفوف بملابسهن الشفافة من جانب، ومن جانب آخر، كان عازفو المزامير القصبية يطلقون ألحانهم الصاخبة الفرحة، وتوجه إلى إنطاكية، لينضم إليه آلاف الجنود السوريين، في زحف غريب نحو روما، ليزيح حاكمها الذي لم يجلس على كرسي عرشها قط، ويعيد السلطة لهيكل الحجر الأسود، بعد أن ادعت والدته جوليا سوءعا أنه من صّلب كاراكلا الذي قتله رئيس حرسه ماكرينوس.

على تل من تلال روما، بنى إيلبعل هيكلًا جديدًا لإله الشمس، ووضعَ صنم الحجر الأسود، المغطى بهرم مزين بالجواهر الثمينة في صدر المعبد، وجعله مكانًا لاجتماعات مجلس شيوخ روما. هناك، كان يتعرى

الولد الشاذ، أمام وجهاء روما، وقادهما الكبار، ليرقص عاريًا على قرع دفوف الحوريات، ويتمايل على تراتيلهن، الممجدة للحجر الأسود المقدس. وفي ذروة المشهد الاستعراضي، كان يكشف الغطاء الهرمي عن الحجر الأسود، فترتفع أصوات المنشدات، أمام هول وضخامة العضو الذكري، المقدود من الحجر البازلتي، وينتهي الحفل الماجن بأن يختار إيلبعل رجلًا لينام معه.

قُتل إيلبعل وشُطب اسمه، كما شطب من قبله اسم كركلا، من قائمة الشرف الرومانية، وهُدم الهيكل في روما، وحطموا الصنم ورموه في نهر التيبر. كما قام المسيحيون فيما بعد بتحطيم هيكل الحجر الأسود في حمص، و تحولِ المعبد المقدس إلى كنيسة في عصر القيصر ثيودوسيوس، ثم جاء المسلمون بقيادة ابن الوليد، سيف الله المسلول، ليحولوا الكنيسة إلى مسجد، جُدِّد مرارًا، قبل أن يتخذ اسم المسجد النوري، نسبة لنور الدين زنكي، القائد التركي الكبير، الذي جاء من العراق لتحرير بلاد الشام من الغزاة الفرنجة.

بعد صلاةَ العشاء رحَّب الشيخ أحمد الرفاعي بالإمام الأزهري، ولم يُخفِ دهشته من قدومه في هذا الوقت المتأخر.

كانت أكثر من أربعة أشهر مضت على آخر لقاء جمعهما، حين قدم الإمام في نهاية الصيف الفائت، ليشتري من السوق ما يحتاجه من أساسيات لقضاء فصل الشتاء.

جلسا قرب أحد الأعمدة الضخمة، و تبادلا أطراف الحديث، منها البسيط ومنها المعقد، كالكلمات الغريبة الواردة في القرآن الكريم، وتفسيرها، وقد أخذ الحديث عن السبع المثاني جُل وقتهما، ثم نهضا وصليا ركعتين معًا، وقاد الشيخ أحمد الرفاعي الإمام إلى مكتب دار الإفتاء ليمضي ليلته فيه.

وجد الإمام نفسه وحيدًا في هذه القاعة الكبيرة، و تذكر لقاءه مع كبار العلماء من حلب وحمص ودمشق، يوم جاؤوا لإجراء الاختبارات، لمجموعة من العلماء الشباب، لمنحهم شهادة الإفتاء. سأله شيخ دمشق عن إعراب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقدم الإمام شرحًا مفصلًا عن إعرابها، فسأله آخر عن إعراب" فالله خير حافظًا و هو أرحم الرحمين"، فما كان من الإمام أن قال للمجتمعين، أساس الإعراب" ضَربَ زيدٌ عَمْرًا" فعل و فاعل و مفعول به، وإذا ما عرفنا أحرف الجر، والأفعال الناقصة من كان وأخواتها، و الأحرف المشبهة بالفعل، وتأثيرها على المبتدأ و الخبر، و استطعنا أن نفرق بين الحال والتمييز، و ميزنا الجملة الاسمية عن الفعلية، والصفة و النعت، و نائب الفاعل و المبني للمجهول، و لمسنا من النص أحرف العطف عن الاستئناف، تنتهي مسألة الإعراب، أنتم تسألونني أسئلة بسيطة للمبتدئين و أنا تلميذ الشيخ جمال الدين، فاسألوني في الفقه وعلم الميراث.

ابتسم الحاضرون وقالوا له:

– لو كنت في دمشق لغدوت مفتيًا للديار الشامية بأكملها. ومنحوه شهادة الإفتاء موقعة من مجلس علماء الديار الشامية، و قرروا إيفاده إلى الأزهر الشريف في القاهرة لينهل من علم أهل مصر.

ارتسمت ابتسامة سعيدة على وجه الإمام، و قد تذكّر أجمل لحظات حياته، ثم قال في سره:

– أنا متعب، عليَّ أن أنام قليلًا قبل أن أنهض لصلاة الفجر، لأصطحب أمينة من فندق الزعفران. ربي يسر لي أمري على طريق الهدى، و لا تحرمني من رحمتك، يا حنان يا منان.

***

كوثر

في الصباح استيقظ أهل القرية على خبر قضَّ مضاجعهم، إذ حمل أحد الرعاة خبرًا مُفزعًا لهم من رَجْمِ الخَرَج. قال الراعي الملقب ب"مزيطا":

– شاهدت بأم عيني جثة قتيل مرمية قرب كومة الحجارة عند رجم الخرج، الواقع إلى الشرق من القرية.

حاول رجال القرية أن يستفسروا عن صاحب الجثة، من هو؟ كيف وجده مقتولًا؟ هل هو مطعون بخنجر أم مرمي بحجر؟ لكن مزيطا أبى أن يجيب عن كل هذه الأسئلة، خوفا من أن يقع في"السين" و"الجيم"، التي لا تنتهي في مثل هكذا حوادث غامضة. و هذا ما أثار حفيظة بعض الرجال، و قلق الآخرين.

كثرت التأويلات والتخمينات، فمنهم من اعتبره اعتداءً صارخًا على القرية من البدو المحيطين بها، وطالب بأن تستعد القرية لغزو بدوي مقبل، و آخرون ارتأوا إرسال فارس لإخطار الشرطة لتعمل عملها في الكشف عن حيثيات الجريمة، فاعترض طرف ثالث متسائلين:

- وهل نترك الجثة ملقاة في البرية لتأكلها الذئاب والثعالب؟ هذا أمر يخالف شرع الله، كما يخالف العرف والتقاليد المعمول بها منذ آلاف السنين.

أخيرا، قرروا وعلى وجه السرعة أن تنطلق كوكبة من الفرسان المسلحين إلى موقع الجريمة،لاستكشاف المنطقة، واستجلاء الأمر، ومعرفة صاحب الجثة، قبل اتخاذ أي قرار بشأنه. كان رجم الخرج عبارة عن كومة كبيرة من الحجارة تعلو قمة جبل يطل برأسه على سهل المجمع الذي تجتمع فيه الجداول الصغيرة لسعن الملطية وتلغمري والسعن الأسود، وكان فيما مضى نقطة علام رومانية، وتحول في الزمن الفرنسي لنقطة مسح طبوغرافي لقياس المساحات.

كعادته، تبرع عيسى الخاص، مربي الخيول الأصيلة، والمعروف بمروءته أيام الصعاب، بجوادين أصيلين لفارسين شجاعين تطوعا للذهاب فورًا الى موقع الحدث.

انطلق الفرسان مدججين بالسلاح، من بنادق صيد حديثة وأخرى قديمة (حشو) إضافة لبندقية رصاص بلجيكية قدمها عيسى الخاص لكبير الفرسان، و حزموا أنفسهم بخناجر قوقازية كانوا يسمونها "التترية" نسبة إلى التتار، وهي سيف يشبه إلى حد بعيد، سيوف المصارعين الرومان القصيرة.

طوّقَ الفرسان الموقع، بعد أن ألقوا نظرة على الوديان المجاورة، خوفا من وقوعهم في كمائن أعدت لهم مسبقًا، ثم تقدموا ببطء نحو هدفهم المنشود. كانت حوافر الخيول تَطْمِس عميقًا في الأرض الحمراء، التي تخمرت وتشبعت بالماء من ذوبان الثلوج المتراكمة عليها منذ عدة أيام. وكانت الجياد غير راضية لهذه الطريقة في السير نحو هدفها المنشود، كانت تفضل الانطلاق بسرعة وحماسة، لتتجنب هذا السير العسير، الذي ينهكها، خاصة أنها شعرت بالخطر يداهمها، إذ كانت قوائمها تنغرز عميقًا في الطين اللزج، الذي يزداد طراوة كلما تعمقوا في تلك الأرض، التي كان الناس يسمونها بأرض "المغراقة"، أي الأرض التي تغرق فيها الحيوانات ذوات الحوافر الصغيرة، وتفقد القدرة على الحركة، فتستسلم لقدرها المحتوم، تنتظر النسور لتنقض عليها في اليوم التالي، وهي غير قادرة على الفرار أو الدفاع عن نفسها.

ترجّل الفرسان عن جيادهم، حين شاهدوا جثة رجل عار، ملقى على ظهره و عضوه الذكري مقطوعا و مدكوكًا في فمه. كان شيئًا مريعًا لم يشهده أحد من قبل.

- هذا زكريا.

قال أحد الفرسان.

ابتعد الخيالة عنه، هلعًا وخوفًا. منهم من ذهب ليتقيأ ما في أحشائه، ومنهم من راح يتلفت حوله بحثا عن قاتل غامض وقد استفزه منظر زكريا المخيف.

– يا إلهي مَن ارتكب هذه الجريمة الشنعاء بحق زكريا؟

تساءل آخر.

– هذا فعل انتقامي وعن سابق إصرار و ترصُّد. قتل متعمد وليس مصادفةً.

– لكن مَن جاء به إلى هذا المكان المقفر في هذا الطقس؟

– زكريا صياد معروف، عاشق للطبيعة والبراري، والصيادون ينتظرون أيام الثلج ليخرجوا إلى البرية، حيث يمكنهم اقتفاء أثر الحيوانات، وهم بخبرتهم يميزون آثارها و يتبعونها إلى أوكارها.

– إذن مَن قتله؟

الله أعلم. لا يمكننا اتهام أحد من دون دليل، هذه جريمة قتل مريعة، و حكمها الإعدام، أو المؤبد، علينا نقله لدفنه، وإعلام الشرطة لتحقق في الواقعة. للشرطة أساليبها في التحقيق.

كانت كوثر تترنم بأغنية فيروز الجديدة "لما بدى يتثنى" وهي تزيل بقايا ندف الثلج، عن أصص الأزهار المتنوعة، في دارهم الواسعة، حين علا صوت المؤذن عثمان، داعيًا أهالي القرية، للمشاركة في صلاة الجنازة، على روح القتيل زكريا، قبل موارته الثرى. شعرت كوثر بضيق شديد في صدرها الصغير، قبل أن تنفجر دموعها ويعلو نحيبها، وهي تلطم صدغيها، وتنتف شعر رأسها، كذبيحة نُحرت على حين غرة.

عُرفت كوثر بهدوئها ودماثتها، برقتها وعذوبة صوتها، إذ كانت طوال النهار تردد كلمات أغنيتي فيروز "جادك الغيث" و"لما بدى يتثنى" أما في الليل، فكانت تغني أغنية أم كلثوم "يا ظالمني"، ولم تكن قد استادت بعد كلمات أغنيتها الجديدة "ذكريات". كما تميزت بضحكتها الخجول، بوضعها يدها اليسرى على فمها الكبير ذي الشفتين الثخينتين حين تضحك. ومع أن الفم الصغير كان مقياسًا لجمال المرأة في ذلك الزمن، وكانت النساء يزممن من شفاههن حين يتحدثن ليحجبن أسنانهن عن الظهور، ولتبدو ثغورهن صغار الحجم، كانت كوثر تبدو في غاية الإثارة، والسحر الأنثوي الذي يسيل لعاب شهوة الرجال بضحكتها الطبيعية الخجول، وكانت صديقاتها يسخرن منها ومن ضحكتها ومن شفتيها الثخينتين قائلات لها:

كل ما فيك نحيل عدا شفتيك. فليتحمل من يتزوجك قبلاتك النارية، ستمتصينه بشفتيك ليصبح عودًا رفيعًا مثلك. على الأقل عليك أن تغطي فمك براحة يدك كيلا ترعبي الشبان من قبلاتك المحتملة، فتضحك كوثر وتشيح بنظرها عنهن بعد أن تغطي أسنانها الناصعة البياض بكفها النحيلة.

عاشت كوثر مع شقيقها يوشع، في منزل واسع، حرصت على الاعتناء به، ليظل مشعًّا، جميلًا، كما عهدته في طفولتها، يوم قَتَلَ والديها قُطّاعُ الطُّرق (المشلحون) وهما عائدان من المدينة، بعد بيع المحصول وشراء ما يلزمهما من مؤونة لفصل الشتاء، وذلك قبل عشر سنوات

خلت، أي بعد رحيل الفرنسيين بعام أو عامين، حين انتشر اللصوص وقُطّاع الطرق، وباتوا يشلحون العابرين ممتلكاهم بقوة السلاح، ويردوهم قتلى ويرمون بجثثهم على جنبات الطرقات لتأكلهم حيوانات البرية.

يوشع و كوثر، كانا طفلين صغيرين، حين وقعت الفاجعة الكبيرة، وأصبحا يتيمين، فأخذ عمهما عبد المجيد على عاتقه رعايتهما، وكان أول ما قام به، أن باع حصة شقيقه، من الأرض، بذريعة حاجته الماسة للمال لإطعامهما، ثم اشترى بعد عام، قطعة أرض جديدة لا شبهة فيها كملكية حرة، درءاً للقيل والقال، الذي لم ينقطع قط، منذ أن خان العهود، والعرف والتقاليد، وأصبح مثلًا يُضرب في الخيانة، إذ كان أهل القرية يقولون: "بس لا تعمل مثلما عمل عبد المجيد بأبناء شقيقه".

لم يبقَ من ملكية والدهما سوى مترله الحجري – الطيني الواسع، إذ كانت أساساته وعلى ارتفاع متر مشيدة بأحجار بازلتية قُدت باعتناء كبير، يعلوها اللبن إلى السقف. أما خشب السطح، فكان من الزان المقطرن، الذي لا تستطيع الحشرات نخره، وكان مدهونًا بزرقة سماء صافية. أما قنطرة باب الدار الحجرية فكانت الشمس تزين منتصف حجر العقد تليها نجوم صغيرة متناثرة على بقية الأحجار المستطيلة.

عندما بلغ يوشع التاسعة عشرة من عمره، انفصل وشقيقته عن عمهما عبد المجيد، وعادا إلى مترلهما، ليبدآ حياة جديدة، تملؤها الآمال العريضة بمستقبل مشرق.

بدأ يوشع بشق طريقه في الحياة بالعمل في القرية عامل أجرة "جاهز تحت الطلب"، لأي عمل كان، ومهما يكن شاقًا، ولم يكن يعرف الملل أو الكلل أو التذمر، وكان يرضى بما يمنحه الناس له من أجرة مهما تتضاءل قيمتها، ولم يكن يشكو من ذلك، بل كان يقبل النعمة ويشكر الله عليها. كان أهالي القرية يطلبونه للعمل لإخلاصه وتفانيه من جانب، وكنوع من أنواع الصدقة له ولأخته من جانب آخر. فكان يعمل في صُنع قوالب اللبن، وترميم البيوت، وقطع الأشجار والحجارة، وتعلم بذلك مهنًا عديدة. لكن أجور العمل كانت زهيدة، بخسة، ولا تعادل الجهد المبذول، إضافة لندرته وعدم توفره طوال أيام السنة، فاضطر يوشع للسفر إلى لبنان مع صديقه زكريا، ليعملا في ورشات البناء، وعاد بعد أول صيف، يحمل معه آلة خياطة من نوع سينجر، لشقيقته كوثر مع عدد من مجلات الموضة، الصادرة في لبنان، فتقاطرت صديقات كوثر إليها خصيصى، لمشاهدة صور الفتيات الشقراوات، بفساتينهن العارية، على صفحات تلك المجلات الغريبة.

فرحت كوثر فرحًا شديدًا بآلة الخياطة، وشكت من الوزن الثقيل لمقص القماش الأسود، لكنها سرعان ما اكتشفت أهمية وزنه، حين بدأت تقص القماش، بعد أن تعلمه بالصابون الأبيض. كما صنعت من الصوف "مصبعانيتين" على شكل كشتبانين، لإبهامها وإصبعها الأوسط، ليكبر حجمهما، وتزداد سماكتهما قليلًا، لتتمكن من الإمساك جيدًا، بمقص الخياطين المحترفين الكبير الفتحات.

كانت مجلات الموضة، سببًا وجيهًا في شهرة كوثر كونها خياطة. وكانت النساء تقصدنها، لتفصيل فساتين، شبيهة بتلك الفساتين البراقة على صفحات المجلات، وكانت كوثر تغطي الصدر العاري بالدانتيل، والأكمام العارية بأقمشة رقيقة،والفتحات الجانبية بأزرار تشير إلى الفتحة على طول الساق،وبذلك كانت ترضي أحلام الفتيات باستعراض جمال أجسادهن، وهي تردد كلمتها الجميلة: جمال الغزل بالوماء، أي بالإيحاء، وليس بالقول الصريح، لأن العاشق من الإشارة يفهم.

تمكنت كوثر من بناء علاقات طيبة، مع تجار الأقمشة في المدينة، التي باتت تقصدها في مطلع كل شهر، لتبتاع قطعًا مختلفة من القماش، والأزرار، والدانتيل، والخيوط، والإبر الاحتياطية، والكشاتبين، والكلف الداخلية للبطائن، والسحابات التي بدأت تظهر حديثًا بدل الأزرار. وعرض عليها بعض التجار العمل لديهم فرفضت، وأصرت على البقاء في القرية، لأنها لم تكن قادرة، على مفارقة أصص الزريعة المتنوعة، التي كانت تميز منزلها، عن باقي منازل القرية.

كوثر تقدر قيمة الحياة وتتغذى بروح جمالها الأخاذ، تشعر بلذة أكل الخبز الساخن، مع رشفة من شاي "الطون باش"، لم تكن تحب الأشياء الرخيصة الثمن، وكانت صبورًا تبحث عن الفرصة لاقتناء الأشياء الجميلة.

في الصيف الثالث، اعتذر زكريا عن مرافقة صديقه يوشع بالذهاب إلى لبنان، للعمل في ورش البناء ككل عام، والحقيقة، أنه كان قد تعرض في العام الفائت، لإصابة خطرة اضطرته لصرف كل ما حصّله من أجر، على معالجة كتفه، فذهب يوشع وحيدًا إلى باريس الشرق الأوسط، ومنفذ الحضارة الأوروبية والاستعمار الأوروبي .. بيروت.

مصادفةً التقيا بالحافلة.

ربما كان نقيق حجال البرية، سببًا لذلك اللقاء، ولربما الدانتيل .. أو تَهامُسُ الأرواح في أثير الفضاء، أو تنفيذًا لإرادة مهندس الكون وهو من ساقهما لذلك اللقاء.

لم يكن أيٌّ منهما يفكر بالآخر كشريك أو حبيب، كانا طوال الأيام السابقة يتبادلان الأحاديث والمزاح، ويتراشقان بالكلمات الساخرة ابتغاء التسلية والضحك لا أكثر. ولطالما شكى زكريا لصديقه يوشع "سلاطة" لسان شقيقته كوثر، ووصفها بالأفعى البرية الصحراوية النحيلة الملساء والناعمة والشديدة السُّمية. أما يوشع فكان يجيب ضاحكًا: مَن يلاعب القط عليه أن يتحمل خرمشته، وكوثر قطة لا يغرنك هدوؤها يا صديقي.

جلسا في مقعد واحد.

حدثته عن الأقمشة التي تودُّ شراءها، وعن فستان العرس الذي ستخيطه لصديقتها روعة، وعن أنواع الدانتيل الذي ستزين به الفستان. كانت تسمي له أشياء لم يسمع بها من قبل، ولم يهتم بها.

لم يكن في جعبة زكريا الكثير مما يتحدث فيه عن سبب سفره إلى المدينة، فهدفه بسيط ومعتاد، فهو ذاهب لشراء بعض من أنواع الخردق، وبعض البارود لصنع خراطيش الصيد، وكان ماهرًا بصناعتها بواسطة لفافة بلجيكية دقيقة، جلبها من لبنان قبل سنوات.

زكريا كان واحدًا من الصيادين المهرة المعروفين في المنطقة كلها، وكان الصيادون القادمون من بيروت يقصدونه في مواسم صيد الطيور المهاجرة، وخاصة في موسم صيد طيور الدرغل، التي كانت تبدو كسحب عابرة في السماء.

في المدينة افترقا. ذهب كل واحد منهما وراء مبتغاه، فتوجهت كوثر إلى سوق الأقمشة المسقوف، بينما توجَّه زكريا إلى سوق الحميدية، إلى دكان صديقه جورج المختص ببيع معدات الصيد البري، من خرطوش وستر وشباك، وحشوات وخردق وأدوات تنظيف للسبطانة.(الماسورة) ما كان يميز جورج عن غيره من باعة أدوات الصيد ومستلزماته، هي قدرته على تأمين البارود الفرنسي الممنوع بيعه في الأسواق للعامة. كان جورج يأتي به مُهرَّبًا من لبنان بطرقه الخاصة، ليبيعه بأسعار مرتفعة، وكان ذلك سبب ثرائه الفاحش، مع أن دكانه لم يكن تتسع لأكثر من شخصين جلوسًا.

شارك زكريا صديقه جورج شرب الشاي، وتحدثا عن طيور البرية، وعن أعيرة الخردق المناسبة لصيدها، ثم حمل زكريا ما اشتراه بسلة من القماش وغادر الدكان. لم يكن لزكريا ما يفعله لتمضية الوقت الطويل

أمامه، فحافلة القرية تنطلق في عودتها قرابة صلاة العصر، وهذا يعني ساعات طويلة من الانتظار في حدائق مسجد ابن الوليد، حتى يحين موعد رحلة الإياب.

لم تعد العربات الخشبية الرومانية تُستخدم في التنقل ما بين المدينة والريف، كما كان يحدث قبل عشر سنوات، فقد حلت "بوسطة الزيتو" مكان تلك العربات، التي اقتصر نشاطها على الأرياف، وعلى نقل المحاصيل الزراعية أحيانًا إلى المدينة، لأن الشاحنات من طراز "بوزينغ" كانت تملأ البيادر، في مواسم نقل المحاصيل وخاصة في موسمي القطن والقمح.

شرب زكريا الماء البارد من سبيل الماء في حديقة مسجد ابن الوليد، بواسطة كيل نحاسي مربوط، بجنزير ثخين، إلى صنبور المياه، لحمايته من السرقة، ثم جلس يتفيأ بظل أشجار الحديقة، فلهيب الشمس كان ينذر بنهار شديد الحرارة. وكيف لا يكون شديد الحرارة وقد حان موسم صيد الحجال! – حدث زكريا نفسه – وتذكر صوت نقيقها الذي بات يسمعه قادمًا من البرية في كل يوم، عند الظهيرة حين يشتد القيظ. لأول مرة شعر زكريا بالضجر من الانتظار. فالوقت طويل ويمر ببطء شديد. قد تكون كوثر هي السبب – تحدث قلبه – لعلك تنتظر ساعة العودة لتجلس إلى جانبها، لتستمع إلى صوتها، إلى رنة ضحكتها. أي أحمق أنا! قال زكريا ونهض من مكانه الذي اعتاده لتمضية وقت الفراغ.

لا يعلم كيف ولماذا قادته قدماه إلى سوق الأقمشة بحثًا عن كوثر، ربما ليطمئن عليها، ربما ليساعدها في حمل مشترياتها. وراح يبحث عن حجلته الضائعة متجرًا متجرًا. كان زكريا قليل المعرفة بدهاليز سوق الأقمشة، ولم يسبق له أن اهتمَّ بتفاصيله الدقيقة من قبل، كان يمر دون أن ينظر إلى واجهات المحلات، التي لم يكن قادرًا على التمييز بينها لتشابهها الكبير.

مضت أكثر من ساعتين وهو يبحث عن كوثر. كأبله، معتوه، كان يبدو حين يتوقف أمام واجهات المحلات محملقًا في النساء بحثًا عنها، حتى ظنت إحداهن أنه يترصدها، فزجرته ببعض الكلمات، فابتعد خجلًا.

أحسَّ بدوار في رأسه وتعبت عيناه، من طول فترة البحث عنها، وتسرَّب القلق إلى قلبه. أين هي؟ تساءل في نفسه. فجاءه الردُّ عبر مسامعه.لقد سمع صوت ضحكتها..تلفَّت حوله بحثًا عن مصدر الصوت، فشاهدها.. كانت كوثر في محل لبيع الكلف تتبادل الضحكات مع تاجر لا يبدو كبيرًا في السن.

أحسَّ زكريا بألم يعتصر قلبه.

اجتاحته مشاعر الغيرة الدفينة في قلبه منذ سنوات بعيدة. أراد أن يقتحم المتجر، ويسدد صفعة للتاجر المتأنق، لكنه أحجم عن ذلك عندما "راحت السكرة وجاءت الفكرة"، والتقت عيناه بعيني كوثر، التي أصابتها الدهشة، لرؤيته واقفًا أمام باب الدكان محملقًا فيها، والغيظ يأكل قلبه.

خرجت إليه، بعد أن حملت مشترياها الكثيرة وسألته: زكريا! ماذا تفعل هنا؟

– لا شيء. كنتُ مارًّا. سمعت صوتك مصادفةً فتوقفت. هل تعرفين هذا التاجر؟

– طبعًا أعرفه، إنه أبو أسامة..أنا أتعامل معه وأشتري منه كل حوائجي من أزرار وكلف وخيوط..

– ألا يوجد بائع غيره لما ذكرتِ؟

– طبعا، بالتأكيد.. لكن، ما به أبو أسامة؟ هل تعرفه؟ هل سمعت عنه شيئًا سيِّئًا؟

– لا، لا أعرفه..لكني لم أرتح له. يبدو مراوغًا كثعلب.

– هم هكذا، كل التجار.. يمتلكون لسانًا من عسل.. على العكس منا نحن أهل الريف. نحن نتميز بالجلافة.

– بالجلافة أم بالصدق؟

احتارت كوثر في اختيار إجابتها وقالت: لا أعلم. ربما كلاهما. حسنًا، عليَّ أن أمضي لشراء ما تبقى لي من حاجيات. الوقت يداهمني. لماذا لا يؤخرون موعد الإياب إلى المغرب لا أعلم؟

– إلى المغرب؟ تكاد روحي تفارقني من طول الانتظار.

– أليس لديك ما تفعله؟

- لا. أنهيت عملي بنصف ساعة. وأنا الآن أتسكّع من شارع لآخر من دون هدف.

- إذا لماذا لا تساعدني في حمل مشترياتي؟ هل لك أن تساعدني؟

وعادت الثقة والطمأنينة إلى قلب زكريا، فحمل قسمًا من مشتريات كوثر وانطلقا ضاحكين ليغيبا في زحمة السوق.

مع استكانة الطيور في أعشاشها دخلا المترل محملين بالمشتريات. وتنفست كوثر الصعداء بعد يوم عمل متعب ومضنٍ.

- شكرًا لمساعدتك. قالت كوثر، لولاك لما استطعتُ شراء كل حاجياتي.. أتعبتُك معي.

- لا شكر على واجب. لم أكن أتخيل مشاقّ مهنتك.. أنت تتعبين كثيرًا.

- صحيح، لكني سعيدة بذلك. هل تريد شرب الشاي؟

- لا، شكرًا، سأذهب الآن.

- حسنًا. شكرًا لك مرة أخرى. وسارا نحو باب المترل.

عند الباب، ودون سابق إنذار التفت زكريا إلى كوثر التي كانت ترافقه الخطوات ليحتضنها بذراعيه وأطبقَ شفتيه في شفتيها.

شعرت كوثر بصدمة لا مثيل لها. دفعته بقوة عنها. فقال لها: كوثر أنا أحبك.

– وهل هكذا يتصرف المحبون؟ أنا لستُ فريسة صيد يا زكريا لتنقض عليها بهذا الجنون. إياك أن تكرر ذلك مرة أخرى.

– أنا أحبك. لم أعلم بمشاعري من قبل. أصارحك القول: إني شعرت بالغيرة الشديدة عندما شاهدتك تتبادلين الضحكات مع ذلك التاجر. خفتُ أن تفلتي مني. خفتُ أن أضيعك. أنا أحبك منذ زمن بعيد. منذ الطفولة. لكني كنت بحاجة لمن يصفعني، لأتجرأ على البوح بما أخبئه في قلبي. أنا غبي فاعذريني. لا أعرف كيف أدخِل السرور لقلبك المتعب. لكني أحبك، أحبك من كل جوارحي. غريب أنني لم أعترف لك بذلك من قبل.

– ما هذه الفورة من المشاعر يا زكريا؟ دعني أتنفس قليلًا. أنا متعبة.

– هل تحبينني، كما أحبك؟

– زكريا. أنت لست في وعيك الآن، اذهب واسترح، ولكل حادثة حديث.

– هذا يعني أنك لا ترفضين حبي؟

– دعنا من هذا الحديث أتوسل إليك، لا تجبرني على مجافاتك.

وأوصدت الباب خلفه.

لم يعرف زكريا النوم في تلك الليلة. كان يضرب رأسه بيده ويقول: كم أنا أحمق وبليد المشاعر! إنها أمامي طوال الوقت. هل كنت بحاجة لتلك الصفعة من ذلك التاجر ليوقظ في قلبي كل هذا الحب الدفين؟ نعم أنا أحبُّها. أحبها كثيرًا. كوثر! كم أنت جميلة يا حبيبتي! كم أنت رائعة! كم أنت أنيقة وشفافة؟ لا لن أدعك تفرين من بين يدي. حجلتي الرائعة.

***

الطالوعة

فقدت أوراق أشجار الزيتون في الوديان والهِضاب المحيطة بقرية الطالوعة رونقها، من الصقيع الذي حلّ بها خلال الأيام الفائتة، وأصبحت بنية اللون ضاربة إلى الحمرة، كلون القرميد.

– إلى أين سنتوجه الآن؟ سأل الإمام الأزهري نفسه وهو يتأمل معالم القرية القابعة، على هضبة تتوسط مجموعة من التلال، تحيط بها الوديان من كل جانب. لم يكن الأمر يحتاج لكثير من التفكير، أو السؤال عن بيت العباس، فقصر العباس شاخص أمام عينيه، ينتصب بكبرياء، أمام البيوت الصغيرة، المبنية من أحجار كلسية عشوائية، تنم عن فقر مدقع يعانيه أصحابها. في الشرق لا توجد لدينا مثل هذه القصور، – حدث الإمام نفسه – صحيح أن لدينا أغوات وبيكوات وأفندية، وأسماء عائلات طنانة رنانة، لكن الفرق شاسع بين هذا القصر وبيوت أصحاب الأطيان من الإقطاعيين الكبار في شرقنا، بيوت الأثرياء عندنا تبدو كملحقات لهذا القصر البديع، أو كبيوت الخدم المنتشرة حوله، شرقًا و غربًا و شمالًا.

وَجّهَ الإمام رأسَ حصانهِ الأحمر نحو القصر المهيب، لتتبعه أمينة في صمت مطبق على جوادها الأزرق وقد تملكها الخوف الشديد، وهي تحاول ربطِ الصورة المكونة في ذهنها عن قصر العباس، من خلال حكايات أمها، وهذا القصر المنيع البديع الجاثم أمامها كقلعة حصينة.

– "وقل ربِ أدخلني مُدخل صدق، وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا" (الإسراء) قال الإمام وقد تذكر دعاء الرسول قبل خروجه من المدينة المنورة إلى بواطن الصحراء وبواديها ومضاربها المخفية بكثبان الرمال.

مَرَّ الإمام ببعض الفلاحين الفقراء، الذين ردوا عليه التحية، دون أن يسألوه عن وجهته، فالوجهة معروفة هنا للجميع. لا وجود لهذا الفقر في مناطقنا، قال الإمام، وقد لاحظ تعاسة الفلاحين وأشكالهم المريبة، التي لا تدعو إلى الطمأنينة، أو راحة البال: فنظراتهم شكوكة، مترصدة وحذرة. لأنها كانت تخفي مشاعر كامنة في الصدور لا يمكن معرفتها بسهولة، أو من خلال نظرة عابرة. فالبؤس شديد. والهلع شديد أيضًا.

وصل الإمام إلى ساحة القصر الكبير، وجال بعينيه يمينًا وشمالًا، لعل أحدًا يطل عليه من أحد الأبواب،أو من إحدى النوافذ المحكمة الإغلاق، لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

– يا أهل الدار.

صاح الإمام وكرَّر النداء مراتٍ عديدة دون جدوى.

– لا أحد يسكن هذا القصر. هل يُعقل أن يُترك قصر كهذا من دون حراسة؟ تساءل الإمام.

– ومَن يتجرأ على لمس حجارته يا مولاي؟ إنه قصر العباس وقد حدثتني أمي كثيرًا عنه. لكني يا مولاي أرى الدخان يتصاعد من خلفه.. لعلنا نجد أحدًا هناك.

وتوجَّها بجواديهما إلى خلف المبنى البديع. فوجئ الحارس الذي كان يضع العلف للحيوانات في الزرائب بهبوط فارسين أمامه من السماء، فارتعدت أوصاله، ظنًّا منه أن لصوصًا غرباء قد باغتوه في عقر داره. لكن الإمام الذي أدرك بفطنته وخبرته موقف الحارس، بادره بالتحية قائلًا: السلام عليكم يا أخي، أين صاحب البيت؟

– الآغا في المدينة. ماذا تريد منه؟

– لقد قطعت مسافة طويلة، حتى هداني الله إلى هذا المكان الذي لم أعرفه من قبل، وأنا بحاجة ماسة لملاقاة السيد.

– عُد إلينا في الربيع إذًا. الآغا لن يعود قبل شهر نيسان، ومن الأفضل أن تأتي في أيار.

– وكم تبعد المسافة من هنا إلى المدينة؟

– مسافة ست ساعات على جيادك، لكنك قد لا تجده في طرطوس، فلربما سافر إلى دمشق، أو بيروت، الله أعلم. لقد ابتاع لنفسه اطومبيلًا جديدًا يسابق الريح. وعاد الحارس لمتابعة عمله.

ترجَّل الإمام عن حصانه، واقتربَ من الحارس الشكوك قائلًا: اسمع يا أخي، أنا لم آتِ وراء مطلب رزقٍ من السيد.

- إذًا ماذا تريد منه؟

- جئتُ لاستيضاح بعض المسائل، لعلني أجد إجابة لها عنده.

- والآغا غائب. قلتُ لك أن تعود في نهاية الربيع بداية الصيف.

هَزَّ الإمام برأسه مفكرًا، كيف له أن يستخرج من هذا الحارس الأمين كلمة " تفضلوا ارتاحوا"، فقال له: يا أخي، هل تعرف شخصًا اسمه يوسف العبود من أهالي هذه القرية؟

- لا. ثم كأنه تذكر نفسه فقال: ماذا تريد منه؟ أنا يوسف العبود.

نظرت إليه أمينة بخوف وتوجُّس. ثم أعطت الإمام إشارة نفي برأسها.

عرف الإمام أن من يبحثان عنه شخصًا آخر، فقال: ربما نبحث عن شخص آخر، كان لديه زوجة تدعى فاطمة، توفيت بمرض غامض ولديه طفلان..

- أوه، يوسف العبود ما غيره .أبو وجيه، أبو عيون زرق؟

- نعم، هو أين نجده؟ سألت أمينة،وقد ارتسمت على محياها ابتسامة مترددة.

- والله يا بنتي - قال الحارس - فص ملح وذاب، لا أحد منا يعرف سِرَّه. لكن ماذا تريدان منه؟

– نحن لا نضمر له شرًّا، كن على ثقة – قال الإمام – نحن نبحث عنه لشأن يخصُّنا، وقد يكون خيرًا له ولنا.

– من الأفضل لكما أن تعودا من حيث جئتما. لن تجداه.

– أهو حي، ميت، فار، ما وضعه؟ سأل الإمام.

بقي الحارس صامتًا.وتابَعَ عمله، وبين الفينة والأخرى، كان يرشقهما بنظرات فاحصة. أخيرًا، توقَّف عن عمله وقال: يمكنكما أن تستريحا قليلًا، سأقدم لكما شراب الزوفا الساخنة.

– نطق أخيرًا، قال الإمام في قلبه، وسلَّم الحارس رسن الحصان فترجلت أمينة عن جوادها وفعلت الشيء ذاته. أخذ الحارس الجوادين إلى الزريبة، ولم يبخل عليهما بالعلف، المكون من القش اليابس، مع بعض من عيدان الزيتون الخضراء.

تكومت أفراد أسرة الحارس على نفسها، وهم يراقبون الغريبين بصمت مطبق، بينما كانت أمه العجوز، ترشف الزوفا الحارة بتلذذ، وهي جالسة قرب النافذة، لا تستطيع الحراك من مكانها.

– هذه أول مرة أشرب فيها مغلي الزوفا، لذيذة – قال الإمام، وأضاف: نحن نشرب البابونج والزعتر البري.

– والمليسة؟ ألا تنبت عندكم؟

– لا أعرفها.

– أنتم تشربون الشاي والقهوة كثيرًا، هكذا سمعت –قال الحارس – نحن لا نشرب القهوة أبدًا. أنا لم أذقها سوى مرة واحدة ولم أحبها، مع أن رائحتها تبدو شهية.

– القهوة مشروب أهل البادية، ونحن كما تعلم على تخومها. وهذا ليس مهمًّا، هلّا حدثتنا عن يوسف؟ أين يمكننا أن نلقاه، أين يقع منزله؟

– لم يعد لديه منزل، سقطت حجارته قبل عامين.

– هل هو بخير؟ أولاده، أمه؟ سألت أمينة.

– لا عِلمَ لي. قد يكون بخير، لكن أحدًا من أسرته لم يبَق في القرية. تُوفيت أمه وأخذ الآغا ولديه إلى المدينة. سمعت أن ابنته تعمل خادمة في بيت الآغا، أما الولد، فليس لديَّ ما أقوله عنه.

– حسنا، ويوسف أين يوسف؟

– يا ربي، صوتك ليس غريبًا عني – قالت العجوز فجأة لأمينة مقاطعة الحوار– أنا أعرفك.

ابتسم الحارس وقال: لا تهتما كثيرًا بما تقوله أمي، وأشار بيده أنها فاقدة لوعيها وتعاني خرفًا شديدًا، ثم أضاف: يوسف، لا أحد منا يعلم سره يا ابنتي. هناك من يقول إنه هاجر إلى فنزويلا، وهناك من يقول إنه غرق في البحر، وهناك مَن يقول .. وساد صمت ثقيل.

– لا تقل إنه مات، أو قُتل.

– لا، أنا لا أقول ذلك، فهناك من يؤكد أهم يشاهدون قرينه بين الآينة والأخرى، يظهر لهم ويختفي.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم. قالت أمينة.

– هذه هي الحقيقة يا ابنتي. لا أعرف. أنا لم أرَه.

– وكيف اختفى؟ سأل الإمام.

– الحقيقة، أنا أتخوف من الحديث في عالم الأرواح، وأبتعد عنها. باختصار شديد، كان يوسف في ضائقة كبيرة، وهناك من نصحه، أن يمضي ليلة في مزار العباس، لعله يساعده في استجلاء طريقه. دخل يوسف المزار ولم يخرج منه.

تبادل الإمام وأمينة النظرات الشكوكة. ولاحظ الحارس ذلك فقال: أعرف، أنتم في الشرق ليس لديكم مزارات تتوجهون إليها في ساعة الضيق. أنتم لا تؤمنون بها، نحن نؤمن بها ونصدقها، لأن الأرواح لا تموت..

– قال تعالى في كتابه: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(الزمر) – قال الإمام الأزهري و أضاف – عالم الأنفس و الأرواح من علم الله وحده. نحن مجرد بشر، لأن الله يقول لعبده:" و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما

أوتيتم من العلم إلا قليلا".(الإسراء) فالروح روح الله وحده، يهب منها من يشاء ويحجبها عمن يشاء، "ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا" (التحريم) هذا ما يقوله رب العباد.

– منذ أن شاهدتك عرفت أنك عالم كبير – قال الحارس – وخشيتُ من إجراء هذا الحوار معك. فأنا "أمي" لا أجيد القراءة والكتابة. ولا أحب المجادلة، فنحن فلاحون، فقراء على باب الله. شغلنا الشاغل هو تأمين لقمة العيش، لا أكثر ولا أقل.

– كلنا على باب الله. وأحب منك أن تعلم، أنه لدينا مزارات للأولياء الصالحين، نؤمُّها في الأعياد والمناسبات، وفي ساعات الضيق. أدرك وجهات النظر المختلفة حولها، لكنها موجودة ويقصدها الناس من أرجاء المعمورة، ولعل أهم مزار قريب منا هو مزار عز الدين أبو الحمرا.

– أكان بدويًّا؟

– هذه مسألة أخرى. لكن للمزار شهرة كبيرة.

– وأين يقع مزار سيدنا العباس؟

سألت أمينة، وتوجَّهت إليها العيون تنظر إليها بحذر شديد.

– أنت عيوش، أو ابنتها أمينة، عرفتك. قالت العجوز أم الحارس بغتةً.

شعرت أمينة بالحرج الشديد. تبادلت والإمام النظرات، وقالت: ألم نتأخر يا مولاي؟

– صحيح، قال الإمام، سنغادر حالًا. هيا بنا. ونهض واقفًا لتلحق به أمينة على عجل.

– لا تنسي أن تسلمي على أمك – قالت العجوز – كانت صديقتي من الروح للروح.

– سأفعل، قالت أمينة وخرجت وراء الإمام.

انحدرا صامتين أمام مرأى أهل القرية، الذين خرجوا من مساكنهم يشيعونهما بنظراتهم المتسائلة، والمرتابة. كان من اليسير على الإمام و أمينة الاستهداء إلى موقع المزار، الذي بدا لناظريهما واضحًا جليًّا، منفردا برابية صغيرة، تُظلّله شجرة بلوط كبيرة ومعمرة.

– هل تسمح لي بزيارة مقام سيدنا العباس يا مولاي؟ سألت أمينة.

– قد نقع في مشكلة طويلة وعريضة يا أمينة، والأفضل أن نتجنب ذلك. ألا تلاحظين نظراتهم الشكوكة؟ أخاف أن..

فقاطعته أمينة قائلة:

– أنا لا أخاف منهم. لربما ترك لي يوسف شيئًا أستدلُّ به عليه؟ أو.. لا أعلم ما أقول يا مولاي. أريد أن أبعث له برسالة.

أدرك الإمام عمق الرجاء في نظراتها المتوسلة، وعرف أن قلبها سيظلُّ عالقًا بالمزار، ما لم تتحسس أحجاره بيديها، فأدار رأس جواده متجهًا نحوه، لتلحق به أمينة وقد غمرتها السعادة.

اقتربا من الضريح، وأشار لها الإمام أن تذهب وحدها إليه، فسلمته رسن الحصان، وهرولت مسرعة نحوه، وكأنها على موعد معه.

بحثت أمينة عن مدخل المزار الذي غاب فيه يوسف، فلم تجد له أثرًا. كانت سمعة المزار وشهرته تفوق كثيرًا حالته المتواضعة. كان المزار – القبر، أشبه بصندوق صخري أملس، صقلت أحجاره البيضاء الكلسية بتأنٍّ رفيع. أرادت أمينة أن تعود لتسأل الإمام عن مدخله، لكنها أدركت أن الوقت يمضي بسرعة وأمامهما مسير طويل، بغض النظر عن الاتجاه إن كان شرقًا أم غربًا.

جثت على ركبتيها عند رأس الضريح وقالت: حبيبي يوسف، أنا أمينة وأنا ما زلتُ أنتظرك. ما زلت متمسكة بعهدي الذي قطعته لك، وسأنتظرك العمر كله. إن كنت تسمعني فأعطني إشارة. قل لي هل أنت على ما يرام؟ هل أنت حي أم ميت؟ وأنت يا سيدي، يا شيخنا العباس.. ساعدني ولا تأخذ حبيبي، لا تحرمني منه، أو خذني إليه. ونهضت على قدميها ولامست الأحجار الكلسية الباردة، وقالت: سأنتظرك يا يوسف في ديرفول. ستجدني دائمًا في انتظارك. لن أبرح ديرفول مرة أخرى. وتراجعت إلى الوراء خطوتين، ثم استدارت لتنطلق مسرعة، وهي تداري دموعها.

اعتلت أمينة الحصان وقالت للإمام: أتوسل إليك يا مولاي أن تعيدني إلى ديرفول. أكادُ أختنق. إن كان يوسف حيًّا فسيأتي، وإن كان قد تحول إلى روح هائمة تهيم في الجبال والوديان فلا بد أنه سمع ندائي.

قنديل الزيت

اللازوردي المزين على طرفيه بنقوش على شكل زهرات حمر ناعمة، بات باردًا في مشكاته. لم توقده كوثر في ذلك اليوم كعادتها عندما يحل المساء. ظلت متقوقعة، منقبضة متكومة على نفسها تصارع العتمة الشتائية الثقيلة، منتظرة عودة شقيقها يوشع. فلعله يأتي، ليرفع عنها ذلك الكابوس الجاثم فوق صدرها النحيل، ممسكًا بتلابيب قلبها، يعتصره من دون رحمة.

لم يكن يوشع يهتم بالصيد كالعديد من أبناء قريته، ولم يكن لديه الوقت ليضيعه على مثل هذه الألعاب التي تستهوي قلوب الشبان في فصل الشتاء، عندما تمتلئ السماء بالطيور المهاجرة نحو الجنوب. في تلك الليلة وعلى ضوء قنديل الزيت أخذ يوشع ينظف جفت الحشو التركي القديم ذي السبطانتين الطويلتين، الذي يعود لأبيه،ثم قام بدك السبطانتين بالبارود والخردق، وشد الديكة المعدنية إلى الخلف، ولم يتبقَّ له ليصبح جاهزًا لإطلاق النار سوى أن يضع الكبسولتين على المطراقين، وهذا ما أجَّل فعله لصباح اليوم التالي. علق الجفت على وتد خشبي مغروز في

الجزء العلوي من الجدار الطيني، والذي كان يُستخدم كمشجب لتعليق المناشف، أو الملابس الخارجية.

- خير إن شاء الله؟ سألته كوثر. هل ستذهب إلى الصيد؟

- بكل تأكيد. الأشغال متوقفة بسبب الثلج وقد سئمتُ الجلوس في البيت. فقلت لنفسي: لماذا لا أجرب حظي في الصيد؟! لدينا جفت جميل ولم يستعمل إلا نادرًا، يبدو جديدًا رغم قدمِه.

- لم يعد أحد يستعمل هذا النوع من بنادق الصيد. إنهم يستخدمون البنادق الحديثة، ولها خراطيش جاهزة. أنا لا أحب الصيد. حرام. أنتم الرجال، كيف تطاوعكم قلوبكم لتطلقوا النار على طائر جميل؟ لا، بل تسعدون بإصابته!

- حسب "الصيدة" فقد تقع على صيد مُغرٍ في بعض الأحيان!

- بكل الأحوال، إن اصطدت طائرًا فلا تطلب مني أن أجهزه لك. لا أستطيع.

- لن أطلب منك. قال يوشع بثقة تامة، سأسلخ جلده بنفسي. ثم اقترب من قفص الحجال المتموضع على تكية النافذة ونظر إلى الحجلتين الراقدتين على القش الدافء وقال: تبدوان حزينتين، أليس كذلك؟

- أكيد، أفكر بإطلاق سراحهما في الربيع. قالت كوثر.

- سيزعل زكريا منكِ.

– هو حر، ليزعل. أبشع ما في زكريا ولعه بالصيد. إنه يضيع حياته، يجعلها دون قيمة. لماذا لا تحاول أن تقنعه بترك هذه العادة الكريهة، المقيتة.

– لن يفعل. أخشى أن يجرني إليها، من الملل الذي أنا فيه.

– هل أنتما ذاهبان معًا للصيد غدا؟

و ومأ يوشع برأسه بالإيجاب، وكان يفكر بشيء آخر.

أحست كوثر بوخزة صغيرة في قلبها، ونظرت إلى شقيقها فقال لها: سأنام فموعدنا مع الفجر الذي حَلّ سريعا وسمعت كوثر صوت زكريا ينادي أخاها، الذي وثب من فراشه متأهبًا أجابه بأنه قادم في الحال.

في ذلك الفجر سمعت كوثر صوتيهما لآخر مرة في حياتها. صوت شقيقها يوشع، الذي كانت مستعدة للتضحية بروحها من أجله في أي لحظة، وصوت زكريا، حبيبها الذي لم يكن يروق لها بشيء..سوى روحه النقية، صدقه وتفانيه.

بعد ثلاثة أيام من لقائهما في المدينة، عاد زكريا ليقرع بابها بثقة تامة. كانت كوثر قد جلست مع صديقاتها يحتسين القهوة، بعد أن انتهت من تدقيق قياسات فستان زفاف صديقتها مريم، التي تصببت عرقًا من وخز كلمات رفيقاتها اللواتي تجمعن حولها للثرثرة.

ستبدين آية في الجمال – قالت كوثر مطمئنة مريم – أعِدُك بذلك. ثم أطلقت العنان لصوهما الجميل في أغنية لور دكاش، أمنت بالله، نور جمالك آية، آية من الله، وشاركتها صويحباهما الأغنية مع التصفيق الرقيق.

– بابك يقرع. قالت مريم لكوثر، التي انطلقت وهي تشدو بكلمات الأغنية، وفتحت الباب لترى زكريا يقدم لها مجموعة من طيور الحجل المطعونة، والمعلقة من رقاها بخيوط رفيعة، وآثار الدم العالق يلوث ريشها الجميل. كادت كوثر أن تقع مغشيًّا عليها على الأرض من هول ما رأت، لكنها تماسكت، واتكأت بكتفها على الجدار بعد أن وضعت يدها على صدرها وقالت مشدوهة: ما هذا؟ وشعرت بغصة في حلقها منعتها من متابعة الكلام.

– جئتُك بصيد جميل. حجل. ألا تحبين الحجل؟

– لا، لا أحبه. اغْرُبْ عن وجهي أنت وحجالك. صرخت كوثر وأطبقت الباب في وجهه. وسمع زكريا صوهما ينعته بكلمة "متوحش".

– ظننت أنك ستفرحين. خاطبها من الخارج.

– لا تعد إليّ مرة أخرى، هل سمعت؟ أنا لا أريد رؤيتك بعد الآن.

عادت كوثر إلى صديقاهما وقد استشاطت غضبًا.

– الشاب مغرم بك، ويقدم لك ما لديه. قالت إحداهن ساخرة.

– "يضرب" هو وحجاله، يا لطيف، كان منظره مرعبًا. الدم عالق على بنطاله، والغبار..إنه وحش، ليس من بني آدم. قالت كوثر.

– ألا تحبينه؟ سألتها إحدى الصديقات وأضافت: لا تحاولي إخفاء ما نعرفه جميعًا، كلنا نعرف أنك مغرمة به، كما هو مغرم بك. الحب لا يمكن إخفاؤه مهما تحاولي.

– لا يمكنني الارتباط بنوع كهذا من البشر، لا رأفة في قلوبهم. الحب حنان، وكلمة جميلة، الحب زقزقة العصافير وشدو البلابل، الحب لحن ينساب كنسمة هواء، وليس طيورًا مقتولة. من يقتل الطيور لا يعرف الحب، لا يمكنه أن يحب. هذا إنسان دون قلب. هذا إنسان بمعدة لا غير.

– لن تجدي أحدًا من الشبان بهذه الشمائل الرقيقة كما تحلمين. الرجال قساة القلوب، ومن شيمهم الطعن والقتل والنحر. قالت مريم، وكانت تدافع عن الذكور، فهي مقدمة على زواج قريب من أحد الشبان المعروفين بشجاعتهم وسطوتهم، وكانت تُفاخِرُ بحبِّه لها.

– ما تقولينه ليست شيمًا، يا مريم، قالت إحداهن، الشيم شيء آخر، كالوفاء، و الإيثار، و الكرم..للشيم معانٍ غير محسوسة.

– بكل الأحوال، لن يقرع بابي مرة أخرى – قالت كوثر – لقد طردته شرَّ طردة. لن تتخطى قدماه عتبة هذا البيت مرة ثانية، ثم أضافت وكأنها تردد قسمًا: لو لم يعد في الدنيا كلها شاب غيره، لن أقترن به مهما يفعل. يا إلهي كم كان منظره قبيحًا، مرعبًا! كيف لي أن أحبه وهو ملطخ بدماء الطيور؟! لو شاهدتن بأعينكن منظره المقزز، لأدركتن عما أتحدث عنه. رائحة الموت تفوح منه.

قرع زكريا الباب في اليوم التالي، وعرفت كوثر من إيقاع الطرق على الباب أن زكريا عاد مرة أخرى، فسحبت عصاة من كومة العيدان، وفتحت الباب لتتصدى له وبقوة، لكن زكريا كان قد ابتعد عن الباب تحسُّبا لمثل هذا الهجوم المباغت. وقف ممسكًا بأرجل فرخين صغيرين من الحجل. رفعهما عاليا في الهواء ليرفرفا بأجنحتهما في محاولة منهما للطيران.

رمت كوثر العصا جانبًا، وأقبلت عليهما بفرح شديد وهي تقول: يا إلهي، ما أجملهما!

أمسكت كوثر بالذكر بديع الجمال ورفعته في الهواء،فرفرف بجناحيه، وكاد يفلت منها، لولا أن قام زكريا بالإمساك به من جديد.

– كم هو قوي! قالت كوثر.

دخلا المنزل، وقام زكريا بصنع قفص للحجال من العيدان في نافذة الغرفة، ووضع فيه كومة من القش وبعض الحصى، وطلب من كوثر أن تضع لهما الماء في صحن من الفخار، فهُرعت كوثر وانتقت أجمل الصحون، وملأته بالماء البارد، من جرة الماء الملفوفة بالقنب، ووضعته بتأن شديد في زاوية القفص الكبير.

وضع زكريا الطيرين في القفص وقال لها: لن يأكلا الطعام اليوم، مهما تحاول، ومن الأفضل ألا تحاولي، وقد لا يأكلان غدًا، سيشربان الماء أولًا، سيفعلان ذلك غدًا مع الفجر، بعد أن يستيقظا على عالمهما

الجديد. سيعتادان .. لا تقلقي. وخرج زكريا بعد أن أنجز مهمته بنجاح باهر.

قبل خمسة أيام فقط، أضرمت كوثر النار في الموقد الجميل، وأشعلت قناديل الزيت وجلست تنتظر شقيقها ليتناولا العشاء معًا. لكنه لم يأت.

غاب ضوء النهار الخافت، الناعس، في ذلك اليوم الشتائي، وسمعت صوت أذان المغرب، ثم العشاء ..ولم يأت.

أقنعت كوثر نفسها، بأن أخاها، لا بد أنه ذهب إلى مترل زكريا ليتناولا لحم الطيور، من بطّ أو إوز أو دجاج الأحراش، الذي يكثر في هذه الأيام، وتذكرت كيف أنذرته بأنها لا تستطيع التعامل مع الطيور القتيلة، وترفض رفضًا قاطعًا نتف ريشها الجميل عن جلدها.

مية صحة – قالت في نفسها – ليأكلا حتى التخمة، أنا لا أستطيع منعهما من تناول لحم ما اصطاداه. المهم بالنسبة لي ألّا تقع عيناي على الطيور الذبيحة، فمنظرها يثير القشعريزة. وتدثرت بغطاء صوفي ليأخذها الدفء بأحضانه وليسرقها النوم.

استيقظت في الصباح..

وأقسمت أنها "ستزف يوشع بهدلة" مجلجلة حالما يعود إلى المترل. وقالت في نفسها: من المؤكد أنهما تناولا قسطًا من الكحول مع الوليمة، هكذا هم الرجال لا يستمتعون إلا بالأكل أو بالشراب، ثم راحت تغني أغنية فيروز "لما بدى يتثنى" حتى قطع صوت المؤذن عثمان الشك باليقين حين أعلن عن وفاة زكريا.

منذ ذلك اليوم لم تشعل كوثر قنديل الزيت اللازوردي، ولم توقد النار، وظلت حبيسة المترل، متجرزمة، منطوية، متكومة على نفسها وقد طُعنت في كبريائها، في ظهرها، في قلبها، في حبها. لو عاد أيٌّ منهما لهان الأمر قليلًا، لكن أن تفقد أعزَّ الناس وأحبهم إلى قلبها دفعة واحدة، فهذا غضب من الله. قالت كوثر في نفسها. لكن ما الذي فعلته؟ أي ذنب اقترفته؟ ما الخطيئة التي ارتكبتها لأعاقب بهذه القسوة؟ ألأني أحببت زكريا؟ ما الذنب في الحب؟ الناس يتغنون في الحقول والحفلات بقصائد الحب، و يمجدونه، وحين يقع ..يتحول لعار؟ ما العار فيه؟ ليقل لي أحد ما العار في أن تحب الفتاة شابًّا؟! الشباب يتغنون بمحبوباتهم، فهل الحب من طرف واحد؟ ربما.. فنحن النساء مجرد ممتلكات لهم، فهم القوامون علينا. لكن كيف لهم أن يفتخروا بهيامهم إن لم نحبهم؟ ربما علينا أن نحبهم بسرية.. بمكر.. بعيدًا عن أعين الناس، لتكبر الحكاية.. لتتحول إلى خرافة... وقد تنتهي بفاجعة، كما يحدث عادة عندما تلوكهما الألسن البغيضة، الحقود، فتجعل من الوجد كراهية، فتسّودُ القلوب.

ماذا ستقول للناس إن سألوها عن سبب اختفاء أخيها؟ هل تعترف وتقول لهم إنه من قَتلَ حبيبها زكريا! لكنها غير متيقنة من ذلك. فهي لم تَرَه بعينها، ولعله لم يرتكب تلك الحماقة! لكن لماذا لم يعد إلى المترل؟ هل يعقل أنه قُتل هو الآخر و لم يكتشفوا ذلك بعد؟

لا، لا، يوشع كان عازمًا على فعل ذلك. كان واضحًا. وأنا الخرقاء بقيت صامتة حين شاهدته ينظف بندقية الصيد. لقد وخزني قلبي، وقلبي

لا يخطئ، لكني لم أمنعه، لم أقف في وجهه! اعتبرت ذلك مجرد أوهام، كيف لأخي الجميل، الأنيق والحنون أن يرتكب جريمة كهذه؟ سأقول للناس إنه ذهب للعمل في لبنان. صحيح أن الوقت غير ملائم للعمل في البناء، لكني سأجد عذرًا، سأقول: إنه ذهب للبحث عن عمل، عن أي عمل كان.

لكن أحدًا لم يقرع باب منزلها، وتجنبت الفتيات زيارتها، لأن الألسن الحادة بدأت تنسج حكايات وقصصًا خيالية عن علاقتها بزكريا، وفدلنت، بل توقعت كوثر أن يفعلن ذلك، أن يغتبنها في أحاديثهن، فقالت لنفسها: هذا أفضل من أن يأتين إليّ ليبدين تعاطفهن معي. والأهم من ذلك كله، إبعاد شقيقي يوشع عن الحكاية كلها. لكن كوثر لم تكن على دراية بما ثقب أذني شقيقها من قبل. لم تكن تعلم ما كان يتحدث به الناس عنها وعن زكريا، بل ما رواه زكريا بنفسه في إحدى السهرات لأصدقائه المقربين عن علاقته بها.

لم يكن زكريا فقيرًا أو معدمًا، بل كان من أسرة متوسطة الحال. فأبوه كان فلاحًا مقتدرًا، لديه زوج من البغال القوية، القادرة على جر المحراث الحديدي، الذي يغوص عميقًا في الأرض الزوراء، أما شقيقه الأكبر عدنان، فقد انفصل عن الأسرة بعد زواجه، وهو يفكر الآن بشراء جرار زراعي إنجليزي من طراز فوردسون، بعد أن شاهد بأم عينه الفارق الكبير، في إنتاجية الآلة مقارنة بالجهد العضلي، وحاول مرارًا وتكرارًا إقناع أبيه بذلك دون جدوى. لأن الوالد كان مقتنعًا، أن

حراثة الأرض بالمحراث اليدوي الحديدي أفضل بكثير من حراثتها بالجرار الزراعي. كان عدنان يقول لأبيه في محاولة لإقناعه: للجرار قوة أربعة وعشرين حصانًا، وهذا ما يعادل اثني عشر محراثًا، تخيل يا أبي أن يحرث الأرض اثنا عشر محراثًا دفعة واحدة! فكم من الوقت والجهد سنوفر على أنفسنا؟ فكان والده يجيبه: وماذا ستفعل بالوقت الزائد؟ هل تريد الجلوس في البيت كالنساء؟ لا لن أوافق على شراء جرار زراعي مهما تحاول، والأفضل ألّا تحاول معي مرة أخرى. اعمل لنفسك، وحين توفر مالًا لشرائه فلن أمنعك. أنت حر بمالك. فيخرج عدنان غاضبًا ويضحك زكريا متشفيًا بفشل أخيه. أما شقيقه الأصغر فكان يتابع دراسته في المدينة، وهو على أبواب إنهاء المرحلة الثانوية، و يتحدث عن عزمه متابعة الدراسة ليصبح محاميًا. وحده زكريا كان "عطالًا بطالًا" يكره الأشغال الزراعية كرهًا تحريميًا، كما أنه لم يستطع متابعة دراسته في المدينة، بعدما انتهى من دراسة المرحلة الابتدائية في القرية، ولم يكن تلميذًا نجيبًا، وهذا ما أوقعه في خلاف دائم مع والده، الذي كان يوبخه حالما يقع تحت ناظريه.

كان زكريا مولعًا بالصيد، وبالتجوال في البراري. كان يذهب إلى لبنان للعمل في ورشات البناء، عندما يحتاج بعض المال، ويرفض العمل أجيرًا لدى أهالي القرية، ويعتبر ذلك عارًا له ولأسرته. لهذا وجد في لبنان مخرجًا لنفسه، فكان يتوجه إلى بيروت مع بداية الصيف، ويعود في التشارين، وقد ملأ جيبه بما يكفيه من المال لقضاء فصل الشتاء، دون

حاجة أبيه. طبعًا، لم يكن يحسب ثمن طعامه ونومه وشربه من المصاريف التي تخصُّه، فهذا من شأن أمه، التي كانت تحبه حبًّا جمًّا، لأنه كان يغيظ باه، في الوقت الذي لم تكن قادرة على الرد عليه، حتى لو كان على خطأ واضح. أما شقيقته الكبرى فدوى فكانت "تضحك بصمت" خشية أن يعلو صوتها، كانت تبدو كقطعة أثاث يأكلها الصدأ عامًا بعد عام.

في سهرات الشتاء الطويلة، كان زكريا يتحدث للشباب عن مشاهداته في بيروت، عن نسائها الفاتنات، عن صدورهن العارية، عن سيقانهن البرونزية، عن قبعاتهن ونظاراتهن الشمسية السوداء، عن أحمر شفاههن، عن رائحة عطورهن وطلاء أظفارهن.

عامًا بعد عام، تعود زكريا على سرد قصص خيالية عن مغامراته في بيروت، وسمح لخياله بأن يسرح بعيدًا في عالم النساء وأسرارهن. كما كان يحمل معه زجاجة من الويسكي، وأخرى من العرق، ليقيم حفلتين صاخبتين، لأصدقائه الذين كانوا ينتظرون عودته بفارغ الصبر، وكان يجلب من بيروت أنواعًا غريبة من السجائر الأمريكية والإنجليزية، مع أعداد من مجلات فرنسية، مليئة بصور نساء عاريات، كان يستحوذ عليها من رب العمل عادة.

بعد مغامرته النسائية الأولى وربما الوحيدة، مع شقيقة صديقه الغائب يوشع، تحركت مشاعر الحب فيه. أصبح عاشقًا وَلِهًا بكوثر. لم يكن زكريا من النوع الذي يحب الضمير المستتر، فكان يفضي ما بقلبه من حب لكوثر لكل أصدقائه. ويومًا بعد يوم بدأت المشاعر تتحول إلى

مغامرات ليلية ينسجها في خياله ويقصها على السُّمار من أصدقائه، كما كان يفعل حين كان يروي لهم عن مغامراته مع البيروتيات. وكان الشبان يصغون إليه مندهشين، من جرأته وحماسته وشجاعته.

لم تكن كوثر تعلم شيئًا عما يدور حولها من أحاديث في الخفاء، في الوقت الذي لم تكن تخفي عن صديقاتها تعلقها الصريح بزكريا. نعم أحبه - كانت تقول - لكني لن أرتبط به، لأنه عاقٌّ وغير ناضج، وغير قادر على تحمل المسؤولية، وصياد يقتل الطيور. كيف يمكنني الارتباط بإنسان كهذا؟ لكني أحبه لجنونه بي. وهذا ما كان يدعو الناس للأخذ بروايات زكريا على محمل الجد.

مع بداية الشتاء، عاد يوشع من لبنان محملًا بالهدايا لشقيقته، وخاصة مجلات الموضة الفرنسية، التي كانت سببًا في شهرتها كخياطة.

حالما سمع زكريا بقدوم يوشع قال لأمه: أريد منك يا أماه أن تذهبي غدًا لطلب يد كوثر. فضحكت أم عدنان، وقالت له: استر نفسك قبل أن تستر على فتيات الناس. أين ستتزوج؟ وهل تظنُّ أن أباك سيساعدك! لا تحلم بذلك. أنت عطال بطال فكيف ستبني أسرة وتعول أولادًا؟ عليك أن تغير من طريقة حياتك، أن تعمل بجد كأخويك، ومن بعد ذلك يمكنك التحدث عن الزواج. الزواج لا يبنى على الحب فقط، ولا تكفيه المشاعر الصادقة.

غضب زكريا غضبًا شديدًا وقال لأمه: حسنًا سأتدبر أمري. سأطلبها بنفسي من صديقي. أنا ذاهب لأرحب بعودته وسأطلب يدها منه. وانطلق خارجًا كثور هائج.

رحَّب يوشع بصديقه زكريا أشد ترحيب، وجلسا يتذكران أيام الصيفيات السابقة التي قضوها معا في بيروت. لم يكن من عادة يوشع أن يؤلف قصصًا خيالية لإثارة من حوله كما يفعل زكريا، ولم يكن يتعاطى المشروبات الكحولية، حتى وإن شارك الشباب سهراتهم وأحاديثهم. كان شابًّا كريما، ودودًا، خلوقًا، ملتزمًا يحب الناس كما يحبونه، ويحترم كبير السن ويقدم العون لمن يستطيع، ويبحث عن فرصة لتحسين حالته المادية، لكن أفكاره كانت غير قابلة للتطبيق الفعلي عند إجراء الحسابات العملية. لأنه وببساطة شديدة لم يكن يملك موردًا آخر، يستعين به سوى ثمن جهده العضلي، أما شقيقته كوثر، فكانت توفر بعض المال للأيام القادمة، عملًا بالمثل الشعبي القائل: خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود.

قدمت كوثر الشاي لزكريا، وقالت لشقيقها: صديقك زكريا لم يبخل عليَّ بحجلتين. إنهما في القفص. وضحك يوشع وقال: جيد أنه لم يأتك بأرنب بري لتسلخي جلده.

– كنت سلختُ جلده لو فعل ذلك. وعمَّ ضحك جميل قاطعه زكريا قائلًا: أخي يوشع، أنا وشقيقتك كوثر قررنا أن نتزوج. أقصد أني أطلب

يدها منك وبحضورها. أنت تعرفني كما أعرفك، وليس لديَّ ما أخفيه. انتظرت عودتك على أحرٍّ من الجمر.

نظر يوشع في عيني كوثر متسائلًا، فقالت: نحن لم نتفق بعد. وخرجت من الغرفة خائفة مذعورة.

– حسنًا، سنرى. قال يوشع.

– هل ترفضني يا صديقي؟

– أنا لستُ صديقك الآن. سأسأل أختي، فإن وافقت، سيكون لنا حديث، وإن لم توافق فلنا حديث آخر.

– ستوافق. أنا متيقن من ذلك. قال زكريا بثقة تامة، وهذا ما أربك يوشع فقال: لا بأس. يمكنك الانصراف الآن، سأتأكد بنفسي. ونهض ليجبر زكريا على مغادرة البيت.

لم يبادر يوشع لسؤال أخته، وقرَّر أن يتريث في الأمر، ريثما يستجلي ما وراء الأكمة، فكلام زكريا، كان يوحي بشيء غريب ومريب، من أين جاءته تلك الثقة بنفسه؟ هل طبخا طبختهما وأنا غائب في بيروت، أكدُّ وأعمل ليل نهار لآتيها بالهدايا الجميلة. من هذا الصعلوك ليكون متيقنًا من قبول شقيقتي الزواج به؟ حدث يوشع نفسه. كما لم تبادر كوثر إلى الحديث حول الموضوع نفيًا أو تأكيدًا، لأنها لم تكن متيقنة من مشاعرها ومن صحة اختيارها، وفضلت الصمت قائلة لنفسها: الأيام وحدها كفيلة بحل كل هذه العقد.

مضت الأيام مسرعة رغم رتابتها، وذهب يوشع إلى عمه عبد المجيد لاستشارته في الأمر، فهو يعدُّ كوالده وكبير العائلة، بغض النظر عما فعله في السنوات الفائتة، فالدم لا يصير ماء. استقبله عبد المجيد بفتور مصحوب بشيء من الازدراء وقال له متسائلًا: خير، أي ريح دفعت بك إلينا يا يوشع؟ فقال يوشع على مضض: يا عمي العزيز، هناك شابٌّ تقدم لخطبة شقيقتي كوثر، وباعتبارك عمها، ومثل والدها، رأيت أن من واجبي أن أستشيرك في أمر زواجها. وسمع جواب عمه الصاعق: زوجها، زوجها بسرعة فرائحتها "طالعة"، الرزق الداشر يعلم أولاد الحلال على السرقة.

- ماذا تقول يا عمي؟ سأل يوشع وقد شحب لون وجهه واصفرّ.

- إن كنت تقصدني لهذا الأمر، فقد سمعت جوابي. يمكنك الانصراف.

كانت الصدمة التي تلقاها يوشع كبيرة وصاعقة، فإن كان عمه الكبير في السن يتحدث عن رائحة أخته التي فاحت، فماذا يقول الناس عنها؟ هل أهدرت كوثر شرف العائلة؟ رباه رحمتك وسترك، واستجمع يوشع قواه وخرج قبل أن يقع مغميًّا عليه.

طاف في شوارع القرية هائمًا على وجهه. اتجه نحو البساتين وسؤال واحد يدور في ذهنه: هل فعلت كوثر ما لا يجب أن تفعله؟ هل ارتكبت خطأ؟ وتذكّر كلماتها حين عرض زكريا مطلبه.. لقد سمع ما قالته

بوضوح: لم نتفق حول هذا الأمر بعد. ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن حديثا قد دار بينهما حول زواجهما في أقل تقدير، وربما زكريا من ارتكب حماقة.. من يدري؟ وماذا كان يقصد عمي بقوله: الرزق الداشر يعلم أولاد الحلال على السرقة؟ هذا صحيح. أنا المذنب. أنا من ترك شقيقته وحيدة وذهب للعمل في لبنان..آه .. لهذا السبب رفض زكريا مرافقتي بالذهاب للعمل في لبنان. كان يخطط لهذا الأمر. أي حقير تافه أنت يا زكريا! ومع ذلك عليَّ أن أتيقن من صحة هذه الاتهامات قبل أن تقتلني الظنون، لأن بعض الظن إثم. عليَّ أن أتجنب الوقوع في خطأ فادح، قد يقضي على مستقبلي ومستقبل شقيقتي، أعز إنسان لي في الوجود.

وتناهت إلى مسامعه شذرات من أحاديث تؤكد ما أشار إليه عمه بصريح العبارة. يومًا بعد يوم بدأت تتَّضح الصورة السوداء القاتمة في مخيلته. كان الجميع يؤكد العلاقة اللاشرعية التي تربط زكريا بكوثر. العلاقة التي تعرفها النساء كما يعرفها الشبان والرجال.

كوثر، أختي، حبيبة قلبي، شقيقتي لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا قبلت بهذا الساقط أخلاقيًّا.

لماذا تخونين الكرامة والأخلاق والعرف والتقاليد؟ لماذا؟ وأنت أيها الجبان.. سأقتصُّ منك...سأجعل منك عبرة للآخرين أيها اللعين. أقسم على ذلك. كان يوشع يحدث نفسه ويرسم الخطط لغسل العار الذي لحق به وبشقيقته كوثر.

ذات مساء سأل شقيقته إن كان لديها ما تقوله عن زكريا، فنفت. لم ترغب بالحديث عنه. بل إنها لم تنبس بكلمة، كل ما فعلته أن هزت رأسها نفيًا قاطعًا. أو هكذا شعر يوشع. فحاول مرة أخرى أن يستوضح، أن يستجلي بعض الحقائق، لكن كوثر لم تساعده قط. كانت تخلق الأعذار، لتتملص من الحديث الصريح، قد يكون بدافع الخجل أو الحياء، وقد يكون بسبب ترددها، فبقيت الصورة غامضة، مبهمة في ذهن يوشع، الذي لم يجد لذلك مبررًا، لم تكن ترفضه رفضا قاطعًا، ولم تكن راضية عن الارتباط به، وهذا ما حير عقله، فاعتبر أن الذنب كله يقع على صديقه زكريا، لعله اعتدى على شقيقته، مَن يدري ماذا حدث بينهما في غيابي؟ سأقتصُّ لك يا أختاه. سأقتصُّ لك منه. لن أدعك تعيشين حياتك مع من كسر جناحيك، سأحطمه. سأغرسه في فمه. قال يوشع في نفسه، وهو يعلق الجفت على الوتد المغروس في الجدار الطيني، ثم خاطب كوثر قائلا: سأنام فموعدنا مع الفجر.

***

رائحة ديرفول

- إني أشتمُّ رائحة ديرفول يا مولاي. قالت أمينة وقد لاحت لها في البعيد أضواء ناعسة تقاوم ظلمة الليل الحالك.

- إنها أمام عينيك. قال الإمام. ألم تعرفيها؟

شهقت أمينة، ووضعت يدها على صدرها وفغرت فمها مشدوهة، وقد غمرها الفرح بعد طول عناء، وقالت: رباه .. لم أعرفها، ها هي الطاحونة، وتلك هي المئذنة، وهذه أشجار الحور والصفصاف.. ظننتُ أني أرى أضواء قرية بعيدة عنا.. ألم تقل لي: إن أضعت الطريق في الليل فلا تجري وراء الأضواء، بل وراء الصوت. لأن الصوت يأتي من مسافة قريبة، أما الضوء في الليل فقد يكون على مسافات بعيدة.. لكن كيف لي أن أتوه عن حبيبتي ونور عيني ديرفول.. لن أسامح نفسي.

- ذلك يعود لكثرة ما مررنا به من قرى غريبة عنك.

- الحمد لله الذي أعادنا سالمين إلى ربوعك يا ديرفول. لن أغادرك مرة أخرى. صدقني يا مولاي عرفتها من رائحتها. ألا تشمُّ رائحة مواقدها؟ الله لا يحرمني من دفئك يا ديرفول. هل تحب ديرفول كما أحبها يا مولاي؟

– لا أعرف. أجاب الإمام وشد رسن الجواد ليتوقف عن السير. ثم ترجل عن جواده ونظر فيها وقال: هيا.

هبطت أمينة على الأرض، وقد غابت فرحتها وتحولت إلى قلق خفق له قلبها.

– أمينة. قال الإمام الأزهري في حرج شديد.

– أمرك يا مولاي.

– لا مولى إلا الله يا أمينة.

– ونعم بالله، ماذا تريد مني يا مولاي؟

– أمينة، أنا لا أستطيع اصطحابك إلى منزلي. هذا مخالف لشرع الله. هذا لا يجوز. واعلمي أن كل ما أقوم به في حياتي له هدف واحد، لا أحيد عنه، ألا و هو مرضاة الله "عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون".(يوسف). لقد بذلت كل ما بوسعي لإنقاذك، لكني لا أستطيع مطاردة روح هائمة في وديان وهضاب الطالوعة. عليك أن تواجهي الحقيقة. لقد أعدتك إلى القرية كما طلبت. كنت أظن أني سأجد يوسف، وسأجبره على الزواج منك، غصبًا عنه، حتى لو اضطررت لمواجهته. لكن ما حدث كان فوق الحسبان. هذه مشيئة الله، ولا اعتراض لنا على مشيئته. لا أحد يعرف عن يوسف شيئًا مقنعًا، بل يتجنبون الحديث عنه، هذا أمر محير. لقد سمعت كل شيء، لو كان هناك ذرة أمل بإيجاده لما ترددت. اعذريني. الأمر يفوق قدراتي، وأنا أؤمن بالقدر، فما خطه الله، لن يستطيع عبد مثلي تغييره.

- أتتخلى عني يا مولاي؟ هل تريد مني أن أعود إلى الأحراش؟ سأموت من البرد. أنت تعرف ذلك جيدًا. كيف تتخلى عني؟ أنا لا أصدق ذلك. لقد وثقت بك مولاي..

- أمينة - قال الإمام مقاطعًا - أنا لم أتخلَّ عنك. سأدافع عنك ما استطعتُ. لكن بالعقل، وبما لا يخالف شرع الله. كان عبد الغفار في منزلي حين قَبِلْتُك ضيفة مكرمة، أما الآن، فالوضع مختلف، وأنا لا أقبل بذلك. لا أستطيع.

- مولاي.

- أمينة، لا مفر من مواجهة القدر.. القدر شيء محتّم. لكن علينا أن نتوكل على الله تعالى فهو غفور رحيم، "ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا" (الطلاق) فثقي بالله قبل أن تثقي بي. أنا مجرد عبد من عباد الله، لا أكثر.

نظرت أمينة في عيني الإمام، فأشاح الإمام بعينه عنها. لم يكن قادرًا على تلقي نظراتها. فركت أمينة يديها ببعضهما البعض. حبست دمعة في عينيها. وقالت في نفسها: حان موعد الفراق إذا. ثم قالت للإمام: أقدر صنيعك يا مولاي؟ لن أنس ما فعلته من أجلي.

- ما دامت أمك على قيد الحياة فستحميك. عودي إليها. عودي إلى أهلك.

- مولاي!

– أمينة. لم أعد قادرًا على فعل المزيد. قد أُسيء إليك بقدر ما أسيء إلى نفسي.. سامحني يا الله فأنت عالم بما يختلج في صدري.

عندئذ، أدركت أمينة أن لا مفر لها من مواجهة الواقع الذي يهددها. وأضاف الإمام: لقد قصدتُ أن نصل القرية ليلًا. وها قد وصلنا. الليل ستّار للعيوب.

– لكن ماذا أقول لأمي عن غيابي الطويل هذا؟

– قولي لها إن السيل قد أخذك بعيدًا، وهأنت تعودين الآن بعد طول غياب. قولي لها أي شيء يحميك. سأجلس هنا وأنتظر دخولك إلى شوارع القرية. تجنبي ملاقاة الناس. اختبئي حتى تصلي إلى بيتك، لعل أهلك يساعدونك على إيجاد حلٍّ لا يخطر ببالنا. هيا انطلقي.

سلمت أمينة رسن الحصان الأزرق للإمام وأمسكت بيديه. حاول الإمام التملُّص سريعًا منها، لكنها انحت لتقبل يديه وهي تقول: أرجوك يا مولاي أن تدعو لي بالتوفيق، لأن دعاءك مستجاب، فأنت أطهر إنسان عرفته على وجه الأرض. أنت ملاك في قميص إنسان. وداعًا يا مولاي. سألقاك قريبًا، أنا متأكدة مما أقول، وإن لم يحدث ذلك في هذه الدنيا الفانية كما تقول فسألقاك في الآخرة، سأروي للملائكة ماذا فعلتَ معي.

– أستغفر الله العظيم وأتوب إليه – قال الإمام ودفعها عنه -- هيا انطلقي. سأنتظرك ريثما تصلين البيت، ومن ثم سأدخل القرية. الحذر واجب.. ومن الأفضل ألّا يراك أحد.

انطلقت أمينة تحثُّ خطاها نحو القرية، بينما جلس الإمام القرفصاء وقد اعتراه ألمٌ شديد في ساقيه من ركوب الخيل أيامًا عديدة.

إلهي، سيدي ومولاي، اغفر لي ذنوبي إن أذنبتُ، وسدِّد خُطاي للسير على درب الصالحين والأبرار...إلهي يا حنان يا منان، يا من سِرُّك يقع ما بين حرفين لا ثالث لهما" كاف ونون" فيكون، اهدني إلى الصراط المستقيم، وخذني برحمتك يا أرحم الراحمين. قال الإمام واغرورقت عيناه بالدموع.

تسللت أمينة عبر الأزقة، وهي تتنقل كشبح بين زقاق وآخر. وصلت إلى البيت، اقتربت من الباب، أرادت أن تقرعه، لكنها تراجعت. توقفت لحظات طوال لا تدري ماذا تفعل! سمعت وقع أقدام تقترب من رأس الزقاق.. أسرعت بالابتعاد عن الباب، لجأت إلى زاوية معتمة والتصقت بالجدار، وحبست أنفاسها.. اقتربت الأقدام منها. توقفت عن السير. ثم سطع نور يعمي الأبصار في وجهها، وجاءها صوت غريب يسألها: أمينة؟ وأجابت أمينة على سؤاله بسؤال: مَن أنت؟

– أنا الأستاذ إلياس. لحتُ طيفكِ وأنت تعبرين الزقاق. وأطفأ نور المصباح (البيل) الذي باغتها بنوره الساطع.

– عرفتك. لم أسمع صوتك من قبل، ما هذا الذي تحمله بيدك؟

– إنه بيل يعمل على البطاريات.

– إنه شيء مرعب، لم يسبق لي أن رأيت في الليل نورًا قويًّا كهذا.

– إنه من اختراع الكفار.

– ما الذي تفعله في هذا الوقت من الليل؟

– كنت سهران عند الأستاذ بدر، وأنا عائد إلى منزلي الآن. هذا ما أفعله. لكن أنت ماذا تفعلين هنا؟ أين كنت ومتى جئت؟ الناس يقولون أن السيل جرفك بعيدًا، ويرجحون أنك فارقت الحياة.

– أ...، هو كذلك فعلًا. حملني السيل بعيدًا. وعدتُ الآن.

– إذن لماذا لا تدخلين إلى منزلك؟ شاهدت أمك تبحث عنك مرات عديدة.

– مسكينة أمي. شقية بي.

– كلنا مساكين.

– ربما.

– أنت تخافين من مواجهة أهلك في هذه الساعة؟ أليس كذلك؟

– بكل تأكيد. نعم أنا خائفة، وأتمنى لو أن الأرض قد ابتلعتني لارتحت.

– يمكنك الذهاب معي إلى منزلي، إن رغبتِ بذلك؟

فكرت أمينة قليلًا وقالت:

– هل أنت على قدر من المسؤولية والشجاعة لتتحمل ذلك؟

– أ...، أنا أقترح عليك أن تمضي هذه الليلة لا غير، والصباح رباح.

– حسنًا، سأذهب معك. لكن لا تشعل هذا النور مرة أخرى.

واضمحلا في حلكة ظلام الليل.

كانت أمينة تعرف المنزل الذي يقطنه الأستاذ إلياس معرفة جيدة، وتعرف أصحاب البيت الذين هجروا القرية وانتقلوا للعيش في المدينة، بعد أن وجد رب الأسرة عملًا له في "الريجة" (إدارة حصر التبغ والتنباك) التي أسسها الفرنسيون لضبط زراعة التبغ وتصديره واستيراده. وقد تحوّل عملها الآن لتهريب التبغ ومحاربة تهريبه في آن معًا. لم يكن في المنزل سوى غرفة واحدة من الطابق العلوي صالحة للسكن، كان المنزل أشبه بخرابة كبيرة يسكنها العفاريت والجن شتاء. أما في الصيف فتستوطن بها العقارب والأفاعي السوداء.

أشعل إلياس قنديل الزيت وطلب من أمينة أن ترتاح على الكرسي، فاختارت الجلوس على الأرض المفروشة ببساط فلاجي زاهي الألوان مصنوع من بقايا الأقمشة، وعليه طراحة (مَرْتبة) سميكة. جلس إلياس على طرف السرير المعدني وتفرّس في وجه أمينة وقال: أنت متعبة وربما تفضلين النوم. وقدّم لها لحافًا صوفيًّا سميكًا، أخذته أمينة ولفّت به جسدها.

– ليس لديَّ مخدة (وسادة) ثانية. هذه مخدتي يمكنك أن تضعيها تحت رأسك.

ابتسمت أمينة، وأحست بالخجل الذي ينتاب الأستاذ إلياس من وجودها معه، فقالت له: سأنام هنا على هذه الطراحة. لا تقلق بشأني. شكرًا لك لإيوائي.

وتمددت في الحال وغطت رأسها وجسدها باللحاف.

نفخ إلياس الهواء المحتبس في صدره، وأطفأ نور القنديل، ثم تمدَّد على سريره.

صامتين، حذرين خائفين كانا يستمعان إلى صوتي أنفاسهما، حين سمعت أمينة وَقْع حوافر الخيل. نهضت واقتربت من النافذة. شاهدت الإمام يمر من أمام عينيها كشبح يعتلي جواده الأحمر، الذي بات أسود اللون من حلكة الليل، جارًّا جواده الأبيض الضارب إلى الزرقة، الذي اشتمَّ رائحتها فالتفت نحوها، وهَزَّ برأسه، وكأنه يودعها، أو هكذا أحست أمينة، وقد سالت الدموع من عينيها.

لحظة أرادت أمينة أن تنادي الإمام، لولا أن جاءها صوت إلياس محذرًا:

– من الأفضل أن تبتعدي عن النافذة، فالعيون بصيرة واليد قصيرة.

مسحت أمينة دموعها بطرف كمِّها، ثم تسللت إلى الفراش لتغطَّ في نوم عميق.

***

فدوى

نثرت كوثر بعضًا من حبيبات الذرة البيضاء في قفص الحجال، وخرجت إلى أرض الديار تحمل كرسيًّا صغيرًا من القش، لتنعم بحرارة الشمس التي سطع نورها قويًّا. كانت قطرات الماء تتساقط من الأغصان العارية لعريشة العنب، الممتدة على طول الليوان الحجري من دفء حرارة الشمس، وكانت عصافير الدوري، في حركة نشطة بعد أن ذاب الثلج وبان المرج، تتنقل قافزة على ساقيها، من مكان لآخر، ثم تفر عاليا لتعتلي الأسطح وكومة العيدان، ومن ثم تعود من جديد لتبحث في الأرض عن طعام لها.

أخذت كوثر بعضًا من الذرة البيضاء ونثرتها للعصافير التي فرت هاربة، ثم عادت واحدًا تلو الآخر لتلتقط حبيبات الذرة في حركة مستمرة من التحليق والهبوط.

سقطت "مضعة" (فضلات الطيور) عصفور على شالها الأسود، الذي كانت تغطي به رأسها، فابتسمت كوثر وقالت في نفسها: حتى أنت أيتها العصافير، أنا أقدم لك الذرة البيضاء، فتردين على جميلي بمضعة تُلوِّث شالي. أشكوك لله.

جلستا صامتتين. جالت فدوى بناظريها في أرض الديار. لم يسبق لفدوى من قبل أن دخلت هذا المترل، كما أنها لم يكن من عادتها أن تزور أحدًا.

– هل كنت تحبينه؟ سألت فدوى بعد صمت طويل. فأومأت كوثر برأسها إيجابًا، ابتسمت فدوى وقالت: سيرتاح زكريا في قبره عندما يسمع ذلك.

ثم أضافت بعد صمت طويل: أنا لم يحبني أحد.

– سأعد لك فنجان قهوة. قالت كوثر ومضت إلى المطبخ لتضع الركوة النحاسية على نار البابور (بريموس) اليبرودي، ووقفت خلف النافذة تراقب فدوى من خلال الزجاج. لم تتحرك فدوى من مكانها وظلت تتأمل العصافير وحركتها كما كانت تفعل كوثر.

قدمت كوثر فنجان القهوة لضيفتها، وجلست تشاركها احتساءها بصمت ثقيل.

– أخي زكريا رحمه الله، كان يتحدث عنك كثيرًا.

نكست كوثر من رأسها وقالت: الله يرحمه، كان طيب القلب.

– كان مفتونًا بك.

أحست كوثر بالحياء، وانكمشت على نفسها، ثم قالت: الحقيقة أني لم أعده بشيء. كنتُ أخاف من فوضويته.

ابتسمت فدوى وقالت:

– هو كذلك فعلًا، وهذا سر جماله. كان فوضويًّا، ولم يكن قادرًا على إخفاء مشاعره نحوك. كان قلبه منفتحًا للجميع، كان يتحدث عنك بشغف وحبٍّ كبيرين.

– وماذا كان يقول؟ سألت كوثر تلقائيًّا وقد تحرك الفضول فيها.

ألقت فدوى نظرة غامضة مع ابتسامة صغيرة وكأنها تقول لكوثر إنها على علم بكل تفاصيل علاقتهما. تلك التفاصيل التي لا تعلمها كوثر لأنها كانت من صُنع خيال زكريا. ولم تدرك كوثر سرَّ غموض ابتسامة فدوى فقالت: بكل الأحوال، كنتِ معجبة به. لا أنكر ذلك. كنتُ أشعر بالسعادة حين ألقاه. كان يساعدني في حمل مشترياتي من السوق.. ذهب معي مرات عديدة.. ربما، كنت سأوافق على الارتباط به، لكن القدر أخذه منا. الله يرحمه. لن أنساه. نعم أحببته. أقولها لك بصراحة تامة. كنتُ أقلق حينما يغيب عني، وبماذا تفسرين ذلك؟ سوى بالحب.

– تعجبني صراحتك. لو كنتُ مكانك لما تجرأت بالبوح بما في قلبي. ربما يعود ذلك أنك تحملت المسؤولية وأنت صغيرة. عشت حياتك دون رقيب أسروي حقيقي.

– ربما. لكني أتمنى لو أني عشتُ برعاية والدي.

– أين أخوك يوشع؟ أنا لا أراه في المترل.

– عاد يوشع إلى بيروت. منذ مدة. قالت كوثر، وأشاحت بوجهها لتتجنب النظر في عيني ضيفتها.

– ومتى سيعود؟ سألت فدوى.

– لا علم لي. ربما ألحقُ به. قالت كوثر دون تفكير بما تقوله. هكذا خطر في بالها فنطقت به.

– كان زكريا كثير الكلام عن بيروت.

– لا أعرف. لم يحدثني عنها قط.

– حسنًا. – قالت فدوى ونهضت واقفة. – سأذهب الآن.

– كما تريدين. يمكنك زيارتي حين تشائين.

– نحن حزينتان على فراقه ..أليس كذلك؟

– طبعًا.

وخرجت فدوى دون أن تودع كوثر التي أغلقت الباب خلفها، وتنفست الصعداء، وكأن حِملًا ثقيلًا انزاح عن صدرها.

صعد الأستاذ إلياس درجات السلم إلى غرفته، وهاجس أمينة يأكل صدره ولا يفارق مخيلته. هل غادرت البيت؟ أم أنها لا تزال في انتظاره؟ مشاعر متناحرة، متضاربة تتصارع في وجدانه. الخوف والإقدام، الحب والكراهية، المروءة والخذلان.

كان إلياس يتمنى من كل جوارحه أن يجد أمينة تنتظره في غرفته الكئيبة، في الوقت ذاته، كان يتمنى لو أنها تغادرها دون أن يضطر لطردها، لما تشكله من خطر جسيم على حياته. المسألة خطيرة – قال إلياس في قلبه الذي لم تفارقه صورتها طوال النهار، وهو يلقي دروسه على التلاميذ – بل خطيرة جدًّا. سيقتلونني بكل تأكيد. هؤلاء لا يقبلون المزاح في مواضيع كهذه . كيف لي أن أبرر لهم وجودها في منزلي؟ منزلي مكشوف لكل المارة، جدرانه منهارة منذ زمن بعيد، وأي عابر يمكنه رؤية ما بداخله. لكن من سيخطر بباله أن تلجأ أمينة إليّ؟ هذا مستحيل. لم يسبق لأحد من أهالي القرية أن زارني في غرفتي. حتى الأستاذ بدر.

كان أهالي القرية ينادونه من باب الدار لدعوته لتناول طعام الغداء إكرامًا له، وكان سعيدًا بذلك. لم يمضِ أسبوع دون أن يتلقى دعوة أو اثنتين للغداء، أما الأمسيات فكان يقضيها عند الأستاذ بدر، حيث يجتمع لديه من كل ما هبَّ ودبَّ من الناس، من البدوي الذي يسرح بقطيعه طوال النهار، إلى وجهاء القرية و"ساستها" الكبار، أو هكذا على الأرجح كانوا يظنون أنفسهم.

بددت رائحة الدفء والدخان المتصاعد من سطح الغرفة تساؤلاته. كان الجواب صريحًا واضحًا..أمينة ما زالت في المنزل.

قرع الباب قليلًا، ثم فتحه بهدوء، ليجد أمينة، جالسة قرب موقد النار تتدفأ، وهي تُسرِّح شعرها الكستنائي المنسدل حول عنقها الجميل، محيطًا بوجنتيها المتوردتين.

– ها قد عدتَ أخيرًا – قالت أمينة – اعذرني، لقد غسلت شعري، فأنا لم أستحم منذ شهور، خفتُ أن يسرح القمل في رأسي. غسلت رأسي بالصابون.

– حسنًا فعلت. يمكنك أن تستحمي، أنا عائد للمدرسة، فلدينا دوام ما بعد الظهر. نحن نداوم ثلاثة أيام بعد الظهر كل أسبوع. هي دروس لا قيمة لها عندنا. فهي مخصصة للأشغال اليدوية وللرسم والموسيقا، وجميعها لا وجود لها في عالمنا. سنأكل قليلًا وسأغيب مدة ساعتين، يمكنك أن تستحمي.

شعرت أمينة بالخجل الشديد. أحست كأنها تقف في عتبة البيت عارية تغتسل أمام عينيه.

– سامحني يا أستاذ – قالت أمينة – كنتُ أعددت لك طعامًا، لكني لم أجد ما أطهوه لك.

ضحك الأستاذ إلياس وقال: أنتِ مُحقّة. أنا لا أطبخ أبدًا. إن اضطررت، أسلق أو أقلي بعض البيض مع البطاطس، هذا ما أجيد صنعه لا غير، وها قد أحضرت كثيرًا منه. من النادر أن يدعني أهل القرية أتناول الغداء بمفردي. هم كرام جدًّا. لقد اعتذرت عن دعوة الغداء هذا اليوم لآتيك ببعض البيض لتأكليه. أعرفُ أنك جائعة. في المساء سيجلبون لي علبة من اللبن الرائب. لن نموت جوعًا.

كان أستاذ إلياس يتحدث، وكأن أمينة قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياته، وهذا ما دفع أمينة لتقول: هذا يعني أنك لن تطردني. سأبقى لديك حتى يحل الربيع. في الربيع سأتدبر أمري.. بقي شهران.. لن أثقل عليك.

عاد الخوف وتملّك قلبه. نكّس رأسه مُتجنبًا النظر في عينيها الشهلاوين كشهد العسل. وشعرت أمينة بذلك فقالت: لا بأس، سأغادر حين تغيب الشمس، لا أريد لأحد أن يراني. سيخبرون الشيخ عبد الله. أنا لا أحب الموت.

– لا، لا، أنا لا أطلب منك ذلك. أنا خائف عليك فقط. قال إلياس بتردد جلي. سنفكر معًا في الأمر. يمكنك البقاء .. قد نجد حلًّا مريحًا لك ولي. أنا لا أسمح لنفسي بالتخلي عنك بهذه البساطة، علينا أن نفكر بحل ما، بطريقة ما نحميك. أنت في خطر شديد، بتُّ أشعر به الآن. لا تخافي، ولا تقلقي، سنفكر بهدوء وروية.

– حسنًا، لكني أراك قلقًا أكثر مني. وضحكا بصوت خافت.

على عجلٍ تناولا الطعام وخرج إلياس مُودِّعًا.

المصيدة

قُبيل الزوال دخل الإمام منزل عبد الغفار حاملًا بيده شيئًا من الطعام، واعتلى الدرجات وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم خشية مفاجأة لم يحسب لها حسابًا، وحمد الله وشكره لأنه لم يجد عبد الغفار قاعدًا على الدرج. قرع الباب كعادته، وسمع صوت حركة خفيفة داخل الغرفة، فأيقن أن عبد الغفار بصحة جيدة ما دام قادرًا على الحراك. لم يفتح عبد الغفار الباب للإمام، كما لم يسبق له أن فتحه لطارق.

دفع الإمام الباب أمامه، فشاهد كومة من العيدان تمنعه من الدخول أو المرور. نظر إلى داخل الغرفة وشاهد عبد الغفار جالسًا القرفصاء في الزاوية.

– هذا أنت؟ ظننتك هو. هذا موعد قدومه. قال عبد الغفار.

– ما هذه العيدان؟ لماذا تضعها خلف الباب؟ ضعها قرب الموقد إن أردت أن تشعل النار لتتدفأ. قال الإمام وأراد أن يدوس على العيدان ليخطو داخل الغرفة، فصرخ به عبد الغفار محذرًا: إياك أن تدوس بقدميك على العيدان. ستسقط.

وتنبّه الإمام الأزهري، بعد أن تفرّس في كومة العيدان، وشاهد شيئًا من الفراغ الدامس وقال: ما الذي فعلته؟ ما الذي تُخفيه؟

– هذه مصيدة. كفوهة التبان، مغطاة بالعيدان. هو لا يعرف ذلك. سيسقط في الحفرة.

– هل ثقبت أرض الغرفة؟

– نعم. ليسقط في العنبر وأحبسه فيه. هذا سيحدث لا محالة. وسأبصق عليه طوال الليل.

كان عبد الغفار قد أحدث فوهة كبيرة، بعرض باب الغرفة، وغطاها بالعيدان الرفيعة التي كانت ستتكسر إن وطئتها الأقدام، واحتفظ لنفسه بسر المرور عبرها، فهو الوحيد الذي يعرف موطئ القدم لعبورها.

– حسنًا. قال الإمام. جئتُك ببعض الطعام.

– أنا لست بحاجة إليه اليوم. اجلبه لي غدًا. أنا لا آكل في الليل.

– وهي؟ أما زالت تأتي إليك؟

ضحك عبد الغفار مسرورًا وقال: طبعًا. في كل ليلة. أنا أنام معها أمام عينيه حتى الصباح وهو لا يستطيع أن يفعل شيئًا. سيموت من غيظه.

– وكيف تدخل إليك؟

– هذا سِرٌّ كبير. أنا وهي، وحدنا من يعرفه. هو سِرُّنا المشترك.

– ألا تريد إخباري به؟

- أتطلب مني أن أخونها. خسئت. هيا اغرب عن وجهي. لقد سئمتُك.

- حسنًا. وداعًا.

- لا تنسَ أن تجلب لي الطعام غدًا.

ابتسم الإمام، وأغلق الباب وعاد ليهبط درجات السلم عائدًا إلى منزله وهو يقول: لله في خلقه شؤون.

في الطريق إلى المنزل، التقى الإمام بياسر الأمي، الشيوعي العنيد، الذي بادره بالتحية ثم قال: لم نَرَك في عزاء زكريا، أهناك خلاف بينك وبين أبيه يمنعك من تقديم العزاء له في مصيبته؟

لم يكن الإمام قد سمع بمقتل زكريا بعد. فسأل: عزاء زكريا؟! زكريا ابن مَن؟

- زكريا ابن أبي عدنان؟ ألم تسمع بمقتله؟ أين كنتَ أيها الإمام؟ ألم تكن في القرية طوال هذه الأيام؟ هل كنتَ غائبًا عن جنازته؟

- لا. لم أكن في القرية. أستغفر الله العظيم. متى حدث ذلك وكيف؟ مَن قتله؟

- أنت في وادٍ والعالم في وادٍ آخر. وجدوا جثته في رَجْمِ الخَرَج. دفنّاه، ثم جاءت الشرطة ونبشت القبر لتعاين الجثة، وسجلوا محضرًا طويلًا ضد مجهول. لا أحد يعلم كيف ومَن قتله ولماذا! هناك إشاعات كثيرة، لن أسوقها الآن.. لكن أين كنت طوال هذه المدة؟

– هذا ليس مهمًّا الآن، وداعًا. سأذهب لمواساة أبي عدنان فهو رجل طيب. كان الله في عونه. وافترقا. وقرأ الإمام في قلبه "وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت" (لقمان). صدق الله العظيم.

***

صفيحة من نار

ألقى إلياس كومة كبيرة من العيدان اليابسة قرب الموقد، وأحضر قرمة شجرة صفصاف مع جذعها ووضعها جانبًا، ثم حمل صفيحة معدنية مليئة بالماء البارد، وثبتها بتأنٍّ فوق منصب الموقد ذي الأرجل الثلاثية، المثبتة بدائرة من الحديد الصلب، ثم أدخل العيدان الصغيرة في الجمر، ونفخ فيه قليلًا، ليتطاير الرماد في الهواء، ولتشب النيران في العيدان الرفيعة.

كانت أمينة تراقب ما يفعله إلياس بهمة ونشاط فسألته ساخرة: ماذا تفعل؟ هل تنوي الاستحمام؟

– لا، قال إلياس: هذا من أجلك. أنت من سيستحم بالماء الحار لتنظفي نفسك قليلًا.

– لا، لن أفعل. لقد غسلت شعري وهذا يكفي.

– يمكنني أن أنتظرك في الخارج، أو يمكنني الذهاب إلى بيت الأستاذ بدر، كما تريدين، لكن عليك الاستحمام قبل كل شيء. لأني أخاف أن ينتقل القُمل إليَّ، إن كان يعشعش في جسدك، وتلك ستكون مصيبة ما

بعدها مصيبة. أنا أستاذ مدرسة، ونحن نقوم في صباح كل سبت بالكشف على رؤوس التلاميذ، ونعاقب من نجد في رأسه قملًا.

– قد يكون عالقًا في ثيابي. ما أدراني؟ مع أني لم ألحظ ذلك، وأطمئنك بأن الحكة التي كنت أعانيها زالت بعد أن غسلت رأسي.

– هذا يؤكد أن القمل يسرح في ثيابك، وعليك أن تغسليها، في الحال بعد أن تستحمي.

وضحكت أمينة وقالت باستهزاء: أستاذ إلياس ماذا تريد مني؟ هل تريد مني أن أقف عارية أمامك؟ إن كنت ترغب بذلك فقله ولا تتردد.

– أمينة، سأعطيك قميصًا و سترة وبنطالًا من ثيابي. وسأعطيك ثيابًا داخلية. لا تقلقي.

فضحكت أمينة بفرح وقالت: أتريد مني أن ألبس لباسًا رجاليًّا؟ يا إلهي! كم أنتَ غريب الطبع!

– حسنًا، يمكنك أن تلفي جسدك بالشراشف، وتنامي تحت اللحاف. سنضع ثيابك بعد غسلها وعصرها جيدًّا قرب النار لتنشف حتى الصباح.. ما رأيك؟

– لا، لن أفعل.

– حسنًا. كما تشائين. قال إلياس. وجلس إلى الطاولة ليفتح كتابًا كبيرًا راح يقرأ فيه.

لم تعد أمينة قادرة على الجلوس مطمئنة البال. هل يرغب هذا الأستاذ المتكبر ككل الرجال أن يلتصق بها؟ أم تراه حقًا يخاف من القمل أن يسرح في جسده؟ قد يكون على حق. كيف لي أن أعلم بالغيب! كان عليَّ أن استحم عصرًا عندما طلب مني ذلك – قالت أمينة محدثة نفسها – حمقاء. أنا مجرد أنثى حمقاء. يتحكم بي الرجال كما يشاؤون. ربما يفعل ذلك ليطردني؟ إنه يخيرني بين أن أستلقي في أحضانه أو أغادرْ هذا البيت! ولِمَ يفعل ذلك؟ يستطيع طردي ككلبة حين يشاء. قد يكون على صواب. فلم تعد رائحة البرية النقية تفوح من جسدي، لم أعد أستحمُّ بماء المطر كما كنت أفعلُ من قبل. قد تكون رائحتي مثل رائحة معزاة أو نعجة؟ لماذا لم أستحم عصرًا؟ كان عليَّ أن أفعل.

وأراحت رأسها على راحة كفها، بعد أن استندت بمرفقها على ركبتها، وتفرسته وهو جالس دون حراك، يقرأ في كتاب سميك. ظنت أمينة أنه لا بد يقرأ في كتابهم فسألته: أنت مسيحي، أليس كذلك؟

التفت إليها إلياس ونظر إليها متأملًا وقال: نعم، أنا مسيحي. هل لديك مشكلة في ذلك؟

– لا. أراقبك وأنت تقرأ في قرآنكم. ضحك إلياس وقال لها: هذا الكتاب ليس بقرآننا. قرآننا ندعوه بالكتاب المقدس، ويحتوي على العهد القديم والعهد الجديد. الكتاب الذي بين يدي هو كتاب في التاريخ القديم.

– ظننت أنك تقرأ في القرآن، فالكتاب سميك مثله.

– أنا أدرسُ التاريخ.

– تدرس؟

– نعم. أنا ما زلتُ طالبًا في الجامعة وأدرس التاريخ.

– أتريد أن تسخر مني؟ أنت معلم فكيف تدرس؟

– سأشرح لك فيما بعد. ها هو الماء أخذ يسخن في الصفيحة.

– إني أتعرق من شدة الحرارة. غدا سأستحمُّ عندما تذهب إلى المدرسة.

كما تشائين. قال إلياس وعاد لمتابعة القراءة في الكتاب.

عادت أمينة لتتأمل هذا الكائن الغريب. ابتسمت في سرِّها. لقد اكتشفته على حقيقته، فهو مثل كل الرجال، لكنه لم يلتصق بامرأة من قبل. هو خجل كفتاة عذراء، إنه يطلب مني ما يطلبه كل الذكور. لكنه لا يعرف من أين وكيف يبدأ. ربما يريد من جسدي أن يكون نظيفًا شهيًّا ليمتصَّني، ليطبع قبلاته في مسامات جلدي لتخترق أعماقي. الرجال هم الرجال، لا يختلف بعضهم عن بعضٍ حين تثار غرائزهم. سأرى.. ربما يتصنع القراءة .. ما أدراني؟ مضحك أنت يا أستاذ إلياس.. الأمر بسيط للغاية، ولا يحتاج لكل هذه الأحابيل. سأغسل قدمي جيدًا.. نعم عليَّ أن أغسل قدمي جيدا .. قدماي متعبتان.. لقد سرتُ طويلًا عليهما.. لقد فقدتا الكثير من جمالهما. جمال المرأة من جمال قدميها. هكذا قالت لي أمي

ذات مساء. وعلمتني كيف أكشط الجلد بالحجر أو بالسكين. إن أردت أن يحبك زوجك، قالت أمي، فاعتني بجمال قدميك، الرجال يبحثون في الباطن بعد نظرهم الخارجية.. الرجال تسحرهم الأقدام الجميلة، فهي تعني لهم الشيء الكثير، لأنها الدليل القاطع على اعتناء المرأة بجمالها وبأنوثتها. احذري من الحب الكبير. لا تغرقي فيه.. ولا تغرقي الرجال معك. الرجال يكرهون النساء كرهًا فظيعًا، بقدر محبتهم لهن. كلما ازداد الحب، ازدادت الكراهية، لأننا نحن النساء الوحيدات القادرات من بين كل المخلوقات على نزع تلك الهالة عنهم، وكشفهم على حقيقتهم، هم يعرفون ذلك، ولا يستطيعون الخلاص من سطوتنا..إنهم ضعفاء أمامنا، إنهم يتساقطون أمامنا كعصف مأكول.. يتوسلون، يكاذبون، يتصنعون، يفاخرون، وفي النهاية يرتمون كخرقة بالية غير قادرة على الحراك. نحن من نستحوذ على قواهم. لأن قواهم وهمية.

وسمعت أمينة صوت حسيس النار وطقطقة الجمر المحترق، وشاهدت البخار يتصاعد عاليًا كالدخان من صفيحة الماء.

اقتربت من النار الملتهبة، فرمقها إلياس بنظرة خاطفة.

– حسنًا – قالت أمينة – سأستحمُّ.. كما تريد، لكن عليك أن تتجنب النظر إليّ، فأنا لا أحبُّ ذلك.

– ستجدين الليف والصابون على الرف قرب الباب.

– أعرف مكانها. لكن هل يمكنك أن تتابع قراءتك ريثما أستحمُّ.

- سأفعل. ومِن الأفضل أن نضع ستارة بيني وبينك. لا تهتمي بذلك. سأصنعها لك.

نهض إلياس وأخذ شرشفًا كبيرًا و ربط زاويتيه بخيطين من القنب، ثم ربط الحبال بأبواب الكتبيات الخشبية المنقوشة بإتقان بديع، وعاد لمتابعة القراءة. أو هكذا تصنَّع.

حملت أمينة صفيحة الماء الحار إلى العتبة الأسمنتية وقالت: سآخذ الماء البارد من الجرة. هل تمانع؟

- لا بأس. أجاب إلياس دون أن ينظر فيها.

كم هو خبيث؟ قالت أمينة. سنرى. وخلعت ثوبها ورمته على أرض العتبة، وانتظرت قليلًا لتراقب ردة فعله. لم يتحرك إلياس من مكانه.

سكبت كيلًا من الماء على الأرض، فسمعته يقول: سأضع مزيدًا من العيدان في الموقد.. لا تكترثي ولا تضطربي.

بواسطة ملقط نحاسي طويل الذراعين أزاح إلياس المِنصب الحديدي المحمر من الموقد و وضعه جانبًا، ثم جَرَّ قُرمة الصفصاف، ليرمي بها في لجة النار، وقال: هذه كفيلة بتدفئة البيت حتى الصباح. فلا تقلقي. لن يصيبكِ الزكام. فضحكت أمينة في أعماقها وسكبت الماء الحار على جسدها، الذي ارتعش بقوة وشوق للماء الدافئ، الذي لم يلامس جسدها طوال أيام الشتاء.

- أليس لديك حجر حمام؟ سألته أمينة.

- لا، ليس لديَّ. أجاب وقد باغتته بسؤالها.

- إذًا أعطني سكينًا.

- سكين! ما الذي تنوين فعله؟

- هذا من شأني.

- لا يوجد لديَّ سوى سكين واحدة، هي قربك ..إلى يمينك.

- وجدتُها. شكرًا لك. لا تخشَ سأنظفها.

- لا أعلمَ ماذا ستفعلين بها؟ المهم ألا ترتكبي حماقة.

ضحكت أمينة. هل تظن أني سأقتل نفسي؟ لن أفعل. أنا أحبُّ الحياة، ولا أحب الموت. هكذا أنا الآن. أليس جريمة أن يموت جسد كهذا قبل أن يهب الحياة ما تستحق؟ كنتُ أودُّ لو رزقني الله بعدد من الأطفال بعدد أصابعي.

ضحك إلياس والتفت نحوها وسألها: هل أحصيتِ عدد كل أصابعك؟

- عشرون. قالت أمينة. أحصيتها مرارًا وتكرارًا.. أصابع قدميّ ويديّ.

- شاطرة. قال إلياس. مندهشًا من رغبتها في إنجاب هذا العدد الكبير من الأولاد.

- تقول أمي إن جدتي حبلت خمسًا وعشرين مرة. ماتوا جميعًا وبقيت أمي وحيدة. لذلك سموها عائشة لأن كل إخوتها ماتوا وهم صغار.. عاشوا سنة أو سنتين وماتوا.

- يبدو أن جدك كان ..

وضحكت أمينة وهي تسكب الماء الحار على جسدها وقالت: أكيد، رجال أيام زمان ليسوا كرجال اليوم .. "فطسانين".. هكذا تقول أمي. ثم أخذت تكشط بالسكين جلد قدميها بقوة لتزيل طبقات من تعاسة أيام خلت.

- عندما هربتِ والحجارة تلاحقكِ، تصورتك كمريم المجدلية. قال إلياس.

- هل كنتَ حاضرًا؟ سألت أمينة وتوقفت عن كشط جلدها.

- نعم. كنتُ حاضرًا. لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئًا. كان منظرًا مريعًا، مرعبًا.

هل سمعت صوت الإمام وهو يصرخ بي؟

- نعم سمعت الشيخ عبد الله يحثهن على رجمك.

- لا، أنا أسألك عن شخص آخر. وعادت لتكشط الجلد عن قدميها.

- كان الجميع في حالة من الجنون. وأنا غريب. لم أكن أعرف معظم رجال القرية.

- ومَن مريم تلك التي تَشْبهُني؟

- أنتِ تشبهينها. لا أعرف قد أكون مخطئًا.. هكذا تخيلتك.

- مَن هي؟ هل هي مِن بلدك؟

- نعم. هي من بلدي وبلدك يا أمينة. سأحدثك عنها فيما بعد، عندما تنتهين من عملك.

- انتهيت. سأجفف جسدي بمنشفتك. لو سمحت أن ترمي لي بشرشف كبير. سألتفُّ به وأندس تحت اللحاف كما اتفقنا.

غطت أمينة نفسها باللحاف الصوفي، بعد أن نشرت ثيابها قرب النار المتوهجة وقالت له: حدثني الآن عن مريم. بماذا تشبهني؟

جلس الأستاذ إلياس إلى جانبها، وأخذ نفسًا عميقًا، وقال: كانت هناك امرأة فائقة الجمال، من قرية المجدل، التي تقع إلى الغرب من بحيرة طبريا في فلسطين، وسموها المجدلية نسبة لقريتها.

- أنا الديرفولية. قالت أمينة وضحكت سعيدة بالرواية.

- كانت مريم فتنة للناظرين - تابع إلياس سرد الرواية - جميلة، ساحرة، مغرية، يترصدها الشبان من زقاق لآخر. كتب فيها العشاق أشعارًا وقصائد عديدة، ورموا في حجرها الأموال من فضة وذهب، لينعموا بالنوم معها في سرير واحد. لكنها كانت تختار العشاق وفقًا لمزاجها. لم تكن المجدلية ترضى بالنوم مع أيٍّ من كان من الرجال، ومهما يقدموا لها من أموال أو هدايا. اختارت لنفسها سبعة من الرجال، كانت تمنح جسدها لكل واحد منهم في يوم محدد، كانوا ينامون معها، واحدًا

تلو الآخر، مقابل تقدمات وعطاءات كبيرة. لكن المجدلية لم تكن تحب أيًا منهم. كانت تحب شابًا وسيمًا فقيرًا اسمه باراباس. يقولون إنه كان لصًا فاجرًا، ولستُ متيقنًا من مزاعمهم التاريخية. باراباس هو الشخص الوحيد الذي كان يلتصق بها دون أن يدفع قرشًا واحدًا. كانت المجدلية هائمة، مولعة به. امتلك باراباس فؤادها، فأحبته من قلبها.

– كم هو صعب اسمه! لن أحفظه مهما أحاول.

– شعر الأغنياء الكبار بالغيرة من غرامها و ولهها به، أولئك العُجز المتصابون بأموالهم الطائلة، فدعوا بعض الفريسيين لضبطها بالجرم المشهود. ليقتلوه، ليصلبوه.

– مَن دعوا؟

– الفريسيين، وتعني المميزين يا أمينة، هم مجموعة من رجال الدين اليهود، كانوا يتميزون عن غيرهم من العامة، بعلمهم ومعرفتهم بالكتاب المقدس، والوصايا العشر، التي جاء بها النبي موسى في جبل سيناء.

وهكذا وقعت مريم في الفخ. ضُبطت مع باراباس في فراش واحد. جرُّوها من شعرها، سحبوها إلى داخل الهيكل، حيث كان المُخلّص يعلم الناس ويُرشدهم إلى الصواب، وقالوا له: لقد ضبطنا هذه المرأة بالزنا، كانت تزني مع فاجر مثلها، فماذا تقول فيها؟ آباؤنا يقولون برجمها، فماذا تقول أنت؟

بقيَ المخلص صامتًا. فكرروا عليه السؤال، وطلبوا منه إجابة صريحة.

نهض المُخلّصُ من مكانه، واقترب من المرأة الزانية. كانت المجدلية في حالة يرثى لها، مشعثة الشعر، ثيابها ممزقة والدم يسيل من فمها. تفحص المخلص المرأة جيدًا. نظرت مريم في عينه، ورأى المخلص نور الإيمان يشعُّ من عينيها .. ابتعد عنها، وجال بنظره في المجتمعين، وقال لهم: من كان منكم بلا خطيئة فليرمِها أولًا بحجر.

تساقطت الحجارة من أيديهم، قُدامهم، على الأرض.. لم يرشقها أحد بحجر.. لأننا نحن بشر، والبشر خطاؤون. منذ أن خلقنا، وآدم أول الخطائين.

ابتعد الناس المجتمعين من حول مريم. تركوها متكومة في صحن المعبدِ. لم تمضِ لحظاتٌ حتى غاب الجميع، وبقيَ المخلص معها. اقترب منها وسألها: أين هم أولئك الذين يطالبون بإدانتك؟ نظرت مريم حولها، فلم تجد أحدًا منهم، فقالت: لا أحد. فقال لها وأنا أيضًا لا أدينك. تلك هي حكاية مريم المجدلية.

هل أعجبتك الحكاية يا أمينة؟

لم ترد أمينة على سؤاله.. . كانت قد غرقت في نوم عميق.

***

كلام الليل يمحوه النهار

شيَّع أهالي القرية سيارة الكرايسلر الفاخرة بنمرها اللبنانية حتى غابت عن أعينهم، ثم أطلقوا العنان لمخيلاهم، حول الرجال الثلاثة، الذين جاؤوا لتناول الغداء في منزل الأستاذ بدر. لم يسبق لأهالي القرية من قبل، أن شاهدوا سيارة فاخرة من هذا النوع، كما لم تقع أبصارهم من قبل على لفائف تبغ ثخينة وطويلة، كالتي كان يدخنها الرجال الثلاثة داخل سيارهم الفارهة وهي تعبر من أمامهم، لتتجه نحو الغرب.

كان الشبان قد شاهدوا السيارة الفاخرة حين وصلت ظهرًا إلى مدرسة القرية، وذلك عند انتهاء الدوام، فرحَّب بهم الأستاذ بدر أشد ترحيب، ثم استقل السيارة إلى جانبهم، وقادهم إلى منزله القابع في وسط القرية، والمطل كبقية بيوها، على البساتين التي تمتدُّ جنوبًا حول جدول "السعن الأسود".

لم يتجرأ أحد على قرع باب الأستاذ بدر خلال وجود الضيوف الكبار في منزله، وظلوا يحومون حول البيت، والفضول يأكل أمعاءهم. منهم من تجرأ على الاقتراب من السيارة الفارهة ليتأمل جمالها الأخاذ،

ومنهم من كان يرصد بحذر شديد، ظهور هؤلاء الغرباء المتأنقين فوق العادة.

- أخي لا داع لطول الكلام، أستاذ بدر شخصية فذة وكبيرة. شخصية معروفة على مستوى كبير، والله وحده يعلم سره. قال مروان، وانطلق عائدًا إلى بيته بعد انتهاء ذلك العرض الكبير. وتبعه غالبية الحاضرين، الذين أحسوا بالجوع الشديد، لأنهم لم يتوجهوا إلى منازلهم ساعة الغداء، كيلا تفوتهم فرصة متابعة آخر الأخبار.

في الوقت ذاته، كان الإمام يقرأ سورة النحل، بعدما انتهى من قراءة سورة الحِجر، وقد لفَّ جسدَه بعباءة الصوف اتقاء للبرد. وعلى الرغم من أنه كان يحفظ الكتاب "من الجلدة للجلدة" عن غيب كما يقولون، لكنه كان يستمتع بالتواصل مع الله العلي القدير، من خلال قراءته لآيات الله البينات، المخطوطة بخط عربي جميل، قام الإمام بنفسه، بنسخه، عندما كان ينهل من علم الأزهر الشريف، في مصر البعيدة. كما كان إلى جانبه، عدد من المخطوطات الفريدة، المليئة بالحواشي المكتوبة بحبر أحمر وأخضر.

لم يدرِ الإمام ما دفعه لإعادة قراءة بعض التفاسير، والتيقن مما جاء فيها، من اجتهاد خصَّ به الله الراسخين في العلم والمعرفة، بأسرار التنزيل الحكيم.

كان الإمام فيما مضى من الأيام، شغوفًا بدراسة فلسفة المعتزلة، الذين اعتمدوا مبدأ الأخذ بالعقل لا بالنقل، حتى لو خالف ذلك نصًّا صريحًا في كتاب الله جل وعلا، كما اطلع على كتابات الأشاعرة، الذين وافقوا المعتزلة في إحكام العقل، لكن شريطة عدم تعارضه مع النقل، ووظّفوا العقل في خدمة العقيدة لا غير، ورفضوا رفضًا قاطعًا الأخذ بما يخالف ذلك، كما استرعت انتباه الإمام "تحف إخوان الصفا" و"رسائل إخوان الصفا" الذين سعوا جاهدين، للتوفيق ما بين العقيدة والحقائق الفلسفية، المبنية على العلوم الرياضية، ومن هنا تولّد لدى الإمام ولع شديد بالعلاقة الجدلية ما بين الأحرف والأعداد، وعكفَ طويلًا على دراسة أسرار الأعداد، ومكوناتها، ومحتواها الباطني الفلسفي. كما اهتم بتفسير الطبري ودراسته المتبحرة بالكلمات الأعجمية، المذكورة في العديد من الآيات، لكن ما كان يثيره هو تلك الأحرف الواردة في مطلع بعض السور، والتي عجز المفسرون عن استجلاء معانيها، واعتبروها سِرًّا من أسرار الله، شبيهة بالطلاسم والتعويذات، وهذا ما كان يثير حفيظة عقل الإمام، لأن الله تعالى يقول في كتابه:

"وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم"، (آل عمران). وهذا يعني أن الله سيهدي الراسخين في العلم، المؤمنين بقدرة الله، من ذوي الألباب النيرة، على معرفة سر تلك الحروف، أو الكلمات.

باءت جميع محاولات الإمام في استجلاء حقيقة تلك الأحرف الغامضة بالفشل الذريع، ليكتفي بما ردده المفسرون، بأنها من علم الله وحده. وهذا ما دفعه ليبتعد عن دراسة علاقة الأعداد بالأحرف، لأنه شعر بأنها تقوده في نهاية المطاف، إلى الإيمان بالشعوذة، والسحر، اللذين يمقتهما مقتًا عميقًا، وليس إلى العلم الصريح، المبني على علم الاستدلال العقلي، كما ادعوا.

لقد جرَّهم عقلهم للابتعاد عن العقل، عندما عجزوا عن تفسير المشكلات الإيمانية الكبرى وحلها، المتعلقة بالذات الإلهية والوجود، لأن قولهم بأن النفس البشرية جزء من النفس الكلية الكبرى يحتاج إلى دليل رياضي، وهذا ما لم يصلوا إليه، أما تسمية الموت بـــ"البعث الصغير" و"البعث الكبير" أي عندما تعود النفس إلى بارئها، فهو مجرد تخيلات لا جدوى من الإيمان بها، أو نفيها، فهي مرتبطة بالقناعة الذاتية، لا بالاستدلال المنطقي، الرياضي، الذي اعتمدوه في منهجهم الفكري.

استسلم الإمام للعجز البشري، ووصل قبل سنوات إلى قناعة مفادها، أنه من غير المجدي التساؤل في قضايا الإيمان، لأنه يقود إلى الإفلاس الروحي والمعرفي في آنٍ معا، لأنه ببساطة شديدة لم يكن قادرًا على الإجابة عن الأسئلة الكبرى، فيلجأ إلى ابتداع ذرائع وحجج وهمية، تتناقض تمامًا والهدف المنشود من البحث ذاته .

الإيمان بالله لا يُناقش. فإما أن تؤمن بالله، أو تكفر به، وهذا أمر لا يخضع لمنطق علمي، كونه متعلقًا بالذات الإلهية، ولأن مادة العلم تنحصر في دراسة المخلوقات، ولا يمكنها تناول الخالق. موضوع العلم هو المحسوسات، بغض النظر إن كانت سُحبًا، أو جبالا، أو أمراضا أو حشرات.. الله فوق العقل البشري، ولا يمكن الاستدلال عليه بالمنطق، كما لا يمكن نفيه.. ولهذا فمن الأفضل، أن نؤمن به دون حساب. هذا أمر روحي بحت، كما أن الروح شأن إلهي بحت؛ لأن الله يقول: "يسألونك عن الروح قل هي من علم ربي". (الإسراء) الغلم، لا يستطيع معرفة أسرار الخلق، وإن عرف سيتحول إلى إله، وهذا منافٍ للحقيقة الجلية، كونه مخلوقًا ضعيفًا وفانيًا. والإله حي لا يموت.

عند دراسته التفصيلية، للأعداد وطبيعتها، خصائصها وعلاقتها بالأحرف، لم يقتنع بتلك التصنيفات، والتوصيفات والتسميات الوهمية، كالأعداد الجامدة، أو المائية، المتحركة والصماء، الثابتة والمتغيرة.

كان يرى في تلك التصنيفات، مجرد كلام استفزازي، لا منطقي هدفه السفسسطة، لا أكثر، أو كنوع من أنواع الهرطقة، هدفها إثبات الذات، وليس المعرفة الحقيقية، لسبر عمق الأشياء ومكوناتها المادية، أو الروحية.

لكن ما لفت نظره في الأعداد كان بسيطًا وعميقًا وبديهيا، لأن أعقد المسائل المعرفية والعلمية تتحول إلى بديهيه حالما يتم التعرف عليها من قبل العقل. فالتسعة هي أكبر عددٍ توصل إليه العقل البشري في معرفته الحقيقية، فما بعده، تعود الأعداد لتتكرر ثانية، بمفردات مختلفة، لا حصر

الأحمر

الرئيس شكري القوتلي – قال الأستاذ بدر مخاطبًا المجتمعين لديه – جاء من الإسكندرية حاملًا على كتفيه جوالين من الدراهم، فأعاد تنظيم جماعته، وأصبح رئيسًا للجمهورية، ولا أستغرب إن ضحى باستقلال البلاد، لصالح صاحب الأنف الطويل.

وضحكَ المجتمعون لوصف عبد الناصر بصاحب الأنف الطويل، وقال الحاج خضر: لو سمعك الأستاذ إلياس لرد عليك، أما وأنه غير موجود بيننا فهذا يعدُّ اغتيابًا له.

– يبدو لي أن الأستاذ إلياس – قال بدر – "ماخد على خاطره"، زعل لأني لم أدعه على الغداء لأعرفه بأصدقائي الذين جاؤوا من بيروت. أعرف أنكم اجتمعتم اليوم بهذه الكثرة، لتعرفوا من قام بزيارتي، وأقدر تقديرًا، أنكم تضربون أخماسًا بأسداس، وللتوضيح أقول لكم: هم تجار سيارات لا أكثر ولا أقل. فلا تذهب عقولكم بعيدًا. تعرفت إليهم في حلب. ألم تروا بأعينكم سيارة الكرايسلر التي يستقلونها.

– لم يبقَ أحد من القرية لم يشاهدها – قال رياض – يا أخي السيارات الأمريكية ..أمريكية وكفى.

– وماذا كانوا يريدون منك؟ – سأل ياسر – لا أظنُّ أنهم جاؤوا لبيعك سيارة أمريكية، فبثمنها يمكن شراء كل بيوت القرية على ما أظن.

– صدقت – قال بدر – هم يريدون فتح معرض تجاري لهم في المدينة.. ولم أنصحهم بذلك.. ومرُّوا بطريقهم لتناول الغداء.. هذا كل ما في الأمر. مَن يستطيع شراء سيارات كرايسلر؟ نحن بصعوبة نُؤمِّن مؤونة الشتاء. لبنان شيء آخر .. لبنان منفتح على العالم ونحن كما تعلمون!

– حمقى، أغبياء – قال ياسر– نحن بحاجة للسلاح للدفاع عن أرضنا قبل كل شيء، وهذا ما يؤمنه لنا الرفاق السوفييت..انظروا إلى بولندا ماذا فعلت؟ لقد وقعت معنا اتفاقية لاستيراد منتجاتنا الزراعية .. هذا ما نريده، وليس سيارات رفاهية، ولفائف تبغ تشبه العضو الذكري المنتصب. ليضعوه في مؤخراتهم.

وعمَّ ضحك شديد فقال مروان: هذه المرة صدقت يا ياسر، لقد شاهدت بعيني تلك السجائر الثخينة في فمهم.. كل واحدة تعادل علبة تبغ كاملة، وهي كما قلت، تشبه ... وعاد الضحك ليعم الحاضرين.

– ليس من حقك أن تهين أصدقائي يا ياسر.

– أنا لا أقصد إهانتك، ولكني سأقف بحزم ضد هؤلاء المتآمرين. إني أعرفهم. هم تجار دماء لا أكثر، ومشعلو حروب.. غزاة وقتلة. لكن حلف وارسو كله سيقف إلى جانبنا. البروليتاريا في العالم أجمع، ستقف إلى جانبنا. وستنتصر الاشتراكية، شاء من شاء وأبى من أبى.

- لماذا لا ترد عليه يا حاج خضر؟ قال بدر.

- لن أشتبك معه، أرجوك. يكفيني أني صابر على سماعه.. فأمثاله من سببوا لي هذا المرض من الرعاش الذي لا علاج له. هؤلاء هم الذين يحللون القتل الطبقي باسم العدالة. انظروا ماذا فعل ستالين بكل أصدقائه، ألم يغتالهم جميعًا. إنه الاغتيال السياسي ..إنه اغتيال حرية الرأي وحرية الكلمة.. والإبداع الحضاري لا يتم إلا بحرية الكلمة، لأنكم كما تعرفون جميعًا "في البدء كانت الكلمة".

- الاغتيال السياسي خاص بجماعة الأستاذ بدر، وليس بنا - قال ياسر - لقد اغتالوا العقيد عدنان المالكي، أمام أعين الناس جميعا، في الملعب البلدي بدمشق، أليس كذلك؟

- هذه تهمة باطلة - قال بدر - دبرها القوميون العرب، وربما أنتم، للقضاء على السوريين جميعًا. من قتله رقيب في حرس المنصة واسمه يونس، والله وحده يعلم من أين هي قرعة أبيه، وألصقوا التهمة بالقوميين السوريين.

- ولماذا أعدموا معلمكم أنطون سعادة؟ أليس لخيانته؟ سأل ياسر الأيمي محتدًا.

- أعدموه لأنه يطالب بالعزة والكرامة، لأنه يمثل روح السوريين جميعًا. أنطوان سعادة هو الوحيد من بين كل السوريين، الذي اكتشف خصائص العقل السوري المبدع والخلاق ومميزاته، وهو مَن رفض رفضًا

قاطعًا أن يتعاملوا معنا من علٍ. نحن سادة الأرض والتاريخ. والإنسان موقف، فإما أن تكون ذليلًا خنوعًا يُداس رأسك كقملة، أو أن تقف موقف عِزٍّ وكرامة، وتتحدى الموت.

نبوخذ نصر، ساق أولاد الزناة وسبى نساءهم كالغنم، هؤلاء الذين تبحثون عمن يدافع عنا أمام قوتهم وجبروتهم. لم يكن الاتحاد السوفييتي موجودًا، حين هدم نبوخذ نصر هيكلهم فوق رؤوسهم.. نحن لسنا بحاجة لمساعدة أحد، إن امتلكنا إرادتنا الحرة.

– نبوخذ نصر كان فاشيًّا، قاتلًا، مجرمًا، عنصريًّا ولهذا أُعجب به هتلر. الشخصية الشرقية الوحيدة التي نالت إعجاب هتلر، هي شخصية نبوخذ نصر، الذي أقام أخطر دولة عدوانية وأبشعها في التاريخ القديم – قال ياسر وأضاف: لو كان أستاذ إلياس حاضرًا لحدثك عنه .. لكن في النتيجة ماذا حصل؟ لقد داس السوفييت بأحذيتهم على رأس هتلر.

– لا أحد داس على رأس هتلر، ولا أحد يعرف مكانه، وكل ما يروجه رفاقك السوفييت، مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة .. كلام ..إنشاء.. تخريف سياسي.. لا أكثر ولا أقل. أما هؤلاء الذين تتحدث عنهم، من أهم أصدقاء لنا، ومعادون لليهود، فأنت تعرف أنهم أول من اعترف بإسرائيل، وقد رد اليهود لهم جميلهم، وقدموا لهم أسرار القنبلة الذرية من خلال أسرة روزنبرغ. الروس فلاحون مثلنا، لولا أسرة روزنبرغ التي قدمت أسرار القنبلة الذرية لروسيا، لما سمعت بصوت

روسيا قط.. اليهود من جعلوا صوتها عاليًا. التعاون بين روسيا وإسرائيل جارٍ على قدمٍ وساق، فلا تقل لي إنهم جاؤوا لمناصرتنا ضد إسرائيل.

-- الطبقة العاملة في إسرائيل كفيلة بتحرير اليهود من عنصريتهم.

-- عليك أن تعتني ببيتك قبل أن تعتني ببيوت الآخرين. روسيا جائعة، وتستورد القمح من أمريكا. أمريكا سيدة العالم، لأنها تقوم على عقل صناعي ألماني جبار. وروسيا بحاجة للخبز. هذا ما أعرفه، أما نحن فعلينا أن نفجر الطاقات في أنفسنا، أن نعتمد على قدراتنا الذاتية، على العقل السوري الذي علّم العالم كله القراءة والكتابة، فهو مخترع الأبجدية التي حرّرت العقل من التُرهات. غريب أمركم، فهذا يطالب بإعادة العقل الصحراوي باسم الإسلام ليحكمنا من جديد، وذاك يطالب بالعقل العربي ليحكمنا من جديد، والأنكى من ذلك كله، أن متزعم القوميين العرب شكري القوتلي كردي، وليس بعربي، فأي نفاق سياسي هذا الذي نعيشه؟

– عفوًا أستاذ بدر – تدخل رياض – أستمع إليكم، وأصغي بانتباه إلى خطاباتكم الخرقاء هذه، وأسأل نفسي: ترى ما الذي يدعوكم لنكران الحقائق الواضحة، الجلية كعين الشمس؟ لماذا تتنكرون لقوة الإسلام الذي أعزنا الله به؟ فتارة تتحدثون عن نبوخذ نصر، وتارة عن هتلر وأخرى عن ستالين وعصابته الحمراء، وتنسون، أو تتناسون، عبقرية سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وهل بعد رسالة الله إلى عباده نحتاج إلى مقومات القوة والإرادة والبروليتاريا وكل هذا الكلام

الفارغ؟ المسلمون فتحوا أقاصي الأرض، متوكلين على الله، انهارت أمامهم الإمبراطوريات كما تنهار البيوت أمام سيل جارف. اجتاحوا مشارق الأرض ومغاربها بسيوفهم وكانوا يفرضون الجزية، على هؤلاء الموسكوفيين، الذين يتفاخر بهم ياسر. فعودوا إلى رشدكم، عودوا إلى دينكم الحنيف، ليكون الله معنا.. لقد تخلينا عنه، فتخلَّى الله عنا، هنا سِرُّ ضعفنا وهزالنا أمام الأمم والشعوب الأخرى.

تحت راية الله أكبر، اخترق المسلمون بلدان العالم، وتحطمت الأسوار والحصون أمامهم، ليبنوا دولة الخلافة، التي تآمر عليها الشرق والغرب، لإنهاء وجودها، ومِن خلفهم كان يقف اليهود الذين يسيطرون على اقتصاد العالم.

مال العالم بأجمعه بيدهم وحدهم. هم من يتحكمون به، ونحن نبحث عن مساعدة بولونيا..ههههه و تشيكوسلوفاكيا هههه من هؤلاء؟ إن تنصروا الله ينصركم؟ وإن ينصركم الله فلا غالب لكم.. شيء معيب، أن تسمي رسالة الله، وحكم الله، بحكم العقل الصحراوي، وهذا كلام خبيث، يُراد به الطعن، برسالة الله إلى عباده. إنما الحكم لله وحده، فلا تحاولوا .. ما يجمعنا هو الإسلام وحده، ما يمثلنا هو الإسلام وحده، ما سيُعيد إلينا مجدنا هو الإسلام وحده وليس عبد الناصر...أو أنطون سعادة، أو رفاق ياسر القادمين من بلاد الصقيع.

-- وماذا نفعل بالمسيحيين واليهود؟ بالعلويين والشيعة؟ بالمرشدية والدروز؟ بالإسماعليين واليزيدين والبهائيين؟ هل تجبرهم على اعتناق الإسلام؟ أم ستعمل على قطع رؤوسهم؟ سأل ياسر.

-- العلويون والشيعة والإسماعيليون والدروز و ..و.. فرق إسلامية، نشأت نتيجة لحياد بعض المسلمين عن الصراط المستقيم.. لكنهم مسلمون في نهاية المطاف.

-- ولماذا تنكرون عليهم إسلامهم حين يأتي ذكرهم؟ بل إنكم تُكفِّرونهم.. وتحللون قتلهم، كما فعلتم بسليمان المرشد في أول عام بعد الاستقلال عن فرنسا، ثم اغتلتم ابنه مجيب قبل ثلاثة أعوام. قال ياسر.

- هل نحن مَن اغتلنا مجيب بن سليمان المرشد؟ ما هذه التهمة الباطلة يا ياسر؟ مَن قتله هم جماعة الأستاذ بدر .. أديب الشيشكلي بعد أن سجنه ثم أطلق سراحه، فتعقبه قائد الشرطة العسكرية عبد الحق شحادة واغتاله.. لماذا تتهمنا نحن؟ الجميع يعرف أن القوميين السوريين هم الذين اغتالوا مجيب المرشد. أنا لا أدافع عنه، ولا أحبُّه ولا أحبُّ أباه. القوميون هم القتلة أكانوا قوميون عربًا، أم قوميين سوريين، وكلاهما ينهل من الفاشية والنازية، أما نحن - ملائكة الرحمن - قاطعه بدر ساخرًا - لا ينقصكم سوى خرزة زرقاء لتحميكم من عيون الحساد، ما شاء الله عليكم، زعيمكم البنا..ماذا فعل؟ هو لا يختلف عن آل كابوني الذي تربى على أيديهم في أمريكا. البنا هو مؤسس الإرهاب السياسي في منطقة الشرق الأوسط كله، وهو يعترف بذلك، هو مَن يقول نحن أمة الإرهاب والترعيب.

وتوقف بدر عن الكلام، حين سمع قرعًا قويًا على الباب، فنهض وفتحه، وإذا به يرى عبد الرحمن الأعمى، ممسكًا بقوة بصديقه أبي روزا، الذي يعاني شللًا، يتفاقم يومًا بعد يوم إثر سقوط عمود خشبي ثقيل على عنقه في أثناء عمله في البناء.

– شيء لا يصدق – قال بدر مُرحِّبًا – أبو روزا بشحمه ولحمه يتنازل ويأتي لزيارتي! اشهدوا يا ناس..أبو روزا الذي لا يساوم أحدًا جاء لزيارتي.. سيسجل التاريخ ذلك. اشهدوا يا أهل ديرفول.

لكن أبا روزا المرهق والمتعب قال له بصوته المنهك: يا أستاذ بدر ..لا تحاول اللعب معي فإن دمي إن سال على الأرض، سيخط بلونه الأحمر كلمة "شيوعي".

– أي وحِّد الله، وأهلًا وسهلًا بكم، وحلت البركة. سأحضر إبريقا جديدًا من الشاي الأحمر لهذا الأحمر، ولا تقلقوا، فقد طاب السهر، وغدًا يوم الجمعة ..أقصد عطلة رسمية.

***

كالسوسنة

"بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات، كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين. تحت ظِله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي. أدْخَلني إلى بيت الخمر وعَلَمُهُ فوقي محبّة. أسنِدوني بأقراص الزبيب. أنعِشوني بالتفاح، فإني مريضة حبًّا. شِماله تحت رأسي ويمينه تعانقني." (نشيد الإنشاد.2)

كان الأستاذ إلياس يقرأ في الكتاب المقدس، وقد جلست أمينة قرب الموقد، وقد احمرت وجنتاها، من حرارة الجمر، الذي كانت تقلبه بملقط الفحم بين تارة وأخرى، ومن كلمات نشيد الإنشاد، المفعمة بالحب السرمدي، الذي بدأ يحرك في جسدها شهوة الالتصاق.

تابع إلياس القراءة بشغف وانفعال:" قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي. لأن الشتاء قد مضى، والمطر مَرَّ وزال. الزهور ظهرت في الأرض. بلغ أوان القضْب، وصوت اليمامة سمع في أرضنا." (نشيد الإنشاد.2).

وأطبقت أمينة شفتيها اللدنتين على شفتي الأستاذ إلياس بعد أن أحاطته بصدرها الناري فتحول إلى رماد.

- أنت تشتهيني أليس كذلك؟ سألته أمينة.

- أنا، لا أعرف. أنت كحلم أراه في عتمة الليل ولا أتجرأ على البوح به لأحد في النهار. أنت كقنديل الزيت الذي ينير ظلمة حياتي، أنت إعصار يجتاح كياني كلما أنظر فيك.

- قبلني ولا تحاول. قالت أمينة.

والتحما في عناق طويل.

***

الواحد الأحد الفرد الصمد

من بين كل الأعداد كان الواحد لا يتفكك ولا يقبل القسمة، ومنه تتكون كل الأعداد التي لا وجود لها إلا في مخيلتنا. فالاثنان هما واحد يضاف إليه واحد آخر، والثلاثة هي واحد يضاف إليه واحد ثم واحد. مهما يكبر العدد أو يصغر، فإنه مؤلّف من واحد ثم واحد ثم واحد. من الواحد، تتكون بقية الأعداد الافتراضية، التي لا وجود لها حقيقة. حتى المجموعة، عندما تتكون من مئات الأعداد، أو من الألوف، فتصبح مجموعة واحدة، ثم مجموعة أخرى، وهكذا نحن البشر، وكل من يدب على الأرض، بل كل الأشياء، حتى حبيبات الرمل.

الله لا إله إلا أنت، " قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد"

لكن.. كيف تكوّن هذا الواحد؟ الواحد مكونٌ تامٌّ مهما يتناقص، أو يتضاءل في الصغر، أو يتضاعف في الكبر، سينتج عنه وُحدان أصغر أو أكبر. فكيف جاء الواحد؟ كيف تشكّل؟ ماذا كان قبل العدد واحد؟ حالما يتكون الواحد يصبح أزليًا، وغير قابل للفناء، يستمر في الوجود

كجزء من الوجود الكلي الأبدي، حتى لو تفتت إلى وُحدانٍ لا تنتهي، إلى ذرات غبار، فلا يفني. الواحد باقٍ. الواحد يعلو ولا يُعلى عليه. والواحد يناقض التوحيد في صلبه، ويختلف عنه في جوهره، فالتوحيد، يعني الجمع بين أكثر من مفرد، من واحد منفصل عن الآخر، ليصبحا أو يصبحوا واحدًا. كان الإنسان واحدًا قبل أن يتشظى، قبل أن ينفلق كالنوى ويتكاثر ويملأ الأرض. حدث الانشطار الأول في الجنة، عندما كان آدم واحدًا وحيدًا، فردًا فريدًا، لا يشبهه أحدًا "فأوقع الرب الإله سُباتا على آدمَ فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا. وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: "هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تُدعى امرأة لأنها من امرئ أُخذتِ". (سفر التكوين.2)

منذ تلك اللحظة التي حدث فيها الانشطار الكوني الكبير، منذ أن أصبح الواحد اثنين، ظهر مبدأ التوحيد، ظهرت الحاجة للعودة بالاثنين إلى حالة الواحد، فالتصقا، حتى أنهكا، ثم تجزّآ وعادا لينشطرا من جديد. لم تكن لديهما القوة الكافية والثبات على البقاء في حالة من الالتصاق الدائم، الأبدي، الأزلي، السرمدي. كان الحَكَمُ قد قال كلمته "كنْ" فكانا. منذ تلك اللحظة المبهمة، وهما الاثنان، يحاولان عبثًا إعادة اللُّحمة والتوحيد فيحدث العكس، يتشظيان، ينشطران أكثر وأكثر، كقنبلة انشطارية، وتنبعث منهما الشظايا التي ملأت الكون. تلك الشظايا التي تنمو وتترعرع، تولد لتموت، وما فتئت تحاول التّجمع عبر

رسالة

في الضحى، راكبًا على أتانه، وصل إلى ديرفول الشيخ سعيد، إمام مسجد قرية أبي همامة الباهلي، وتوجَّه إلى منزل الإمام عبد الواحد في ظهور لافت وغير معتاد. لم يسبق للشيخ سعيد أن غادر قريته إلى أي جهة كانت، سوى مرة واحدة، عندما حج إلى بيت الله الحرام، منذ سنوات بعيدة. كان يشعر بضيق شديد كلما سمع كلمة حاج ينادونه بها، وكان يصرُّ على مناداته، بالشيخ سعيد ويقول: لو كان يصلح ذلك لسمّينا كل صحابة رسول الله بالحاج أبي بكر والحاج عثمان، والحاج علي ..أنا لا أطيق هذه التسمية، ولا هذا اللقب، وأحس بالضيق. أشعر بنفسي وقد تحولت إلى تاجر صغير، يتخذ من "الحجة" غطاء لكسب ثقة الزبائن، إن لم أقل لخداعهم، وهذا لا يجوز، فأنا لست متيقنًا من خداعهم للناس، وقد يكونون على حق.. لكني لا أحب هذه التسمية.

كان الشيخ سعيد معروفًا بعفته ودماثته، بكرم خُلقه وسماحته، وكان يقول: كل ما حرمه الله فهو محرم، أما غير ذلك فمباح، حلال. بيد الله وحده التحريم والتحليل، أما الإنسان فليس من حقه أن يحرم شيئًا أحله الله. الله لا يخاف منّا نحن البشر في إصدار أحكامه، ونحن لا نملك الحق

في تجاوز شرع الله العلي القدير، إن كان بهذا الاتجاه أو ذاك. كلام الشيخ سعيد هذا، جعل له خصومًا كثيرين، لكن أحدًا، لم يكن يستطيع أن يطعن في نزاهته، وعفته، وكرم أخلاقه. فهو يرفض رفضًا قاطعًا، أخذ أجرًا من مديرية الأوقاف، مقابل عمله إمامًا لمسجد قريته، المسماة على اسم أخي رسول الله بالرضاعة، الصحابي الجليل، أبي همامة الباهلي، الذي وصل ذات يوم، إلى تلك المنطقة، على جواده مقطوع العنق، ليسقط رأسه عن جسده في ذلك المكان، حيث يقوم المسجد، وبداخله الضريح، المُجلّل بغطاء أخضر، مطرز بخيوط ذهبية أنيقة.

كان مسجد أبي همامة الباهلي، مميزًا عن غيره من مساجد المنطقة، بطرازه المعماري الخليط ما بين العثماني والبلقاني، فالمئذنة بُنيت وفقًا لمقاييس الجمال العثمانية، أما المصلى، فبُني بسقف مائل على الجانبين، مغطى بالقرميد، ويدعونه ب"الجمالون"، أي على شكل سنم الجمل، وقد نقل سكان القرية هذا الطراز من البناء، من منطقة البلقان، التي جاؤوا منها، بعد أن تم طردهم من موطنهم الأصلي في بلاد القفقاس، فأسكنتهم السلطات العثمانية في منطقة البلقان، التي هجروها عامًا بعد عام، إلى شام شريف، ليكونوا على مقربة من بيت الله الحرام.

حاول كثير منهم الاستقرار في بلاد الحجاز، وفشلوا، بسبب الحرارة القاتلة أيام الصيف، التي قضت على غالبيتهم، فعادوا ليستقروا في بلاد الشام، وعلى طول الخط الحديدي الحجازي، الذي كان يربط دمشق، بموطن سيد الأنام، محمد بن عبد الله، ذلك الخط الذي قطّع أوصاله،

صاحب كتاب "أعمدة الحكمة السبعة"، ضابط الاستخبارات البريطاني، السير توماس إدوارد لورنس، المشهور بلقب "لورنس العرب "، باسم الثورة العربية الكبرى.

توجَّل الشيخ سعيد عن أتانه، وقرع باب الإمام، بعصاه الرفيعة، وقد أحسَّ بالتعب الشديد. فتح الإمام الباب، ليجد صديقًا وحبيبًا له على الباب، متكئاً على عصاه.

– ما أسعدني – قال الإمام – شاهدتك في منامي، وكنت أنوي الذهاب لأصلي خلفك، قرب مقام سيدنا الباهلي، وهأنت قد وصلت على قدميك.

– ليس على قدمي، بل حملتني هذه الأتان على ظهرها، رغم الوحل الشديد.. أرجو أن تضع لها طعامًا كافيًا، لتكون قادرة على إعادتي من حيث أتيتُ.

– لن تغادرني بهذه البساطة يا مولاي. شرف عظيم لي، أن أستضيفك في منزلي، ولدينا كثير من المسائل لنتشاور فيها، وأنا بحاجة ماسَّة لسماع صوتك.

– قد لا تحمل زيارتي بُشرى سارة أيها المحترم.

– بكل الأحوال، حلّت البركة. قال الإمام وجرَّ الأتان المنهكة إلى الإسطبل، ليقدم لها الطعام والشراب.

رفع الشيخ سعيد القبعة الباكستانية الشبيهة بزورق عن رأسه، فظهرت صلعته الحمراء، وبعض الشعيرات المتبقية خلف أذنيه، والتي كادت تلامس لحيته البيضاء الطويلة.

أخذ الشيخ سعيد قليلًا من ذرات الملح، وأخرى من ذرات الفلفل الحار، ومزجها في الحليب الساخن، الذي قدمه الإمام له في زبدية خزفية أنيقة، ثم فتتَ خبز"الكماج" (العيش) السميك، الثخين في الوعاء، وقلّبه بالملعقة بهدوء وراح يأكل بلذة كبيرة وهو يقول للإمام: هذا يساعدنا على مقاومة البرد، هكذا كان أجدادنا يشربون الحليب في القوقاز أيام الشتاء البارد.

ابتسم الإمام ووضع قليلًا من السكر في آنيته الخزفية، وارتشف قليلًا من الحليب الدافئ.

– هذه السنة، سنة خير بإذن الله – تحدث الشيخ سعيد – هل تركت قطعة أرض لزراعة البطيخ في الصيف؟ سينمو جيدًا في الأرض البعلية بفضل هذا الثلج. لقد اختمرت الأرض تمامًا بفضله وأصبحت طرية كالزبدة.

– لديَّ قطعة أرض صغيرة في أرض البيلون الحمراء، ولكن لمن أزرعها؟ فأنا كما تعلم أعيش وحيدًا، ولا حاجة لي بكل هذا البطيخ، وأنت تعلم أن لا سوق له في القرية.

– لماذا لا تورده إلى المدينة؟

- بطيخ؟ كيف لي أن أورّد البطيخ إلى المدينة؟ لن أصل بحمل العربة إلى المدينة إلا ويكون قلب البطيخ قد تحول إلى سائل من الخضّ و الارتجاج المتواصل.

- صحيح، قال الشيخ سعيد، ولكن البطيخ طيب في الصيف.

- سنرى. عليّ فلاحة الأرض قريبًا، فقد بدأت الأرض تنتفخ لتنبت الأعشاب.

- الحمد لله رب العالمين. عادت لي الروح. لقد أضناني التعب، فأنا كما تعلم لم أغادر القرية منذ زمن بعيد، ولم أركب الأتان في رحلة طويلة كهذه. قال الشيخ سعيد، بعد أن انتهى من طعامه.

رفع الإمام صينية الطعام جانبًا، وجلس قبالة الشيخ سعيد وقال: الحمد لله على نعمه. ثم أشار للشيخ أنه مُصغٍ إليه باهتمام فقال الضيف الجميل: أنت تعلم أن لدينا في المسجد، قرب ضريح سيدنا الباهلي، صندوقًا صغيرًا لجمع الصدقات والتبرعات، التي يقدمها الغرباء وبعض من أهالي القرية في المناسبات والأعياد.

- هل قام أحد بسرقة محتوياته؟ سأل الإمام.

- لا، لم يحدث هذا، وإن شاء الله لن يحدث.

- خير إن شاء الله. أرجو المعذرة على مقاطعتك. تفضل.

- نحن لا نفتح الصندوق إلا عندما نحتاج بعض المال لإصلاح المسجد، أو لشراء بعض الحاجيات، كالسجاد أو البسط وبعض قطع المصليات، أو بعض الأباريق النحاسية التي يستخدمها المصلون العجائز

من أمثالي في الوضوء، فنحن لم نعد قادرين على الترول إلى الساقية، لنتوضأ بمائها، فيقوم بعض الفتية، بنقل الماء إلينا، جزاهم الله كل خير.

– آمين. قال الإمام.

– أول البارحة فتحت الصندوق، والحمد لله كان ممتلئًا تقريبا إلى النصف..كنتُ أفكر بشراء سجادة لأستبدلها بالحصيرة المهترئة قرب الباب الكبير. لم يبقَ غيرها في المسجد..اكتسى المسجد بالبسط والسجاد والحمد لله.

– الحمد لله. قال الإمام.

– في الصندوق وجدت هذه الورقة.

وأخرج الشيخ ورقة صفراء من جيبه ولوَّح بها.

فتحتُ الورقة فوجدت فيها رسالة موجهة لأهل ديرفول.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم. قال الإمام، وقد بدأ القلق يأكل قلبه فتململ في مكانه قليلًا.

– قرأت الرسالة مرات ومرات، فكرتُ طويلا، هل آتي بها إليكم أم لا؟ ثم عرفت أنها أمانة ويجب عليَّ إيصالها. لم يطلع عليها أحد غيري حتى الآن.. قلت في نفسي: سآتي بها إليك، فأهل مكة أدرى بشعابها. وسلّمه الرسالة.

أخذ الإمام الرسالة وفتح طياتها، وشاهَدَ كلمات مكتوبة بلون بنفسجي بقلم الكوبيا، الذي كان يُستعمل ببل رأسه بلعاب اللسان

وقرأ: إلى أهالي قرية ديرفول الكرام، إلى كل أقربائي وأحبتي، إلى شقيقتي الغالية كوثر، إلى كل من يعرفني.

أنا يوشع بن عبد اللطيف، أخبركم أني قمت بقتل ابن قريتي المدعو زكريا بن عبد الله، غسلًا للعار، الذي ألحقه بي وبأختي كوثر، مستغلًّا ثقتي به، وغيابي عن المترل، عندما كنتُ أعمل في لبنان.

لا تبحثوا عن القاتل ولا تتهموا أحدًا، فأنا من قام بقتله في رجم الخرج.

سلامي لكل أحبتي، ولشقيقتي كوثر.

ستعيشين يا أختاه بعد الآن مرفوعة الرأس، عالية الجبين، بعد أن غيَّبتُ عن الوجود، مَن كسر جناحيك. يوشع.

أسند الإمام رأسه إلى الجدار، وقد أحسَّ بدوار يجتاحه، وأغمض عينيه، وزفر ما في صدره من هواء محتقن، وتنفس الصعداء.

-- أعرف أن الأمر ثقيل وخطير، وقد يؤجج نار أحقاد قد لا تنطفئ – قال الشيخ سعيد – ولذلك احترت في أمر هذه الرسالة. كم تمنيت لو أني لم أجدها في الصندوق، تمنيت لو أني لم أفتحه، ولم أقرأها.. لكن الله يفعل ما يريد، ولهذا السبب جئتك أيها الإمام.. لنقرر ماذا يمكننا فعله. نحن لا نريد البلاء لأحد من أهلنا وأحبتنا، ولكن في الوقت نفسه، لا يجوز إخفاء هذا عن الناس.

قرأ الإمام في سره: "ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا" (البقرة) وفتح عينيه وقال: هذا أمر خطير وكبير، وقد يخلق بلبلة عظيمة، وفتنة كبيرة، بين أهالي القرية. لم يبقَ من أسرة عبد اللطيف، طيب الله ثراه، سوى ابنته كوثر، ويقولون إنها فتاة طيبة الخلق.. أما شقيقها يوشع، فكان يعمل صيفًا في لبنان، ليكسب قوت يومه. أنت تعلم أنهما عاشا يتيمين، وكافحا كفاحًا مريرًا ليعيشا حياة كريمة.

– أعرف، أعرف، وأعرف ماذا فعل عمهما عبد المجيد.. لكننا الآن نناقش أمرًا آخر. ماذا نفعل بهذه الرسالة؟ لمن نسلمها؟ للمختار؟ للشرطة؟ لمن؟

– كيف لنا أن نتأكد أولًا من أن يوشع هو كاتب هذه الرسالة؟

شعر الشيخ سعيد بصدمة السؤال وقال: سؤال وجيه؟ مع أني على ثقة تامة، أن يوشع مَن كتبها، فمن يخطر بباله أن يفعل ذلك ولماذا؟ لكن مِن واجبنا قطع الشك باليقين.

– أهذا من واجبنا يا شيخ سعيد. أم من واجب السلطات؟

– أراك تتلمس الذرائع لتبتعد عن مواجهة الحقيقة.

– هي مسؤولية كبيرة يا شيخ سعيد. فيها كلام خطير. خطير جدًا. إنها تحتوي على مسألتين اثنتين، الأولى: فيها اعتراف صريح بالقتل، وهذا له تبعاته، والثانية: اتهام لشقيقته بالزنا.. فهي إما زانية وإما مغتصبة!

كيف لنا أن نتأكد من صحة مثل هذا الكلام الخطير؟ لعله سمع كلامًا بحقِّ أخته وارتكب الجريمة؟ وقد تكون الفتاة غير مذنبة! من يقرأ هذه السطور سيملأ الدنيا بالأقاويل والشائعات.

-- وقد تكون حقيقة! فلا دخان من دون نار.

-- نعم. قد تكون.

-- ولهذا جئتُ إليك أيها الإمام، وأنا لا أخفي إعجابي بمعرفتك، وفِطنتك. إن أردتَ يمكننا حرقها وانتهى الأمر. لكن هل نُرضي الله بذلك؟ لا أظن.

-- علينا أن نتريث يا مولاي، قبل أن نغدو أصحاب فتنة كبيرة.

-- هو كذلك. فكر بالأمر، ولا تفعل شيئًا قبل أن تخبرني. قال الشيخ سعيد، ثم سأل الإمام: هل أطعمت أتاني بما يكفي لحملي إلى أبي همامة؟ فضحك الإمام وقال: لماذا لا تبقى هنا إلى الغد.. لعلنا نصل معًا إلى حل لهذه المعضلة؟!

-- لن نصل، ولكن قل لي: ما الذي كنتَ تريد السؤال عنه؟

-- هذا أمر آخر ويحتاج لجلسة صفاء.

-- حسنًا. هاتِ لي رفيقة الدرب.

وتوجَّه الإمام نحو الإسطبل لإخراج أتان الشيخ سعيد.. الذي انطلق بها عائدًا نحو دياره.

صُبْرَةُ حِنْطة

فرحتْ أمينة فرحًا كبيرًا بالفستانين الجديدين اللذين جاء بهما إلياس من المدينة، لكنها رفضت منذ البداية أن ترتدي فستان النوم الذي اختاره لها، لسببين اثنين، الأول، أنها اعتادت طوال حياتها أن تنام وتقوم بثوبها حتى يحين موعد غسله، والثاني، لأن ثوب النوم يكشف عن مفاتن جسدها كاملة، ويعريها أمام عيني إلياس، فقالت له ضاحكة وهي تقبل عنقه: سامحني، لا أستطيع أن أجلس فيه أمامك. ثم سألته بمكر: هل ترتدي نساء المدينة أثواب كهذا أمام أزواجهن؟

– يفعلن. أجاب إلياس بفتور شديد.

– من الأفضل لهن أن يبقين عاريات. متأهبات. لماذا كل هذه الغلبة؟

– كما تشائين. ظننت أني أقدم لك شيئًا فاخرًا يليق بك، واعلمي أن ثمنه أغلى من ثمن ثوبك ذاك. ظننت أنك ستفرحين به، لكن خاب أملي. سأعيده للتاجر في الأسبوع المقبل.

- سأرتديه تحت ثوبي، ما رأيك؟

- لك ما تريدين. قال إلياس وأخفى عنها ابتسامة ساخرة.

- إن أردت يمكنني أن أرتديه وأبقى تحت اللحاف، ألا تقول إنه ثوب مخصص للنوم؟، لكني لن أتمشى به أمامك، والله عيب.

- افعلي ما يحلو لك.

أخذت أمينة الثوب المعلق على المشجب وطلبت من إلياس أن يلتفت جانبًا ليمتنع عن رؤيتها وهي ترتديه. بسرعة لبست أمينة ثوب النوم الشفاف، واندست تحت اللحاف وقالت: أشعر كأني عارية لم ألبس شيئًا.

- ستعتادينه. قال إلياس، وقد لفت نظره ذراعها العارية، وهي تضعها تحت اللحاف. وأضاف: صدقيني إن قلت لك إني لم أر امرأة من قبل بجمالك. أنت ساحرة، تستحوذين على الفؤاد بلمسة، بهمسة. بومضة.

ابتسمت أمينة وقد غمرتها السعادة، و قالت:

- أنت يا أستاذ تجيد الكلام الجميل الذي يفرحني، شباب القرية لا يفعلون ذلك. مثلهم مثل أي كبش، أو تيس للنطاح. لكني أحبهم. هم طيبو القلب، ويمكنك أن تضحك عليهم بكلمة. هم يصدقون كل ما يسمعونه.

- أنا لست ابن مدينة يا أمينة. أنا ابن الريف أيضًا. ربما الفرق بيني وبينهم أني متعلم.

- صحيح. أنت معلم مدرسة، وهم ."مَشْ، لا شغلة ولا عملة"، يلحقون بي من "قرنة لقرنة"، وكأن الضيعة خلت من النساء. ليذهبوا ويبحثوا. الضيعة مليئة بالفتيات الجميلات. والله بعضهن يمتلكن من جمال العيون إن قالت للملك اركع فسيركع.

- أنت، أنثى يا أمينة، أنثى.

- أكيد، كيف لكن؟ رجال! وضحكت أمينة ثم أضافت: ألا تريد أن تقرأ لي من "قرآنكم"؟

ابتسم إلياس سعيدًا بتلك التسمية وقال لها: حسنًا، سأقرأ إن كنت تودين سماع ذلك، لكن إياك أن تنامي وأنا أقرأ لك.

- أنا أطلب منك ذلك لأنام على صوتك. ألم أرتدِ ثوب النوم؟

- ليكن. وأخذ إلياس الكتاب المقدس وفتح على الإصحاح السابع من نشيد الإنشاد، ثم اقترب منها وقال: سأقترب منك كيلا يعلو صوتي.

فرحت أمينة باقترابه، والتصقت بالجدار، لتفسح له مكانا يجلس فيه على الطراحة، فجلس إلياس ملتصقًا بكشحها ثم نظر في الكتاب، وبقي صامتًا، ليعيد النظر إليها، فلمح قدمها الظاهرة من تحت اللحاف وقال:

ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم.

قاطعته أمينة سعيدة: والله هذا كلام صحيح، كانت أمي تقول لي أن أعتني بجمال قدميّ، لأن جمال القدمين يظهر جمال المرأة. لكني الآن حافية القدمين وليس بالنعلين.

ضحك إلياس وأعاد قراءة ما ذكره وأكمل: دوائر فخذيك مثل الحُليّ، صنْعة يدي صنّاع. سُرتك كأس مدورة، لا يعوزها شراب ممزوج. بطنُك صُبرةُ حنطة مُسيَّجة بالسوسن.

ضحكت أمينة وقالت: ما هذا الكلام؟ هل بطني يشبه صبرة الحنطة؟ كلام غير معقول يا أستاذ.

-- وهل تعرفين ما هي صبرة الحنطة؟ أنا لا أعرفها صدقيني.

-- وكيف لا أعرفها. صبرة الحِنطة يا أستاذ، هي كومة الحنطة، بعد أن ننتهي من دراسة القمح، وتذريته، نقوم بغربلته من غربال كبير الفتحات لأصغر فأصغر، حتى يصل إلى غربال مخزوم بثقوب ناعمة وصغيرة جداً مثل منخل الدقيق نسميه"الصانوت"، لا يتسرب من فتحاته سوى ذرات الغبار. و يصبح القمح نظيفا صاف كالذهب ونجمعه في كومة نسميها صُبرة الحنطة.وعندما ننتهي من ذلك نقوم بمسح وتمهيد الصبرة بالجاروف لتبدو ملساء ناعمة كالجلد، ومن ثم نرشهما بنقش محفور على لوح خشبي، لتبدو كوشم جميل بديع.

-- أظنُّ أنه يقصد ذلك تمامًا. وضحت لي الصورة الشعرية بأدق تفاصيلها، فهو يقول: أن بطنك ناعم، أملس كصبرة الحنطة، وسرتك فيه مثل النقش الجميل. هو لا يقصد الكومة، بل النعومة الملساء والنقش الجميل. رائعة هذه الصورة يا أمينة، لم أفهمها من قبل. شكرًا لك.

-- إن كان الكلام بهذا المعنى فهو حلو وجميل. يروق لي. أكمل. وتابع إلياس: ثدياك كخَشْفتين، توأمي ظبية.

وهذا يعني أنه يشبههما بجديين صغيرين حديثي الولادة، أضاف إلياس شارحًا، فسألته أمينة: وهل هذا كلام الله؟

– لمن يؤمن به نعم، فهو كلام الله. وأنا أؤمن به.

– لكن هذا غزل، قصدي ...غزل وغزل.

ضحكا معا، وقالت أمينة: تابع، تابع لن أقاطعك مرة أخرى، حتى لو لم أفهم، لأن المسألة واضحة. وتابع إلياس: أنفك كبرج لبنان الناظر تُجاه دمشق. رأسُك مثل الكرمل، وشعر رأسِك كأرجوان. مَلِكٌ قد أسِرَ بالخُصلِ. ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات! قامتكِ هذه شبيهة بالنخلة، ثدياك بالعناقيد. قلت:" إني أصعد النخلة وأمسك بعناقيدها" وتكون ثدياك كعناقيد الكرم، ورائحة أنفك كالتفاح، وحنكُك كأجود الخمر.

لحبيبتي السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين.

أنا لحبيبي وإليَّ اشتياقه. تعالَ يا حبيبي لنخرج إلى الحقل، ولنبِت في القرى. لنُبكِر إلى الكروم، لننظر: هل أزهر الكرم؟ هل تفتح نور الرمان؟ هناك أعطيكَ حبي.

وتوقف إلياس عن القراءة. نظر في عيني أمينة. فأطبقت أهدابها الوطفاء وهمست بشفتيها الورديتين: قبلني.

– لن أخوض معك معركة ثانية.

- قبلني. قالت أمينة مرة أخرى، وامتدت يدها إلى عنقه لتسحبه برفق إليها. وأطبق على فمها وقد تصاعدت أنفاسه الحارة.

فجأة نهض إلياس واقفًا متشنجا، وعاد إلى سريره، واندس تحت اللحاف، ليهدئ من توتره المتصاعد. ظلت أمينة صامتة، وقد أدركت أن إلياس لن يعاود الاقتراب منها مرة ثانية. غطت رأسها باللحاف، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها.

هدأت أنفاس إلياس، وعاد إليه شيء من توازنه الجسدي والروحي، وتذكر الليالي الفائتة، ومرارة ما مَرَّ عليه. شعر بحزن شديد، بل بنوع من الكآبة فنهض وأطفأ ضوء القنديل وقال:

- تصبحين على خير. وعاد إلى فراشه.

لم ترد عليه أمينة، ظن أنها لم تسمعه. فحدث نفسه بخوف شديد: إن استمر الوضع كذلك فسأرتكب جريمة، سأقتلها، أو أقتل نفسي. أي شيطان أنت يا أمينة؟ أتريدين أن تجعلي مني ألعوبة بين يديك؟ لن أسمح لك. لا، لن أسمح لك بفعل ذلك. لن تهزمي إلياس قط.

وسمع صوت حشرجة. عرف أنها تبكي. فقال لنفسه: لتبكي، فلن تدفعني دموعها لارتكاب حماقة. لكني وددت لو أعرف..لماذا؟ لماذا تمتنع عني في اللحظات الأخيرة؟ لماذا تجعلني أقيم الدنيا ولا أقعدها، من ثم ترمي بي ككلب جائع؟ شيطان أنت يا أمينة. وأنا أقوى منك.

كشفت أمينة عن رأسها وجلست لتستند على راحة كفها وقالت:

- أرجوك سامحني. أنا لا أستطيع النوم معك. لا أستطيع.

- فسري. ما السبب؟ لماذا؟

- هكذا لا أستطيع. لا أحب. أنت إنسان رائع، جميل وكلامك حلو المذاق.. لكن سامحني.

- سأسامحك، إن عرفت عذرك، إن شرحت لي، أما أن تتركيني هكذا كثور هائج، فهذا لا أقبله.

- أخجل من قول ذلك.

وعادت لتندس في الفراش.

- هل لأني مسيحي؟

فكشفت عن رأسها و قالت له بصوت واضح وجلي: لأنك غير مُطهر.(غير مختون)

فانفجر إلياس ضاحكًا وقال: وهل كنت ستنامين معي إن كنت يهوديًّا؟

- وهل يتطهر اليهود؟ سألت أمينة مندهشة.

- طبعًا.

- لا أعرف. أنا لم أرَ يهوديا في حياتي، ولن أرى. ولا أريد.

كعادتها في كل يوم، منذ فقدانها لابنتها، خرجت أم أمينة عند الظهيرة، واتجهت نحو تلة المقبرة المطلة على الجهات الأربع للقرية، لتلقي نظرة أمل لم يمت بعد بعودة ابنتها، رغم مرور الأيام الثقال.

في كل يوم كانت أم أمينة تصعد بمساعدة عكازها وتتلفت في الاتجاهات الأربع، وتلوم نفسها لأنها فقدت كثيرًا من قدرتها البصرية، وكان قلبها يخفق كلما شاهدت جسمًا يقترب من بعيد، ويتحرك الأمل بداخلها، وتردد بصوت عالٍ: ها.. هي ..إنها قادمة.. لقد عادت ابنتي. ويخيب ظنُّها، حين تكتشف أن القادم كان فارسًا، أو راعيًا، أو غريبًا. فتعود لتراقب الطرقات الممتدة بعيدًا في كل الاتجاهات، لكنها كانت تركز نظرها نحو الشرق، إلى حيث اندفع السيل الجارف حاملًا معه روح ابنتها، بل روحها كما كانت تقول للناس: أمينة روح أمها..ما دمت أنا عائشة فهذا يعني أنها لم تمت بعد. هذا مستحيل..سأموت قبلها..سأمنحها قدرتي على العطاء، والصبر.

كان العرق يتصبب من جبين الإمام، وهو يعمل على شق جذع شجرة صفصاف، يابسة، طوليًا، ليقطعها إلى قطع صغيرة، تتناسب وحجم الموقد، أما ذهنيًا، فكان منشغل البال، بالحمل الثقيل، الذي أودعه الشيخ سعيد لديه.

ما الذي يمكن فعله؟ ماذا أفعل بتلك الرسالة البنفسجية؟ كان يسأل نفسه ويضرب بكل ما أوتيَ من قوة، جذع الشجرة، ببلطة حادة، ثقيلة الرأس. لماذا لم يذهب إلى المختار؟ إلى الشرطة؟ إلى الشيخ عبد الله؟ إلى أيٍّ من كان من أهل القرية؟ لماذا يحملني هذه المسؤولية؟ كيف لي أن أواجه رب العباد إن تسببت في ألم لأي إنسان غير مذنب؟ إلهي أنت مولاي فارحمني يا أرحم الراحمين.

ألقت أم أمينة التحية على الإمام فرد عليها التحية دون أن يعرها اهتمامه. توقفت أم أمينة وراقبت الإمام، وهو يبذل جهدًا كبيرًا في شق جذع الشجرة، وأنفاسه تكاد تتقطع فسألته: ألا يوجد لديك إزميل لشقها؟ ستتعب نفسك دون طائل.

توقف الأمام عن العمل وقال: أنت على حق. سأحضر الإزميل. واتَّجه نحو مدخل البيت من بابه الخلفي المطل على المقبرة. وتابعت أم أمينة خطواتها الصاعدة، لكنه دون تفكير التفت إليها وسألها: كيف حال ابنتك؟

– أمينة؟ ألم تسمع يا مولاي بأن السيل قد جرفها بعيدًا؟

توقف الإمام حائرًا واقترب منها وقال بحذر شديد: ألم تعد إلى البيت؟

– لا، لم تعد. لكن لماذا تسألني؟ هل تعلم ما لا أعلمه يا مولاي!

– لا، لا، لكن! لا أعرف ماذا أقول لك. ربما شاهدت منامًا.

– وماذا رأيت في المنام يا مولاي؟ قد لا تعلم أن أمينة كانت تحبك، وتقدرك، وتثق بك.

– نسيت ماذا شاهدت. لا أعرف، أشعر بدوار في رأسي.. عليَّ أن أرتاح.

– هل هي على قيد الحياة؟ هل قالت لك شيئًا؟

– لا أعرف، لم أعد أذكر، لكني كنت أظن أنها قد عادت إلى البيت. مجرد منام. لا تقلقي. لا أعرف كيف أفسره لك. وداعًا. ابتعدي عني. اذهبي أرجوك. أنا متعب جدًّا.

– قد يكون كلامك صحيحًا. متى رأيتها في منامك؟

– ليس في منامي. هكذا خطر ببالي في هذه اللحظة، فسألتك عنها. مجرد خاطرة.

– سأعود إلى البيت حالًا، قد تكون رؤيتك حقيقة. من يدري؟ فأنت شبيه بالأولياء الصالحين، وقد تكون منهم. رحمتك يا الله، بركاتك يا مولاي.

وعادت أدراجها مسرعة متوكئة على عكازها.

رباه! ما الذي حدث؟ تساءل الإمام في سره وجثم فوق جذع الشجرة، وقد ازداد تعرُّقًا. ثم شعر بنوبة تجتاح قلبه فعَلَا صوت بكائه.

حمل نفسه بصعوبة بالغة وعاد إلى البيت منهك القوى.

يا حافظ الأسرار، يا الله يا جبار – صاحت أم أمينة، عندما شاهدت ابنتها، في وضح النهار، تقف أمام باب الدار مترددة في قرعه.

ركضت أمينة نحو أمها وهي تحمل بيدها صرة صغيرة، خبأت فيها الثوبين الجديدين.

لم يعلم الإمام في أي ساعة استيقظ من نومه ليلًا على صهيل الحصان الأحمر. وتذكر أنه لم يضع العلف للحصانين، كما يفعل عادة بعد غروب الشمس.

يا إلهي كم نمت من الوقت؟ تساءل الإمام في قلبه، وسمع صهيل الحصانين مرة أخرى، ثم تناهى لسمعه صوت دبيب قوي فتذكر ما كان يفعله في النهار، وأنه ترك الباب الخلفي للمنزل مُشرعًا للهواء، فقال: الله يستر، قد يكون وحش تسلل إلى الإسطبل، ويهاجم الحصانين؟ وخرج مسرعًا، ليلتقط أول عصا بطريقه، وليتجه نحو الإسطبل.

شعر بخوف شديد عندما سيطرت العتمة الحالكة على عينيه، لم يكن يرى سوى بريق عيون الحصانين اللذين هدآ قليلًا، وراحا ينفسان الهواء الساخن من خياشيمهما.

توقف متأهبًا، لملاقاة الوحش عند باب الإسطبل، لكن شيئا لم يحدث، لم يسمع ما يدل على وجود حيوان مفترس تسلل في عتمة الليل. لكنه سرعان ما حبس أنفاسه من الرعب الشديد، حين شاهد جسمًا متكومًا على الأرض يتنفس بصعوبة تامة. رفع عصاه لينهال عليه ضربًا، لكنه سمع صوتًا كفحيح الأفاعي يقول له: لا تضربني.

- مَن؟ عبد الغفار؟

لم يرد عبد الغفار في بادئ الأمر على سؤال الإمام، بل عاد ليتنفس بصعوبة ثم قال: لقد رفسني الحصان في حنكي.

- وماذا تفعل هنا؟ هل كنت تنوي سرقة الخيل!

- لا. لقد طردتني من منزلي بنت الحرام، وأدخلته مكاني. قالت إنها تريد أن تنام معه على سريري. جئتُ إليك. قرعتُ الباب فلم تسمعني. وجدت الباب الخلفي مفتوحًا فدخلت.. قررتُ أن أنام مع الخيل، فالإسطبل دافئ، ورفسني الحصان.

- انتظر قليلًا، سأعود بالبلطة إن لم يسرقها أحد.. لقد تركتُها في الشارع.

- وضعتها خلف الباب. لا تقلق.

- حسنًا، هيا بنا إلى الداخل، ألا تستطيع النهوض؟

- أستطيع. هل ستطعمني بيضًا مقليًّا؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله. هيا انهض. سأضع الطعام للحصانين أولًا.

نهض الإمام، وعلا صوت صهيل الخيول وقد جُن جنونها.

- هيا أسرع، أسرع بالخروج.

خرج عبد الغفار، وعاد الجوادان إلى هدوئهما. اقترب منهما الإمام، ومرر يديه الحنونين على ظهريهما، فمرغ الحصانان رأسيهما بصدره وقد استقرت أنفاسهما.

شعر الإمام بذنب كبير تجاههما، وقال لهما: سامحاني، لا أعرف كيف أخذني النوم؟، حسنًا سأضيف إلى التبن والشعير، قليلًا من الحنطة.

آذار المِدرار

طغى الظهور المفاجئ لأمينة، على أخبار القمة العربية المنعقدة في عمّان، التي شارك فيها الملك سعود الفيصل وجمال عبد الناصر وشكري القوتلي والملك الشاب حسين بن طلال، الذي رُزق قبل أقل من شهر من انعقادها، بطفلة سماها عالية، من زوجته دينا عبد الحميد مدرسة الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة. لم يكن الملك الشاب قد بلغ العشرين من عمره، حين تزوج دينا التي تكبره بست - سبع سنوات قبل عام، وقد أصرت الملكة حينها، على دعوة الفنان فريد الأطرش، ليحيي حفل زفافها، فغنى أغنيته الشهيرة نورا يا نورا، وبدأ الأغنية كعادته بموال طويل حيًا فيه الملك، وأشار للوحدة العربية حين قال فيه: أنت حبيبنا وأيديكم في أيادينا.. يا فرحة أحبابنا يا حسرة أعادينا.

استجاب الملك الشاب بذكاء لضغوط الشارع العربي، الذي كان يهتف: علم واحد مش علمين اسمع يا حسين، شعب واحد مش شعبين اسمع يا حسين، وبدأ بتعريب القوات المسلحة درءًا للأخطار المحدقة به، نتيجة للطوفان القومي العربي، الذي أحدثه عبد الناصر، وأجج فيه

مشاعر القوميين العرب من الماء إلى الماء، الذي خلق الله منه كل شيء حي.

كان القوميون العرب ينظرون إلى الملك الهاشمي، كذراع للاستعمار البريطاني في المنطقة العربية، ويتهمون جده، الذي قتل أمام عينيه على أدارج المسجد الأقصى بالعمالة لإسرائيل، فعمل وفقًا للقول الشهير "انحنِ للعاصفة حتى تمر"، فقام بعزل غلوب باشا الإنجليزي عن قيادة الجيش، وكان الأردنيون يطلقون لقب "أبي حنيج" على غلوب باشا بسبب رصاصة كانت قد أصابته في حنكه.

توقف الملك حسين إعلاميًّا عن تأييد مشروع حلف بغداد، وهذا ما أهَّله ليكون محط قبول للسعودية من جانب، ولعبد الناصر من جانب آخر، أما الرئيس السوري شكري القوتلي فكان عبد الناصر قد وضعه في جيبه منذ أن أرسله من الإسكندرية مُحمَّلًا "بجوالين من الدراهم"، وكان يعمل على تهيئة الظروف لإعلان الوحدة بين الإقليمين الجنوبي والشمالي".

انتهت القمة العربية دون أن يدري أحد سبب الخلاف الذي نشب فجأة بين الملك الشاب و زوجته عقب قراءة بيانها الختامي.

من بين أهالي القرية، وحده الأستاذ بدر، شعر بخطورة ما جرى في عمّان فقال: سيقع فأس عبد الناصر على رأس سوريا. وهذا ما أغضب الأستاذ إلياس أشد الغضب وردَّ عليه قائلًا: لم يظلموكم حين اتهموكم

بالعمالة لأمريكا وبريطانيا. فأجاب بدر قائلًا: أليس من واجبنا توحيد الشعب السوري قبل أن نتوحد مع مصر؟ فأجاب إلياس: هذا مطلب الشعب السوري، هذا مطلب كل العرب. عبد الناصر سيقودنا إلى تحرير فلسطين.

وساد صمت ثقيل، لم يعد يسمع فيه سوى صفير المدفأة، وهي تقاوم الرياح الشديدة العاصفة في الخارج. فقال مروان ليقطع هذا السكون: المثل يقول: "خبي قرمك الكبار لعمك آذار".

- آذار المدرار. أضاف رياض.

بات الجو مشحونًا وكئيبًا فاستأذن الأستاذ إلياس بالخروج، مُنهيًا السهرة، ولبس معطفه الرمادي وخرج مودعًا.

مَرَّ إلياس كعادته قُرب بيت أمينة، حيث التقى مجموعة من الشبان، تحلقوا حول صفيحة معدنية أوقدوا فيها النار طلبا للدفء، بعد أن عادوا للتجمع قرب بيتها، كما كانوا يفعلون قبل اختفائها. لقد أعادت لهم الحياة، قال إلياس في قلبه، واقترب من الشبان وفَرَدَ يديه فوق لهيب النار، الذي كان الهواء يعصف به في كل الاتجاهات، مُلقيًا عليهم التحية.

رحَّب الشُّبان به أشد ترحيب، وأفسحوا له مجالًا، ليقترب من الموقد المتنقل.

-- الطقس بارد جدًا، أليس كذلك؟ تساءل إلياس، وجاءه جوابهم صريحًا: بل شديد البرودة. عندئذ سألهم إلياس عن السبب الذي يدعوهم للمكوث في الشارع في هذا الطقس البارد؟ ولماذا لا يذهبون إلى بيوتهم؟ فضحكوا من كلامه، ظنًا منهم، أنه يطرح عليهم سؤالًا ساذجًا، ولا يعرف السبب الحقيقي. لكن إلياس أعاد السؤال بصيغة المزاح، مع قليل من التلميح بأنه يتفهم رغبات الشبان ودوافعهم الحقيقية، فانفجروا مقهقهين، وقد سرّوا بتفهمه وقال أحدهم: لو لم يكن هناك ما هو أحر من الجمر، لما وقفنا في هذا البرد. وانفجروا مقهقهين وقد فاحت منهم رائحة خمر رخيصة. شاركهم إلياس الضحك، وفي قلبه غيظ كبير.

-- ألا تريد أن تحجز لنفسك دورًا يا أستاذ؟ سأله أحدهم بوقاحة غير معهودة. وزجره الشبان، واعتذروا للأستاذ من غبائه، طالبين منه الصفح عنه، لأنه "سكران ومطفي"، لكن إلياس بخبثه وذكائه، استغل هذا الخطأ، واقتحم عالمهم، محيطًا نفسه بهالة من السذاجة، وسألهم إن كانت فعلًا قادرة على مواعدتهم جميعًا في ليلة واحدة ليحجز دورًا لنفسه.

فرح الشباب بلباقة إلياس واستيعابه لموقف السكران وغبائه، واعترفوا له بأنهم في الحقيقة يأملون بذلك، وأخبروه أن شيئًا من هذا لم يحدث قط منذ عودتها المفاجئة.

شعر إلياس بارتياح كبير، وزال الغيظ عن صدره، وشعر بالحبور يملأ قلبه، وقال: لماذا لا ترفعون "التسعيرة"؟ لتقبل بمواعدتكم؟ فأجابوه بأنها رفضت كل العروض.

الجدلية، قال إلياس في نفسه، وقد تشهد يوم قيامتي، من يدري؟ ربما تابت على يدي، فهل أنا مؤمن إلى هذه الدرجة؟ ثم ودَّعهم وقد امتلأ قلبه حُبًّا لأمينة.

"وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، صدق الله العظيم وأطبق الإمام الكتاب، وجلس منصتًا لدقات قلبه المتسارعة، ورعشة تسري في عروقه، فشد العباءة الصوفية حول جسده المرتعد، وسالت دمعتان صغيرتان من عينيه. أخاف من سؤالك يا الله. أخاف، لأني مجرد عبد من عبادك، ورأس الحكمة مخافة الله. قال الإمام في سره.

كان الإمام قد ساعد عبد الغفار على الشفاء من رفسة الحصان، فعاد عبد الغفار إلى ملاقاة عشيقته الزرقاء من جديد، بعد أن ابتكر طريقة جديدة، لم يفصح عن سرها للإمام، أبعدَ فيها الأزرقَ عن اقتحام عرينه. كما عاد الإمام إلى كتبه ومخطوطاته، التي كان كثيرًا ما يخشى منها، ويتمنى لو أنه لم يطلع عليها قط، لعاش مطمئن البال، مرتاح الضمير. لكن ما حدث، كان قد حدث، تنفيذًا لإرادة رب العالمين، الذي لا يخفى عنه شيء، مهما يكن ضئيلًا.

أسئلة الإمام الروحية، ورسالة يوشع يقلقان حياته. ما زالت تلك الورقة الصغيرة تعذب قلبه وتعتصره بألم شديد. كيف له أن يبتَّ في أمر قد يولّد ألمًا ما بعده ألم؟

إلهي! لماذا تتخلّى عنا في لحظة ضعفنا؟ لماذا تتركنا هائمين على وجوهنا وأنت القادر على كل شيء؟ يا من تسيّر السحاب وتصورنا في الأرحام كما تشاء، يا من جعلت من الجبال أوتادًا..لماذا؟ إن كنت قد خلقتنا لنعبدك، فلماذا تبعدنا عن الصراط المستقيم؟ أليس كل من في الكون من جماد وأحياء أنت خالقها ورازقها؟ لكن لماذا تتخلى عنا؟ لماذا تدعنا خارج إرادتك عندما يتعلق الأمر بنا؟ ترمينا في مهب الريح دون معرفة الحقيقة؟ لنصيب ونخطئ، ونرتكب الفواحش، ونقتُل ونُقتَل دون سبب مقنع؟ إلا إن كانت هذه إرادتك! كيف لنا أن نهتدي بعقلنا الصغير وأنت من يقول: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون"؟ (النحل)، كيف لي أنا العبد الفقير الحقير أن أفهم ذلك يا الله؟

ما دمتَ أنت الواحد القهار، تُضِلُّ من تشاء وتهدي من تشاء، فلماذا تحاسبنا على أخطائنا؟ من أدرانا إن كنا مخطئين أم على صواب، ونحن ننفذ مشيئتك؟ كيف تحاسبنا على ذنب اقترفناه ولا ندري أنه ذنب؟ فنحن مجرد مسيّرين لا مخيّرين في العديد من المسائل، بل في جُلها، بل في كلها، فكل ما يتعلق بنا نحن البشر تتركه لنا لنختار.. خارجًا عن إرادتك، لكن بمشيئتك، أو بإرادتك وتنفيذًا لها، فما ذنبنا في هذه الحالة؟

إلهي يا مَن تُخاطِبُنا عبر رسولك الكريم: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين". (يونس) لكنك لم تشأ "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين

إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين" (هود) ألهذا خلقتنا يا الله؟ لنختلف، ثم لتملأ جهنم من الجن والناس؟ أم لنعبدك؟ ،"ولو شاء ربك ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد" (البقرة). إلهي ما أعظم شأنك؟ فهل نحن البشر نتقاتل تنفيذًا لمشيئتك؟ هل هذا ما تريده منا؟ ولماذا لم تشأ أن نكون خيرين طيبين مؤمنين؟ لماذا تفعل بنا ذلك يا الله يا جبار، يا غفور يا رحيم؟ لماذا؟

إلهي لا أبغي إلا رضاك وعفوك ومغفرتك يا أرحم الراحمين" الله يعلم ما تحمُل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفِ بالليل وسارِبٌ بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال" (الرعد). واخترق وميض البرق زجاج غرفة الإمام التي سرعان ما اهتزَّت من قصف الرعد، وعصفت السماء بزخة من مطر آذار المدرار فانطفأت النار في الصفيحة المعدنية، وغادر الشبان الشارع يطاردهم المطر، بوابل من قطراته الجِسام.

لم تدرِ كوثر، هل استيقظت على هدير الرعد، أم على صوت قرع الباب؟ انكمشت على نفسها وشدَّتِ اللحاف على جسدها، وتحولت إلى قطة صغيرة يحاصرها الخوف، ويفتت قلبها الذي كانت تسمع دقاته رغم تساقط المطر الشديد.

تكرَّرَ قرع الباب بقوة أكبر، وبومضة انعطفت مشاعرها نحو النقيض، وأحست بشيء من الطمأنينة وقالت لنفسها: لو أراد بي شَرًّا، لما طرق الباب بهذا الوضوح؟ ترى من يكون؟ أهو أخي، أم.؟ ونهضت من فراشها الدافئ، فاجتاحها الهواء البارد، عندما فتحت باب الغرفة لتسمع طرق الباب من جديد.

-- مَن بالباب؟ سألت كوثر بصوت لا يُعرف سبب ارتعاشه، أهو من البرد أم من الخوف؟

وجاءها صوت الإمام منذرًا كالصاعقة: أنا الإمام.

فتحت كوثر الباب، ورأت الإمام والماء يسيل منه كما يسيل من المزراب.

-- أين شقيقك يوشع؟ سأل الإمام دون أن يلقي السلام.

تلعثم صوتها، رجفت شفتاها، ارتعدت أوصالها، اهتز قلبها وقالت متلمسة الصفح: في لبنان.

-- هل أنت متأكدة مما تقولينه؟

– أنا.. لا.. لست متأكدة.. كيف لي أن أتأكد؟ لكن ماذا تريد منه يا مولاي؟

– عودي إلى نومك. قال الإمام واختفى في الظلام الدامس، ليظهر مع إشراق الشمس على حصانه، متوجهًا إلى ضريح معلمه الجليل الشيخ جمال الدين، المدفون إلى جوار مقام ولي من أولياء الله الصالحين، الشيخ الكبير عزلاالدين أبو الحمراء.

تجنب الإمام طريق "المغراقة"، و اتخذ من طريق "المَجْمَعِ" الصخري، المتعرج مع الوديان والهضاب مسارًا له. كان نجم الشمس الذهبي، قد أضاء الكون بنوره الأخاذ الدافئ، فحلقت طيور البرية في كبد السماء، تزقزق فرحة بجمال الحياة، بعد ليلة عاصفة، ارتاعت القلوب من هولها.

سار الجواد الأحمر يتلفت حوله ذات اليمين وذات الشمال، يراقب النباتات بمختلف أنواعها وقد انبجست من رحم الأرض الطرية البجة من كثرة الأمطار، وأطلت برؤوسها الصغيرة، لتنعم بحرارة الشمس، مبشرة بعام خير لكل الكائنات.

"هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون" (النحل)، قرأ الإمام في قلبه، وهو ما فتئ يحرك يديه، مشدوهًا من عظمة الخالق جلّ جلاله.

خاطب الإمام أستاذه الشيخ جمال الدين قائلًا: يا معلمي، أنا الإمام الصغير عبد الواحد، تلميذك المحب، أسير إليك بروحي وجسدي، لأسألك الرشد والمعونة، لتساعدني في البت بأمر رسالة باتت تؤرقني، وتعذب فؤادي. أتوسل إليك، إن كان لي مقدار ذرة من الكرامات، أن ترشدني إلى الصواب، فيما أنا مقدم عليه. إنها ورقة صماء، بكماء، يمكنني قذفها في الريح، أو حرقها في النار، أو تفتيتها لتصبح ذرات لا يجمعها إلا الله القادر على كل شيء. هذه الورقة تحوي على ما تحويه. أخاف أن تكون قد وصلت إليّ لتكون امتحانًا لي؟ أشعر، وكأنها نذير شؤم لي ولأحبائي من أهل قريتي الكرام، فماذا أفعل؟ أرجوك يا معلمي أن تسأل الشيخ الكبير عز الدين أبو الحمراء، فقد يدلنا إلى ما نفعله لنتجنب الوقوع في خطأ جسيم.

وصل الإمام إلى "المَجْمَعِ" الذي تلتحم فيه الجداول الصغيرة ببعضها بعضًا، محدثة صخبًا وقرقعة، تشبه قرقعة السيوف، التي التحمَ بعضها ببعض ذات يوم، على هذه الأرض في معركة حامية الوطيس، بين جيش الملك الظاهر بيبرس، وجيوش الفرنجة. هنا على أرض "الميدان" جرت أشد المعارك وقعًا، في تاريخ تحرير الملك الظاهر لبلاد الشام. لهذا السبب صار للموقع اسمين يتشرف بهما. أولهما: "المَجْمَعُ" حيث تتجمع فيه الأنهار الصغيرة في وسطه، لتشكل نهرًا صاخبًا يندفع بقوة إلى وادي العاصي، وثانيهما: "الميدانُ" الذي جرت فيه المعركة الكبرى، حين استطاع الظاهر، كسر ظهر جيوش الفرنجة، فارتدوا إلى حصن الأكراد،

الواقع إلى الغرب من حمص، فطاردهم قوات الملك الظاهر، وحاصرهم في القلعة الشهيرة، ودكت البرج الجنوبي - الغربي بأطنان من حجارة المنجنيق، فانهار البرج، واقتحم جيش بيبرس القلعة، وحرَّرها من يد الفرنجة، ومن ثم أعاد بناء البرج الكبير، على طراز العمارة المملوكي، ليتخذ البرج اسم الملك الظاهر بيبرس تخليدًا لذكراه. هذا الطراز المعماري كان معروفًا في المنطقة جيدًا، وخاصة في قرية ديرفول، من خلال مئذنتها الشهيرة المربعة الشامخة بجمالها وثباتها، والمبنية من أحجار البازلت الصلدة،والمزينة بأحجار بيضاء كلسية،شيدها المماليك المحررون، إثر انتصارهم الكبير على الفرنجة، في معركة الميدان. لكن القوميين، أكانوا من القوميين العرب،أو من القوميين السوريين، ولأسباب لا يعلمها إلا الله وحده، يعملون بإصرار، على طمس هذه الحقيقة الناصعة، في ظلمات التاريخ.

فالملك الظاهر "بيبرس" الذي يعني حرفيًا "الفهد المرقط" نظرًا لسواد في بياضٍ عينه، جاء نتيجة إصابته وهو طفل صغير، كان قائدًا فذًّا للجيش المصري الذي حرر البلاد من الفرنجة. وسواء أكان الملك الظاهر شركسيًّا أم من قبائل القبجق التركية، فإنه لم يكن يفكر بهذه الضحالة التي سيطرت على عقول الناس في زمن الانحطاط الفكري، والتفتت والتشرذم القبلي، والجلد الذاتي.

الشواهد التاريخية وحدها،والمنتشرة على طول البلاد، تنصف ذكرى هذا القائد الفذ، بدءًا من المكتبة الظاهرية في دمشق، التي تحتوي على أمهات الكتب، في صنوف العلم كافة، إلى قاعة الظاهر بيبرس، في قلعة

شهباء حلب، التي لم يجلس فيها الملك لحظة واحدة، مرورًا بالقلاع ممتدة، على طول الساحل السوري، من قلعة الحصن (الأكراد) إلى قلعة مصياف، وقلعة المرقب، فقلعة صهيون، التي اتخذت اسم صلاح الدين الأيوبي، تخليدًا لذكرى بطل آخر، عرفه العالم أجمع بحلمه وحكمته وشجاعته.

منذ أن تولى بيبرس قيادة الجيش المصري، للتصدي لقوات الفرنجة، بعد سقوط دمياط من دون مقاومة، عمل على تهيئة القوات المصرية، لمنهارة نفسيًا، لمعركة المنصورة الشهيرة، التي أسفرت عن أسر قائد الحملة الصليبية، ملك فرنسا لويس التاسع، الذي صار يلقب فيما بعد الملك الحزين. منذ تلك الموقعة طغى اسم "بي بيرس" على أسماء القادة، فلا يأسر ملكًا إلا ملك، هكذا كان المصريون يرددون في همس، ليتخلصوا من مؤامرات القصر الملكي الذي فاحت منه روائح الفساد والمجون.

بعد معركة المنصورة صار مجرد ظهور بيبرس في ساحة المعركة سببًا كافيا لزعزعة صفوف قوات الفرنجة، خوفًا من سقوطهم المريع في الأسر، كما حدث لملك فرنسا لويس التاسع.

قُبيل معركة الميدان، أوفد الملك الظاهر إلى المنطقة، العالِمَ الكبيرَ المحنك الشيخ عز الدين، لاستنهاض القبائل العربية، وخاصة قبيلة "النائيم" المعروفة برجالها الأشداء، وفرسانها الذين يسابقون الريح، حين ينطلقون على جيادهم العربية الأصيلة. وصل إليهم الشيخ النحيل،

الطويل، عز الدين صاحب اللحية الحمراء، والعينين العسليتين، ملتحفًا بعباءة حورانية مطرزة بخيوط ذهبية على حوافها، معتمرًا عمامة مصرية أزهرية، حملها معه من السوق المحيط بالأزهر الشريف من مصر المحروسة.

في بادئ الأمر، ظن العرب البدو، أنه إفرنجي جاء متسترًا بثوب عربي، ليستطلع أحوالهم وقوهم الدفينة في قلوبهم الشجاعة، التي لم تعرف الخوف قط.

رحبوا بالشيخ الجليل، وأكرموه كعادتهم، وجلسوا ينتظرون إفادته، وكانت المفاجأة الكبرى، حين كشف الأصهب، عز الدين عن نفسه، بأنه موفدٌ من قبل الملك الظاهر، للمِّ شملهم، وتوحيد قوهم، ولاستنهاض عزيمتهم، لملاقاة الغزاة الفرنجة، في معركة حاسمة قد تؤدي لإحداث اختراق كبير، يوصل القوات الزاحفة من مصر، إلى ساحل المتوسط الشرقي.

أمر زعيم القبيلة، بنصب بيت شعر كبير، يليق بمقام الشيخ الجليل النحيل، وسط الخيام، ومنحه عبدًا من عبيده، ليقوم على خدمته. أطلق البدو عليه لقب "أبي الحمراء" للحيته الصهباء المتدلية حتى صدره. وسرعان ما تحولت الخيمة، خلال أيام معدودات، إلى ملتقى للناس من كل الأصناف والأعمار، سواء أكانوا صغارًا في العمر أم طاعنين في السن، أو كانوا أمراء أم من الرعاة الفقراء. نساء ورجال، كانوا يقصدونه للمشورة في هذه المسألة أو تلك، وكانت المرأة البدوية تمتلك من الحرية ما لا تملكه نساء المدن، من حرية التعبير والكلام والمسامرة.

كان بيت الشعر، يعجُّ بالناس بعد غياب الشمس من كل يوم. كانوا يأتونه ليستمعوا إلى كلامه الموزون، وإلى قصصه عن أهل مصر وعظمتها، وعن الروابط التاريخية الكبيرة، التي تجمع أهل الشام بأهل مصر، وعن ضرورة توحيد الصف في وجه الغزاة الفرنجة.

استطاع الشيخ الكبير، استيعاب طبعهم الصحراوي البدوي، الماكر الخفي من جانب، والصبور المقدام في وقت المحن، وعرف كيف يخاطبهم، ويستنفر فيهم، الشهامة والمروءة المتأصلتين في دمائهم. لقد أدرك سر بساطتهم، وصدقهم، ومكرهم في آن معًا. في البدء طالبهم بالالتزام في مواقيت الصلاة خلفه، فسخروا من دعوته، لأنهم وببساطة شديدة، يغيبون عن الديار طوال النهار، سارحين بأغنامهم في أرض الله الواسعة، هم أناس أحرار لا يمكنهم الالتزام بشيء محدد. هكذا هي قناعتهم، وهكذا هي حياتهم. في الوقت ذاته، لاحظ الشيخ بفطنته، مدى استجابتهم وتفاعلهم، عندما كان يحدثهم، عن قصص الصحراء، وعن مروءة رجالها، وكرم أهل بيوت الشعر المنتشرة في أصقاع البادية. كانوا يصغون إليه بانتباه شديد، ويستمتعون بقصة عنترة بن شداد ومغامراته، وحبه لابنة عمه عبلة، وقصة كرم حاتم الطائي، وقصة الشاعر الفارس الشهم، السكير الشهير أبي محجن الثقفي، الذي احتجزه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، ليمنعه عن شرب الخمر، فأنشد أبو محجن وقد شعر باقتراب ملاك الموت منه يخاطب الحارس السجان:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة... تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألّا أذوقها

وكان جيش المسلمين يخوض أشد المعارك لفتح العراق، واقتربت المعركة الفاصلة، فناشد عمرو بن العاص، الخليفة عمر، بالمدد السريع، فأرسل عمر بن الخطاب ما تبقى لديه من فرسان، حتى ليقال: إن المدينة خلت من الرجال، ولم يبقَ سوى أبي محجن الثقفي قابعًا في السجن فأنشد يقول:

كفى حزنًا أن تدخل الخيل القنى وأُترَكُ مشدودًا على وثاقي

إذا قمت عناني الحديد وعلقت مصاريع دوني تصم المنادي

يقطع قلبي أن أرى الوغى ولا سامع صوتي ولا ما يراني

فأطلق عمر بن الخطاب سراحه، ليلتحق بجيش المسلمين، وليشهد أبو محجن الثقفي موقعة القادسية التي أبلى فيها بلاء يذكره الناس جميعًا.

كما كان الشيخ عز الدين أبو الحمراء، يأسر قلوب مستمعيه، بحكايته عن معركة المنصورة، وكيف استطاع الملك الظاهر من أسر ملك فرنسا، وكيف وضع خادمًا أسود، على حراسته إمعانًا في إذلاله.

كانت حكاية أبي محجن الثقفي وحكاية أسر ملك الفرنجة لويس التاسع، تولدان لدى المستمعين الثقة بالنصر المؤكّد على الفرنجة.

جاء يوم المعركة وانقضوا على جيش الفرنجة، كعقبان الصحراء، وهزموهم شر هزيمة. لكن ما أضناهم وقلّل من فرحتهم، كان مصرع زعيم قبيلتهم، الذي تصدر ميدان المعركة في ذلك اليوم المشهود، فأمّروا عليهم الشيخ عز الدين أبو الحمراء، الذي جمع ما بين السلطتين التنفيذية والتشريعية حتى مماته. كان أول ما قام به، بناء مسجد صغير بين بيوت الشعر، ضَمَّ رفاته فيما بعد. كما تحوَّلت على يده الخيام مع الأيام، إلى بيوت طينية متبعثرة، أُقيمت حولها زرائب (حظائر) لقطعان الأغنام.

مع مرور الأيام، أعادت الجن والعفاريت سيطرتها على عقول الناس، وتحولت حكاية الشيخ إلى خرافة، أضيفت إليها عناصر الترهيب والتخويف، فتحولت اللحية الحمراء، إلى أفعى حمراء مرصودة، كانت تنام إلى جانب الشيخ لتحرسه في الليل من أعدائه، كما تحوَّل الشيخ إلى ساحر، وكاتب حجب، يسأل الأفعى الحمراء، عن الغيب، فتهمس له بفحيحها، بكلمات لا يفهمها سواه من البشر،ونسجت حوله الحكايات، عن قدراته الجنسية الفائقة على "تحبيل" النساء العاقرات، بواسطة "الحجاب"، وعن قدرته على شفاء المرضى، وكشف الأسرار، وقراءة الفأل، واستقراء المستقبل، ليتحول الشيخ إلى أسطورة، بل إلى خرافة شرقية تتجسد فيها كل معالم سحر الشرق في سباته.

كان طريق الإمام عبد الواحد إلى مزار عز الدين يمر بقرية أبي همامة الباهلي، وكانت مياه النهر قد فاضت وغمرت الجسر الذي يربط ما بين أراضي القريتين، فتوجَّه الإمام إلى مسجد أبي همامة ليستقبله الشيخ

سعيد بجفاوة شديدة. صليا ركعتين، وجلسا ينتظران انحسار منسوب المياه الجارفة.

عرف الشيخ سعيد أن الإمام لم يستقر على رأي بخصوص رسالة يوشع، وأنه اختار التوجه إلى مقام عز الدين، ليسأل معلمه الشيخ جمال الدين النصح والرشد. ولم يعترض الشيخ سعيد على ذلك، لكنه شعر بالخوف من تأخرهما في اتخاذ هكذا قرار بسيط، وقال: لو كانت أمور حياة الناس، متعلقة بأيدينا، لتعطلت مصالحهم، ولانفضوا عنا جميعًا. نحن لا نستطيع البت بشأن قضية صغيرة كهذه، فكيف لنا بالقضايا الكبرى؟ فقال له الإمام: نحن لا نعمل عسسًا عند أحد، ونحن لسنا قضاة. المسألة مسألة أخلاقية صرفة، والشك يسامر قلوبنا في صحة الرواية كلها. فكيف لنا أن نثبت جرمًا، واتهامًا بقضية شرف، قد تقوم الدنيا ولا تقعدها. نعم، هناك مؤشرات قوية، تشير بقوة إلى صحة ما ورد في الرسالة، فيوشع لا يظهر في القرية، وتقول أخته كوثر، أنه يعمل في لبنان، وهذا مشكوك فيه. كل ما لدينا مجرد شكوك. وورقة لا يعلم إلا الله وحده من كتبها.

– ما تقوله صحيح – قال الشيخ سعيد – وربما كان من الأفضل أن نسلمها للشرطة، لأنها المسؤولة في نهاية الأمر، عن التحقيق وملاحقة الجاني، للقبض عليه وتقديمه للعدالة. هناك حقيقة واضحة، أن زكريا قُتل عمدًا، وقُطع قضيبه ووضع في فمه، و إن دلّ ذلك على شيء فهو يشير إلى أن الأمر، متعلق بقضية شرف، ولدينا رسالة باسم يوشع، يعترف

بارتكابه للجريمة، ويوشع غائب عن العين منذ وقوع الحادثة، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ وتنفس الشيخ سعيد الصعداء وأضاف: لو أن هناك مَن أراد العبث بمصير الناس، وزرع الفتنة، لظهر بطريقة أو بأخرى، خاصة أن الجميع يعلم، بأني فتحت صندوق الصدقات.

– صحيح ما تقوله يا شيخ سعيد. صحيح. غدًا إن شاء الله، سنتفق على ما يجبّ علينا فعله. دعني أستشر معلمي أولًا.

قُبيل غياب الشمس بقليل، عبر الإمام الجسر، متجهًا إلى مقام عز الدين، بعد أن انحسرت مياه النهر، وعادت إلى وضعها المعتاد.

بعد صلاة العشاء، رحَّب الشيخ مبارك إمام مسجد عز الدين بالإمام الأزهري وقدم له حلوى "السيالة"، وتركه في المسجد من دون سؤال، عن دوافعه لهذه الزيارة المفاجئة. لقد اعتاد الشيخ مبارك منذ سنوات خلت، ظهور الإمام بين فترة وأخرى ليبيت إلى جوار الأولياء الصالحين.

تقوقع الإمام بجسده داخل العباءة الصوفية، بعد أن لفَّ رأسه بالمنديل جيدًا، ثم اتكأ على طرف الضريح، وسُمع صوته يقول: يا علام الغيوب يا الله. وراح يتمتم بشفتيه، بكلمات غير مسموعة، ليغطَّ بعدها في نوم عميق.

كان يوشع في تلك الليلة يعبر نهر الفرات العظيم نحو الشرق، من على الجسر المعلق، بعد أن استبدل ملابسه المدنية اللبنانية بلباس بدوي، من عقال وكوفيه، وثوب فضفاض وعباءة صوفية شتوية، كما ابتاع

لنفسه حذاء أحمر اللون، ليبدو كبدوي من بداة المنطقة، لا يختلف عنهم في شيء، سوى بلكنته.

لم تكن اللهجة البدوية غريبة عن مسامعه، فالبدو يحيطون بديرفول من كل الجهات، وهم على علاقة طيبة بهم منذ معركة الميدان، إذ كان النعيم يعتبرونهم أنسباء لهم عن طريق الشيخ عز الدين أبو الحمرا الذي تزوج منهم، وأنجب العديد من الأولاد الحمر، ولم يحدث قط أن تصادم أهل القرية مع قبيلة النعيم، كما حدث مع بعض القبائل، أو القرى المجاورة. بل كانوا يتحدون، لصد الغزوات القادمة من عمق الصحراء بين الحين والآخر.

اجتاز يوشع الجسر، وتنفّس الصعداء، بعدما مَرَّ من قرب الحراس، من دون أن يستوقفه أحد من كلا الطرفين، وشعر بالطمأنينة لأول مرة، منذ ذلك الصباح الضبابي الذي خرج فيه إلى الصيد مع زكريا. لن يطالني أحد هنا – قال يوشع في نفسه – لقد عبرت الفرات العظيم، وأصبحت ما وراء النهر، ولن أعدم وسيلة للعيش، فأنا أجيد العمل، وقادر عليه. لن يعرفني أحد هنا، ولن يسأل عني أحد، فالناس هنا خليط عجيب من البشر، فهنا تسمع اللغة الكردية والعربية البدوية والآشورية والتركية والسريانية والأرمنية.

توجَّه يوشع إلى أول كوخ من الأكواخ المنتشرة على طول الضفة الشرقية للنهر، التي تعجُّ بالسمار، وتفوح منها رائحة المشروبات الكحولية، ليمضي ليلته الأولى، مطمئنًا على روحه، المعذبة، الهائمة على

وجهها، الباحثة عن مستقرٍّ لها بلا جدوى. كانت روح زكريا تطارد روحه، خطوة إثر أخرى، فكان يبتعد شرقًا، فارًّا من عذاب يلاحقه أينما حلت به قدماه.

لم يكن يوشع قد شاهد من قبل نهرًا عظيمًا كنهر الفرات، فقد اعتادت عيناه رؤية أنهار القرية، ونهر العاصي، ونهر الكبير الشمالي، وأنهار لبنان الجبلية، التي تبدو كسواقٍ صغيرة أمام نهر الفرات العظيم. وهذا ما أشعره براحة في البال، عندما اجتاز النهر المتدفق بمياهه العذبة. كان يوشع قد سمع من أحاديث الناس في المدينة الصغيرة، أن الله سبحانه وتعالى ذكر الفرات مرات عديدة في القرآن الكريم، واصفًا إياه بالبحر العذب المياه السائغ الشراب إذ قال في سورة فاطر: "وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج". نعم، الفرات بحر من الماء يفصل ما بين عالمين، فشرقًا تمتدُّ أراضي الجزيرة إلى نهر دجلة الذي يمر بمحاذاة الحدود. لكن ما أدهشه في رحلته تلك، أراضي البادية الشبيهة بالصحراء، والتي تمتدُّ على مدى النظر، حيث لا ترى فيها العين شجرة واحدة، وهذا النهر الكبير، بمياهه الفرات، يخترق الصحراء، بمحاذاة بيوت الشعر المنتشرة حول ضفتيه، والناس عطشى .. بداة، لا يختلفون في شيء عن بدو القفار القاحلة.

في كوخ الغجر، أو النَّوَرِ، أو القرباط، المحتجب عن أعين الناس، بالقصب الطويل وأشجار الصفصاف الضخمة، استقبلته "الحجة سعاد" بعينيها المكحلتين، وهي ترفل بأثوابها الشفافة الزاهية الألوان، كقوس

قزح، وقادته إلى خِدرها، ليسقط لأول مرة في حياته كلها، في أحضان امرأة لعوب، فنانة في اصطَياد الشبان "البغو"،(الغض)، كما تصفهم، أي الذين لم يشتد عودهم بعد، العديمي التجربة مع النساء، والذين يهوون بسرعة، أمام سحر جمالها، وضحكتها الغنوج، فتسلبهم ببساطة شديدة إرادهم، وعنفوانهم، وهم يفرغون في حرجها، كل ما يحملونه من مال أو ذهب أو فضة.

لكن المفاجأة الكبرى حدثت عندما قرأت الحجة سعاد فأله وعرفت أنه قادم من قرية ديرفول البعيدة. جحظت عيناه، وجمد الدم في عروقه، واستسلم لها بروحه وجسده. منذ أن رأيتك وسمعت صوتك، عرفت أنك من ديرفول. قالت له بثقة كبيرة. وهل تعرفين قريتي؟ سألها يوشع بوله شديد. أعرفها، وكيف لا أعرفها؟ – قالت الحجة سعاد – أزورها في كل عام حين نقوم بجولتنا الكبرى، من الشرق نحو الغرب، طوال فصل الصيف، لنعود في الشتاء، ونستقر هنا على ضفاف الفرات. ثم حدثته، عن كثير من رجال القرية، الذين وافوها في الليالي القمرية، وأغدقوا عليها بعطاءاهم. إنهم كرماء – قالت الحجة سعاد – ويقدرون أتعابي، لم يحدث قط أن بخسوني في العطاء. إنهم رجال، واشتقتُ إليهم كثيرا.

"لا يلتقي جبل مع جبل، بل إنسان مع إنسان"، قالت الحجة سعاد وأضافت: هذا تدبير رب العزة. ثم غنت له أغنية "بردا بردا لي بردا يا يما لفتني بردا من هواكي ياديرفول صابتني حمى و بردا". وأصابته الحمى عندما اقتربت منه بأنفاسها الحارة، وطبعت على عنقه قبلة صغيرة، تلتها

بأخرى في شفتيه المرتعشتين، فسقط رأسه بين ثدييها، يبحث عن ملاذ آمن ودافئ.

هنا يتم كل شيء، ببساطة ومن دون أي تعقيد، فلا هي مضطرة لأن تخلع ثوبها، ولا هو بخالع لثوبه. كان كافيا أن ترفع أطراف ثيابها المزركشة، ويرفع طرف ثوبه الفضفاض، ليلتصقا بين أكوام من الملابس.

حاول يوشع مرارًا أن يرفع عنها تلك الثياب المتكدسة فوق بعضها بعضًا دون جدوى، إذ كانت ترفض ذلك رفضًا قاطعًا، حتى أنها قالت له: مُدّ يدك إلى حيث تشاء، وامضغني كما تشاء، لكن لا تطلب مني أن أفعل ما لم أفعله قط. ثم سألته وهي تضحك بدلع كبير: هل تنتف الطيور ريشها لتتلاقى؟ دعنا نقُمْ بذلك كما تقوم به الطيور. و ضحك يوشع من تشبيهها وفرح به، وأحس بنفسه، يشبه ديكًا جميلًا، يختال بريشه الزاهي، وبعرفه القاني. وقال لها: أنت تشبهين دجاجة فرعونية بألوانك الزاهية. وكان يوشع، قد شاهد الدجاج الفرعوني في لبنان، في منزل أحد المغتربين، العائدين من البرازيل إلى بلاد الأجداد.

في الفجر، قالت له في لحظة الوداع: أنا لن أنساك يا يوشع، تعال إليَّ حين تشاء، سأكون بانتظارك. تذكَّر، أن الحجة سعاد ستظل مشتاقة إليك. أستودعك الله. قل للشيخ يورنس أنني من أرسلك إليه، ولن يبخل عليك أبدًا. الشيخ يورنس رجل ولا كل الرجال. كن شجاعًا ومقدامًا وسيكرمك. الله معك. لا تنسَ الحجة سعاد. بأمان الله.

لثم يوشع يديها وأراد أن يقبلها في فمها فاعتذرت وقالت: أشرقت الشمس، وهذا لا يجوز. الله معك. وخطا يوشع خطواته الأولى، نحو مضارب قبيلة العترة، التي تمتدُّ من الجزيرة ما بين دجلة والفرات، إلى عمق الصحراء العربية، وكله أمل بصدق رواية الحجة سعاد، عن كرم الشيخ لورنس أو يورنس وشهامته، كما يلفظ اسمه بدو الصحراء، فهو أحد أشهر أمراء الجزيرة كلها.

عاد الإمام إلى قرية أبي همامة الباهلي وقال للشيخ سعيد: سنذهب معًا يا مولاي لنسلم الرسالة إلى كوثر.

- إلى كوثر شقيقة يوشع؟ ستمزقها.

- لتفعل ما تريد. من كتب الرسالة هو يوشع شقيقها، وهي أحق الناس بالاطلاع عليها، سندع لها الخيار فيما تفعله بها.

- أمرك عجيب أيها الإمام! ولكني لن أعارضك.. سنمضي معًا إليها، قد يكون في كلامك مخرج لنا جميعا، والله يعلم ما في الصدور. من يدري؟ سنحملها المسؤولية كاملة، سنتركها لضميرها.. ليكن ما تقوله، هيا بنا.

وسارا على الطريق الصخري، يحثُّ الشيخ سعيد أتانه الهرمة، للحاق بالحصان الأحمر، الذي شعر بالضجر الشديد من طول الطريق.

اغرورقت عينا كوثر بالعبرات، التي تساقطت على الورقة الصفراء، ذات الكلمات البنفسجية، ثم مسحت أنفها الذي سال منه الدمع، تستعيد أنفاسها، وسألت الشيخين الجالسين أمامها كصخرتين: هل تذهبان معي؟

- إلى أين؟ سأل الشيخ سعيد.

- إلى المخفر. أنا لا أحبُّ أن أكون وحيدة بين أيديهم. قد يحتجزونني، وهذا سيُسيء لسمعتي أكثر من فحوى هذه الرسالة.

وعلا صوت نحيبها وهي تقول: سامحك الله يا أخي. سامحك الله يا حبيبي، سامحكما الله.. كم ظلمتماني؟ أنا بريئة من كل هذا الاتهام، والله يشهد على صدق ما أقول. لم يحدث شيء بيني وبين زكريا رحمه الله. لم يحدث شيء. لقد تقدم لخطبتي وتلكأت، لم أكن واثقة بقدرته على تحمل المسؤولية. كان طائشًا، وأحببته. نعم أحببته، لكن شيئًا لم يحصل، مما هو مذكور في هذه الرسالة القاتلة. لماذا فعلت ذلك يا يوشع؟ لماذا لم تسألني؟ وهل أخفيت عنك أمرًا؟ هل سبق لي أن أخفيتُ عنك سرًّا؟ لا لم أفعل. لكن نحن النساء متهمات. نحن مَن يسبب لكم العار والمذلة. بسببنا تُرتكب الجرائم. الموت لكم يا أعداء الله. الموت لكم، لن يغفر الله لكم جرائمكم الشنيعة التي ترتكبونها باسمه. الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. خذوني وادفنوني في أي مخفر للشرطة، دعوهم يفعلوا بي ما يشاؤون، فأنا ما خُلقت إلا للمآسي. هذه هي إرادة الله ولا اعتراض لي على أمره. لكن كونوا على ثقة أن كوثر فتاة حرة. لم يلحق بها الأذى،

ولم يكن لزكريا أن يرتكب حماقة كهذه. الرحمة لروحه الطاهرة. كان زكريا يحبني كطير من طيور البرية، كحجلة. وكان أخي يوشع كأنه عيني، التي أرى من خلالهما الدنيا. لك الله يا يوشع. كم اشتقتُ إليك. أين أنت؟

ثم وقفت وقالت: هيا بنا خذوني فأنا ما عدتُ أطيق هذه الحياة.

دمعت عينا الشيخ سعيد، وسكبت عينا الإمام سيلًا منها.

– لا، لم أعد قادرًا على تحمل ذلك. قال الشيخ سعيد. وامتطى أتانه وانطلق مبتعدًا وهو يقول للإمام: أنت على حق. أستاذك على حق. افعل ما يمليه عليك ضميرك. أستودعكما الله. يكاد صدري ينشقُّ ويخرج منه قلبي. وأخذ يقرأ بصوت عالٍ أمام أهالي القرية الذين احتشدوا عند باب منزل كوثر، بعد أن شاهدوا الشيخين الجليلين يطرقان بابها في وضح النهار: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم". (الحجرات)

***

عقارب نيسان

لم تُلحقْ عقارب نيسان ضررًا كبيرًا بالمزروعات كما يحصل عادة في بعض السنوات، حين كان الصقيع الحاد يجمّد عصارة النباتات، التي تسري في الأغصان مع بدء انتشار الدفء في شهر آذار،(مارس) ليحول الأوراق الخضراء، الغضة الفتية، إلى قطع من الجليد، تتفحم في اليوم التالي، وتَسقط صريعة على الأرض. لتعود النباتات عارية، كما كانت في فصل الشتاء، ومن ثم تعاود صراعها من أجل الحياة، لتنتج أوراقًا وعيدانًا خضراء من جديد. كان الناس يطلقون على تلك الأيام التي تأتي عادة ما بين الخامس والعاشر من شهر نيسان، اسم عقارب نيسان، لأن الصقيع يقوم بلدغ البراعم البغو على حين غرة، بعد انتشار الدفء وسريان النسغ في عروقها، فيصيب البراعم المتفتحة بمقتل، كما تفعل العقارب السامة، حين تلدغ غريمها فترديه قتيلًا.

مَرّ الأول من نيسان دون وقوع كذبة كبيرة كوداع لألعاب الشتاء السقيمة السمجة، واحتفل البعثيون الذين غدوا قوة كبيرة لا يُستهان بها في البرلمان بعيد ميلاد حزبهم، الذي اختاروا له السابع من نيسان يومًا

لميلاده، كما بدأ الأكراد تجهيز أنفسهم للاحتفالات بعيد النيروز الذي يعتبرونه عيدًا لرأس السنة الكردية، الذي يتوافق مع ذكرى جلاء المستعمر الفرنسي، عن أرض الوطن في السابع عشر من نيسان، وأقامت مدرسة القرية احتفالًا كبيرًا بهذه المناسبة الوطنية بإشراف الأستاذ بدر، حيث قام التلاميذ بنصب قوس للنصر، على مدخل المدرسة، ثم قدموا استعراضًا كشفيًّا جميلًا، تقدمهم قارع الطبل وحيد السلوم، يليه البواقون الذين زينوا أدواتهم النحاسية بأعلام الدولة، ليسير من خلفهم تلاميذ المدرسة من ذكور و إناث بخطوات منتظمة منضبطة، مع إيقاع الطبل الكبير، الذي تعود ملكيته لمُسَحِّرَ القرية خيرزان. الذي لم يكن يستخدمه إلا لإيقاظ الناس من نومهم، لتناول السحور، في أيام الصيام التي تختلف مواعيدها من عام لآخر.

كان تلاميذ المدرسة يرددون بحماسة كبيرة كلمات نشيد إبراهيم طوقان:

موطني موطني

الجلال والجمال والسناء والبهاء في رُباك ..في رُباك

أيقظ قرع الطبل الشيخ عبد الله من سباته الشتوي، وارتعد جسده حين سمع صوت الصور يأتيه منذرًا، حادًّا فقرأ في سره: "ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد" (ق)، ونهض ليعتمر عمامته البيضاء فوق عباءته الصوفية وخرج ليشاهد يوم القيامة.

لم يكن الشيخ عبد الله قد خرج من مترله طوال فصل الشتاء، وكان قد صنع لنفسه بابًا في جدار المسجد، يصله مباشرة بمترله الملاصق له، ولم يعد بذلك مضطرًّا للخروج من باب الدار، إلى باب المسجد الخشبي الكبير، ليؤمَّ بالمصلين حين يشاء.

كانت صدمة الشيخ عبد الله كبيرة، عندما شاهد أبناء قريته ينفخون في الصور، بهذه الحماسة الشديدة، فلعنهم ولعن معلميهم وقال: المزمار لليهود، والجرس للنصارى، أما نحن المسلمون فلنا الكلمة. فضحك بعض السامعين من الشبان، لكنهم، لاذوا بالصمت وابتعدوا عنه، خوفًا من لسانه السليط.

لكن الطامة الكبرى وقعت، حين سمع خبرًا مفاده: أن الزانية أمينة قد عادت إلى القرية منذ مدة بعيدة، وأنها لم تخرج من مترلها طوال أيام وأيام، فزمجر متوعدًّا: هذا يوم النشور. وعاد غاضبًا إلى مترله المتآكل كجسده.

وأفرجت الأرض المعطاءة عن كنوزها المُخبَّأة من نباتات وحشائش لا تُحصى ولا تُعد، وعبق الهواء برائحة أزهار اللوز الناصعة البياض، وخرج النحل من خلاياه ليمتصَّ رحيق أزهار شقائق النعمان التي زينت السهوب بلونها القاني. كما خرجت أمينة من عزلتها بثوبها الزاهي، لتنطلق مع نساء القرية وفتياتها، حاملات الأمواس القرباطية لجمع "الحويش" من نباتات البرِّية، كالخبيزة والقُرصعنة، الدردار والهندباء، التي تُقلّى مع قليل من الزيت وتؤكل بشهية باسم "الحويش" أي من كل ما جمعوه من حشائش مختلفة.

توجَّه الإمام إلى حقله الذي بذره بحبيبات الذهب ليتفقد حالة الزرع فيه، وكانت صدمته كبيرة حين شاهد قِلة نباتات القمح التي انبجست من الأرض، إذ كانت المسافة ما بين النبتة والأخرى تزيد عن الشبر، وهذا يعني أن الطيور قد التهمت البذار الذي كان عبد الغفار قد نثره في طول الحقل وعرضه. لن أحصل على موسم في هذا العام، الزرع النابت نزير و طفيف و يسير للغاية، ولن يعمل به المنجل – قال الإمام محبطًا، يائسًا، وجلس على صخرة صغيرة على حافة الحقل الممتد بعيدًا – لقد خسرت الكثير، الموسم والبذار. لقد أكلت الطيور حصتي وحصتها. تلك هي مشيئة الله. وقف ليصلي ركعتين وهواء الربيع الممزوج بشذا أزهار البرية، يلفح جسده، في محاولة منه لمواساة الإمام الأزهري في مصابه الأليم.

في البرية، وبعيدًا عن أعين رجال القرية، وعلى مرج مغطى بنبات الخرفيش، تجمعت النساء والفتيات حول أمينة، يسألْنَها عما حدث لها طوال تلك الأيام. فروت لهنَّ كيف جرفها السيل إلى مناطق بعيدة لا تعرفها، وكيف كانت تشعر بأن الشمس في تلك المناطق تشرق من الغرب بدلًا من الشرق، وكيف وجدها مجموعة من النساء الساحرات، أشفقن عليها بعد أن روت لهن قصتها، فغمرنها بحبهن، ثم قمنَ بإيصالها إلى القرية كنسمة هواء على بساط الريح، وعاهدنها على تقديم العون لها، إن احتاجت لهن في أي وقت تشاء، وما عليها إلا أن تطلبهن في قلبها، ليُهرعن إلى مساعدتها، شريطة ألّا تكشف عن عوالمهنَّ وأشكالهن.

صُعقت الفتيات من رواية أمينة الساحرة، وقدمن لها قِسمًا مما جمعنه من حشائش البرية الندية الطرية، وقد سعدن بحكايتها، وأعربن عن تضامنهنَّ معها في وجه قساة القلوب. لكن خولة صديقتها القديمة تجرأت وسألتها، إن كانت ستعاود فعل الرذيلة مع شباب القرية كما كانت تفعل من قبل؟ فضحكت أمينة، ثم رشقت صديقتها بنظرة ثاقبة ارتعدت خولة منها وقالت: سامحيني. لم أقصد الإساءة. تعرفين كم أحبك!

مع غروب الشمس، عاد الإمام إلى منزله والحزن يعصر قلبه، فتح الباب وأطلق سراح جواده الأحمر الذي صهل مُخبرًا الأزرق عن عودته، فاستجاب الأزرق بصهيل مماثل، وجرى الأحمر إلى الإسطبل فرحًا.

جلس الإمام على حجر الجاروشة الأزرق المتكوم بقطعتيه قرب الباب ليستريح قليلًا، ووقعت عيناه على صرة قماش صغيرة، تناولها بيديه ليكتشف أنها تحوي على كمية طازجة من أعشاب البرية الصالحة للطعام "الحويش". هناك من تذكرني وأشفق على حالتي فرمى لي من فوق الجدار بهذه الصرة ليواسيني ويطعمني أكلة طيبة أشتهيها من كل قلبي. قال الإمام فرحًا.

مع عودة النساء من البرية، انتشرت في البيوت الطينية حكاية أمينة، ورحلتها البعيدة إلى بلاد الواق الواق، ولقاؤها بالنساء الساحرات اللاتي عاهدنها على الإذعان لأوامرها، وتلبية مطالبها حالما تقصدهن بفؤادها، كما تحدثت النساء لرجالهن، عن فستانها الزاهي الذي أهدته النساء الساحرات لها، وعن توبتها النصوح عن استدراج الرجال إلى مخدعها،

وأضفن بحماسة شديدة بأن الساحراتِ سينتقمن شَرَّ انتقام، من كل رجل يحاول الاقتراب منها طلبًا للفاحشة، وأنهن، أي الساحرات، سيقفن حارساتٍ على بابها، على شكل أفاعٍ، أو عقارب تتسلل إلى مؤخرة كل من يضاجعها، لتلدغه بسمها القاتل.

هذه الرواية، كانت أمينة قد اخترعتها حين دخلت البيت برفقة أمها، وروتها لإخوتها فاقشعرت أجسادهم، وهلعت قلوبهم رُهابًا منها، ولم يقدموا على إيذائها. وعملت أمها كل يوم على إضافة تفصيل جديد، حتى تكرست الرواية في أذهانهم كحقيقة لا تقبل النقاش، وهذا ما شكّل رادعًا قويًا، منعهم من ارتكاب جريمة قتل بحق شقيقتهم. فعادت أمينة إلى نومها الهنيء، وقد غابت عنها مخاوف الموت والقتل. وتأكيدًا لالتزامها الأخلاقي وتوبتها الصادقة، لم تخرج أمينة من منزلها حتى آن أوان القضب.

– الماسونية تدعو لتحرر العقل من الإيمان – قال الفرمصوني الحاج خضر – إذ لا يمكن للعقل أن يعمل بحرية تامة ما لم يتحرر من الطلاسم والمعتقدات والغيبيات التي تنهكه بثقلها وتحرفه عن اكتشاف الحقائق البسيطة كالبديهيات.

– سمعتك من قبل تقول إن أول مبادئ الماسونية هو الإيمان بالله. قال إلياس معترضًا.

– صحيح. الإيمان بالله الكلي الأزلي. المهندس الكوني. الله ليس مسلمًا، أو مسيحيًا، ليس شيعيًا أو سنيًا، ليس كاثوليكيًا أو أرثوذكسيًا

أو قبطيًا، الله فوق كل ذلك جميعًا. الله هو العقل الكوني المدبر والمنظم لكل شيء وفق قوانين تامة ودقيقة ومتفاعلة قابلة للتجديد والتغيير، ولهذا نحن نؤمن بالله – العقل، وقد أنعم الله على بني آدم جميعًا، بالعقل ليعرفوا جزءًا من الحقائق الكبرى،و التي هي في غاية البساطة. فالأرض كروية وليست بساطًا ممتدًا بلا نهاية، فإن كان إيماننا يفرض علينا أن الأرض بساطًا يمتدُّ بلا نهاية فلن نقتنع بكروية الأرض، رغم بساطة فكرتها. لهذا يطالب ديكارت بعزل المكتسب الإيماني عن عمل العقل.

– بماذا يختلف كلامك عن كلام الدروز؟ شيخهم يسمى بشيخ العقل، ومبدؤهم إعمال العقل المصادر من قبل شيوخهم.

– هذا كلام فارغ لا معنى له – قال رياض – الإيمان لا يمنع أحدًا من العلم. أنت تطالب المسلمين يا حاج خضر برفع الإيمان بالله العلي القدير وبرسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عن قلوبهم ليبحثوا في العلم. أي تجديف هذا! العلماء المسلمون، وبإيمانهم الذي لا يتزعزع قيد أنملة، وبإلهام من رب العالمين، قدموا منجزاتهم العلمية للبشرية جمعاء، من ابن سينا للفارابي، لابن حيان، للكندي، فماذا تقول عنهم؟ هل تخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم الراسخ المترسخ بالله ورسوله ليقدموا لنا ما قدموه. أي هُراء تقوله يا حاج خضر؟!

– الدين أفيون الشعوب – قال ياسر – هكذا يقول كارل ماركس. الرأسمالية العالمية تستغل الأديان لتهدئة بركان ثورة البروليتاريا العالمية. العالم الرأسمالي سينهار لا محالة.

– إن شاء الله، ستضعون الناس في قالب واحد وتقطعون رؤوس كل من يخالف قالبكم في الطول أو في العرض، أو أطرافه، لتحققوا المساواة التامة بين الناس جميعًا. قال بدر مستهزئًا.

شعر ياسر الأممي بالغيظ وقال: نحن لا نفعل ذلك. النازيون معلموكم من فعلوا ذلك، وهؤلاء، وأشار إلى رياض الذين يرددون: المسلمون سواسية كأسنان المشط.

– أخي أي فكرة ما لم تكن نتاج بيئتها فلا تعبر عنها. أنتم تتحدثون عن أفكار فارغة، مزيفة، مستوردة. القومية العربية، صحوة العقل العربي هي ملاذنا..لن تنفعنا الماسونية ولا الشيوعية ولا كل هذه الأفكار الغريبة عن مجتمعنا. نحن عرب ولسان الضاد يجمعنا. نقطة انتهى. قال إلياس.

– إذًا، لماذا تدرسون علم الرياضيات وهو علم غربي أجنبي بحت من نظرية تالس في الهندسة إلى نظرية فيثاغورث؟ سأل الفرمصوني.

– فيثاغورث سوري وليس أجنبيًّا. قال بدر. درس في الإسكندرية وعمل قريبًا منا في مدرسة أفاميا في حماة. لا تجعل منه أجنبيًّا.

– من يسمعك يا أستاذ بدر – قال ياسر – يصدقك، أنتم تجعلون من كل رجل مهمّ في التاريخ من أصل سوري، ولا أستغرب إن قلتم إن لينين من أصل سوري.

– لا، لا، لن نقول عن لينين إنه من أصل سوري – قال بدر ساخرًا – سندعه لكم ...للبروليتاريا. لا حاجة لنا به من قريب أو بعيد.

وعمَّ الضحك بين الحاضرين في نزل الأستاذ بدر، الذي تثاءب معلنًا عن رغبته في النوم فنهض الأستاذ إلياس وهو يقول مودعًا: ندور وندور ثم نعود للنقطة ذاتها.."ما في خواص".

هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم. (الحديد) صدق الله العظيم.

قال الإمام عندما سمع صوت أزيز رصاص يخترق عنان السماء ثلاث مرات متتاليات. خرج إلى الليوان ووقف مصغيًا لعله يستبينُ ما حدث، فلم يسمع شيئًا يُضاف إلى ما سمعه قبل لحظات. فقرَّر أن يعود إلى غرفته ليتابع ما قد بدأه بعد صلاة العشاء، لكن وقع أقدام هلعة اقتربت من باب الدار ليسمع بعدها قرعًا خفيفًا خائفًا.

- استرنا يا ستار. قال الإمام، وهو يفتح الباب ليشاهد كوثر منفوشة الشعر، ترتعد من الخوف، وصوتها محبوس في فمها.

- كوثر! سأل الإمام في جزع مهيب. ماذا بكِ يا كوثر؟

- الدرك يا مولاي، الدرك. اقتحموا المنزل من فوق السطوح، وخلعوا باب الغرفة وأنا نائمة، إنهم يبحثون عن أخي يوشع. فتشوا البيت، بعثروا كل شيء، ثم أخذ واحد منهم يفتشني بحثًا عن سلاح أخبئه في ثيابي.. لقد.. لقد .. آه يا مولاي ما أصعب ذلك. وارتمت في حضنه وأجهشت في البكاء.

- هل فعلوا بك شيئا؟ أجيبي. هل آذوك؟

- واحد منهم أراد ذلك. نعتني بأبشع الكلمات.. أراد أن.. صرختُ في وجهه ..صرخت مستغيثةً ..سمعتْ صراخي نجومُ السماء، ولم يسمعه أحد من أهل القرية.. مَن يتصدى للدرك يا مولاي؟ من؟ لكن الحمد لله أني استطعت الإفلات من بين يديه وهربت.. لم يلحق بي.. هددني بأنه سينال مني عاجلًا أم آجلًا، ثم أطلق رصاصًا خلفي في الهواء.

- قاتلهم الله. قال الإمام.

- كنتُ أخمن أن الشرطة ستقوم "بكبسات" مفاجئة على المنزل بحثًا عن يوشع، منذ أن سلمتهم الرسالة أمام عينيك. لم يفتني تقدير الأمر، لكني لم أقدّر أنهم بهذه البشاعة، لم أحسب أنهم سيحاولون النيل من شرفي وكرامتي يا مولاي.

- كان على أخيك أن يسلم نفسه بدلًا من التخفي والاختباء، ما دام قد قرَّر غسل العار كما يقول، كان من الأجدى به أن يسلم نفسه.

- أنا لا أعلم أين يختبئ، أُرجِّح أنه في لبنان. لكن لم يصلني منه أي خبر منذ ذلك اليوم المشؤوم. حتى أنه لم يرسل أيَّ مساعدة أعيش منها، وأنت تعرف أن عملي خياطةً قد توقف منذ ذلك اليوم، ولا مورد لي. أنا لا أمتلكُ شيئًا يا مولاي أقتاتُ منه. وفوق هذا أتعرض ...وأجهشت كوثر في البكاء حتى كادت تتقطع حبال صوتها.

- انتظريني هنا. قال الإمام وتوجَّه إلى منزلها.

حين اقترب الإمام الأزهري من زقاق بيت كوثر، شاهد ثلاثة من الدرك، على جيادهم الأصيلة، يغادرون القرية، وقد علقوا بنادق الرصاص، على أكتافهم العريضة المناكب. أدرك الإمام أنه لمن الحماقة أن يُوبِّخهم، أو حتى يكلمهم في أمر كوثر، فهم في مهمة رسمية للإمساك بيوشع، وتقديمه للعدالة. فعاد مكسور الجناح إلى المترل، وأخبر كوثر، أنهم غادروا القرية، وأكد لها أنهم سيفعلون ذلك مرارًا وتكرارًا، حتى يلقوا القبض على يوشع، الفارِّ من وجه العدالة، للزجِّ به في السجن ومحاكمته، وأن أحدًا لا يستطيع التصدي للدرك، وإلا سيُعدُّ شريكًا في الجريمة، والله وحده يعلم ما سيحلُّ به إن فعل ذلك.

– وماذا يمكنني أن أفعل؟ سألت كوثر. لقد تلطخ اسمي بالوحل، وقُطع باب رزقي، ولم يبقَ لي إلا أن أقتل نفسي؟ هل أفعل ذلك يا مولاي؟ هل تريدون مني أن أقتل نفسي لأدخل نار جهنم؟ أتمنى الموت أن يأخذني، أن يريحني من قسوة ما أراه يا مولاي.

– عودي إلى مترلك الآن. علينا بالصبر" ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا وإلى الله ترجع الأمور" (الأنفال).

عادت كوثر وترنحت في مشيتها وهي منكسة الرأس محطمة الفؤاد، وقد شعرت بأن الدنيا كلها قد تخلت عنها بما فيها الإمام الذي كانت تُعوِّل عليه كثيرًا. وتذكرت مِصعة العصفور التي سقطت على شالها ذات صباح، بعد أن نثرت حبيبات الذرة لعصافير الدوري في أرض الديار لتطعمها، فضحكت وعلا صوتها مُجلجلًا جنونيًّا، وقد فقدت الشعور

بالرهبة، لا لم يعد هناك شيء يرعبني، لم يعد هناك شيء يرهبني - قالت كوثر - وقد أحست بجوفها يتلظى بنار تحرقها من الداخل. شيء ما تحرك فيها، لا تدري ما هو، ومن أين جاءها ذلك الإحساس بأنها قادرة على مواجهة هذا الظلم، هذا الحيف الذي يريد استباحتها ما دامت راقدة مستكينة له. سأواجه خوف قلبي بشجاعة قلبي - قالت كوثر - لا أنا لست بعاهرة. أنا اليتيمة كوثر التي ذاقت الأمرين لتعيش بكرامتها مرفوعة الرأس، فكيف لهؤلاء الأوغاد أن ينالوا مني!

سامحك الله يا أخي، سامحك الله يا يوشع. أين أنت؟ أحيٌّ أنتَ أم ميت؟

وصلت كوثر إلى منزلها وشاهدت شبح إنسان يقف منتظرًا.. اقتربت بخطوات حذرة وقد عزمت على مواجهة هذا الخطر الذي بات لا يُفارِقُها.. تُرى من يكون؟ أنا أعرف هذا الإنسان..نعم أعرفه.. أعرفها، وجاء صوت فدوى: سمعت صوتك يناديني أليس كذلك؟ واقتربت كوثر من شقيقة زكريا وتعانقتا.

صَعَدَ الشيخ عبد الله بصعوبة بالغة درجات المنبر الخشبي لمسجد القرية وجلس على الطراحة المربعة وحدّج المصلين بنظرة بالغة الأسى. كان يبدو مُنهكًا، تَعِبًا، عليلًا، شاحبًا كعمامته البيضاء، التي تلوَّنت مع الأيام بألوان الخريف، التي لم يستبدلها قط منذ أن اعتمرها أول مرة، عندما كان في ريعان شبابه.

أخذ الشيخ عبد الله نفسًا عميقًا، وبقي صامتًا، يُحدِّق إلى وجوه المصلين، الذين احتشدوا لأداء صلاة الجمعة، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر، أدعية الاستغفار، والرحمة، ومباركة الأرزاق، التي تشكل أمتع فصول صلاة الجمعة بالنسبة لهم، خاصة عندما يرددون بصوت واحد كلمة "آمين" خلف دعاء الخطيب.

تململ بعض المصلين في أماكنهم، وشعر آخرون بالرهبة من هذا الشيخ الكبير، الواهن، فهو مرجعهم الأعلى لمعرفته العميقة بشرع الله، ولكِبره في السن، لأن أحدًا من الحاضرين لا يعرف عمره الحقيقي، لقد اعتادوا وجوده، وشكله المميز الذي لم يتغير أو يتبدل، منذ أن وعوا على هذه الدنيا، فالشيخ عبد الله مثله مثل المئذنة باقٍ ببقائها.

كان الشيخ عبد الله معروفًا بتشدُّده، وبسلاطة لسانه وبقسوة قلبه في كل مناحي الحياة المادية منها والمعنوية، وكان يتحدث مع الجميع كأطفال صغار مهما يكبروا، ولم يكن يعتلي المنبر إلا لشيء خطير، ليقول قول الفصل في مسألة مهمة تمسُّ الناس جميعًا، بل تمس روح العقيدة وجوهرها كما يقولون.

دَقَّ الشيخ عبد الله الدرج الخشبي للمنبر برأس عكازه، فجمدت دماء الحاضرين وانشدُّوا إليه، وخرج صوته المبحوح: الحمد لله ثم الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الحمد لله ثم الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد خير الأنام وعلى آله وصحبه أجمعين.

يا إخوان،مصادر الأحكام الشرعية في الإسلام ثلاثة: القرآن الكريم، وسنة رسول الله (ص) وإجماع المسلمين لأن أمة محمد (ص) لا تجتمع إلا على ما فيه الخير للناس أجمعين، وقد قال رسول الله (ص): "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السبع". رواه أبو داوود، فالسنة حجة بإجماع المسلمين لأن ربي وربكم ورب العباد أجمعين يقول في تتريله الحكيم: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة". صدق الله العظيم، كما أن إجماع أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، حجة، لأن رسول الله (ص) قال: "لا تجتمع أمتي على ضلالة".

يا إخوان، اعلموا علم اليقين أن حكم الرجم للمحصن الزاني ثابت بالقرآن والسنة النبوية الشريفة، وبإجماع الربانيين من علماء المسلمين، فعن أمير المؤمنين خليفةَ خليفةِ رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "إن الله تعالى بعث محمدًا (ص) بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأها وعقلتها ووعيتها، ورَجَمَ رسولُ الله (ص) ورَجَمْنا بعده، لأني أخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، فالرجم

حق على مَن زنى إذا أحصن من الرجال و النساء. إذا قامت البيّنة، أو كان الحَبَلُ، أو الاعتراف، وقد قرأها: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم". متفق عليه. فهل هناك من يشك بصحة كلام الفاروق رضي الله عنه. وقد يقول قائل كما حذر من وقوعه أمير المؤمنين: إننا لم نقرأ ذلك في كتاب الله والهدف من ذلك الضلالة ولا غير سواها.

واعلموا يا إخواني، أنه إذا كانت الآية قد نُسخَتْ من القرآن الكريم، فهذا لا يعني أنه تم نسخ حكمها، لأن الله يقول في تتريله الحكيم: "أمنَ الرسولُ بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله". (البقرة) كما قال في سورة المائدة: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تَخْشَوا الناسَ واخشونِ"

فما الذي نفهمه نحن الربانيون من كلام الله جل جلاله؟ أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بألّا نفرق بين رسل الله، هذا أولًا، وثانيًا، أن من واجب المسلم أن يؤمن بالله ورسله وكتبه، وقد وصف الله التوراة بقوله: فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا، وحكم رجم الزانية ثابت بالنص في التوراة.

إخواني في الإيمان، لم تأتِ رسالة محمد (ص) إلا تصديقًا لما ورد في كُتُبِ الله التي أنزلها على النبيين والرسل من قبله، فالله يقول في سورة المائدة مخاطبًا أهل الكتاب: "يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مُصدِّقًا لما معكم"، فهل هناك أكثر وضوحًا من كتاب الله؟!

إخواني في الإيمان جاءت امرأة إلى رسول الله وقالت له: "لقد زنيت يا رسول الله .. وروى لهم الشيخ عبد الله حكاية المرأة الغامدية، وكيف أطلقَ رسولُ الله سراحها، حتى تضع وليدها، ثم جاءته ليطلق سراحها مرة أخرى، ريثما تُرضِع ولدها إلى أن أمر برجمها، ثم عرَّج في خطبته على ضرورة التفرقة ما بين الزاني والزانية البكر والمحصن فقال: لقد خفَّف الله تعالى الحد على البكر وشدَّده على المحصن، وعِلة التخفيف على البكر هي علة التشديد على المحصن، لأن الإسلام يقوم على الفضيلة،ويحرص على الأخلاق والأنساب، ومن واجب المسلم أن يجاهد شهوته ولا يستجيب لها إلا عن طريق الحلال، ألا وهو الزواج، وعليه إذا بلغ الباءة أن يتزوج، حتى لا يُعرِّض نفسه للفتنة، أو يحملها ما لا تطيق، وبناء على كل ما تقدَّم أقول: هل حان وقت التذكير بحكم رجم الزانية الذي أشار إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخاف أن ينسى المسلمون حكمه؟!

ربنا لا تجعلنا من المنافقين.

وردَّد الجميع خلفه "آمين". ونهض الشيخ مستندًا على عكازه وهُرِع إليه بعض الفتية ليساعدوه على النزول خوفًا من أن يقع على وجهه. فأبعدهم بعكازه رافضًا أن يقتربوا منه. وتلك كانت إشارةً قوية لغضبه الشديد منهم.

كعاصفة شديدة هزت خطبة الشيخ عبد الله أركان البيوت الطينية، وكادت تهوي بها في عالم الخطيئة وأحكامها التي وردت في سور شتى في كتاب الله، لكن السؤال الأهم الذي كان يدور على ألسنة الناس هو: ما الغاية والهدف من وراء كلام الشيخ عبد الله؟ ما الذي يرمي إليه؟ أو بفصيح العبارة: ما الذي يخطط له؟ هل يفكر بإطلاق حكم الرجم على أمينة التي فرَّت ذات يوم من بين يديه، وعادت محصنة بالنساء الساحرات؟ أم تراه يفكر بكوثر الضعيفة المسكينة التي باتت كغصن مقطوع من شجرة لا قيمة لها؟ أم لعله أراد أن يذكر الناس بحكم الله في الزانية والزاني قبل أن ينتقل إلى رحمة ربه؟ لا سيما وأن التعب والإنهاك كانا ظاهرين على وجهه الشاحب، وهذا ما يُشير إلى أن صحَّته ليست على ما يُرام! لكن من يدري ما يختلج في قلبه؟ فالله وحده يعلم ما في الصدور.

مضت أيام طويلة وعديدة حتى سنحت الفرصة ليوشع بلقاء الأمير يورنس، إثر عودته من لندن بعد زيارة قام بها استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر، تنقل خلالها الأمير بين العواصم الأوروبية لندن وباريس وبون. لم يكن يوشع يتصور أن الأمير الذي تتناقل الريح أخباره شابٌّ لم يبلغ

الأربعين من عمره بعد، ويتميز بجاذبية خاصة، بسحر ابتسامته الخجول، وبنظرات عينيه السوداوين الزائغتين. لم يكن من السهل معرفة طبعه المتقلب، فتارة يبدو عذبًا سلسًا، وتارة يبدو كوحش هادئ ثاقب النظرات، خاصة عندما تظهر على مُحياه، تلك الابتسامة الخجول والوديعة، فينقضُّ بعدها ليفتك بخصمه في لحظاتٍ قصار.

كان للأمير جيشه الخاص والمكون من عدد غير معروف من شاحنات البيك آب من طراز شيفرليه الأمريكية الصنع والمخصصة للعمل في ظروف البادية والصحراء. وكان الأمير يسيطر سيطرة تامة، دون منازع، على شريان تهريب البضائع، بأشكالها وألوانها المختلفة، بدءًا من الحدود مع تركيا إلى عمق الصحراء العربية، ولم يكن يعرف عنه الكثير وخاصة عن تنقلاته، وعدد زوجاته، فمن الناس من يؤكد، أنه متزوج بالحلبية لطيفة الجابري التي تعيش في حلب، ولم تأتِ قط إلى مضارب قبيلته، كما أن له زوجة أخرى باسم ديانا، دمشقية مسيحية من بيت الخوري تعيش في قصر كبير مطل على وادي بردى في بلودان، وواحدة أخرى باسم مرام من بيت صنقر، إضافة لزوجته البدوية وابنة عمه الأميرة عُلا المقيمة في قصر قريب من مدينة الرقة على الفرات. كما لم يكن أحد يعلم عدد أبنائه، فهم متوزعون في المناطق كافة، ويُقال إن نساءه الأربع أنجبن في عام واحد أربعة من الصبيان، فأقام الأمير حفلًا صاخبًا في المضارب استمرَّ أسبوعًا كاملًا، شاركت فيه الحجة سعاد، وما زال الناس يتحدثون عنه منذ سبع سنوات وحتى يومنا هذا، وهم لا يصدقون أن الشيخ الأمير لم يتزوج خلال الاحتفال بواحدة خامسة لا يعرفها إلا هو. لكن يوشع، علم فيما بعد، أن عروس الحفل التي لم تغب

عن ذاكرة الناس، كانت الحجة سعاد ذاتها، وكانت آنذاك في سن السابعة عشرة من عمرها. تزوجها الأمير مدة أسبوع واحد، هو فترة الاحتفالات ليطلق سراحها فيما بعد بإحسان كبير، قبل أن ينكشف أمره، من أنه يعاشر غجرية قرباطية. استولى والدها صانع الأسنان الذهبية على مالها، وخبّأه في مكان لا يعلمه أحد سواه. وتُوفّي بعد ذلك بسنة، إثر نوبة قلبية، دون أن يخبر أحدًا عن مخبئ كنزه، لتعود سعاد إلى عملها الذي بدأت به حياتها المهنية "كحجة".

لا أحد يعلم لماذا يُطلق الناس تسمية "الحجيات" ومفردها "حجة" وليس حاجة على الغانيات الغجريات، أو لماذا يحظين بهذا اللقب الذي يثير كثيرًا من الجدل والتساؤل.

لم يسأل الشيخ الأمير يورنس يوشع عن سبب لجوئه إليه، واكتفى بسؤاله عن اسمه قائلًا: يوشع بن نون..أتعرف من هو؟ فأجاب يوشع بأنه سمع والده يقول: إن يوشع كان اسم خادم النبي موسى عليه السلام ورفيق دربه، وسمّاه القرآن الكريم فتى موسى ولم يذكره بالاسم حرفيًا. تمعّن الأمير يوشع بنظرات ثاقبة هادئة، وتأمله من رأسه حتى أخمصي قدميه، ونادى لذيب (الذئب) الذي حضر مسرعًا وأشار إليه بأن يصطحب يوشع معه.

كان اسم "ذيب" اسمًا على مسمى، ويختصر شخصيته بكلمة واحدة، فهو بعين واحدة لا تعرف النوم ولا الراحة، منذ أن فقد عينه الثانية، في إحدى المعارك مع رجال الهجانة، وهم حرس حدود البادية مع العراق والأردن، واسمهم مشتق من الهجن.. الجمال، وكانوا يجوبون الصحراء

ليل نهار بلباسهم البدوي ومناديلهم الحمراء اللون التي تبدلت مع الأيام بقبعات حمر.

كان ذيب حاد البصر، ولديه حاسة شم غريبة، لا يستخدمها الناس عادة لمعرفة أماكن الخصم، فكان في كثير من الأحيان يوجه أنفه للريح، ليعرف ما يختبئ أمامهم من كمائن معادية، أو مضارب قبيلة، أو قافلة تمرُّ في غياهب الصحراء بعيدًا عن أعين المراقبة، أو رعاة يبحث عنهم في عمق البادية المترامية الأطراف. كما كان يحرص على تنفيذ مهامه بكتمان شديد، دون أن يسمح لأحد من فريقه بالسؤال، أو بسماع ما يدور بينه وبين الناس من أحاديث وإشارات. كان فريقه مكوَّنًا من ثلاثة أشخاص، السائق الذي كلّفه ذيب بقيادة سيارة أخرى ليحل يوشع مكانه، وشاب يسمونه العيصلان لنحافة جسده ومرونته، وكان العيصلان يجلس في الخلف على ظهر البيك آب قرب رشاش أتوماتيكي ضخم، يخفيه داخل كومة من الأقمشة العتيقة، المهترئة تحت حزمة من العيدان التي تتبدل بين فترة وأخرى.

ذيب في تحركاته يشبه ذئب البوادي، فهو يعرفها شِبرًا شبرًا، ويُميِّز طرقاتها الترابية – الطينية، بعلامات لا تخطر في بال أحد، إذ كان غالبًا ما يطلب من يوشع أن يتوقف في مكان ما فجأة، ليظهر بعد لحظات بدوي يخرج من قاع الأرض.. فيترجل ذيب من سيارته ليتحدث معه على انفراد، بضع دقائق، ليختفي البدوي بعدها في الصحراء من دون أثر.

لم يكن يوشع بحذاقة ذيب ونشاطه وخبرته، لكنه أدرك، أن عليه ألّا يسأل أو يستفسر عن أي شيء، كما أن نجاحه في عمله، مرهون بقدرته على الملاحظة بصمت. كان عليه حفظ الطرقات الترابية المتشعبة في كل الاتجاهات كمتاهات لا يكشف سرها لأحد. بدأت عيناه تميز تضاريس المنطقة شيئًا فشيئًا. كانوا قد دخلوا العراق أكثر من أربع مرات خلال شهر واحد دون أن يدري أنه تجاوز الحدود. كان ذيب في كثير من الأحيان يأمره بالتوقف والانتظار ساعات وساعات في منطقة قفراء نفراء، وهو يتابع حركة الشمس، ومن ثم يأمره بالتحرك السريع نحو وادٍ مجاور، ليلتقي بعدها بقافلة من سفن الصحراء العابرة.

لقد تعلم من البدو أن للأسماء العربية مدلولات ومقامات مختلفة، فهي ليست مجرد أسماء تطلق اعتباطًا على الأطفال، وفقًا للظروف المناخية أو الجغرافية، بل لها مدلول عميق وواسع بوسع الصحراء، فالأمراء والسادة يسمون أولادهم بأسماء لا وجود لها على أرض الواقع، أسماء رمزية، غير محسوسة، ولا يمكن لأحد ملامستها أو معرفتها أو الكشف عن مدلولاتها العميقة. أما الأدنى مرتبة من الناس كالعبيد والإماء والناس البسطاء فيطلق عليهم أسماء ملموسة مادية، فخالد غير صقر، ووهيب غير ذيب، ونجوى غير سوسن، ومنى غير موزة أو تفاحة أو ثلجة، فلا يوجد في الدنيا شيء محدد وملموس اسمه خالد أو وهيب، أو نجيب، كما لا توجد في الدنيا ما تدعى النجوى والمنى، في حين نرى الصقر ونعرفه، ونرى بأم أعيننا الذئب والربيع، السوسن والياسمين،

التفاحة والموزة. وارتاح كثيرًا لاسم شقيقته الذي يجمع ما بين الطرفين النقيضين، فهو اسم نهر بحد ذاته، لكن أحدًا من البشر لم يَرَه بعد، لأنه اسم نهر من أنهار الجنة يُدعى الكوثر. كوثر التي توجهت إلى الإمام محنية الرأس لتسأله عما يمكن أن يحدث لها، بعدما تناهت لها أخبار عن أن الشيخ عبد الله يحرض على رجمها كونها زانية، وقالت له باستحياء وخوف: كيف يمكنه فعل ذلك وأنا "بنت بنوت" ولم يمسني أحد؟ كيف له أن يشرعِن قتلي دون أن يتأكد من صحة حكمه؟ هذا هو الكفر بعينه يا مولاي.

لم تكن كوثر تبكي، بل كانت تقف شاحبة اللون، وقد نحل جسدها كثيرًا. فقال لها الإمام: لا تجزعي، لن يرجمك أحد بإذن الله. فالله بصير وعليم ولا يخفى عنه شيء. عندئذ قالت له ما لم يتوقعه: يا مولاي أنا أعرف أن الله بصير وعليم، ولكن كيف لهؤلاء عميان البصر والبصيرة أن يروا الحقيقة؟ مَن هذا الكائن الخرافي (الشيخ عبد الله) ليحكم على الناس؟ من هو؟

- لا إله إلا أنت. قال الإمام وقد شعر بضيق شديد في أنفاسه. أرجوك لا تتحدثي بالسوء عن الشيخ عبد الله، فهو أحد أساتذتي، لكن لا تخافي يا ابنتي لأن الله مع الصابرين. ثم إن الشيخ عبد الله لم يذكر أحدًا بالاسم، ولو أراد تنفيذ ذلك فللمسألة شروط لن تتوفر في حالتك أبدًا.

نكست كوثر رأسها وبقيت صامتة ويديها في جيبي جاكيتها الصوفي. لم تكن قادرة على فعل شيء، وبدا لها الإمام مترددًا، بل ضعيفًا جدًّا، وكانت هي المرة الثانية التي يخذلها فيها.

-- ألن تقف في وجههم؟ سألته بشيء من الازدراء والاتهام.

-- يا ابنتي، أنا لا أستطيع إصلاح العالم، لأن الله يقول: "لا يغير الله في قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". وأنا رأيي ضعيف أمام علماء القرية. هم لا يعملون بعقولهم، بل بما ورثوه، فكيف لي أن أتصدى لهم؟ من السهل اتهام الناس.. من السهل زرع الفتنة.. لكن من الصعب جدًّا تبرئة المتهم، من الصعب جدًّا تغيير قناعات الناس. ومع ذلك لن يحدث شيء في هذا لكون إلا بإرادة رب العالمين، فثقي بالله المنتقم الجبار. "ولله يسجد من في السماواتِ والأرضِ طوعًا وكَرَهًا وظلالهم بالغدو والآصال". (الرعد)

التفتت كوثر نحو مصدر الأصوات القادمة من الزقاق المجاور، فظهر لأستاذ بدر وياسر والأستاذ إلياس ومروان، وألقوا بالتحية على الإمام وعلى كوثر التي تنحت جانبًا، فقال الأستاذ بدر ممازحًا: جئتك أيها لإمام بضيوفي الذين لا يفارقون وجهي ليل نهار لعلك تحمل كتفًا عني، أحذرك سلفًا أن المزيد من هذه "النمر" سيأتون إليك في هذه الليلة، قد أعلنت لهم أننا سنمضي سهرة اليوم في ضيافتك فماذا تقول؟

-- وماذا أقول؟ عسى خيرًا.

-- هل يعني ذلك أنك تقول تفضلوا، شرفوا لندخل؟

- بكل تأكيد.

كان ياسر الأمي قد اقترب من كوثر وتحدث إليها بكلام لم يسمعه أحد من الحاضرين، ثم عاد لينضم إلى المجموعة بعد أن رحب بهم الإمام وغابت كوثر في الظلام.

لم تمضِ ساعة من الوقت حتى اجتمع رهط كبير من رجال القرية في منزل الإمام، فقد جاء الحاج يعقوب بصحبة جاره الحاج علي، والمختار، ورياض، والحاج خضر وأبو روزا النصف مشلول مع صديقه الأعمى عبد الرحمن، ولم تعد الغرفة تتسع للحاضرين، الذين كانوا يتهامسون فيما بينهم، دون الولوج في الموضوع الذي جاؤوا من أجله.

كان الإمام يراقبهم بنظراته الخجولة الحيرى، متمنيًا في أعماق قلبه ألّا يطلبوا منه ما عزموا عليه، كما أن الحضور المفاجئ للحاج يعقوب برفقة الحاج علي، خلق نوعًا من البلبلة بين الحاضرين، فالحاج يعقوب معروف بتشدده الديني، رغم أن مظهره الخارجي لا يوحي بذلك، أما جاره الحاج علي، فكان يبصم على ما ينطق به الحاج يعقوب دون تفكير أو مراجعة ذهنية. وكان أهل القرية يعرفون ذلك جيدًا، ويسخرون حين يظهر الحاج علي برفقة الحاج يعقوب قائلين: جاء الحاج يعقوب وشاهده في جيبه.

كادت الجلسة تمضي دون "فتح السيرة"، وتثاءب بعض الحاضرين بعد أن شعروا بالنعاس،حتى فجر أبو روزا الموقف بغتة، ودون مقدمات، قائلًا: نحن جئنا إليك أيها الإمام لنعرف موقفك من رجم الزانية والزاني؟ فماذا تقول؟ نحن نريد أن نعرف رأيك بخصوص هذا الأمر، لأن جميع

الحاضرين يعرفون أنك ضليع ودارس في الأزهر الشريف. صحيح أنني شيوعي والجميع يعرف ذلك، فأنا لا أخفي قناعتي، لكني أريد أن أعلم كبقية الحاضرين ماذا تقول في هذه المسألة؟

ابتسم الإمام، وهَزَّ برأسه وقال بصوت خافت: اللهْ، اللهْ.

وتدارك الأستاذ بدر الموقف المحرج، وقد انشدَّت العيون إلى الإمام الذي شعر بالحرج الشديد فقال بدر: الحقيقة أيها الإمام، نحن نريد معرفة حكم الزاني والزانية في الإسلام، وليس موقفك الشخصي، فكل الحاضرين هنا يقرون بمعرفتك وخُلقك الكريم، وبقدرتك على شرح الأمور بوضوح لا لبس فيه، فما قولك؟

– وماذا يمكنه أن يقول – قال الحاج يعقوب – بعدما أوضح الشيخ عبد الله أستاذه للإمام كل شيء حول هذا الموضوع! أليس الشيخ عبد الله بأستاذك أيها الإمام؟

– دون شك قال الإمام – الشيخ عبد الله أمد الله بعمره، كان واحدًا من أساتذتي، و هو من علمني أبجد هوز.

– هذا هو الكلام – قال الحاج يعقوب – من علمني حرفًا كنت له عبدًا، فكيف إن علّمك كل الحروف، أقصد القراءة والكتابة؟

– لكن حسبما سمعت، فإن حضرة الإمام، هو الوحيد الحائز على شهادة الإفتاء من مجمع العلماء للديار الشامية، كما أنه الوحيد الذي نهل من علوم مصر رائدة الأمة العربية، وهذه مسألة ليست بسيطة. قال إلياس.

– لم يعد للعلم قيمة يا أستاذ. قال الإمام. فسأله الأستاذ بدر: المهم بالنسبة لنا أيها الإمام أن توضح لنا موقف الإسلام في هذا الشأن الكبير؟ فما قولك؟

– وما الذي دعاكم للمجيء إليّ لاستيضاح مثل هذا الأمر الخطير؟ هل هناك من يعترف أو تعترف بأنها زانية؟ هل هناك واقعة محددة للحديث عنها؟ هل هناك مدعٍ بهذا الأمر، وهل لديه شهداء؟ ما المشكلة؟

تململ الحاضرون في أماكنهم. وتبادلوا النظرات المتسائلة.

شعر الإمام بالصدمة التي ولدتها كلماته في الحضور، فأضاف بلغة الواعظ: الزنا من أبشع الذنوب التي يمكن للإنسان أن يرتكبها في حياته، وقد أوصانا الله تعالى عبر كتبه ورسله أن نبتعد عن ذلك، فهي معصية كبيرة، فقد نزلت على سيدنا موسى عليه السلام في جبل سيناء في الوصايا العشر: لا تزنِ، أما سيدنا المسيح عليه السلام فقال: قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزنِ، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. أما القرآن الكريم فقد سماها بالفاحشة وقد نهانا سبحانه وتعالى عنها قائلًا: إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون.(النور) صدق الله العظيم، وأضيف يا سادة، قال الله تعالى: "ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون.(البقرة)، وليس لديَّ ما أقوله أكثر من ذلك.

– أصبحنا في حيرة من أمرنا أيها الإمام. لقد زدت الطين بلة؟ نحن نريده كلامًا واضحًا.. هل يأمر الإسلام برجم الزانية والزاني أم لا؟ سأل الأستاذ بدر.

وتصدى له الحاج يعقوب قائلًا: لقد أوضح الإمام الحكم، فلهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، فماذا تريد أكثر من ذلك؟

– أقترحُ وأطلب من مولاي – قال رياض، أن يشرح ذلك بوضوح في خطبة يوم الجمعة. ليصعد إلى المنبر وليوضح الأمر للناس أجمعين.

– لا، لا، لن أفعل – قال الإمام – فأنا حقيقة لم أعد مهتمًّا بهذه المسائل، لأن حدود الله واضحة لا لُبْسَ فيها، وأنا مشغول بأمور أخرى، وليس لديَّ الوقت الكافي لهذا الأمر، ثم إن غالبيتكم من غير المصلين.

– أخي إذا وافق الإمام – قال أبو روزا– على إلقاء خطبة الجمعة في المسجد فسأقف للصلاة خلفه.

ورد عليه عبد الرحمن الأعمى قائلًا، وهو يضحك منه ساخرًا: أولًا، عليك أن تستطيع الوقوف على رجليك، قبل أن تصلي خلف الإمام، لقد خلعت لي كتفي وأنا أسندك من شارع لآخر. وضحك الجميع من سخريته اللاذعة رغم قسوتها وفجاجتها.

وهمس إلياس في أذن الأستاذ بدر: يبدو أن الإمام يتجنب الصدام مع الآخرين. لنتركه وشأنه. هيا بنا لقد سئمتُ هذا الحوار العقيم.

سبْع سَنَابِلَ

شحذ الحصّادون شفرات مناجلهم بأحجار الصوان البللورية، فغدت تلمع كبيارق السيوف الحادة، وعادت شمائلهم تجمع ما تحصده أيمانهم من سنابل القمح التي لونت الوهاد والسهوب بلون التبر على امتداد النظر. الخير وفير والزرع قادر، قوي، ثخين السويقات، والسنابل ملأى بالحبيبات الذهبية..إنها الحِنطة، وهل هناك أجمل منها من بين كل المزروعات!

وقف الإمام مشدوهًا، وهو ينظر إلى حقله الذي امتلأ بسنابل القمح. معجزة، قال الإمام، ومشى يمينًا شمالًا، غربًا وشرقًا، ليتيقن من صحة ما تراه عيناه، فعقله لا يصدق أن معجزة قد حصلت.. نعم إنها لمعجزة.. معجزة الخلق والقدرة الإلهية اللامحدودة على العطاء بغير حساب. كان الإمام قد فقد الأمل في الحصول على موسم جيد لهذا العام، عندما تفقّد الحقل في بداية الربيع، كان الحقل شبه فارغ من نبات القمح، لأن الطيور قد أكلت نصف البذار، ثم قام النمل بسحب كميات كبيرة منه إلى أعشاشه، لتأخر هطول الأمطار. لكن المعجزة تجلت، والإمام يراها بعينيه الدامعتين، كان يَعِدُّ سويقات القمح المتعددة

التي انبجست من كل حبة لتكوّن ما يشبه الشجرة بأغصان متعددة ملأت الحقل بأضعاف مضاعفة من السنابل، وتذكّر قوله تعالى: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم" (البقرة).

يا الله، يا خالق الخلق، يا واهب الرزق، أشكرك على نعمتك يا رحمن يا رحيم – قال الإمام وخَرَّ راكعًا على ركبتيه، رافعًا يديه إلى السماء مبتهلًا – أنت العليم وأنت الغفور، وأنت الرحيم وأنت على كل شيء قدير. ثم صلى ركعتين بين سنابل القمح التي حنت رؤوسها ساجدةً لله عز وجل.

لموسم الحصاد مكانة خاصة في قلب أمينة، فهو يثير في نفسها مشاعر من الفرح والأسى، من الشجن والأمل، يُحرِّك فيها لواعج الحب الذي عرفته ذات يوم، فلعله يأتي مع الحصادين كما جاء يومًا ليحملها بأمواج عينيه إلى عوالم لم تعرفها قبل لقائه. لعله يظهر فجأة ويُقبِّل يديها كما فعل، لعله يعيد إليها السكينة بعد أن خطف فؤادها.

كانت أمينة طوال الوقت تراقب نضوج السنابل في الحقول، وكيف تستمد لونها يومًا بعد يوم من لون الشمس التي تزداد سطوعًا وإشراقًا، فيخفق قلبها باقتراب موعد اللقاء. سيأتي، لا بد أن يأتي معلقًا منجاله العريض المزين بخرزات زرق كعينيه على منكبه، كانت تقول لنفسها وتتذكّر أجمل لحظات حياتها حين سرقها الحب في ليلة مقمرة من شهر آب،(أغسطس) ثم رماها كورقة خريف في مهبِّ الريح.

كان الحصادون الغرباء الجدد يتوافدون مع غروب الشمس، ويجلسون في ساحة القرية منتظرين من يدعوهم للعمل، ويسرع المزارعون الكبار ليتخاطفوهم، فالأرض كبيرة والغلال وفيرة، وتحتاج لبذل جهود جبارة لحصدها وجمعها و نقلها إلى البيدر ودرسها وتذريتها وغربلتها وتعبئتها وتقبينها، وأخيرًا تحميلها إلى الشاحنات الضخمة. أما الحصادون القدامى فكانوا يعرفون أهالي القرية والملاكين الكبار، فيتوجهون إليهم مباشرة من دون انتظار. و زاد الملاكون الأجرة بمقدار نصف ليرة قرانا بالسنوات السابقة لتشجيع الحصادين على العمل بعزيمة أكبر، كما حرصوا على تقديم ما يكفيهم من الطعام ليحافظوا على قواهم العضلية.

كانت أمينة، تُهرع إلى ساحة القرية، حالما تسمع أصوات فوج جديد من الحصادين القادمين، لتجول بعينيها في وجوههم،وتُرحِّب بهم بابتسامة خجول، فمنهم من كان يعرفها، ومنهم من كان يراها لأول مرة فيسأل عنها. كان الحصادون القدماء يتجنبون النظر في عينيها، ويبتعدون عن طريقها، لشعورهم بالخجل من نظراتها الراجية المتوسلة، فكانت تعود لتعتلي سطح المترل لتغرق في أحاديث سمر لا تنتهي مع أمها التي هرمت كثيرًا.

كلما عاد الصيف، كان شوق أم أمينة يزداد لقريتها الطالوعة، فتعود تتحدث عنها وعن جمال بيوتها الحجرية إلى أن أجابتها أمينة قائلة: والله يا أمي بالطالوعة لا يوجد بيت عليه القيمة سوى قصر العباس. بيوتهم مثل

الإسطبلات، وهم يعيشون مع حيواناتهم بغرفة واحدة، فلا تبالغي في وصف جمالها. أنت كنت تعيشين في قصر العباس وتعملين خادمة، وقصر العباس شيء، وبيوت القرية شيء آخر. وغضبت أم أمينة كثيرًا من جواب ابنتها، وقالت لها: تتحدثين وكأنك تعرفينها، أنت لم تشاهديها، فكيف لك أن تقارني بيوتها الحجرية البيضاء الناصعة بالإسطبلات. فكانت أمينة ترد بأن الساحرات قد أخبرنها بذلك. فتسكت الأم وتستدير جانبًا لتغطّ في نوم عميق، بينما تسرح أمينة بخيالها الرحب مع النجوم المتلألئة في أعالي السماء.

كان موعدهما مع القمر بدرًا، حين تسللت أمينة من فراشها وحملت الجرة واتجهت نحو العين.

كان موسم الحصاد قد شارف على الانتهاء، وحان موعد الرحيل ولحظة الفراق، وظهر بدو الصحراء على جمالهم العالية استعدادًا لموسم الرحاد، واستبدل الفلاحون الصناديق الصغيرة للعربات المصنوعة من الدفوف المشبعة بزيت القطران لحمايتها من نخر الحشرات، بنوع آخر، من الصناديق الطويلة، والمصنعة من عوارض خشبية خفيفة الوزن، لتحميل أكداس القمح، من الحقول إلى البيادر، التي قامت النسوة بتنظيفها من الأشواك، وكنسها بالمقشات المصنوعة من نبات البلان الشوكي، استعدادًا لاستقبال أكوام القمح والشعير.

– سأشتاق إليكِ. قال لها يوسف وهما عائدان في آخر يوم حصاد. ابتسمت أمينة ونظرت في عينيه وسألته وهي تعرف إجابته مسبقًا: هل سترحل غدًا؟

– لم يعد لي ما أفعله هنا. انتهى موسم الحصاد. بعد قليل، سأقبض ما تبقى لي من أجرة، وغدًا لا بد من الرحيل.

– هل ستعود في الصيف القادم؟

– قد أعود قبل حلول الصيف. أم أنك تخليت عن وعودك لي؟

– أنا! – قالت أمينة – أنا لم، ولن أتخلى، عن وعد قطعته لك، وأتمنى ألّا تغادرنا، ولكنك لا بد أنك مشتاق إلى ولديك. وهما كذلك. الأولاد يشتاقون لآبائهم. أنا طوال النهار أشتاق إلى أمي. لأني أحبُّها.

– لولا الأولاد، أقسم لك بالبدر المنير، إني كنت سأبقى إلى جوارك. أنت عزيزة على قلبي.

– وأنت كذلك. قالت أمينة دون أن تنظر في عينيه.

سارا صامتين، متخلفين عن بقية الحصادين، الذين سارعوا للوصول إلى القرية.

– أتريد أن أعطيك بعض المال؟ – قالت أمينة وأضافت: لقد جنيتُ كثيرًا في هذا الصيف، وأنا لا أحتاجه، قد تحتاجه أنت؟

– أمينة – قال لها – أنا أعبدك عبادة. الحب عبادة أليس كذلك؟

ابتسمت أمينة ولم تجب عن سؤاله. شعرت بأن عينيه قد حملتاها عن الأرض، وهي الآن تسبح في الهواء.

- لا أعرف كيف سأمضي أيامي بعيدًا عنك. كيف أتركك هنا؟ لن أنام الليل. لن تفارقني صورتك، فأنت أجمل من القمر.

- وأنا كذلك، سيصعب عليَّ فراقك. لقد اعتدتُ سماع صوتك. صوتك شجي وساحر.

- سأغني لك العمر كله.

- سأسمع صوتك أينما كنت. أنا أسمع الأصوات البعيدة.

وصلا إلى القرية، وحانت لحظة الفراق.

- يا الله - قالت أمينة - رعاك الله وحماك. سلم على الجميع.

- أنا لا أصدق أني لن أراك. سأذهب وأتسلّم نقودي، وسأذهب إلى العين لأستحم. غبار الحصاد يأكل جسدي، فأنا لم أستحم منذ أربعين يومًا.

- كل الحصادين يفعلون ذلك. الحصاد والاستحمام لا يجتمعان.

- سأنتظرك عند النبع، أقصد العين. إن استطعتِ القدوم فتعالي.

ضحكت أمينة وقالت: لا، هذا مستحيل. وداعًا.

ومشت الهُوينى، وبيدها المنجل تطرق به على ركبتيها، وهي تعد الخطوات. لم تتجرأ أن تلتفت نحوه. سالت دموعها من مآقيها، وحفرت في وجهها المعفر بالتراب مسالك لها. يا الله كم أحبك يا يوسف! قالت في نفسها، وأسرعت الخطى وهي تمسح الدمع عن خديها الملتهبين.

- ألم تنامي بعد؟ سألت أم أمينة و قد استيقظت من نومها.

- كنت نائمة واستيقظت - قالت أمينة - أنا عطشى، أحس بجوفي يحترق من العطش، هل أجلب لك كأسًا من الماء البارد؟

- يا ريت.

ونهضت أمينة من فراشها، وشربت كيلًا كبيرًا من الماء البارد، من الجرة المحاطة بقماش القنب، ثم ملأت كأسًا لأمها فشربتها وعادت للنوم وهي تقول: غطي نفسك جيدًا. اقترب الفجر. هناك لسعة من البرد.

- عن أي برد تتحدثين يا أمي! أكاد أختنق من الحرارة. قالت أمينة وشعرت بنسمة هواء باردة تتسرب إلى جسدها المشتعل، فغطته وغرقت في النوم.

وانتهت حقبة تاريخية امتدت لأكثر من مائة وخمسين عامًا، وبدأت مرحلة أخرى، حين أعلن الزعيم الأسمر البكباشي جمال عبد الناصر بصوته الهادر باسم شعب مصر العظيم عن قرار تأميم قناة السويس.

الله أكبر، صاح القوميون العرب من المحيط إلى الخليج معبرين عن تأييدهم التام لزعيم الأمة، ونزلوا إلى الساحات وأقاموا حلقات "الدبكة" فرحًا بالانتصار الكبير. كان قرار تأميم قناة السويس يعني للكثيرين تتويج عبد الناصر زعيمًا دون منازع للأمة العربية، والمعبر عن أحلامها في النهضة والتحرر والتخلص من الاستعمار، واصطفت القوى اليسارية الماركسية العربية إلى جانب القوميين العرب، ما دام عبد الناصر يقف

بتحدٍّ في وجه أعتى قوتين استعماريتين عرفهما الشرق، خلال القرنين الفائتين بريطانيا وفرنسا وربيبتهما إسرائيل.

غنى الحصادون لعبد الناصر، وقالوا فيه المواويل. وكان بعضهم يعبرون عن إعجابهم به قائلين: لقد فعلها الأسمر..رجل ولا كل الرجال. وبما أن الرجولة مرتبطة بالفحولة فقد وصفوه على طريقتهم وبلغتهم الشعبية "بالفحل". وبما أن عبد الناصر كان برتبة بيكباشي أي عقيد في الجيش، فقد هتف الناس له: "هذا اليوم اللي كنا نريدو عبد الناصر يا عكيدو".

كان لقرار تأميم قناة السويس، تأثير كبير، على كل القوى والفعاليات السياسية في أرجاء العالم العربي كله، كما كان له صدًى واسعًا في أرجاء العالم أجمع. وأعلنت دول مؤتمر باندونج الذي شارك فيه عبد الناصر قبل عام تقريبًا، عن تأييدها التام لخطوة القائد العربي الكبير، ورأت فيه رمزًا وطنيًا كبيرًا، وقائدًا شعبيًا فذًّا، سيقود الجماهير العربية إلى الحرية والتقدم والنهضة. وشعر القوميون السوريون بالرهبة الشديدة، من تزايد جماهيرية عبد الناصر وتفاقمها في الأوساط الشعبية، فمن ناحية فعلية، كان عبد الناصر قد أطاح بنظريتهم القائلة إن سوريا مركز الكون، وأعاد المركز إلى مصر أم الدنيا، في حين انقسم البعثيون فيما بينهم إلى طيفين واسعين. فمنهم من كان مؤيدًا متحمسًا لقرار الزعيم من منطلق عروبي بحت، ومنهم من شكّك بمصداقية الزعيم، واعتبروا قراره مجرد فقاعة إعلامية تهدف لتكريسه زعيمًا للأمة العربية.

ورحَّب الشيوعيون بتلك الخطوة، واعتبروها خطوة في الاتجاه الصحيح، لكنهم لم يخفوا حذرهم من سطوة عبد الناصر الإعلامية، خاصة أن لديهم معلومات مؤكدة من الرفاق السوفييت، أن عبد الناصر بنى إذاعة صوت العرب بإشراف المخابرات المركزية الأمريكية، وأن أحد أهم مساعديه من الضباط الأحرار كان متعاونًا مع الغيستابو.

في زحمة الأحداث تلك، ظهر علانية في بعض الأندية القاهرية النمساوي وضابط الاستخبارات النازية أليوس بورنير برفقة عدد من المسؤولين السياسيين والعسكريين المصريين بصفة تاجر سلاح، وهذا ما أثار غضب الدولة العبرية، واعتبرته تصرفًا جنونيًّا، وتحديًّا كبيرًا لوجودها. فاختفى برونير من مصر، ليظهر كشبح غامض في دمشق.

كان صيفًا حارًّا من النواحي الطقسية والسياسية والاجتماعية كافة، ولم تعد أرض البيادر تتسع للغلال الوفيرة، التي كانت تبدو كتلال صغيرة تذوب يومًا بعد يوم، وهي تُدرس بأسنان الأقراص المعدنية للحيلان (النورج) الروماني القديم، لتظهر شاحنات المرسيدس والبوذنغ، ذات الصناديق الضخمة، المصنعة على يد الأرمن في حلب الشهباء، لتنقل الأكياس المعبأة بالحبوب، إلى ميناء طرابلس، للتصدير إلى أوروبا. وامتلأت المَحَافظ الجلدية بقطع النقد الكبيرة من ذوات المائة ليرة، فظهر مخيم الغجر، ونصبت خيامه إلى جانب البساتين، قريبًا من نبع المياه. وعاد الأستاذ إلياس مزهوًا رافع الرأس بعد انقضاء العطلة الصيفية، وكيف لا يفعل وعبد الناصر غدا زعيمًا للأمة العربية دون منازع.

درب التبانة

لم يبق أمام الفلاحين سوى اكتشاف مجرة درب التبانة، والسير عليه طوال الليل، لنقل التبن من خنادق البيادر إلى مخازنها. فدرب التبانة اسم شاعري لمجرتنا العظمى، التي تملأ الكون بنجومها وكواكبها وأقمارها، التي يتغنى بها الشعراء والعشاق، ويتأملها العلماء والحالمون والمنجمون، وكل ذي قلب حي مفعم بالحب والعطاء. قسَّمها العلماء الفلكيون والمنجمون إلى اثنتي عشرة مجموعة شمسية سموها أبراجًا، وسموا الأبراج بأسماء استقرؤوها من الأشكال المكونة من النجوم في قبة السماء، فهذا برج الثور، وذاك برج الحوت، وقد قُسمت السنة إلى اثني عشر شهرًا تتناسب وتلك البروج العالية، بغض النظر إن كان الشهر قمريًّا أم شمسيًّا. واتخذ موسى عليه السلام اثني عشر سبطًا (معلمًا) لنشر وصاياه العشر، وقد شبههم بعيون الماء، لينهل منها الناس الماء والمعرفة في آن معًا. وقد وصف القرآن الكريم تلك الصورة بأروع الكلمات حين قال في سورة الأعراف: "وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا"، وهذا ما فعله المخلص حين استعان باثني عشر تلميذًا ليكرزوا (ينشروا) تعاليمه في العالم أجمع. ودخل هذا التقسيم عالم

المسلمين من خلال مذهب الاثني عشرية، الذي يؤمن به العديد من المسلمين في أنحاء العالم كافة ، والذين هم في حالة من الانتظار الطويل لظهور المخلص السيد المهدي، أو المسيح أو الخضر، عليهم السلام جميعًا.

يقدر العلماء الفلكيون أن انتقال مجموعتنا الشمسية داخل المجرة من برج لآخر، يستغرق على الأرض مدة ألفين ومائة وخمسة عشر عامًا، لكن أحدًا لا يعرف لماذا سميت المجرة بدرب التبانة إلا أولئك الذين عملوا في "التتبين"، أي نقل التبن من أرض البيدر إلى التبان، أو مخزن التبن في شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام.

"أيلول ذنبه مبلول" هكذا يصف الفلاحون هذا الشهر الجميل، شهر العشاق ومرهفي الأحاسيس، لأن المطر وإن تأخَّر قليلًا، فلا بد أن يهطل مع نهاية هذا الشهر التاعس الحالم، وكان على أهل القرية، أن ينقلوا التبن إلى المخازن، قبل أن تهطل الأمطار فيصيبه العفن ويفقد أهميته. التبن كالتبر، فهو علف الحيوانات طوال الشتاء، وهو الوقود الذي يوضع فوق العيدان ليحترق ويشكل طبقة من الرماد تحافظ على حرارة الجمر طوال الليل في أشهر الشتاء، و بجبله مع التراب، تصنع "جبلة الطين" لتسييع الجدران، قبل حلول فصل الشتاء. ومن جبلته يصنع اللبن للبناء طوال فصل الصيف، حيث ينشر تحت أشعة الشمس ويقرمد بفرنها، ليتصلب، ولتعمر فيه البيوت الجديدة.

الطين والإنسان صنوان. إذ قال تعالى في التوراة: "وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم حيًّا"، أما

القرآن الكريم فذكره في العديد من آياته البينات، فنحن نقرأ في سورة آل عمران:"إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله".

نَقْلُ التبن لا يتم إلا بعد أن يعسعس الليل، وتلامس الرطوبة نثراته، فيقوم الفلاحون بتعبئته في أكياس الخيش الكبيرة، المصنعة من القنب، ويدكونها بالمذراة الخشبية، حتى تقف ممتلئة، ليعلوها فلاح في وسطها يدوس التبن بقدميه، ويضغطه بوزنه داخل الخيش، ثم تحمل على كل ضامر، من حمير أو بغال أو خيل، لتنقل إلى جرن دك الطين، فيحملها عبد الرحمن الأعمى ذو الكتفين العريضتين، على درجات السلم الخشبي، ويلقي بفمها في فوهة التبان، ويفرغها فيه، ضاحكًا مستمتعًا بعمله الذي كان يجيده وهو ضرير.

طوال الليل وحتى مطلع الشمس، كانت الحمير والخيول والبغال تنقل خيشات التبن من البيدر إلى التبان، فتتساقط نثراته على طول الطريق ذهابا وإيابًا، وتشكل مع مرور الوقت درب التبانة، حيث تتلألأ نثرات التبن كالتبر في عتمة الليل عاكسة لمعان النجوم في كبد السماء.

جاب رجال الغجر من القرباط، أزقة القرية، منادين أهلها لتبديل أسنانهم المهترئة بأسنان من ذهب، كما دعوهم لشراء الغرابيل المتقنة الصنعة، والأمواس القرباطية الحادة الشفرات، ذات المقابض المصنوعة من العظام. أما نساؤهم، المشهورات بقوتهن البدنية، فكن يتنقلن من باب إلى باب، ليقرعنه بعنف شديد، عارضات سحرهن، بفتح الفأل

وقراءة الكف، والكشف عن المستور والمُخبَّأ، في زوايا الظلمات. كانت القرباطيات يسرقن ما تقع عليه أيديهن من دون أي رادع أو خوف من أحد، فهذا يعتبرونه حقًّا مشروعًا لهن كغجر رحالون. قلة من رجال أهل القرية كانوا قادرين على التمييز بين النور والقرباط، نظرًا للتشابه الكبير في نمط حياتهم، الذي يعتمد على الترحال من مكان لآخر وراء الكسب. النور هم أقل شأنًا وجمالًا من القرباط، وكانوا يتحدثون بلغات عديدة مشتقة من اللغة الفارسية – الكردية، أما القرباط، فتأتي تسميتهم، من جبال الكرابات، الواقعة إلى الجنوب الغربي من أوكرانيا، وإلى الشرق من رومانيا، وينسبون أنفسهم إلى يوبال بن لامَك أبي كل ضارب بالعود أو المزمار، وكانت نساؤهم يتمتعن بجمال أخاذ، وبعيون ملونة، ويمكن تمييزيهن، مشعرهن الفاحم المسترسل، في ضفائر طويلة تصل أحيانًا إلى ركبهن، وهؤلاء كانوا يتحدثون بالرومانية أحيانًا وبالإيطالية أحيانًا أخرى، وجميعهم يجيدون اللغة العربية والتركية حديثًا وغناء.

هُرعت كوثر لفتح باب الدار بعد أن سمعت قرعًا لجوجًا، وشاهدت غجرية فائقة الجمال تقف أمامها قائلة:

– اسمك كوثر..أليس كذلك؟ وابتسمت كوثر لها رغم مرارة الألم في قلبها وقالت: نعم أنا كوثر، وليس من الصعب معرفة اسمي، فقد سمعتك قبل قليل تطرقين باب الجيران، ولذلك أنصحك ألّا تحاولي اللعب معي، فأنا لا أملك ما أقدمه لك مهما أحاول. ودفعت الباب لإغلاقه في وجهها. لكن الغجرية أوقفتها قائلة: أنت لا تعلمين ماذا أريد منك؟ قد تكفيني خصلة شعر، من شعرك الناعم.

- أعوذ بالله، خصلة شعر من شعري، لتسحريني. اغربي عن وجهي.

- أرجوك أن تسمعيني أولًا، ثم عليك أن تحكمي بنفسك. أنا أنظر إليك، وأعرف ما في قلبك. قد يساعدك ما أكشفه لك من عوالم الغيب. صدقيني.. ومن ثم قرري بنفسك، قد لا تعطيني شيئًا وسأكون راضية. أعدك بذلك.

وأذعنت كوثر، ومدت لها يدها بسخرية قائلة: هذه كفي. أسرعي فأنا مُتعَبة.

أمسكت الغجرية براحة يدها وشدَّتها إلى الأسفل، لتُجلسها على حجر البرطاش الأزرق، لباب الدار، وراحت تتأمل كفها بكثير من التمعن.

- يا الله ...تكلمي. لماذا أنت ساكتة؟ قالت كوثر.

- كوثر - قالت الغجرية - هناك من يترصد بك على كل مفترق في حياتك.

بقيت كوثر صامتة، وقد غابت الابتسامة الساخرة عن محياها.

- لقد فقدتِ عزيزًا على قلبك، وتبحثين عن آخر، يلوح لك من بعيد بيديه، لكنك لا ترينه، قد يكون أخًا لك، أو ابن عم أو قريب.. لا أعرف.. لكنك تتطلعين غربًا وهو في الشرق.

- يا إلهي، أهو حي؟

- أنا أسمع صوته. هو شقيق لك. يحبك حبًّا جمًّا.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. صدق الله العظيم. أكملي. قالت كوثر.

– إنيَ أراه، إنه يبعث إليك بتحياته. ويقول لك: لا تقلقي بشأنه، ستعيشين مرفوعة الرأس. لقد فعل ما فعل من أجلك.

– هل يسمعك إن أردت أن أرسل له رسالة؟

– لا أعرف. سأحاول. قولي ماذا تريدين منه؟ أسرعي قبل أن يغيب عن عيني.

– قولي له: إنه ارتكب جريمة شنعاء، وأنه قتل إنسانًا لم يؤذِ شقيقته كوثر بكلمة جارحة، بل كان يحبها، ويمد لها يده، وهي من كانت مترددة في قبوله. قولي له: إن زكريا وكوثر بريئان من تلك التهمة الشنيعة. قولي له: إن الإمام عبد الواحد أخذني إلى الطبيب الشرعي في المدينة ليفحصني وأعطاني وثيقة عذراء لم يمسها رجل قط، وأنقذني بذلك من غضب رجال القرية ومن سطوة رجال الدرك الذين يقتحمون غرفة نومي في هجيع الليل بحثًا عنه. قولي له.. إني اشتقتُ إليه وأحبه. أين هو؟

– بعيد جدًّا، إلى الشرق من النهر العظيم.

– كيف لي أن أفهم ذلك؟

– لا أعرف. والآن وداعًا يا كوثر. فألك متعب. قد أعود في العام القادم في مثل هذه الأيام، تذكري اسمي أنا "الحجة سعاد" وقد أحمل لك أخبارًا تواسيك، فلا تيأسي. وداعًا.

أثير الروح

مع الأثير ونسمات الهواء العليل انساب صوته العذب مع خرير الماء الحي وتسرب إلى مسامعها في همسات آخر الليل.

تقلبت أمينة في فراشها الدافئ ورفعت الغطاء عن جسدها المشتعل بنار الحب الكامن في كل خلية من خلاياها. أغمضت عينيها وأنصتت للصوت القادم من العين. كان يشدو، كان يناجي وكانت تتلظى بنار لوعة الحب.

ما أصعب فراق من تحب – قالت أمينة في سرها – سأكتوي بنار الشوق إليه. يوسف يا حبيب القلب، يا من اخترقت فؤادي بنظرة، لو تستطيع الانتظار ليوم آخر، لأرتوي من النظر إليك. لأشفي عطشي وغليلي. يوسف لا ترحل.. لكنك سترحل وسينفطر قلبي شوقًا إليك.

أحبك..لا تغب عني، أحبك، وأودُّ لو ردد القمر رجائي، أحبك، ولتشهد نجوم السماء على ندائي، أحبك وسأمضي حافية القدمين إليك. وحملت الجرة وانطلقت كنسمة.

كان القمر بدرًا يضيء الكون، حتى أنها كانت تميز ألوان الأحجار البيضاء والزرقاء المرصوفة على الطريق، كما ميزت الوجهين المتقابلين لوريقات أشجار الحور والصفصاف. كان ظلها الهائم يشدُّها، يسحبها

للولوج في عمق الخمائل السكرى، وقد عبقت منها رائحة عناقيد أزهار الأكاسيا، واختلطت مع رائحة زهر الزيزفون، ليضوع المسك بعطره الفواح كأثير الروح.

– أمينة! قال يوسف، وقد لمح طيفها، وهي تقترب كملاك هبط إليه من السماء مع ضوء القمر.

– لا أطيق صبرًا على فراقك.

قالت أمينة وانزلقت بجسدها الحار بين يديه.

***

البتول

فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر.

ثلاثة أسباب دعت الإمام لترك أعماله والتوجه إلى صديقه الشيخ أحمد الرفاعي إمام مسجد نور الدين زنكي في المدينة. أولى تلك الأسباب، كان تأنيب الضمير، الذي ينتابه كلما تذكر كوثر واقفة أمام الباب مطرقة الرأس، تسأله الحماية من القهر الذي يمارس بحقها باسم الله العلي القدير، فقد تكون بريئة، كما تدعي، من كل ما خطه شقيقها في رسالته الصفراء بيديه الآثمتين. لكن كيف للإمام أن يقطع الشك باليقين؟ فمن اتهمها كان شقيقها. وهل يرتكب جريمة ويفرُّ من وجه العدالة، إن لم يكن متيقّنًا من ارتكابها للفاحشة عياذًا بالله؟ سؤال كان يؤرق ذهن الإمام، ويزيد من حيرته وعذابه. ثانيهما، الضغط المتزايد من قبل بعض رجال القرية، وخاصة من الأستاذ بدر، الذي قال له ذات يوم: أيها الإمام، لو أعرف أن الناس يصغون إلى كلامي في مسألة كهذه، لما ترددت في اعتلاء منبر المسجد، لأوضح لهم رأي الصريح، فالقرآن بين أيدينا ومكتوب بلسان عربي مبين، وأنا شخصيًا، لم أجد فيه آية تنص على رجم الزناة. فكيف يمكن إقامة حد الرجم لمجرد الشكوك؟ مع أني لا أدافع عنهم قطعًا، لكن من سيأخذ برأيي؟ لا أحد، بل سيسخرون مني.

أما السبب الثالث، فكان تخوف الإمام الشديد من تكرار الدرك لمحاولة الإيقاع بكوثر، خاصة وأن واحدًا منهم قد هددها بذلك فعلًا، حسب قولها، وإن فعلوا ذلك بها، فمن يقيم عليهم الحجة ويثبت أنها كانت عذراء لم يمسها بشر بعد؟ فتهمة الزنا ملتصقة بها، وخير دليل على ذلك، رسالة أخيها التي باتت في عهدة الدرك. والدرك في نهاية المطاف بشر وخطاؤون، والقانون يحميهم، لأنهم هم القانون.

– نحن لا نستطيع فعل أي شيء مالم نقطع الشك باليقين. قال الشيخ أحمد الرفاعي. فسأله الإمام: هذا ما دعاني للمجيء إليك. كيف نفعل ذلك؟ هل نجبرها على الزواج بأيٍّ من كان من الرجال لنعرف حقيقة ادعائها، وإن كانت على حق، ألا نكون قد ارتكبنا معصية، فنقع في خطيئة أكبر، وقد تكون أشد وقعًا وإيلامًا؟

– هدِّئ من روعك، نحن بإذن الله لسنا مضطرين لهذا الفعل أيها الإمام، فلدينا طبيب شرعي يمكنه الكشف عليها، فإن صح ادعاؤها، سيكتب تقريرًا طبيًا شرعيًا بذلك. قال الشيخ الرفاعي، وتنفس الإمام الصعداء، ولاذ بالصمت بعد أن تململ في مكانه، وقد تساءل في ذهنه: كيف لي أن أعرضها لموقف كهذا؟ وهل ستقبل أن يقوم طبيب بالكشف عن عذريتها؟ هل يعقل هذا؟ وقرأ الشيخ أحمد الرفاعي وسوسات الإمام فقال له: لا تقلق يا صديقي، من سيكشف عليها نساء الحارة، وهن خبيرات بهذه المسألة فلا تجزع، لدينا الداية (القابلة) أم عبد المولى الدالاتي، وهي بخبرتها لا تقل عن الحكماء معرفة بهذا الشأن. تكفيها نظرة

واحدة لتعرف حقيقة الأمر، فلا تهتم، وسيقوم الطبيب بكتابة التقرير وفقًا لكلامها مع شهادة من نساء الحارة. الطبيب الشرعي رجل متزن يخاف الله وابن عائلة كريمة.

استرد الإمام أنفاسه، وابتسم للشيخ أحمد الرفاعي وقال: لم يخب ظني بك يومًا يا مولاي. أشكرك جزيل الشكر، وكم يشرفني أن أصلي خلفك لأنك بحر من العلم أولًا، ورؤوف بالعباد الطيبين الصالحين.

-- أنا عبد للرؤوف في الأعالي يا صديقي، كما أني أعتز بشهادتك، لأني لا أخفيك أني أرى فيك رجلًا من رجال الله الصالحين الغارقين في العلوم.. والله يقول في كتابه: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" صدق الله العظيم.

قبل أن يتوجه الإمام الأزهري إلى منزله، عرج على منزل كوثر وقرع الباب وقال لها: استعدي لتذهبي إلى المدينة غدًا صباحًا مع الحافلة.(البوسطة)

-- ما الذي تنوي فعله يا مولاي؟

-- ما أستطيع يا ابنتي. فأنت يتيمة الأبوين وقد أوصانا الله تعالى في كتابه: "فأما اليتيم فلا تقهر". أستودعك الله. ومشى الإمام مبتعدًا، وأوقفته كوثر قائلة: مولاي أنا لا أملك خمسة وسبعين قرشًا أجرة الحافلة. فعاد الإمام إليها، وأخرج من محفظته ليرة سورية، ووضعها في

راحة كفّها وقال: لا عليك. لكن أوصيك ألا تجلسي إلى جانبي في مقعد واحد.. وعندما نصل المدينة اتبعيني، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

سالت دمعتان من عيني الإمام بعد أن سمع زغاريد النساء الحمصيات في الغرفة المجاورة لنزل الشيخ أحمد الرفاعي، حيث كان يجلس صامتًا متوترًا قُبالة الطبيب الشرعي وصديقه الشيخ الجليل.

– هذا صوت أم عبد المولى الدالاتي وهي أشطر داية في حمص كلها، وهي تبشرنا بسلامة كوثر وأنها ما زلت بكرًا و"بنت بنوت".

– الحقيقة – قال الطبيب – أم عبد المولى أعرف مني بهذه المسائل. واستخرج من حقيبته الجلدية ورقة رسمية راح يكتب عليها بقلم حبر ثخين من نوع "تروبن" الألماني الذي لم يغيره قط منذ أن عاد من ألمانيا حاملًا شهادة الطب من جامعة ميونيخ.

تَسَلّمَ الإمام التقرير الطبي، وشعر بنشوة الانتصار. لقد قُطع الشك باليقين.

اعتذر الإمام عن تناول طعام الغداء مع صديقه الشيخ أحمد الرفاعي والطبيب الشرعي وقال لهما: إن أمامه مزيدًا من العمل وعليه إنجازه قبل فوات الأوان، وخرج إلى الشارع برفقة كوثر، مزهوًّا، مرفوع الرأس، وطلب من كوثر أن تشدَّ من عزيمتها لتلحق بخطواته المتسارعة.

لقد اندثرت الظنون والشكوك التي زرعتها في القلوب كلمات بنفسجية كتبت في عجالة على ورقة صفراء، وأصبح الإمام متسلحًا

بالخانيقة، ولم يعد يخشى مواجهة أيًّا كان، دفاعًا عن شرف كوثر وكرامتها.

اقتحم الإمام باب قائد الشرطة أمام ذهول الحارس، وخرج منه يحمل كتابًا مختومًا وموقّعًا وموجّهًا إلى رئيس المخفر بحماية كوثر من العابثين.

كانت كوثر منهكة القوى، تحاول طوال الوقت اللحاق بخطواته المتسارعة من مكان لآخر.

ركبا الحافلة المتوجهة إلى مدينة حماة، وترجّلا في منتصف المسافة، حيث تقع بلدة الرستن والمخفر سيئ الصيت.

التقت عينا كوثر بعيني ذلك الشرطي، الذي فترت شفتاه، عن ابتسامة عريضة وقال: ها قد أتيت على قدميك، ما الذي اقترفته من جديد؟

دخل الإمام إلى مكتب رئيس المخفر وسلّمه "الأمر" الموقّع من قائد الشرطة في المحافظة، فقال رئيس المخفر للإمام: هذا واجبنا. ولن يطالها سوء بإذن الله.. لكننا نبحث عن شقيقها الفار من العدالة، ونحن نقوم ببعض "الكبسات" الليلية بحثًا عنه، فإن كنت تؤكد لنا بأنه غير موجود فعلًا في القرية، ولا يختبئ عند أحد من أقربائه أو أصدقائه فسنوقف البحث عنه.

– هو على الأرجح في لبنان كما تقول شقيقته. قال الإمام. كان يعمل في بيروت من قبل.

– حسنًا، سنرسل بتلك المعلومة للتقصي. اذهب وكن مطمئنًا.

لم يكن الإمام مطمئنًا لنتيجة جهوده، فمن يمكنه إيقاف البحث عن مجرم فارّ من العدالة، وهذا مخالف للقانون والشرع. كان قلق الإمام قد تضاعف خوفًا من قيام الدرك بعمل انتقامي، لأنهم نظروا إلى الأمر كأنه شكوى ضدهم، وضدّ أدائهم الوظيفي، وهذا قد يسبب ضررًا كبيرًا لكوثر، فقال لرئيس المخفر: ما أطلبه يا سيدي، هو إن كنتم مضطرين للقيام "بكبسة " ليلية فأخبروني لأكون معكم. مع أني لا أتمنى أن أشارك في مسألة كهذه، لكن لا تقتحموا بيت فتاة يتيمة ووحيدة في جنح الظلام، فهذا لا يجوز بشرع الله. هذا كل ما أريده.

– حسنًا. كن مطمئنًا. هذا وعد مني. قال رئيس المخفر.

خرجا من المخفر. توقفا لحظات. سأل الإمام كوثر إن كانت تستطيع السير على قدميها إلى القرية، مع أنه لم يكن هناك خيار آخر أمامهما.

***

الله أكبر فوق كيد المعتدي

انسحب الجيش المصري من أرض التيه لحماية قناة السويس، في الوقت الذي تحرك فيه العبرانيون باتجاه مخالف لتعاليم كتابهم المقدس، فلأول مرة اتجهت قواهم غربًا نحو مصر، التي خرجوا منها ذات يوم مشهود بعد إستعباد الفراعنة لهم الذي دام "أربعمائة وثلاثون سنة " (سفر الخروج 40/13)، فأوصاهم كليم الله ألَّا ينسوا ذلك اليوم حين فروا هاربين بعد منتصف الليل فقال لهم بعد أن عبروا البحر إلى صحراء سيناء: "اذكروا هذا اليوم الذي فيه خرجتم من أرض مصر من بيت العبودية" (سفر الخروج) 13 بهذه الكلمات خاطب موسى قومه بعد عبورهم الكبير، للبحر الأحمر، نحو الشرق باتجاه أرض القوم الجبارين.

كان الرب يهوه قد ضرب أرض مصر بقوة، ودون رحمة ولا شفقة، واستعرض للمصريين قدراته الإلهية المهولة، وابتكر فنونًا لا تحصى من أنواع العذاب والانتقام، فلم يبقَ من المصريين بكر إلا وضربه حتى الموت و"كان صراخ عظيم في مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت" (سفر الخروج 29/13)

كانت عصا موسى السحرية، قد ضربت بحر النيل فحولته إلى بحر ميت، فماتت الأسماك وتخضب لون الماء بلون الدم القاني، ولم يبقَ فيه

كائن حي، حتى التماسيح انقلبت على ظهرها رافعة أيديها نحو السماء مستسلمة للموت الإلهي.

أما بيوت المصريين فقد احترقت أو دمرت تدميرًا كاملًا، من البَرَدِ الذي تساقط من السماء بكميات هائلة بأحجام الحجارة، فأهلك المصريين وقتل أطفالهم ونساءهم وأبقارهم وطيورهم وكل حيواناتهم ومواشيهم، أما قصور الفراعنة المبنية من الصخور الصلدة، فقد تكفلت بحرقها، النيران المتأججة وسط البَرَدِ الشديد، في أعظم معجزة من معجزات الرب الإله المنتقم الجبار. كان البَرَدُ المتساقط وزوابع النيران تطال بيوت المصريين، وتمر من قرب بيوت قوم موسى، من دون أن تمسهم بسوء، فالله العلي القدير، المنتقم الجبار، كان ومن زمن بعيد، قد أنقذ أبرام عليه السلام جد موسى من لهيب النار، حين أمرها أن تكون بردًا وسلامًا.

خَرَّ المصريون وسجدوا للرب الإله، وطلبوا الصفح والرحمة والمغفرة من قوم موسى، فأمر موسى قومه بألّا يسامحوهم على ذنوبهم، إلا بعد أن يقدموا لهم ما عندهم من ذهب وفضة، وملابس تساعدهم في مشوارهم الطويل، فطلبوا "من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياب وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين" ثم انطلقوا في رحلتهم إلى أرض التيه، في نحو "ستمائة ألف من المشاة" (سفر الخروج 34/13) ليخرجوا من "رعمسيس" نحو أرض اللبن والعسل، الأرض الموعودة، الأرض التي قطع الله وعدًا لأبرام أن تكون له ولذريته من بعده.

قد يكون أبرام حبيب الله، والمعروف بأبي الأنبياء، أول سامٍ وفد أرض مصر، بعد رحلة شاقة ومتعثرة، جاب بها هضبة الأناضول وبلاد الشام، بعد أن فرَّ هربا، من حكم صدر فيه بالموت حرقًا في أرض أور العراق.

كان الرب الإله قد أمر أبرام – والذي يعني اسمه باللغة المصرية القديمة "الخيّال" – أن يرحل عن أرض السومريين، بعد أن أصبحت أرضًا للأكاديين، ومن ثم لأولاد عمومتهم الكلدانيين البداة، الرعاة، الذين جاؤوها عبر الصحراء من غرب العراق، فدمروا معابد السومريين وهياكلهم المقدسة، واستولوا على مدنهم العريقة لتصبح الأرض والمدن أرضًا لهم ومدنًا يسكنوها بدلًا من الخيام، وقد وصف الشاعر السومري دنجر دامو تلك المأساة الرهيبة التي تعرضت لها الهياكل والمعابد قائلًا:

وأسفاه! تذوب نفسي حسرة على المدينة وعلى الكنوز

الأطفال في المدينة المقدسة في بؤس شديد

اقتحم الغازي الضريح العظيم

اقتاد الملكة من معبدها

متى تعودين يا سيدتي؟ فمدينتك باتت مقفرة وموحشة.

انتهكت يداه حرمتي وجردني من ثيابي وأعطاها لزوجته

انتزع مني الأقراط والحلي وزين بها أخته

في ضريحي انتهك عرضي.

كنت أرتجف من هول ما شاهدت،

طردني من مدينتي كما يطرد الطير وأنا أتحسر وأصرخ

بات هيكلي خلفي، ما أبعد المسافة بيني وبينه.

في تلك الظروف الغامضة، الحالكة من التاريخ خاطب الرب الإله أبرام قائلًا: "اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة" (سفر التكوين **1/12**) فخرج أبرام ليجوب الأرض، حتى وصل أرض الكنعانيين فقال له الرب: "لنسلك أُعطي هذه الأرض" (سفر التكوين **6/12**)

لكن الأرض التي تعتمد في زراعتها على الأمطار، أرض لا يمكن الوثوق بها، إذ تحدث فيها المجاعات أحيانًا وسنوات عديدة، ويعم فيها الخير سنوات أخرى، وفقًا لمشيئة مسير السحاب، وهذا ما يُولِّد في نفوس الناس، شعورًا طاغيًا بعدم الثقة، يتحول مع الأيام، إلى أساليب احتيال ونفاق ومكر يصبغ حياتهم، فهم مطريون، إن جادت السماء عليهم جادوا، وإن حبس الغيث عنهم اكفهرت وجوههم. إنهم يبذرون الأرض بالقمح والشعير، ويبتهلون إلى السماء لتأتي بالغيث لهم لتنبت المزروعات، وإن لم تستجب السماء لدعائهم فيضطرون إلى الرحيل عنها، إلى بلاد تنعم بالاستقرار، بمصادر المياه والحياة، حاملين معهم أحلامهم وأمانيهم وحنينهم الأبدي لأرضهم التي رحلوا عنها بسبب

الجفاف والحروب، فينسون تلك الأيام الحزينة ولا يتذكرون منها سوى سنوات الخير والعطاء، وسخاء السماء عليهم بالمطر الذي هو عشقهم الأبدي، والمكون الأساسي للخلق والإبداع الكوني.

أبناء المطر نَزِقون، متبدلون، صادقون كاذبون، حسب مواسم المطر، فإن أغدقت السماء عليهم، أقاموا الأعراس والاحتفالات، وإن أحجمت السماء عن العطاء، تنشب الحروب، فيقتل الأخ أخاه، ويحتل منزله، وينكِح امرأته.

"وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع كان شديدًا، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: "إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فتكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبْقونَك. قولي إنك أختي، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك".(سفر التكوين12/ 10) وحدث ما تنبأ به أبو الأنبياء.

شاهد حراس أبواب مصر تلك البدوية الرشيقة القد، الساحرة العينين، البيضاء البشرة الفحمية السابلة الشعر فذُهلوا بجمالها، بتناسق كفلها، فبدت لهم كفرس ضامر مغرورة بقوامها وقوة ساقيها "لأن النساء العبرانيات لسن كالمصريات فإنهن قويات..(سفر الخروج19/1) فأخذوها إلى فرعون كما توقّع أبرام، فوقع فرعون في غرامها، وتزوجها، وأغدق على أخيها العطايا من ذهب وفضة وحيوانات، فأصبح أبرام ثريًّا، بل من كبار الأثرياء. لكن الرب الإله وبعد أن حاز أبرام ثروات

كبيرة "ضرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام فدعا فرعون أبرام وقال :"ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت إنها أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب"، واستعاد أبرام زوجته الجميلة ساراي "وصعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب، وكان أبرام غنيًّا جدًّا في المواشي والفضة والذهب"(سفر التكوين**1/13**) وعاد أبرام مع سيدة الجمال والفتنة ساراي وبصحبتها خادمتها المطيعة المسكينة المصرية زهرة اللوتس، الزنبق، هاجر إلى أرض المطر، فاستشعر أبرام المِحَن التي ستواجه أنعامه ومواشيه، وتذكر أرض مصر الخيِّرة، ونهرها العظيم، تذكَّر حقولها وبقولها، بصلها وثومها، نخيلها وأعنابها، فتحسَّر قلبه على تلك النعم، وشعر الرب الإله بما يدور في خلده، من حسرات فوسع الأرض الموعودة له وقال: "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" (سفر التكوين.**18/15**) ففرح أبرام فرحًا كبيرًا، خاصة بعد أن أنعم الله عليه بولده الوحشي إسماعيل من جارية ساراي هاجر، التي خاطبها ملاك الرب قائلًا: "هأنت حبلى فتلدين ابنًا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنسانًا وحشيًّا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه" (تكوين **15**، وبعد كل هذه النعم والخيرات، أمره الرب بتغيير اسمه واسم زوجته قائلًا: "فلا يدعى اسمك بعدُ أبرامُ بل يكون اسمك إبراهيم لأني

أجعلك أبا لجمهور من الأمم" (تكوين4/17) و"ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة" (تكوين15/17)

لطالما عبد الإنسان الآلهة لعطائها وسخائها، أو لجبروها وقدرها على الفتك والانتقام ممن يتمردن عليها....ولطالما كان إله الساميين، المستوي على العرش العظيم، في السماء السابعة يتحكم بالغيث، ويراقب من الأعالي أعمال البشر، ويُسجِّل الملائكة حسناهم وسيئاهم، استعدادًا ليوم الحساب العظيم. فرزقهم في السماء وما يوعدون، فإن عملوا صالحًا أغدق الله عليهم الغيث، فينبت الزرع، من قمح وشعير وعدس، وتنبت الأعشاب ويعمُّ الخير، ويتكاثر نسلهم في الأرض ليتسلطوا على "سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدبُّ على الأرض" (سفر التكوين 27/1)، وإن ارتكبوا المعاصي، أو الفواحش، فيحبس الرب الإله، مطر السماء، فتجدب الأرض، وتعود قفراء نفراء بلا زرع ولا عشب ولا شجر، كما كانت قبل أن يمطر الرب الإله. فكيف للسامي أن يعبد إلهًا آخر غير رب السماء، المتحكم بالغيث يرسله حين يشاء ويحجبه عمن يشاء، "وهو الذي يترل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو العلي الحميد" (الشورى).

أما في مصر، فللمسألة أوجه متعددة، وقد تتعارض كليًا مع أفكار أبناء المطر وتصوراهم، والمصريون شعب متدين بطبيعته، لكنه لم يشعر يومًا بحاجته للغيث ليأتيه من السماء. لم يصلّ يومًا صلاة الاستسقاء، ولم يبتهل للسماء لترسل السحاب. المصري يسقي حقله وماشيته من النيل

العظيم. النيل هو الحياة، مصر هي النيل الذي يحتوي على كل شيء، ويعيش منه كل ما هو مصري سواء أكان بشرًا أم شجرًا. إله المصريين ذلك الذي أغدق عليهم بنهر النيل ليعبر تلك الصحراء الواسعة وليزرع الحياة فيها منذ أن خلق الله الأرض.

لم يتوجه المصريون القدماء يومًا، إلى السماء يستغيثونها، أن تنعم عليهم بالمطر لينبت الزرع أو ليسقوا مواشيهم. فالمياه كثيرة، عذبة ومستقرة، تفيض في أيام معدودات، فتمتلئ بيوتهم بالسمك، الذي يحفظونه طوال العام مملحًا مُقدَّدًا بأشعة الشمس، حتى يتفسخ جلده، ويجف لحمه فيصبح سمكًا فسيخًا.

كانت الآلهة لدى المصريين آلهة ملموسة، معروفة، ويمكن مشاهدتها بالعين المجردة، فأمون رع إله الشمس في صراع دائم مع إله الظلمات، وأوزيريوس وإيزيس الزوجان العاشقان الشغوفان بابنهما حورس، في صراع أزلي مع ست إله الموت والقتل والعنف، وآلهة مصر لا تحصى ولا يمكن حصرها، فلكل شيء ربٌّ معروف بشكله المستمد من الرؤية بالعين المجردة.

المصريون لم يعرفوا فكرة الإله المجرد اللامحسوس واللامعروف، حتى كبير الآلهة "أتوم" فهو أتَمُّ الناس من حيث الشكل، وهو إله قديم، ما زال المصريون يبحثون عنه حتى يومنا هذا، فمنه توالدت بقية الآلهة، ولهذا كان من الصعب عليهم رسم تصور كامل، ودقيق من غير الإنسان لعملية الخلق، وإن توصلوا علميًّا أن الكائنات الحية قد وجدت على

سطح الخليقة قبل الإنسان، فكان الجُعل الذي يدّوِرَ الشمسَ بقرنيه من أول المخلوقات، وهو الذي يطرب على عريره السُّمار، حول بحر النيل العظيم في لياليهم القمرية.

سيناء منبت الأنبياء والرسل الساميين، الذين يأتون مصر في سنوات الجفاف طلبًا للعيش، بعد أن يحل عليهم غضب الرب، فينهلون من علومها، ويعملون فيها، ثم يعودون إلى طور سيناء، فيتقربون إلى الإله السماوي، ويبتهلون إليه أن يمدهم بالخير والعطاء كأهل مصر.

الصراع الحضاري بين المصريين والساميين قديم وأزلي، قديم قِدمَ الصراع بين الرعاة والفلاحين، وأهل مصر فلاحون مستقرون، يعيشون هم وحيواناهم على ضفاف النيل، لا يبحثون عن كلأ أو مرعى أو عن بئر ماء ليسقوا مواشيهم، وهم متعلقون بأرضهم، لأهم يثقون بها، وبعطائها السنوي الدائم، المتجدد دون حساب، على عكس الساميين الجوالين الباحثين عن كلأ وماء، و"سام أبو كل عابر"، فكانت سيناء مكان تصادم الحضارتين عبر التاريخ القديم منه والحديث، وها هي قوات العبرانيين تشقُّ طريقها بين الرمال في سيناء، دون قتال، فأوامر حاكم مصر واضحة وصريحة، الانسحاب من سيناء والتمركز حول قناة السويس التي أعلن عن تأميمها قبل ثلاثة أشهر لا غير.

قام البريطانيون والفرنسيون بإنزال قواهم الخاصة لاستعادة السيطرة على أهم معبر مائي على سطح الأرض. لكنهم لم يكونوا على علم بأن شمسهم قد أفَلتْ واستقرت بعيدًا عنهم فيما وراء البحار.

من بلاد الموسكوف جاءهم التهديد الصريح بقصف لندن وباريس بالصواريخ العابرة للقارات، وأرسلت المدن البطلة في الاتحاد السوفييتي كلينيغراد وستالينغراد برقيات تضامن مع مدن قناة السويس، وخاصة مدينة بورسعيد التي حازت فيما بعد وسام المدينة البطلة.

وقام طالب الكلية البحرية السوري المسيحي جول جمال بأول عملية استشهادية – انتحارية ضد الغزاة، وأطلقت صوت العرب أشهر نشيد وطني عربي معاصر "الله أكبر فوق كيد المعتدي والله للمظلوم خير مؤيد"، كان النشيد يضاهي بجماله نشيد أهل يثرب في استقبالهم لرسول الله "طلع البدر علينا"، ورددت جماهير الأمة العربية، من بحر الظلمات إلى الخليج العربي، النشيد خلف كورال إذاعة صوت العرب.. كان النشيد ساحرًا بكلماته، بلحنه، بصدقه ومعبرًا عن آمال الأمة العربية في تحقيق الانتصار. أعلنت دمشق الاستنفار في صفوف قواتها، ودفعت بقسم منها إلى الأردن للتصدي للقوات العبرانية، كما قام العمال السوريون بإيعاز من رئيس الاستخبارات العسكرية بتفجير خط أنابيب التابلاين، لقطع شريان النفط المتجه إلى الغرب، وأهدت الحجة سعاد أغنيتها "بردا بردا لي بردا" للزعيم الأسمر عبد الناصر، في حفل ختان الولدين البدويين جهاد وغازي، الذي أقامه والدهما في ساحة القرية تنفيذًا للعهد الذي قطعه الرب مع إبراهيم، ليكون علامة عهد، بينه وبين نسل الخليل، إذ "قال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يختن كل ذكر، فيختنون في لحم غرلتهم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم" (سفر التكوين 17/ 9/10)

دعا أبو جهاد الحجة سعاد لإحياء الحفل الكبير، فتدافع الرجال الذين امتلأت جيوبهم بالنقود لتقديم "الشوباش" (الإكراميات والتحيات) لزعيم الأمة العربية، الرئيس الأسمر، جمال عبد الناصر.

اتفق أبو جهاد مع الحجة سعاد، على تمديد الاحتفال بختان ولديه، من ثلاثة أيام لسبعة أيام، شريطة أن تقدم سعاد نصف ما تحصل عليه من "شوباش" لولديه جهاد وغازي، وتحوَّل الحفل لعرس وطني، راح فيه الكبار يتنافسون في تقديم الشوباش (الإكراميات) للحجة سعاد التي كان يعلو صوتها، رافعة قطع النقود المقدمة من الحاضرين في الأعالي لتقول: شوباش للأسمر عبد الناصر، شوباش لزعيم العرب عبد الناصر، ثم تعود لمتابعة الغناء والرقص على إيقاع الطبل والزمار، في وسط الحلبة الكبيرة التي شكلها "الدبيكة" من حولها.

أشار ياسر الأمي لسعاد، أن تقترب منه، وأخرج من جيبه قطعة من فئة الخمس ليرات، وقال لها: شوباش للزعيم خروتشوف، وضحكت سعاد من الاسم، واقتربت بأذنها من فمه فاشتم ياسر رائحتها العطرة، وكرر في أذنها اسم الزعيم السوفييتي نيكيتا خروتشوف، فأخذت قطعة النقود وذهبت إلى وسط الساحة ليعلو صوتها: شوباش لخرا.. خرا.. ونسيت اسمه، فالتفتت نحو ياسر مستنجدة، فقال لها: خروتشوف يا بنت الكلب، فصاحت سعاد وهي تضحك شوباش لخراشوف، وضحك الحاضرون من الاسم، مما أثار غضب ياسر، الذي علا صوته قائلًا: زعيمكم عبد الناصر لا يساوي قرشا لولا دعم الزعيم السوفييتي

خروتشوف. وخرج من ساحة الاحتفال بعد أن أطلق قسمه، بألا يعود إليه مرة أخرى.

انتصر عبد الناصر، وانسحبت القوات البريطانية والفرنسية الغازية، وعمَّت الأفراح بانتصار الأمة العربية على أقوى دولتين استعماريتين. وغدا الناس بين ليلة وضحاها ناصريين.

***

يخشى

أضرم الإمام الأزهري النار في الموقد، بعد أن رتب العيدان اليابسة، وقطع الحطب فوق بعضها بعضًا، الناعمة الرفيعة في الأسفل تليها الأثخن فالأثخن، ونثر فوقها قليلًا من القَصْرِين، وعاد ليلتحف بعباءته الصوفية، تحت مشكاة قنديل الزيت الناعس، محاطًا بكتبه التي أخرج بعضًا منها من الصندوق الخشبي، لأن الكتبيات لم تكن كافية لتتسع لمجلداته ومخطوطاته السميكة التي جاء بها من دمشق وحمص والقاهرة حين كان طالبًا للعلم والمعرفة.

أيام مضت، والإمام يقرأ في كتاب الله والتفاسير، ويمحص في الحواشي التي تزداد غموضًا كلما اقترب تاريخ صنعتها من زمننا المعاصر، فتكثر فيها الطلاسم، ويكتنفها الغموض، وتصدح بالترغيب والترهيب، وتتفنن في رسم صور لعذاب القبر، لتتحول إلى خطاب دعوي هدفه إفزاع المؤمن المسلم من عقاب الله، إذا لم يؤدِّ الطاعة العمياء لخالق الخلق وباسط الرزق، لخليفته في الأرض، صاحب العطايا والمكرمات. لم تعد التفاسير تهتم بشرح كلمات الآيات البينات لفاطر السماوات والأرض، بل كانت تجنح بشكل منظم، وممنهج، لزرع الخوف والهول، في قلوب الناس البسطاء، ليزدادوا تمسكًا بالعروة الوثقى

ما بين الحاكم والمحكوم، وهم بدراية منهم، أو من دونها، كانوا يعملون على تدجين العقل وترويضه وإخافته من البحث، لأن البحث العقلاني سيولد الصدام، أو التناحر في قلوب الناس المختلفة الأهواء، حتى أصبحت كلمات هذا الشيخ أو ذاك مرجعاً لهم، دون التأكد أو التدقيق في صحة هذا الرأي أو ذاك. وأضحت الحجة على لسان الناس جملة واحدة تتكرر في نقاشاهم: "هذا ما قاله الشيخ" فقول الشيخ هو البرهان بحد ذاته. الجمود من يصيب العقل حين يتحول الإيمان إلى ثوابت غير قابلة للجدال، فالإيمان بالثابت اللامتغير يجعل العقل محصنًا من المتغيرات فيستبدل بالوهم الحقيقة. والحقيقة متحولة.. فالله لم يقسم اليوم لليل نهار كما نعتقد، فالليل دائم والنهار دائم ومتغير.. الله يقول يولج الليل في النهار، أي يدخله فيه، فليس هناك من حد حاسم، ومن هنا نشأ الخلاف بين السنة والشيعة حول ميعاد أذان الفجر والمغرب الذي لا نلحظه إلا في شهر الصيام، حين تفكر معداتنا بدلًا من عقولنا.

كان المسلمون يتشظون. بعلمهم أو من دونه، يتحولون مع مرور الزمن من مسلمين إلى محمديين، إلى علويين، ونصيرية، إلى أحناف وحنابلة، إلى إباضيين وشوافعة، وزيديين، إلى مرشدية ويزيديين، لتمتد الحالة إلى يومنا هذا حتى بات لكل شيخ صغير جماعته.

مهما يشتد الإيمان ويعظم ويتعاظم في قلب الإنسان لا يستطيع منع العقل عن التفكير، بغض النظر عن مساره الجمعي، وبعيدًا عن مستواه المعرفي، أو مستوى ذكائه الفردي. فالعقل سيعمل، سواء أكان يعود لعالم

أو الجاهل، ليؤدي وظيفته، سواء أكان شرًّا أم خيرًا، حتى أن هذا التقسيم العقلي مجرد وهم أنتجه العقل عندما فرّق بين الظلام والنور، فاعتُبر نور النهار رمزًا للخير وظلام الليل رمزًا للشّر، مع أننا نعلم علم اليقين، أن نور الشمس لو استمر ساطعًا بضعة أيام على مكان ثابت، لاحترقت الدنيا بما فيها من حرارة، أو لجمدت من برد الليل إن استمر أيامًا طوال، فالخير والشر مسألة معقدة للغاية، ويصعب تبيانها.

لطالما دفع الغموض والعجز العقلي عن إدراك ظواهر الكون الإنسانَ للسجود أمام الأقوى، فسجد تارة للشمس لجبروتها، وأخرى للقمر لرقته و نعومته، وثالثة للنجوم. وفي عملية معاكسة دفع الغموضُ أصحابَ العقول النيرة والمتمردة، للبحث والكشف عن القوانين المتحكمة بصيرورة الأشياء وسيرورة الكون. ورغم أن الله سبحانه وتعالى، قد سلمنا مفاتيح البحث والمعرفة حين قال: "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب" (يونس)، فإن عملية التجهيل، كانت مستمرة عبر قرون من الزمن، حتى غدا المسلم نموذجًا للأحمق، المتخلف، الرافض لكل أنواع المعرفة، أيًّا كان مصدرها، واكتفى بكلماتخطيب المسجد في يوم الجمعة، لتكفيه شر الغوص في مجاهل العلوم. العلم يؤدي إلى الإيمان، والعلم يؤدي إلى الإلحاد.

من جهة أخرى كان الإمام يسمع كثيرًا من ترهات أدعياء العلم والمعرفة اللادينيين، وعملهم الدؤوب على نشر الشائعات المغرضة بين الناس البسطاء والفقراء لتشويه كلمات رب العزة، بقراءتهم المغلوطة

والمقصودة لبعض من آيات الذكر الحكيم، فكانوا ببساطة شديدة يقرؤون كلمة "الله" بالضمِّ بدلا من الفتح في قوله تعالى: "إنما يخشى الله من عبادهِ العلماءُ" فينقلب المعنى رأسًا على عقب، فيصبح الله "خائفًا" من أن يكتشف العلماء السوفييت أسراره الخفية وينشروها للناس في عملية أشبه ما تكون بعمليات التجسس الاستخباراتي. هؤلاء و هؤلاء صِنوان – قال الإمام في سره – بعد أن سمع كثيرًا من الشباب المتحمس للعلوم الغربية منها والروسية السوفييتية على وجه الخصوص، يذكرون تلك الآية في أماكن تجمعهم تحت سقائف الدكاكين.

كان اليساريون يعملون ليل نهار على نشر تلك الشائعات، ظنًّا منهم أنها توجه ضربة قاصمة للعقول المؤمنة، وتدعم أركان العلم والمعرفة، ولاحظ الإمام أن هؤلاء المدعين للمعرفة، لا يختلفون بطبعهم وحذاقتهم، عن أولئك الذين يعملون على زرع الترهيب والترغيب في قلوب الناس، بغية الوصول بهم للإيمان المطلق، الذي يرفض المعرفة الحقيقية، ويتعارض مع أبسط قواعد البحث المعرفي. وحاول الإمام أن يحفظ كلمة "الأيديولوجيا" التي انتشر استخدامها في أوساط الشباب بدلًا من كلمة "العقيدة" لكن جهوده باءت بالفشل.

الجاهل وحده لا يميز بين كلمة "الخوف" وكلمة " الخشية" فيضعهما كمترادفتين لشعور واحد – حدث الإمام نفسه –والحقيقة أن مشتقاتهما قد تلتقيان في مرحلة من المراحل، فمخافة الله قريبة جدًّا في معناها من خشية الله. لكن الله سبحانه وتعالى لا يخاف من أحد ولا يخشى أحدًا. أما

العلماء فيخشون الله.. والفرق شاسع بين المعنيين. أن تخشى الله فمعناه أن تؤمن به بمعرفتك وبعلمك وتتعرف إليه بواسطة عقلك، أما الخوف والترهيب فتلك أدوات السلطات في كل العصور. أن تخشى الله، يعني ألا ترتكب الذنوب والمعاصي بدافع من ذاتك، من وعيك، من فؤادك، وهذا لا يصل إليه إلا العلماء الراسخون في العلم، والقادرون على معرفة الله سبحانه وتعالى. فالخوف والتخويف والترهيب للذين لا يفكرون، للذين لا يعقلون، للذين لا يُعمِلون عقولهم في معرفة الله، أما الخشية فنابعة من العقل، من المعرفة، من القلب، فمن يخشى الله هم العلماء والراسخون في العلم.

التحوير الذي أصاب معاني القرآن ساهَمَ به علماء المسلمين، فهم أول من عمل على تحريف معانيه وتشويهها ليخدم جاههم وسلطانهم، إذ لم تمضِ سوى بضع سنين من وفاة رسول الله (ص) حتى استطاع المسلمون دك حصون الإمبراطورية الفارسية العريقة، وفتحوا بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، ليؤسسوا واحدة من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ، تمتدُّ من بحر الظلمات إلى سهوب تركستان في قلب آسيا.

مع انتشار الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، اصطدم العقل الباطني المتوحش للفاتح الغازي بعقله الظاهري. كيف للمنتصرين بحد السيف، أن يعاملوا الشعوب المقهورة، بنفس الطريقة مع أنفسهم، كما يدعو إلى ذلك القرآن الكريم؟ وكان لا بد من إيجاد المسوغات، والمبررات التي تخالف شرع الله، ليصبح سبي النساء، والاستيلاء على أموال الناس، شرعًا إسلاميًا.

لم يعد الفاتحون يعملون وفق قوله تعالى:"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وأصبحت الرسالة نقمة بدلًا من أن تكون رحمة، وهذا شعور طبيعي ومنطقي ينتاب أي فاتح كان، لماذا الفتح؟ سؤال جوهري طرحه الفاتحون على أنفسهم. أهو من أجل نشر الدعوة فقط؟ أم من أجل إذعان تلك الشعوب واستعبادها وإذلالها ونهب ثرواتها والتمتع بسبي نسائها؟

باتت النصوص المكتوبة الصريحة الواضحة في كتاب الأميين، الذي جاء بلسان عربي مبين، تقف عائقًا، في وجه شهواتهم ورغباتهم، في وجه طمعهم بالثروات ككل الغزاة، فكيف لهم أن يوفقوا بين "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وبين رغبتهم المتأصلة باستباحة أعراض الناس وممتلكاتهم؟ كيف لهم أن يوفقوا بين قوله تعالى: "ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل" (الأنعام)، وبين "حقهم" كغزاة، مثل بقية غزاة التاريخ، في سفك الدماء وهتك الأعراض والاستيلاء على الممتلكات؟ فكان الجواب يأتيهم عن طريق الأحاديث التي بدأت تنسب إلى رسول الله، وبدأت تنسج الأساطير والخرافات حول قدراته الجنسية، بل إنهم لم يتركوا شيئًا قبيحًا إلا وألصقوه برسول الله، من اغتصاب للنساء، وسفك للدماء، فصار رسول الله يدخل على نسائه بغسل واحد في ليلة واحدة بقوة سبعين رجلًا. وصار من الشرف لأي امرأة أن تتزوج من رسول الله حتى ولو كان قد قتل زوجها وشقيقها وأباها في يوم

واحد، فتحول رسول الله بأيديهم، من صاحب أهم رسالة سماوية وآخرها، إلى قاطع طريق، إلى جاهل لا يعرف القراءة والكتابة، اعتقادًا منهم أن جهله للقراءة والكتابة يؤكد نبوته، وأن ما جاء به هو آخر رسالة من الله إلى عباده. كانوا في خوف شديد من فكرة علم الرسول بالقراءة والكتابة، فقالوا لو كان عليمًا بهما، لما آمن به الناس، ولاتهموه بالتأليف والتخريف، وبهذه الطريقة بات الجهل والقدرات الجنسية لرسول الله علامات من النبوة، يفتخر بها أتباعه. وبالتالي كان لا بد أن يتحول رسول الله تدريجيًا من مبشرٍ داعٍ للأميين إلى العلم والمعرفة، إلى غازٍ جاهل، يوزع السبايا على أفراد الجيش، ويحظى بالأجمل منهن. بل إنهم لم يتورعوا عن تأليف الأحاديث التي كانت تدور بينه وبين نسائه من السبايا داخل الخباء، وكأنهم يستعرضون مشاهد جنسية تفوح منها رائحة القهر والإذلال للمرأة، وهدم مُتعمَّد أو غير متعمد لروح الرسالة السماوية. وقصة بنت حيي أبشع من أن توصف، كما هي قصة بنت كلثوم.. فهل يمكن لعقل سليم أن يحمّل رسول الله كل تلك الآثام؟! من فعل برسولنا وقدوتنا ما فعلوه؟ – تساءل الإمام في سره – من شوّه صورته إلى هذه الدرجة من القباحة لنفتخر بجهله وحماقته، وبقدراته الجنسية الخرافية؟ نعم – قال الإمام في سره – هناك من عمل ويعمل على جعلنا محمديين لا مسلمين. محمديين بالصورة التي رسموها لرسول الله بمخيلة الغزاة القتلة وعقليتهم، والتي تتعارض كليًا مع مبادئ التنزيل الحكيم وأحكامه.

رسولنا محمد، مثال للورع والأخلاق، مثال للعدل والمساواة، مثال ساطع لمحاربة الجهل والفساد، مثال للرأفة والحنان فالله يقول عنه: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم"، ذلك هو رسول الله الذي آمن به الناس، وانطلقوا يبشرون بدعوته، وتحولت الدعوة على أيديهم إلى غزو بدوي، لا يعرف الرحمة. لقد تحركت فيهم روح البداوة الهمجية القاتلة التي تستبيح أعراض الناس، وتستعبدهم كما جاء في الكتب القديمة" وحين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن عملت معك حربًا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنسلك". (التثنية الإصحاح 20/10) فهل هذا شرع الله؟ أي حقد يتأجج في صدور هؤلاء الناس؟! من يشرعن قتل الناس، وسبي النساء باسم الرحمن الرحيم؟

كان أخطر ما قام به هؤلاء الأعراب هو تسمية المعارك والحروب التي خاضها أو أشرف عليها رسول الله "بالغزوات" بدءًا من غزوة بدر وحتى غزوة تبوك، حتى المعارك التي كان فيها المسلمون محاصرين كمعركة الخندق سُميت بغزوة، وهذا يتنافى مع أبسط الحقائق، فكيف يكون الرسول غازيًا وهو محاصر مع بقية المسلمين بيثرب؟

وثلاث ورباع ليصبح عددهن تسع نساء، أما المبدعون منهم فقالوا عشر لأن الأولى أمر مفروغ منها. لا أخفيكم أن بعض المذاهب تأخذ بهذا التفسير.

ولاحظ الإمام أن ابتسامة من الرضى ظهرت على وجوه المستمعين، ظنًّا منهم أن الإمام والعالم الجليل سيدعو للأخذ بهذا الرأي، أي شرعنة الزواج من تسع أو من عشر نساء، لأن جمعهن لا يحتاج إلى ذكاء كبير. لكن ابتسامتهم سرعان ما تلاشت، عندما طرح الإمام الأسئلة لتنخر عقولهم فقال: كيف يستقيم الأمر مع قوله تعالى: وخلقناكم من ذكر وأنثى؟ وليس من ذكر وإناث؟ كيف يستقيم مع قوله تعالى: "فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" (القيامة)، وقوله: "والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلناكم أزواجا"، وهذا ما فعله الله سبحانه وتعالى بالحيوانات والطيور. فجعلها أزواجًا، ونحن نعلم أن كلمة زوج في اللغة تعني الذكر والأنثى، ومن الخطأ أن نقول زوجًا وزوجة. كما أنه من الخطأ في اللغة أن نقول عروسًا وعروسة، بل عروس لا غير، أما تأنيثها بإضافة التاء المربوطة فهو خطأ شائع.

إخوتي في الإيمان، ما أريد قوله هو أن الله تعالى قد خلق الكائنات من ذكر وأنثى ليتكاثروا. قد يقول قائل ها هو قطيع الغنم فيه كبش واحد وعشرات الإناث، فأقول هذا من صنعنا نحن البشر. نحن من ذبحنا الذكور وأبقينا على الإناث لتتوالد. أليس كذلك؟

فالقاعدة الأساسية في خلق الله هي ذكر وأنثى، وليس ذكر وإناث.

وأعود إلى سورة النساء والآية التي تبيح للمسلم أن يتزوج بأكثر من امرأة فأقول: هناك خطأ كبير في تفسيرها. غالبيتنا نفهم الآية أن العدل بين النساء هو أن نضاجعهن بعدالة، بمعنى أن ينام الذكر مع زوجاته بالتساوي، فهذه الليلة مع ليلى والثانية مع فطوم ...إلخ.. لكن للمسألة وجهًا آخر.

إخوتي في الإيمان، الآية الكريمة لا تتحدث حول القسط بين النساء بالنوم معهن، لأن كل الحديث مخصص لليتامى.. لليتامى.. أكرر للمرة الثالثة الحديث في الآية عن اليتامى.. لنعد إليها ونقرأها من جديد: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع".. فأين هو القسط؟. القسط في اليتامى.. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .. الآية لا تتحدث عن العدل بالنوم معهن، بل بالعدل في معاملتك لأولادك وأولاد زوجاتك اليتامى.. هنا سر الآية العظيم، وهنا جوهر قيمتها الأخلاقية.. فالحروب تقتل الذكور، فتصبح النساء من دون أزواج، ولهن أطفال يتامى من أزواجهن، واليتيم في اللغة من فَقَدَ أباه وليس أمه، ومن هنا سمح الله تعالى للمسلم بأن ينكح مثنى وثلاث ورباع من النساء ممن لديهن أطفال ليعولهم، أي ليساعد تلك المرأة في إعالة أطفالها، وطالب الله المسلمَ المؤمن بأن يعدل بين أطفاله وأطفال تلك المرأة التي فقدتْ زوجها، وهذا هو قمة التكافل الاجتماعي في الإسلام. وإن لم تكن أيها المؤمن قادرًا على العدل بين أطفالك وأطفالها فاكتف بواحدة .. لكن إن استطعتَ أن تقدم الرعاية والإعانة للأطفال

اليتامى من دون الزواج من أمهاتهن فمن يمنعك؟ لا أحد. بل هذا أفضل عند الله. وهذا هو السر العظيم لتلك الآية الناصعة الواضحة الجلية، ومن هنا أقول لا يحق للمسلم المتزوج، إن كانت زوجته على قيد الحياة وغير منفصلين عن بعضهما البعض، ولديه أطفال منها، أن يتزوج من فتاة بكر، بل من ثيب، ولها أطفال يتامى الأب، ليرعاهم ويساعدها على تنشئتهم .. تلك هي عظمة رسالة السماء إلى سيدنا محمد بن عبد الله (ص).

إخوتي في الإيمان، إن خير دليل على صحة ما أقول: هي الآية التي وردت قبل هذه الآية التي يقول الله فيها: "وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيرًا"، صدق الله العظيم، ثم تليها الآية وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى.. وليس بين النساء

إخوتي في الإيمان من يريد تعميم فكرة الزواج من أربع فتيات أو تسع أو عشر إنما يريد أن يجعل من المسلمين قطيعًا من النعاج ليكون كبشها.. ذكرها.

عندئذ لم يستطع الحاج يعقوب الصمت أكثر، فنهض ووقف في وجه الإمام وقال له: أنت حرام عليك أن تصعد هذا المنبر بعد هذا اليوم. أنت مُحرِّف فظيع للقرآن الكريم ولرسالة السماء.. أنت كافر وتستحق القتل. ألم يعرف المسلمون ذلك من قبل حتى تأتيهم بهذا التفسير المخادع؟ هل تريد أن تحرمنا مما أحلّه الله لنا؟ أي نفاق هذا الذي أسمع؟ والله لن أصلي مرة أخرى خلف هذا الكافر.. هذا ليس بإمام يؤمُّنا للصلاة لوجه الله بل للشيطان الذي يسكن قلبه.

وعمَّت المسجد الفوضى وتواصّ أنصار الحاج يعقوب، وصرخوا بأعلى صوتهم لمنع الإمام من اعتلاء منبر المسجد مرة أخرى، ولاذ الذين اقتنعوا بصحة كلام الإمام بالصمت، فكيف لهم أن يتصدوا لمفهوم عريق يمتد لمئات السنين؟

خرج المصلون وخرج الإمام وراءهم، ولم يرجع مرة أخرى للصلاة في المسجد، الذي نعتوه فيه بالكافر، وهذا ما أصاب قلبه بجراح لم تندمل بعد، لأنه لم يتوقع ردة الفعل تلك واستجابة الناس وانجرارهم وراء الجهل والمجون.

مسح الإمام الدموع من عينيه لتغيب معها تلك الصورة المؤلمة عن ذهنه، لأن ما حدث كان له وَقْعٌ شديد على نفسه وتأثير كبير في مجمل حياته، فاعتزل الناس أيامًا طوال، وأصيب بإحباط شديد من ردود أفعال الرجال، ولم يعد يطيق الحياة فانزوى بنفسه جانبًا، في محاولة لمراجعة الذات، والأفكار التي كانت تثقل عليه حياته وتحولها إلى جحيم لا يُطاق. الاستبداد يولد الفساد. وتذكّر لقاءه الأول مع شيخ الأزهر الجليل مصطفى عبد الرازق حين سأله: هل قرأت كتاب ابن بلدكم عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد"؟

– لا لم أقرأه، لم أسمع به. أجاب الإمام الطالب وشعر بخجل شديد.

– عليك قراءته. قال الشيخ مصطفى.

كان كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" أول كتاب يتناول العلاقة ما بين الدين والسياسة يطلع عليه الإمام، وقد أعاد قراءته مرات عديدة، وهو ما زال يذكر كلمات مؤلف الكتاب الذي عزا سبب الانحطاط في حالة المسلمين في مصر وبلاد الشام خاصة، وبلاد المسلمين عامة، إلى سلطة الاستبداد السياسية وقال: "فالقائل مثلًا: إن أصل الداء التهاون في الدين، لا يلبث أن يقف حائرًا عندما يسأل نفسه: لماذا تهاون الناس في الدين؟ فهو نتيجة لا وسيلة، والقائل: إن الداء اختلاف الآراء، يقف مبهوتًا عند تعليل سبب الاختلاف. فإن قال سببه الجهل، يُشْكِلُ عليه وجود الاختلاف بين العلماء، وهكذا يجد نفسه في حلقة مفرغة لا مبدأ لها فيرجع إلى القول: "هذا ما يريده الله بخلقه، غير مكترث بمنازعة عقله....وبذلك يعلمون أني ما وافقتُ على الرأي القائل بأن أصل الداء هو الاستبداد السياسي إلا بعد عناء طويل.

كانت قراءة الإمام لذلك الكتاب مفتاحًا لإعادة النظر كليًّا في الهدف من دراسته في الأزهر الشريف، وخطوة أولى في محيط من العلوم تتلاطم أمواجه ما بين تاريخ الفتوحات الإسلامية، والفقه، والسياسة والتشريع والقرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى، والاختلافات العقائدية الكبرى، التي حدثت داخل الكنيسة، ومن ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وخاصة خلاف النسطوريين مع الكنيسة القبطية، ودور النساطرة التمهيدي لفتح بلاد الشام، ودور الراهب بحيرا الغامض والمغيب والمعتم عليه تمامًا بقصد أو دون قصد، ليبدو وكأن رسالة الله

الأخيرة قد جاءت من فراغ، من خارج الزمان والمكان، وهذا ما فتح الباب وأجبر الإمام على الاطلاع على "القدرية" ومقارنتها بمفهوم "الشورى الدستورية" الذي أكده الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، كمفتاح لحل معضلة الانحطاط الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وكانت تلك من أشد المسائل غموضًا وحداثة بالنسبة لطالب علم وصل الأزهر الشريف من قرية صغيرة في بلاد الشام تدعى ديرفول.

قطع سلسلة ذكريات الإمام صوت صرير وقرض أتاه من صندوق الكتب، فنهض مذعورًا، وشاهدت عيناه ما خاف من رؤيته فعلًا، فقد تسلّل فأر خرج من صندوق الكتب إلى جحره في الجدار الطيني.

– يا إلهي هذه كتبي الثمينة التي جئت بها من مصر! عليَّ أن أرفع الغبار عنها وأعيدُ إليها نضارتها.. كم تبدو عتيقة ومهترئة! عفوك ورضاك يا الله. سامحني يا شيخ جمال الدين، سامحني يا أستاذي الفاضل يا شيخ مصطفى عبد الرازق، فأنا أخلفتُ وعدي ولم أكن تلميذًا نجيبًا لكما. رحمكما الله وأسكنكما فسيح جنانه.

***

شَجَنْ

عادت سيارة الكرايسلر اللبنانية للظهور في أزقة القرية عند الظهيرة، وعلى متنها كان أصحاب لفافات التبغ الثخينة، وقبعات الجوخ الإنجليزية، لتغادرها قبل حلول المساء، مخلفة وراءها قلقًا عميقًا في قلب الأستاذ بدر وبعض المجلات الفرنسية المختلفة العناوين، والتي راح المجتمعون في مترله مساء يتصفحون الصور المنشورة فيها، وقد لفتت انتباههم صورة الملك فيصل الثاني ملك العراق الشاب إلى جانب فتاة رائعة الجمال، فسألوا الأستاذ بدر عنها فقال لهم وهو يحاول أن يخفي قلقه الداخلي: هذه صورة الأميرة فاضلة إبراهيم إحدى حفيدات محمد علي باشا من ابنه إبراهيم، ويبدو أن ملك العراق مُغرمٌ بها، صورتها على صفحة الغلاف، ونظروا في صفحة الغلاف وشاهدوا فتاة فائقة الجمال بعينين زرقاوين.

- تستحق. قال رياض وهو يتأمل صورتها الملونة.

- وهذه صورة أمها الأميرة خانزادة حفيدة السلطان العثماني عبد المجيد الثاني. قال بدر وأشار إلى صورة بالأسود والأبيض داخل المجلة.

- هؤلاء كلهم إلى مزبلة التاريخ - قال ياسر الأممي - عملاء بريطانيا وأمريكا. رئيس وزرائه نوري السعيد ينسق لحلف بغداد ضد الاتحاد السوفييتي والملك ضائع في شوارع باريس.

– لن يصمدوا طويلًا أمام غضب الجماهير العربية..القوميون العرب في العراق يقفون بشدة ضد جلف بغداد، ولن تنفعهم سياسات نوري السعيد..إنه يشكل أكبر خطر على أمن العرب، وهو أخطر من إسرائيل. لكن الجماهير ستزيحه كما أزاحت الملك فاروق في مصر. قال إلياس.

– الملك فيصل من الأسرة الهاشمية والشعب العراقي متعلق به كثيرًا.. فهو شاب صغير السن كابن عمه ملك الأردن. قال الحاج خضر.

– إن كانوا كذلك، ومن الأسرة الهاشمية فلماذا لا يوحدون البلدين في دولة واحدة. لتكن مملكة.. لكن ليتوحدوا .. ليقيموا دولة قوية..كما أراد جدهم الشريف حسين.. ما الذي يمنعهم وهم تحت الرعاية البريطانية؟ لكنهم لن يفعلوا.. لأنهم في حقيقة الأمر يقفون ضد الوحدة العربية.. حتى أن حكومة العراق وقفت إلى جانب العدوان الأنجلو-فرنسي على مصر، وهم الآن كالفئران يختبئون من وجه الجماهير الغاضبة. قال إلياس.

– ولماذا تنسى إسرائيل؟ ما زالت إسرائيل في سيناء. قال الأستاذ بدر وهو يحاول أن يخفي قلقه الدفين.

– ستزول إسرائيل من الوجود. قال إلياس. اليهود جبناء والعرب قادرون على محو هذا الكيان المصطنع بأيام قلائل، لكن لكل ساعة ملائكتها. انتظروا وسترون ما سيفعله الأسمر. جيشنا السوري مرابط في الأردن، وسنطبق عليهم من كل الجهات..نحن مئة مليون عربي، محيط من

البشر، فكيف لدولة صغيرة لا يبلغ تعداد سكانها المليونين أن تقف في وجهنا.. لن تقف.

– بريطانيا بستة آلاف عسكري احتلت الهند. قال الحاج خضر ضاحكًا.

– الوضع اختلف الآن – قال ياسر –العالم اختلف بعد ثورة أكتوبر، الاتحاد السوفييتي سيقف إلى جانب الشعوب.لقد انتهى عصر الاستعمار.

– أنت تدعو لاستعمار روسي بدل الاستعمار الغربي – قال بدر– هذا كل ما في الأمر، وكما يقول الناس عنكم: إن أمطرت في موسكو فعلى الشيوعيين السوريين حمل مظلاتهم.

– الشيوعيون السوريون هم طليعة الشيوعيين العرب، ولم يتم اختيار الرفيق بكداش ليمثل الشيوعيين العرب في الكومنترن العالمي عبثًا منذ عام 1935. هم يعرفون أهمية الشيوعيين السوريين واللبنانيين. سوريا مفتاح العالم العربي. قال ياسر الأممي.

– الوطن العربي سيد ياسر وليس العالم العربي. علق إلياس.

– سأسميه وطنًا عربيًّا، عندما أحمل هوية باسمه، أما وأنه دول فهو عالم ناطق بالعربية، مثل دول الكومنولث. ما الفرق؟ لا شيء. قال ياسر.

– الفرق كبير جدًّا. علّق بدر ضاحكًا.

– صحيح. قال إلياس. الفرق كبير بيننا وبينهم. فهم أحرار ونحن تُبع. ما لم نتخلص من التبعية للاستعمار فلا فائدة من كل هذا الكلام.

ونهض وارتدى معطفه الشتوي وأضاف: أراك مُتعبًا اليوم.. طبيعي فأنت أمضيتَ النهار والليل في استقبال الضيوف...يبدو أن ضيوفك البيروتيين قد أثقلوا عليك. تصبحون على خير. وخرج إلياس إلى الزقاق فنفذ الهواء البارد إلى رئتيه.

حبس إلياس أنفاسه وتوقفت خطاه عندما سمع صوت وقع حصاة قُرب قدميه. تلفت يمينًا، وشمالًا وقد خفق قلبه. انشق الباب وشاهَد نور عينيها يضيء الدنيا فرحًا وزهوًا. اقترب منها وقال لها بصوت هامس: اشتقتُ إليكِ كثيرًا.

ابتسمت أمينة وأطبقت رموشها على بعضها البعض قليلًا وقالت: أحببتُ أن أطمئن عليك. هل أنت بخير؟

– لا لستُ بخير وأنت بعيدة عني. اشتقتُ إليك. هذا ما أعرفه.

ضحكت أمينة بخبث وقالت: لا تتعب دماغك بالتفكير. سأراك لاحقًا.

– متى؟ وأين؟

– لا أدري. دع الأمر للساحرات، فهن من يرشدنني.

– الساحرات! عن أي ساحرات تتحدثين.

- أنت لا تستطيع رؤيتهن، فهن كالهواء.

- أمينة! هل أنت سكرانة؟

زلفت أمينة نحوه بشفتيها، وأغمضت عينيها. شعر إلياس بخوف شديد، ودنا منها وقبّلها قبلة صغيرة في شفتيها.

- هل شممت رائحة مشروب في فمي؟ سألته أمينة.

- لا. أجاب إلياس.

- حسنًا. وداعًا. وأغلقت الباب لتختفي خلفه.

زفرَ إلياس ما في صدره من هواء حار، وابتعد مسرعًا من أمام الباب، خوفًا من أن يراه أحد من الشبان الذين يحومون حول المنزل ويراقبونه من بعيد لبعيد.

تساقط المطر رذاذًا على سطح ماء النهر العظيم، واغتسلت وريقات أشجار الصفصاف الباسقة من الغبار العالق عليها طوال أيام الصيف الفائت والخريف، الذي مرت أشهره، دون أن يرى أهل الجزيرة ركامًا في كبد السماء الزرقاء بلون الخرز. استطاع يوشع الإفلات من عين الذئب، التي لا تعرف النوم، بعد أن تركه مخمورًا في فندق "الفرات" بصحبة غانية عراقية حطمت فؤاده بغنائها النواح، فراح يهزُّ رأسه طربًا، ويُردِّد خلفها "آه..آويلاه" كلما انتهت من موال لتبدأ آخر.

كان في شجوها شجن أهل العراق المجبول بالطين، والممتد في عمق التاريخ لآلاف السنين، منذ أن طرد الله آدم من جنة الخلد ليهبط على

الأرض لاهثًا وراء رغيف الخبز. مع كل أغنية وموال، كانت معالم وجه الذئب تتبدل لتزداد غموضا، وتحشرج صوته بعذاب الأيام الطويلة. كان صوتها الرخيم يتدفق كموجات من أنين وحسرة وندم، فأحسَّ الذئب بغُصة في صدره سرعان ما حلق إثرها في الأثير، إلى عوالم بعيدة في عمق الزمان والمكان، قبل أن يجبل الإنسان التراب بالدم القاني، لتتصدع الجبال وترتعش اليابسة من هول الفاجعة، كما ارتعش جسد ذيب في غفلة، عن مسار صدى الزمن السرمدي.

اقتربت منهما الغانية وقد لاحظت تفاعل ذيب لحدود الثمالة، وجلست قربهما وفاحت منها رائحة الكحول ممزوجة برائحة عطور حادة نفاذة، فنفخت الهواء الساخن من صدرها في عين ذيب التي لا تعرف النوم على شكل نسمة هواء عليل فأغمضها كطفل وديع داهمه النعاس، وأطلقت الغانية العنان لصوتها بأبيات من شعر أبي نواس:

يا رب إن عظُمتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت أن عفوكَ أعظمُ

إن كان لا يرجوكَ إلا مُحسن ... فبمن يلوذُ ويستجيرُ المُجرمُ

أدعوك ربي كما أمرت تضرعًا... فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحمُ

وسالت دمعة من عين الذئب فمسحها بإبهامه، وقال ليوشع: ما ذنبنا أننا خلقنا بشرًا..بائسين؟

لم يفهم يوشع ما يقصده الذئب بسؤاله، ولم يكن مهتمًا بذلك، فكل ما يريده هو أن يفلت من محجره ولو فترة وجيزة.

كان الذئب قد اعتاد ظل يوشع، واطمأنّ إليه، بعد أن اختبره في العديد من المواقف الحرجة، التي تطلبت شجاعة فائقة لمواجهتها، فأبدى يوشع من رباطة الجأش والعزيمة ما أدهش الذئب، فسكن قلبه المتحفز دائمًا وارتاح إلى مرافقه، حتى أنه دفعَ بالعيصلان لمجموعة أخرى واكتفى بيوشع رفيقًا له على دروب الشوك والألم.

– إن حدث و نمت – قال له ذيب ذات يوم – فلا تنم أنت. أنت لديك عينان اثنتان، يمكنك أن تنام بواحدة، وتُبقي الأخرى متحفزة، هذا ما كنت أفعله قبل أن تفقأ عيني رصاصة الهجانة. ونمّت كلماته تلك، عن ثقة مفرطة لا حدود لها، فرح بها يوشع في بادئ الأمر، حتى انقلبت إلى كابوس يلاحقه ليل نهار، فلم يعد ذيب يتحرك دونه في أي اتجاه، أو يمنحه الفرصة للاختلاء مع نفسه لبعض السويعات، كان فيها يوشع ينطلق مسابقًا الريح بحثًا عن الحجة سعاد المتنقلة دائمًا.

لم يعد للهلع أو الفزع مكان في قلب يوشع، فغدا على استعداد تام لمواجهة الموت في أية لحظة، فحياته باتت مرهونة بملاقاته والتصدي له بثبات لا يلين، لأن الموت لا يقهره إلا الموت، هذا ما قاله ذيب في إحدى مواجهاتهم الصحراوية التي دفنتها الرمال. كما اعتاد عبور الجسر المعلق فوق النهر العظيم، مُلقيًا التحية على الحراس، الذين يبادلونه التحية بأطيب منها، وكيف لا يفعلون وقد غدا واحدًا من رجال الأمير يورنس، الذي يغدق عليهم العطاء دون حساب؟

أخذته سعاد بحضنها الدافئ، وغمرته بسيل من القُبَل، ثم أحاطت وجهه براحتي كفيها وقالت له: كم أنت بائس يا يوشع؟ لقد ظلمت أختك وأذللتها، وأصبت روحك في مقتل!

– هل التقيتِ أختي؟ سأل يوشع وقد توقدت عيناه، وساد صمت ثقيل لم يعد يسمع فيه سوى صوت رذاذ المطر.

قصت له سعاد كيف استدلت على منزل شقيقته، روت له بكثير من الألم ما تعانيه كوثر من عذابٍ ومذلة، حكت له كيف انهارت أمام عينيها، كيف ناجت روحهِ التائهة في البرية.

– أي حماقة ارتكبت يا يوشع؟ قالت سعاد والدموع في عينيها.

– لعلها تكذب، أو تخفي الحقيقة. قال يوشع.

– كوثر لا تعرف الكذب. مشكلتها أنها لا تجيد الكذب. كانت أختك ملاكًا طاهرًا، لا ريب في ذلك، وغدت الآن بفضل جهودك روحًا معذبة، غدر بها الزمان، وهي تُقاسي مما فعلته بها. ومع ذلك فهي تناجيك. تبحث عنك. لأنها تحبك. فأنت تبدو كتوأم روحها. جسدها الطاهر يتهالك، يذبل، يجف كشجيرة تموت عطشى، لأن السماء حكمت عليها ظلمًا وبُهتانًا بالموت البطيء. كم أنت أحمق يا يوشع! أي شيطان يتملك قلبك؟ كيف تقتل صديق طفولتك وحبيب أختك، كيف تتهمهما، وتحكم عليهما بالموت؟ مَن أنت لتفعل ذلك؟ من أنت؟ أعترف لك أني أحببتك، وقعت في هيامك منذ أن رأيت وجهك وسمعت

صوتك، وعرفت أنك من ديرفول، فقلتُ لنفسي: هذا هو قدري، هذا هو حبي. عشقتك كعشق الطيور.. لم يرتعش جسدي من قبل حبًّا، كما ارتعش من ملامسة يديك، لكنهما ملطختان بدماء بريئة! فكيف للقاتل أن يحب؟ اعذرني يا يوشع فأنا لم أعد لك كما كنتُ قلبًا وقالبًا.

-- يا الله. صرخ يوشع بأعلى صوته وخرجَ من الخباء وقد تفجّرت مآقيه بينابيع الدموع.

عند الظهيرة، سمع تلاميذ المدرسة أحب الأصوات إليهم، جرس الانصراف، فتدافعوا يتسابقون للخروج من الشعب إلى بيوتهم لتناول وجبة الغداء.

كان الأستاذ بدر يقرع الجرس النحاسي بيده اليمنى، بينما أبقى يده اليسرى داخل جيب بنطاله، حتى خرج الأستاذ إلياس من أحد الصفوف وتوجّه نحوه ليدخلا معا غرفة الإدارة. اتخذ إلياس لنفسه كرسيًّا من الخيزران، بينما ظل الأستاذ بدر واقفًا خلف الطاولة الخشبية يراجع بعض الأوراق المبعثرة عليها. ورغم فطنته وذكائه الشديدين لم يستطع الأستاذ بدر إخفاء قلقه عن أعين صديقه، وغريمه الأستاذ إلياس، الذي سأله: أراك سارحًا بأفكارك بعيدًا عنا. قل لي: ما الذي أخبرك به رفاقك الذين قدموا إليك من بيروت؟

نظر الأستاذ بدر في عيني إلياس مطوّلًا وقال له: سمعتُ أن فرقة من المظليين المصريين وصلت دمشق، وقِسم منهم صار في حلب، والله وحده يعلم ما يفكر به السياسيون الكبار في العاصمة!

ظهرت ابتسامة عريضة على وجه إلياس، سرعان ما تلاشت حين سأل: ماذا يعني ذلك؟ هل جاؤوا لحماية شكري القوتلي، أم أن هناك غزوًا مُحتملًا قد تتعرض له البلاد؟

– هذا ما يحيرني! هل يتجرأ العراقيون على ذلك؟ لا أعرف. ليس هناك فريق سياسي يمكنه تهديد سلطة دمشق والانقلاب عليها، ومع ذلك لا أستبعد أن أمرًا خطيرًا وقع في صفوف الجيش..مَن يدري؟

– لم أسمع شيئًا من هذا القبيل، لكن يبدو الأمر خطيرًا فعلًا إن صَحَّ ما تقوله!

– أيزنهاور يهددنا بضرب القطعات المرابطة من جيشنا في الأردن إن لم نسحبها فورًا، وهذا مبرر كافٍ ليقوم نوري السعيد بمغامرة عسكرية – سياسية.

– من خازوق لخازوق.. هذه حالتنا. إن منحتني إجازة ليومين أسافر فيهم إلى دمشق فلربما آتيك بالخبر اليقين، فلديَّ من المعارف المطلعين على بواطن الأمور.

– لك ما تريد. اذهب إلى حيث شئتَ من الهوى. قال بدر، وقد غابت عنه تلك الكآبة التي سيطرت عليه خلال الأيام الماضية.

فرح الأستاذ إلياس بموافقة بدر على منحه إجازة شبه مفتوحة، وأدرك في الوقت ذاته أنه لم يكن ليمنحه ذلك لو لم يكن الوضع في غاية الخطورة، فقال: السياسة فن الممكن. وضحك الأستاذ بدر وقال: تقصد

فن الكذب؟ خاصة السياسة السورية، فلا أحد في الدنيا كلها يمكنه فهم السياسيين السوريين وانتماءاتهم. والأوطان لا تُبنى على الكذب.

-- ماذا تقصد؟ أنا لا أفهمك؟

-- لا شيء. لكن لا أعرف لماذا تذكرت قصة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر. تم اغتياله في عيادته في قلب العاصمة دمشق، ثم اتهموا قيادات الكتلة الوطنية، وعلى رأسهم شكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم بيك، ثم تمت تبرئتهم، مع أن أسرة الشهبندر تقدمت ببلاغ ضد القوتلي تحديدًا، فماذا كانت النتيجة؟ وقعت برأس ابن عصاصة وابن الغندور، وتم إعدام المتآمرين. مَن أعطى الأمر بتصفية الشهبندر؟ لا يعلم أحد. قالوا إن ابن عصاصة اعترف بقتله للدكتور الشهبندر لأنه "سفوري"، أي إنه يدعو إلى سفور المرأة، وهذا مخالف لشرع الله. وضحك الأستاذ بدر ثم أضاف: لو اهتممت بشيء مفيد لي، كالزراعة مثلًا، لكان أفضل لي من كل هذا الكلام الفارغ ..أليس كذلك؟

-- ربما. قال إلياس، وشارك الأستاذ بدر ضحكته دون أن يعلم سببها، ثم سأله: كأنك تتهم القوتلي بالجريمة.

- أنا لا أتهم أحدًا، لكن هذا ما حدث. لماذا فَرَّ زعماء الكتلة الوطنية إلى بيروت وإلى بغداد؟ خوفًا من إدانتهم ..أليس كذلك؟ وهم من كانوا يؤيدون اتفاقية الست وثلاثين مع فرنسا، بينما كان الشهبندر من أشد معارضيها.

- أستاذ بدر، أنت تعرف أن الشهبندر عميل أمريكي، ماسوني، من يوم دراسته في الجامعة الأمريكية.

- يا لطيف.. ماذا أسمع؟ هل أصبح الشهبندر عميلًا للأمريكان وهو من أكبر دعاة الثورة العربية الكبرى؟ هو قومجي عربي مثلكم.

- لا، ليس مثلنا. كان يدعو لاستبدال البريطانيين بالفرنسيين.

- يا أستاذ إلياس، سوريا ليست محل اهتمام بريطانيا أو أمريكا، سوريا بلد فقير، اقتصادنا يعتمد على المطر، والإنجليز لا يثقون بالمطر كثيرًا. ثم ضحك الأستاذ بدر طويلًا وعينا إلياس تراقبانه بحيرة واضحة.

بجسدها المنهك، المتعب، بعينيها الذابلتين، بوجهها الشاحب بساقيها النحيلتين تنقلت كوثر من متجر قماش لآخر، تطلب من أصحابها العمل خياطةً، كما طلبوا منها ذات يوم، حين كان نور ابتسامتها يضيء المكان، ولم تقبل، واكتفت بالعمل في منزلها في القرية. لكن التجار أنكروا ذلك، حتى أن بعضهم قال: إنه لم يرها من قبل، وأنه يراها لأول مرة في حياته.

لم تكن كوثر تعلم أن حكايتها قد انتشرت في المدينة، وبين تجار السوق، منذ ذلك اليوم الذي جاء بها الإمام، لتكشف عن عذريتها، بهدف الحصول على تقرير طبي من طبيب شرعي، لإثبات بهتان تهمتها الباطلة، لكن الداية أم عبد المولى الدالاتي، جعلت من حكايتها قصة للسامرين، وروت حكايتها لكل نساء الحارة اللواتي نقلنها لبعولتهن.

لم تكن السيدة الدالاتي من خلال روايتها تهدف للتشهير بكوثر، أو الإساءة لها من قريب أو بعيد، لأنها كانت تقول إنها مستعدة للشهادة أمام أكبر المحاكم أن الفتاة مظلومة، وأنها بريئة. كان هدفها تسويق نفسها كأفضل قابلة في المدينة كلها، فالطب الشرعي يأخذ برأيها، وهذه أكبر شهادة على مهارتها المهنية، ومعرفتها بشؤون النساء. وكان مجرد سرد حكايتها كافيًا لابتعاد التجار عنها درءًا للشبهات. بل إن أحدهم تحرَّش بها، وعرض عليها مبلغًا زهيدًا من المال بعد أن شاهد حالتها، وعرف حاجتها الماسة للمال. نهضت كوثر بصمتٍ وعزمت على الخروج من المتجر، فشعر التاجر بالخوف من حركتها المباغتة، وظنَّ أنها ستصرخ لتلم عليه الناس لتفضحه أمامهم، فما كان منه إلا أن رفع صوته عاليًا، ليقذفها بأبشع الكلمات طاردًا إياها من متجره.

كان صوته يزداد صراخًا ليلتم الناس من حوله، في مسرحية مأساوية، شكلت ضربة قاضية لروح كوثر المعذبة. لملمت كوثر نفسها المتهالكة، وهربت من بين الحشود، الذين تجمهروا حولها وسط السوق، وهم ينعتونها بأبشع الألفاظ تضامنًا مع التاجر الشريف.

أحسَّت كوثر برعب شديد يطبق على قلبها المرتعد أصلًا، وغابت أصواتهم عن مسامعها، فبدت لها وجوههم ككلاب مفترسة تجمعت لتنهش في لحمها، فولَّت الأدبار هاربة وقد بدأت تتقيأ ما في معدتها من طعام.

عند عودتها إلى المترل وجدت الإمام في انتظارها جالسًا على الحجر الأزرق لعتبة الباب ملتحفًا بعباءته الصوفية.

اقتربت كوثر منه، وتهاوت لتجلس على الحجر الأزرق، وقد خارت قواها. نهض الإمام واقفًا، وقد شاهَدَ حالتها المحزنة المزرية، فقال لها بعد أن أشار بيده إلى علبة كبيرة من الكرتون: لقد جلبتُ لك "غرغرة" (أنثى ديك الحبش) مع عشرين بيضة، وفي هذا الكيس مسحة من الشعير لإطعامها. إنها على وشك أن تطب (ترقد) على البيض...لعل الله يساعدك ويفتحها بوجهك. علمت أنك استدنت بعض النقود لتذهبي إلى المدينة بحثًا عن عمل. أعرف أن تقْدمتي متواضعة، لكن اعتبريها للتسلية، لتمضية الوقت، وإن شئتِ يمكنني أن أبتاع لك واحدة أخرى، تستطيعين تربية فراخ الحبش. هذا أفضل وقت لأمهات الحبش لتفرخ مع الربيع .. والربيع كفيل بإطعامهم.. ما قولك؟

نظرت إليه كوثر بعينيها الواسعتين الغارقتين في عظام وجهها وقالت بصوت خافت: سأعمل أي شيء.

– هل لديك ما تأكلينه؟

– لديَّ قليل من زبيب العنب، من عريشة الدار. سأتدبر أمري. لا تقلق.

– حسنًا. سآتيك بقليل من الطحين. يمكنك أن تصنعي خبز الصاج، أليس كذلك.

- يمكنني، لكن ليس اليوم. أنا متعبة يا مولاي. متعبة. وأجهشت بالبكاء وأشاحت بوجهها جانبًا.

- ما بكِ يا كوثر؟ هل ..؟

- لا، لا.. لم يحدث شيء.. أنا متعبة وأحتاج للنوم لا غير.

- حسنًا. وداعًا. سأجلب لك الطحين غدًا بإذن الله. وتوارى الإمام في عتمة الليل الذي هبط سريعًا.

لم يكن الأستاذ بدر يعلم أن زميله في المدرسة الأستاذ إلياس راقد في المستشفى الفرنسي في حي القصاع بدمشق، وشعر باستفزاز فظيع لاستغلال إلياس الثقة التي منحه إياها، عندما طلب منه إجازة عن العمل مدة يومين، فمنحه إجازة مفتوحة، ظنًّا منه أنه لن يتأخر أكثر من ذلك، فقد خبره خلال العامين الفائتين ورأى فيه رجلًا يستحق الثقة دون شكوك، لكن تغيبه عن الدوام الرسمي مدة أسبوعين كاملين، وضعت الأستاذ بدر في مأزق كبير، لأنه لم يسبق له أن تنكر لمسؤولياته مطلقًا، بل كان يواجهها بثبات وحكمة وخبرة اكتسبها مع الأيام من خلال عمله في مختلف القرى والمدن. عسى أن يكون خيرًا - قال بدر محدثًا نفسه - لعل في الأمر ما هو أخطر من دوام المدرسة. سأنتظر وأرى.

مَرَّ أسبوع ثالث حتى ظهر الأستاذ إلياس مع بوسطة القرية مساء يوم سبت بارد وجاف، وتوجَّه فور وصوله إلى منزل الأستاذ بدر، وأعرب عن أسفه الشديد لما حصل معه، كما أخبره أنه اضطر لدخول المستشفى، وأنه أجرى عملية جراحية في المرارة، وجاء بتقرير طبي من

المستشفى موثّق من الجهات الرسمية، وسلمه لمديرية التربية في المدينة لتبرير غيابه الاضطراري.

– الحمد لله على السلامة – قال بدر و قد هدأت أعصابه قليلًا – أخبرنا ماذا حملت لنا من أخبار من دمشق عدا فقع مرارتك..الله يجيرنا.

– الشعب يطالب بالوحدة مع مصر للتصدي لحلف بغداد، والقوات المصرية وصلت فعلًا للوقوف في وجه أي تدخل عسكري سافر من قبل نوري السعيد. هذا كل ما في الأمر. كل القوميين يقفون مع هذه المطالب، ولم يبقَ سوى إقناع عبد الناصر بذلك.

– آآآ فهمت. لكن هل يعني هذا أن عبد الناصر يقف ضد الوحدة؟

وضحك بدر باستهزاء واضح.

– نعم يقولون إنه متخوف من مواجهة جديدة مع بريطانيا.

– لا أعرف يا صديقي. عبد الناصر سيقضي علينا جميعًا.

– أنت دائما متشائم يا أستاذ بدر. الجماهير مع الوحدة. نقطة انتهى. حسنًا، عرجت عليك لأطمئنك قبل أن أذهب إلى البيت، وداعًا.

وخرج إلياس مسرعًا إلى منزله .. الخرابة.

***

ريشتان

سارعت نباتات اللبلاب لتتسلق جذوع الأشجار مع انتشار الدفء مبكرًا، وفاحت رائحة أزهار أشجار الزيزفون والأكاسيا المنتشرة حول الطرقات، وامتلأت السماء بأسراب من الطيور المهاجرة، حيث كانت اللقالق تحوم في أعالي السماء بحركة لولبية تشابه حركة الأجرام السماوية، لتبدو للناظر وكأنها تحوم حول نفسها، كما كانت طيور الدرغل تتزاحم وتتدافع فيما بينها بحثًا عن مكان لها بين أغصان أشجار الصفصاف والميس، أما طيور الطلطميس الزاهية الألوان الواثقة بنفسها وجمالها فكانت تحطُّ فوق حقول القمح والشعير، كما صدحت طيور الفري المختبئة بين أزهار سندس الطبيعة بألحانها الرقيقة، حتى لتظنَّ أن الأزهار من تعزف تلك الألحان البديعة في جوقة من الغناء، تمتدُّ عبر السهوب والمنحدرات إلى البعيد البعيد.

وانسحبت الوحدات العسكرية السورية المرابطة في الأردن، بعد إنذار أمريكي شديد اللهجة، فيما انطلقت أمينة، برفقة ساحراتها السبع إلى البرية لتجمع أعشاب البابونج والزعتر البري، المنتشر بين شجيرات البلان الشوكية، على المنحدرات المحيطة بالجداول، التي كانت تطرب لصوت خرير مائها العذب الرقراق.

لم تعد أمينة تعرف نفسها، فقد اختلطت الصور في ذهنها بين أمينة الزاهية الغضة الساحرة الجمال، وأمينة الساحرة المحروسة بسبع من النساء اللامرئيات، فهي تواظب على الإصغاء أو التحدث إليهن بين لحظة وأخرى، أمام مرأى أعين أهل القرية من رجال ونساء. كان ذهنها قد تشتت منذ أن أطلقت صدفة حكاية الساحرات اللواتي حملنها من بعيد في الهواء الطلق وعُدن بها إلى القرية في وضح النهار، وهن الآن يواظبن على حراستها والدفاع عنها وحمايتها من كل مكروه، ويترصدن حركة كل من يحاول المساس بها.

مستهزئة، ساخرة من أفكارها التي بدأت كلعبة طائشة، بغية إيجاد وسيلة، تحمي بها نفسها، خلعت أمينة قميص الخوف والرعب عنها، وتقمصت صورة أمينة الساحرة، القادرة على إلحاق الأذى بكل من تُخوِّل له نفسه العبث معها.

بين جدٍّ ولهو تارة، وعجز وإلهام فطري في تارة أخرى، غرقت أمينة في لعبتها، فراقت لها كمنفذ جديد لحياة جديدة، في أرض تعشعش في تربتها الأساطير والخرافات منذ آلاف السنين، فعملت بدأب وحماسة، على تكريس تلك الصورة في عقول مَن حولها، وساعدها أمها في إشاعة تلك الخرافة، التي تحوَّلت مع الأيام إلى حقيقة متجسدة في سلوكها وأفعالها اليومية، فتجنبت النساء التحدث إليها أو مرافقتها إلى الحقول لجمع الأعشاب النافعة، حتى رفيقتها خولة صارت تحدثها بكثير من الرقة والعذوبة عندما تلتقيها مصادفة في أزقة القرية، لكن ذلك لم يمنع الشبان

المغامرين والشجعان من ملاحقتها، فقد ازدادت جمالًا وأنوثة في أعينهم، وعادوا يحومون حولها كالنحل ليمتصوا شيئًا من رحيقها الفواح.

كانت تجلس على صخرة بازلتية مغروزة في الأرض، لتستريح قليلًا، بعد أن ملأت حجرِها بأعشاب الزعتر، حين هبط عليها الأستاذ إلياس من المجهول، فنهضت واقفة وتساقطت غصينات الزعتر البري الأخضر الفواح من ثوبها على الأرض، وارتسمت على محياها ابتسامة عريضة، مصحوبة بلمسة من الدهشة وقالت: إلياس! ما الذي جاء بك؟

-- انتظرتك طويلًا ولم تأتِ كما وعدتني.

-- وعدتك؟ أنا لم أعدك..لا أذكر أني وعدتك.

-- ألا تذكرين آخر لقاء لنا حين كنت عائدًا من منزل الأستاذ بدر ليلًا؟

-- أذكر، وأذكر أني قلتُ لك سنلتقي.

-- ولم تأتي!

-- ها قد التقينا كما قلتُ. تعالَ لنجلس في "دروة" تلك الصخرة الكبيرة، ما رأيك؟ وأخذته من يده وسارت به وسط الأزهار الفواحة، ليجلسا خلف صخرة سوداء، تبدو كثور جاثم متخم غير قادر على الحراك من كثرة الطعام.

-- دعني أقبلكَ. قالت له أمينة، وقبلته في وجنتيه، ثم أطبقت رموشها الخنطاوية، وأخذت نفسًا عميقًا من الهواء المنعش وسألته: هل تحفظ غيبًا

بعضًا من سور قرآنكم؟ لقد اشتقتُ كثيرًا لسماعها..إنها ساحرة الجمال. سحر جمال الطبيعة ذكرني بها. لا أخفيك أني كنتُ أفكر بك حين هبطت من السماء.

- أمينة، كتابنا يدعى الكتاب المقدس ويحتوي على العهد القديم الذي هو التوراة والعهد الجديد الذي هو الإنجيل، فعن أيهما تسألين؟

- لا أعرف. أريد أن أسمع بعضًا مما كنت تقرؤه لي. أعجبني كثيرًا.

ابتسم إلياس، ونظر إلى الوادي العميق الممتد بعيدًا، وإلى الجبال والوديان العطرة وأغمض عينيه ليتذكر شيئًا من نشيد الإنشاد، فخانته ذاكرته وأسعفته كلمات أخرى فهمس لها:

ويمنحني ثغرها موعدًا.

وتوقّف إلياس قليلًا عن الإنشاد وقال شارحًا: ثغرها يعني فمها. فابتسمت أمينة وقالت له: لا تشرح لي.. إن أعجبني الكلام سأقول لك. وضحك إلياس طويلًا وقال: كم أنت جميلة يا أمينة! اسمعي:

ويمنحني ثغرها موعدًا

فيخضرُ في شفتيها الصّدى

وأمضي إليها..أنا شهقات القلوع تغزل لون المدى

وأين القرار؟ سبقتُ الزمانَ

سبقت المكانَ..سبقت غدًا

أخوضُ في الصبح..ملء طريقي

أريجٌ..وملء قميصي ندى

يدي في ذراعكِ ..أين الضياعُ

تخافينه؟ نحن نهدي الهدى

أحبكِ فوق التصور..فوق

المسافاتِ.. فوق حكايا العِدا

وشجعت نهديك..فاستكبرا

على الله حتى ..لم يسجدا.

وعاد ليلتفت إليها، فتدفقت نظرات الحب من عينيه، فتطايرت خصلة من شعرها الكستنائي ولامست شفتيها الورديتين المرتعشتين كأزهار البرية، فأزاحتها بيدها المصبّغة بلون الزعتر البري الأخضر، وأطبقت بهما على شفتيه ليغيبا بضع هنيهات في اللاوجود.

– أحبكِ. قال لها. وانسحبت بجسدها من بين ذراعيه وطافت بعينيها في أرجاء المسكونة وسألته: أهذا كلام الله؟

– لا. قال إلياس. هذا كلام شاعر دمشقي عاشق اسمه نزار قباني.

– فهمت. قالت أمينة ثم نظرت نحو مغرب الشمس التي راحت تلوح لهما من بعيد، وأضافت: حان وقت العودة، فالشمس ستغيب.

- لقد حضرت لك مفاجأة كبرى سأريك إياها عندما تأتين لزيارتي.

- مفاجأة، وما هي؟

- لن تعود مفاجأة إن ذكرتها لك. سترينها عندما تأتين إليّ. سأكون في انتظارك.

- سنرى. هيا بنا. لقد تأخرنا.

نهضا بتكاسل. وقفا للحظات يتأملان بعضهما البعض فبدا كملاكين عاشقين هبطا على الأرض ليعرفا معنى الحب. وتذكّرت أمينة ما جمعته من الزعتر البري، فهُرعت إلى الكومة وحملتها بطرف ثوبها وقالت له: كدت أنساها، سأعطيك ما تحتاجه.

- لا أحتاج لشيء سواكِ.

فابتسمت أمينة وقد غمرتها السعادة وقالت له: عندما تأذن لي الساحرات سأمضي إليك.

- أنتِ ساحرتي.

- أرجوك سر أمامي ولا تنظر إلى الخلف. سأتبع خُطاك.

- سأفعل. قال إلياس، ومضى نحو الشمس، حيث بدت له معالم القرية كسحابة مستكينة في رحاب الأفق الواسع والبديع.

افترقا قبل الولوج في أزقة القرية، وأسرع إلياس خطاه نحو صومعته، بينما اتخذت أمينة لنفسها طريقًا ملتويًا بين البيوت الطينية الدافئة،

نمرت، قُرب منزل الإمام، ورمت له من فوق الجدار، كومة من الزعتر لبري، بعد أن رصَّتها بيديها، لتغيب بعدها في عتمة الليل الذي أرخى سدوله على المنازل الحالمة بمواسم المطر.

كيف لي أن أعبد طفلًا مقمطًا؟

رشف الإمام قليلًا من مغلي الزعتر البري الطازج، مستمتعًا بطعمه رائحته الزكية، التي فاحت بقوة مع البخار المتصاعد من الكأس، إبريق التشينكو الأزرق، وقد غطاه بقطعة من القماش ليختمر المغلي يحافظ على حرارته.

شعر الإمام بغشاوة في عينيه أثناء قراءته، وألقى نظرة على "بللورة" لقنديل ولاحظ الشحار المتجمع في عنقها، ولامَ نفسه كثيرًا لأنه تكاسَلَ ي مسحها بخرقة القماش، قبل غروب الشمس كما يفعل عادة.

محني الرأس، متكومًا على نفسه، تابع الإمام رشف المغلي، وقد ظهرت على محياه ابتسامة تائهة، يمتد عمرها لأكثر من عشر سنين، حين لدَّمت له شيماء على ضفة بحر النيل، كأسًا من الشاي الأحمر وقطفت رقة من غصن النعناع، وغطسته بهدوء في الشاي الساخن. لم يكن لإمام قد تذوق من قبل الشاي بالنعناع، ورشف منه بحذر، فاستلذ طعمه ونظر في عينيها الواسعتين السوداوين، وابتسم لها مع انحناءة لفيفة من رأسه، تعبيرًا عن شكره العميق لها.

قبل رحلته إلى أم الدنيا لم يكن الإمام قد شاهد البحر على حقيقته، تى وطئت قدماه مرفأ طرابلس ليقله مركب قبرصي مهترئ إلى شاطئ

الإسكندرية. كان البحر أوسع مما تصور وأرهب مما تخيَّل، خاصة في الليل حين يعانق الماءُ السماءَ في الأفق البعيد، لتبدو النجوم المتلألئة قريبة تكاد تطالها بيديك.

بقي الإمام في الإسكندرية سبعة أيام بلياليها، سمع خلالها أن المدينة مسماة باسم الملك الصالح الذي ورد ذكره في القرآن الكريم باسم ذي القرنين في سورة الكهف، وقد قصَّ علينا الرحمن أن ذي القرنين وصل إلى مغرب الشمس ومطلعها. وحاول الإمام أن يحفظ اسمه الكساندريوس فلم يفلح قط، وحفظ اسمه بصيغته العربية الإسكندر المقدوني، كما سمع عن تأسيسه لأهم مكتبة عمومية وأضخمها عرفها التاريخ القديم، احتوت على أمهات المخطوطات الإغريقية والفرعونية القديمة، حيث قام ديمتريوس الفاليري قبل ميلاد السيد المسيح بتكليف من البطالمة، بجمع مخطوطات العلوم والمعارف اليونانية ونقلها إلى المكتبة العظمى في الإسكندرية، لتتلاقح مع مخطوطات المعابد الفرعونية، التي كانت محصورة بأيدي رهبان معابد مصر القديمة. كما سمع الإمام عن الحريق المؤلم الذي أصاب المكتبة على يد رهبان الكنيسة القبطية المتشددين أيام البطرك كيرلس، الذي ينفيه الأقباط جملة وتفصيلًا.

من محطة سيدي جابر الأنصاري، انطلق القطار بالإمام على سكة الحديد التي تربط الإسكندرية بمصر..القاهرة، المدينة الوحيدة في العالم العربي الذي لا يشعر فيها العرب بالغربة، سواء أكانوا قادمين من تونس أم من العراق، من بلاد الشام أم من اليمن، فإلى شطرها يتقاطر الناس بمختلف ميولهم وأمانيهم وأحلامهم، سواء أكانوا طلابًا للعلم، أم للفنون.

وفي الأزهر الشريف، تختلط العلوم كما يختلط البشر، بثقافاتهم وألوانهم ومعتقداتهم الخاصة وتفاسيرهم المتنوعة وآرائهم الغريبة، فشيخ الأزهر كسلفه من تلاميذ الشيخ الكبير محمد عبده الذي تتلمذ على يده كبار الشعراء والأدباء والسياسيين والشيوخ المصريين والعرب، بدءاً من كبير الشعراء حافظ إبراهيم إلى زعيم الوطنيين السياسيين المصريين سعد زغلول إلى عميد الأدب العربي طه حسين إلى عز الدين القسام بن جبلة قائد ثورة الشعب الفلسطيني.

لم تبخل مصر يومًا على روداها بالعطاء، فقد تعلّم فيها وأخذ منها كل الأنبياء، فعمل بعضهم على إعادة صياغة ما قد رأوه ولامسوه بأسلوب جديد ومُبتكَر، ورجعوا ليقتحموها بإرادة من السماء، مع أن موسى عليه السلام أوصى قومه ألا يعودوا إلى مصر قائلًا: "لا يحل لك أن تجعل عليك رجلًا أجنبيًّا ليس هو أخاك، ولكن لا يكثر الخيل، ولا يردُّ الشعبَ إلى مصر لكي يكثر الخيل والرب قد قال لكم: لا تعودوا ترجعون في هذه الطريق أيضًا" (سفر التثنية، الإصحاح 17) ولكن كيف لهم أن يعيشوا دون يجيبت، كيمت، الأرض السوداء، فهناك الخير والعطاء، وهناك الزرع والغناء. فمصر لم تكن سوى فردوسٍ يحيط بها الماء من كل الجهات، فمن الغرب يم النيل العظيم تليه الصحراء القفراء، ومن الشرق البحر الأحمر ومن الشمال الأبيض وإلى الجنوب يمتدُّ النيل إلى اللانهاية، إلى السماء، تلك كانت مصر القديمة .. الفردوس المفقود.

لم يُكرِه المصريون أحدًا على إعتناق معتقداتهم، ولم يعملوا مطلقًا على نشرها، لأن ديانتهم لم تكن يومًا ديانة تبشيرية. لم يكن كهنة المعابد بحاجة لإقناع الناس بما يعبدون، فحياتهم كحياة بقية الأنفس مرتبطة

بالنيل وخيراته، ومعابدهم منتشرة على ضفافه، والشمس تشرق على الجميع في كل يوم لينعموا بدفئها وعطائها، فكل شيء واضح وجلي للعيان، فكيف لهم أن يبشروا بالشمس، ونجم الشمس واضح جلي للعيان، لا يحتاج إلى دليل أو برهان، بل إنهم من نوره كانوا يستوضحون معالم الكون كله، ويعملون على كشف منظومته السحرية. فالتبشير من البشارة، والبشارة لا تتم إلا شريطة أن تكون مخفية، محتجبة وغير معلومة.

لقد كرَّس رهبان المعابد أوقاتهم لدراسة ظواهر الطبيعة ومعطياتها الأرضية والسماوية المرئية بالعين المجردة، ولم تكن عملية اكتشاف قوانين سيرها وتنظيمها إلا بالصبر والمثابرة على المعرفة، من خلال المراقبة اليومية، وتدوين المتغيرات والتقلبات، التي تطرأ عليها، فاكتشفوا أبراج السماء، وحركة الشمس والأرض والقمر، وأحصوا أيام السنة وفق النظام الشمسي، باعتبار الشمس أقوى النجوم، وأشدها تأثيرًا في الكون كله.

حدَّد المصريون القدماء أطول نهار، وأقصر نهار في السنة. وقسَّموا السنة إلى اثني عشر شهرًا سموها بأسماء آلهتهم، توت، بابة، هاتور، كيهك، طوبا، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، أبيب، مسرا. وقسَّموا الشهر لثلاثين يومًا، ثم لاحظوا أن هناك نقصًا مدته خمسة أيام لتكتمل السنة، فأضافوا شهرًا جديدًا سموه أيدكوجي، أي الشهر القصير. كما عرفوا قبل الميلاد بأكثر من ثلاثمائة عام "السنة الكبيسة" التي تمر كل

أربع سنوات. وقام علماء الفلك المصريين بتحديد رأس السنة بأول أيام شهر توت أو تحوت، الذي يوافق الحادي عشر من سبتمبر .. أيلول، وفي هذا سِرٌّ من أسرار علم الفلك المصري، الذي أسَّسه توت الكبير بنفسه.

إلى الغرب من النيل كانت تمتد رمال الصحراء بعيدًا جدًّا، والصحراء موت، فعرفوا أن لا حياة دون الماء، فالماء مصدر الحياة وسرها الكبير. كما رأوا بأم أعينهم، كيف تحلق الطيور في السماء وتعود لتحط على اليابسة أو على أغصان الأشجار، وسمعوا أناشيد الجعلان في فصل الربيع، وشاهدوا الأفاعي السامة القوية الزاحفة على بطونها، كيف تأكل جرذان الحقل، وتقضي على القوارض، التي تلتهم جذور النباتات، فتقتلها فتوسموا فيها خيرًا واتخذوا منها رمزًا يكلل تيجان الملوك. وحده ثعبان النيل الهائل، المرعب "أبو فيس" (إبليس) كان يباغتهم بحركته داخل الماء، فيقلب المراكب ويلتهم الصيادين، أو كان يباغت طفلًا يشرب الماء فينقض عليه ويبتلعه في لحظات، ليختفي في ظلمات الماء النيلي. فكرهوه واعتبروه شرًّا مطلقًا. فهو قاتل، غدار، ولا يمكن رؤيته، إذ كان يخرج من لجة الماء كأفعوان ليملأ الشاطئ بالرعب والموت..لم تكن تماسيح النيل تضاهيه في غدره وضراوته.

لكن سعادة الأيام وبساطتها لا تدوم. فجأة تحول ملوك يجيبت إلى فراعين، وتحول الفراعين أرباب النيل، إلى مجرد أنبياء، للإله الواحد، القابع في السماء السابعة، فصار بتاح أبرام، وصار إيحتب موسى، وانقلب تحوث إلى نوح. وإخناتون الإله الحي إلى يوسف.

منذ ذاك اليوم الذي هجرت فيه آلهة اليم الكبير الأرض واحتجبت عن الرؤية فيما وراء الغيب، فقد الإنسان المصري خاصية المراقبة اليومية للظواهر الكونية، وفقد النيل قدسيته، فآلهة النيل، لم تعد مرئية كما كانت. لقد أقلعت عن عملها اليومي الذي واظبت عليه آلاف السنين، وأصابها الخمول الجسدي والعقلي. كانت تشير للفلاح متى يزرع حقله؟ ومتى يأتي الفيضان؟ ومتى يأتي الربيع؟ متى تنتقل الشمس من شرق النيل إلى غربه؟ بغيابها أهمل الفلاح حقله، ولم يعد يهتم بالشجر أو بالقمر، بالبحر الأجاج واليم العذب، لم يعد يراقب الطيور كيف تطير بجناحيها، وكيف تتنفس الأسماك داخل الماء، فهذا كله مجرد تفاهة أمام قدرة الواحد الأحد وعظمته، الغائب خلف سبع سماوات. لقد عدُّوا ذلك كغضب إلهي كوني لذنوب لا تحصى اقترفوها، فتوجهوا إلى السماء، يدعون الإله الغائب المحتجب، وراء نور الشمس، أن يعود إليهم، ليرأف بهم، أن يعفو عنهم وعن آثامهم التي ارتكبوها بحق آلهة الصحراء.

إلهي ما أعظم شأنك - قال الإمام - ونهض وسجد مرتين لرب الكون الذي لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهو العلي القدير.

- كيف للفرعون أن يكون فرعونًا عليه؟ - تساءل المربي والمعلم بصوت عالٍ أمام تلميذه أمنحوتب الرابع، بعد أن قلّده والده لقب الفرعون - الفرعون، سيد البيت الكبير، سيد الدنيا، إله، والإله واحد أحد، لا شريك له في الحكم، فإما أن تكون فرعونًا إلهًا، واحدًا أحدًا،

فردًا مستأثرًا، وإما أن تكون عبدًا خنوعًا ذليلًا. الإله ليس له إله، ليس له أب يخضع له، ويستمع إلى كلماته، لأن الإله فوق الجميع. لا يولد من أحد، فقام أمنحوتب بطعن أبيه في قلبه، وجلس على العرش معلنًا نفسه الفرعون - الإله الأوحد. فقال له المعلم: كيف لك أن تكون إلها يا أمنحوتب، وأمك "تي" تقول بأنها ولدتك، أنظر إليها، إنها ترفل بثيابها الشفافة لتغوي قادة الحرس بجسدها المشتعل لتلد آلهة مثلك. فنكح أمنحوتب أمه الملكة تي وأخضعها لسلطانه وقال لها: أنت لم تلديني، فأنا من أهبك الحياة، وأنا من يأخذ روحك حين أشاء، فأنت لي، مُلكي، ككل الأشياء، أنا لا أريد قتلك لأنك جميلة وجسدك بض وساقاك قويتان. فقال المربي الحكيم: ها قد فعلت ما عليك فعله يا أمنحوتب، ولكن بقي شخص يقول إنه شقيقك، شريكك، أخوك من دمك ولحمك، فأتى أمنحوتب بأخيه سمنكارع وقال له: حبيبتي أنت، يا نور عيني، ولواه واضطجع فوقه ثم أمره بأن يكحل عينيه كالنساء ليتخذه خليلًا له.

-- هأنت قد أصبحت واحدًا أحدًا لا شريك لك في الحكم، وأنت الآن تهب الحياة لمن تشاء في أرحام النساء، وتأخذها ممن تشاء، فأنت الإله القادر على كل شيء، أنت الإله الحي الذي لم تلده أنثى ولا ذكر، وليس لك نظير في هذه الدنيا قاطبة، ليس لك أخ يضاهيك في روعتك وقدراتك، وليس لك أب ولا أم ولا أخ، فعليك بشقيقتك "كيا" لأنها تبحث عمن يطفئ لهيب نارها، فجاء بها أمنحوتب الرابع وامتطاها كأنثى من دون حب أو شفقة، لأنها لم تكن جميلة، لم تكن بضة اللحم كما يشتهي.

بعد أن استفرد أمنحوتب الرابع بالسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية كافة، بعد أن قتل أباه ونكح أمه، وشقيقه وشقيقته، وأخضعهم جميعًا لإرادته العليا، كان المعلم الحكيم يحضر له المفاجأة الكبرى، وطلب منه أن يتزين ويجلس على العرش ليستقبل هديته التي تليق به كونه إلهًا.

اصطف الحراس على الجانبين، وجهزت الفرقة الموسيقية أدواتها من مزامير ودفوف ووتريات، ثم أعلن المربي المخلص بصوت عالٍ: نفرتيتي أي ما معناه "جاءت الحلوة"،(الحلوة جت)، ودخلت الحسناء الجميلة تادوشيبو بقامتها الممشوقة، بثيابها الشفافة التي تكشف عن جسدها الرخامي الناصع البياض، بأنفها الميتاني الدقيق، بعينيها الملونتين الواسعتين الساحرتين، بساقيها العاجيتين، فخطفت أبصار الحاضرين واستأثرت بلبِّ أمنحوتب، الذي فزَّ من مكانه ليأخذ بيدها ويجلسها على كرسي العرش إلى جانبه.

شعرت الأم العشيقة المعشوقة من الإله، بأن أرض مصر قد مادت تحت قدميها، واهتز عرشها كما تهتز المراكب في بحر النيل عند هبوب العواصف.

أنا أم الفرعون الإله وزوجته والجميع يعرف ذلك – قالت تي في سرها – فكيف لهذه الغريبة صاحبة اللسان المعوج أن تجلس مكاني؟ الكرسي كرسيِّ، واليم العذب يمي، والأرض أرضي والإله ابني وبعلي! الأيام بيننا يا تادوشيبو.

لكن عينا الحكيم الحارس اليقظ، كانتت تراقبان حركة أنفاسها وتحصي ضربات قلبها، فشدد عليها الحراسة ومنعها الخروج من القصر الملكي، إلا بإذن مسبق من الرب الإله، بحجة حمايتها من حسد العيون، وعبث العابثين الذين يترصدونها في كل زاوية من طيبة العظيمة.

- ها قد خضع لك البشر والحجر يا أمنحوتب - قال المعلم - لكن رهبان المعابد ما زالوا يقيمون الصلاة لأمون، إنهم يرتلون اسمه صباح مساء، فكيف يستقيم الأمر وإليك ترجع الأمور؟ فدور العبادة هي للرب وحده، والإله واحد؟ لتُمْحَ الأسماء من الجدران، ليمجد الكهنة اسمك وحدك، فأنت الإله لا شريك لك. وانطلق الحراس يفتكون بالمصلين في المعابد، ويحرقون المخطوطات ويدمرون الأصنام، وعم الصراخ والعويل، وكانت مذبحة لم تشهد لها مصر من قبل مثيلًا. عندئذ قال تويا المعلم: يا أمنحوتب، أيها الإله المتسامي، أنت الحي الوهاب، وأنت على كل شيء قدير، مكانك ليس في الأرض..أنت في السماء، لأن الإله نور السماوات والأرض، يهب الحياة لمن يشاء، ويرفعها عمن يشاء، بيدك الملك، فأنت الواحد الأحد لا شريك لك، لم تلدك أمك ولم تلد أنت، فأنت النور والضياء الكلي الأزلي، أنت الحي القيوم الذي لا يموت، وأنت الخالق الرازق وإليك تُرجع الأمور، وأنت القادر على كل شيء فما عليك إلا أن تقول: "كن" وما علينا نحن البشر الفانون إلا ننفذ "فيكون". وسقط المعلم ميتًا بعد أن أتمَّ رسالته.

بكى أمنحوتب الرابع معلمه طويلًا، كما شاركته نفرتيتي الحزن عليه ورثته بأجمل الكلمات وأعذبها وأرقها وأبلغها.

فارق المعلمُ الحكيمُ الحياةَ، وبقيت كلماته منقوشة في ذهن الفرعون الشاب.

أنا - قال الملك في نفسه - حيٌّ لا أموت، ومكاني ليس على الأرض، وأنا أهب الحياة لمن أشاء وآخذها ممن أشاء، وأنا الرازق والوهاب، وأنا الخالق، وأنا نور السماوات والأرض، فكيف لي أن أُجسِّد ذلك كله؟

ككل المصريين القدماء، لم يكن ذهن أمنحوتب قادرًا على رسم تصور لفكرة الإله المجرد، المستتر، الإله المحتجب فوق الزمان والمكان، فكيف له أن يرسم صورة لإله فوق التصور وفوق الخيال؟ لم يكن عقله المتعب، المشوش بكلمات معلمه يسعفه في إيجاد وسيلة للتعبير عن كل ذلك دفعة واحدة. فكيف له أن يجعل من اللاموجود موجودًا. سأمحو هذه المدينة اللعينة عن الوجود، قال الإله في نفسه، لأبعث فيها الحياة من جديد، سأنكح آلاف النساء ليلدن جيلًا جديدًا يمجد اسمي، وسأقتل كل البشر حين يكبر أولاد الإله.

لكن كيف لي أن أكون في السماء وأنا أسير على الأرض؟ كيف لي أن أصبح طيرًا يُحلّق في الفضاء حين يشاء، ويحطُّ عليها حين يشاء؟ نعم فأنا أستطيع أن أهب الحياة لمن أشاء، فأضاجع كل نساء القصر الملكي، وأستطيع أخذ الحياة ممن أشاء فأقتله، لكن كيف لي أن أكون في السماء؟ كيف لي أن أكون خالقًا؟ هناك فرق كبير بين أن أضخَّ ماء الحياة في حوض أي امرأة، وبين أن أكون خالقًا.. الحياة تخرج من رحم النساء ولا

تخرج مني. فالخلق محصور بالأنثى، سواء أكانت بشرًا أم حَيوانًا أم طيرًا. لقد أتعبتني يا معلمي. أرهقتني ورحلت قبل أن توضح لي السِّرَّ العظيم.

واعتزل أمنحوتب الحياة اليومية، اختلى بنفسه داخل قصره الملكي، اعتكف يفكر في وضع حلول للمسائل الفكرية الكبرى. اعتذر عن استقبال وفود الممالك القادمة إليه من جنوب البلاد ومن الشرق، كما اعتذر عن استقبال الوفد الملكي القادم إليه من حوض الفرات، طالبًا المساعدة العاجلة، فالشماليون يتقدمون ويقضمون الأرض قطعة إثر أخرى، كما منع الناس، كل الناس من اقتحام خلوته، كيلا يعكروا صفاء ذهنه، وحدها نفرتيتي كان مسموحًا لها باقتحام عزلته والجلوس إليه. كانت تركن إليه صامتة تنتظر منه إشارة، وكان يتأملها طويلًا ثم يشير لها بأن تتركه وشأنه إلى أن قالت له يومًا: يا حبيبي، يا نور الكون وضياءه، أنت تذبل كغصن شجرة، وبدأ الجفاف يطال جذعك، أصبحت كتلة من العظام مكسوة بالجلد دون لحم، وعليك أن تعتني بصحتك قبل أن تفكر بخلقك العظيم.

– لا أستطيع يا عزيزتي، الجوع يساعدني على التفكير العميق.

– هل لي أن أشاركك همومك وغمومك، فأنا الوحيدة من بين كل نساء القصر تؤمن بك إلها خالقًا، رازقًا، واهبًا، فأنت نور عيني.

– أنا نور السماوات والأرض. أجاب غاضبًا.

– هذا ما أردت قوله، فأنت الشمس المنيرة الساطعة بضيائها على الكون كله، الشمس المعطاءة التي تمتدُّ أيديها لكل البشر والحيوانات والنبات لتهبها الحياة. أنت روح الشمس الحي الذي لا يموت، فمن

ضيائك نستمد حياتنا، وغيابك في الليل ما هو إلا تذكير للناس لعظمتك وقوتك، في الليل سيجلسون في الظلماء يذكرون اسمك، ويمجدونه؛ لتشرق عليهم في الصباح، فيسجدون لك، ويذكرون اسمك بكرةً وأصيلًا. أنت لست أمنحوتب ..أنت..

– أنا إخناتون..أنا إخناتون الروح الحي للشمس..أنا إخناتون، وتمتدُّ أشعة ضيائي لتقدم الثمرات للناس المؤمنين بي. لقد حللت المعضلة الكبرى، أنا إخناتون روح الشمس الحي، والشمس في السماء، ليس له مثيل. من يضاهي الشمس بنوره؟ لا أحد..فالقمر باهت بنوره، والنجوم مجرد مشاعل صغيرة أمام نجم الشمس الساطع المبهر للأبصار. أنا نور السماوات والأرض، فمن ينافسني بنوره؟ لا أحد، سأمحو عن الوجود أسماء كل الآلهة، كما يمحو نجم الشمس كل النجوم والكواكب بضيائه، فأنا واحد لا شريك لي، سأغرق جيب رب الأرض في بحر النيل، سأخنق شو رب الهواء بيدي، سأخصي رب الخصوبة مين، لن أدع ربًّا في الكون يشاركني عرشي، فأنا واحد أحد، لا شريك لي، فهل من شريك للشمس؟ النجوم كثيرة والأقمار لا تعدُّ ولا تُحصى .. ونجم الشمس واحد، وأنا روح الشمس الحي الذي لا يموت.أنا إخناتون وإيايَّ فاعبدون.

– أيها الإله المتعب من هؤلاء البشر الفانين. بدلًا من أن تضيع وقتك، وتنهك جسدك، ويخفق قلبك، ويموج ذهنك فلا تعرف هناءة النوم، ولا تعرف راحة البال، بمحو أسماء الأرباب، في هذه المدينة اللعينة،

كما سمعتك تنعتها من قبل، لماذا لا تبني مدينة جديدة، ومعابد جديدة ينتشر فيها ضياؤك عبر النوافذ والأبواب، لتكن معابدك مُشْرَعة الأبواب والنوافذ ليتسرب نورك من خلالها، ويضيء وجوه الكهنة المكفهرة. لتبنِ معابد يرى فيها الناس السماء، حيث أنت، بدلًا من هذه المعابد الكئيبة المظلمة، ليقدس الناس اسمك، ويمجدوك صباح مساء. ولتعلمْ أني سأكون إلى جانبك في السراء والضراء. اعلمْ أن نفرتيتي قد أعطت كلمتها النابعة من قلبها، ولن تحيد عنها، فأنا أحبك، وأؤمن بك، حبيبًا، زوجًا، كريمًا معطاءً إلهًا للكون كله، فأنت إخناتون ربي ورب هذا الكون.

في الصباح، استدعى إخناتون المعماريين والرسامين، وبعض الكهنة، وأصدر أوامره الإلهية ببناء مدينة جديدة باسمه، كما أمر ببناء معابد مشرعة لنور الشمس، وأوصاهم أن يرسموا قرص الشمس وأشعته تمتدُّ إلى الكون كله، وفي نهاية كل شعاع، يد معطاءة تقدم الخير والثمرات للمؤمنين الصالحين الطيبين.

انتقل إخناتون إلى مدينته الجديدة، إلى معبده البديع، وشاهَدَ نفسه منقوشًا على الجدران بأيديه المتعددة. وفتن بذلك. بيد أن مسألة واحدة ظلت تؤرقه ولا تدعه يعرف النوم. كيف له أن يكون خالقًا؟ والأنثى وحدها قادرة على الخلق! المخلوقات تخرج من أحشاء الإناث لا غير. فعيناه لم تريا قط أن ولد كبشٌ حملًا، لم تريا ثور يلد عجلًا، لم تريا ديكًا يبيض، ولم تريا أسدًا يلد شبلًا، بل رأى النعجة، والبقرة، والدجاجة، واللبؤة يلدن ويهبن الحياة للمخلوقات. فالإناث وحدهنَّ قادرات على

الخلق. لكنه، كان يعلم أن هذه الإناث لا تلد من دون أن تلقح من قبل الذكور؟ فالكبش يلقح النعجة، والثور يلقح البقرة والديك يلقح الدجاجة..إنهما اثنان .. ذكر وأنثى، فكيف له أن يصبح خالقًا وحيدًا أحدًا؟ لا بد من توحيد الذكر بالأنثى. ليصبحا جسدا حيًّا، واحدًا، قادرًا على الإنجاب، أي الخلق الحقيقي.

نعم سأفعل – قال إخناتون – فمن يعرف إن كانت الشمس ذكرًا أم أنثى. الشمس ذكر وأنثى معًا. وأنا ذكر وأنثى. أنا الخالق الرازق. واستدعى النحاتين والرسامين ورهبان المعابد وأمرَهم بتشخيصه، واحدًا أحدًا، موحدًا للذكر و الأنثى معًا، في هيئة واحدة فريدة، لا مثيل لها بين المخلوقات. خنثى.

راقت الفكرة كثيرًا للفنانين العباقرة من نحاتين ومثّالين ورسامين، كما أثارت فضول الشعراء والرهبان، فقام الفنانون برسم جسده بملامح تُوحِّد ما بين الذكر والأنثى، وهذا ما فعلوه بنفرتيتي حبيبة قلبه وملهمته، فرسموهما قريبًا من أشعة الشمس بأيديهما المعطاءة، وأجسادهما المخنثة فبدى إخناتون موحدًا قادرًا، على الخلق بعد أن وحد في ذاته الإلهية، الذكر والأنثى.

الله أكبر، الله أكبر، سمع الإمام صوت المؤذن عثمان وقد أعلن عن موعد صلاة الفجر.

رحَّبت المعابد المطرية المنتشرة في حوض العاصي بفكرة الإله السماوي الواحد الأحد الذي لا شريك له، والمتجسد في روح الشمس

الساطعة، وتفنن الكهنة الشعراء في كتابة الترانيم الممجدة للإله الواحد القهار، لكنهم صُدموا حين شاهدوا صوره المتجسدة بشكله الموحد للذكر والأنثى. أصابتهم القشعريرة، ورفضوا رفضًا قاطعًا السجود لهذا المخنث، لهذا الكائن الغريب الشكل والمقزز، فأعلنوا الانفصال عن وادي النيل، ومزقوا كل الأشعار والترانيم وأعلنوا حربهم، على هذه البدعة التي تجعل منهم مجرد وعاء للخلق.

أُصيبَ إخناتون بخيبة الأمل، فأقاليم الشمال في وادي العاصي وحوض الفرات رفضوه واحتقروه، وكهنة معابد آمون في طيبة تمقته وتحيك الدسائس ضده، حتى أمه كيا، لم تلحق به إلى مدينته الجديدة وفضلت الإقامة وطيب العيش في طيبة إلى جانب كهنة آمون، أعدائه اللدودين. وحدها نفرتيتي رافقته كظله، وعيناها الملونتان بلون السماء، تحيطان بنجم الشمس وتقفان بالمرصاد لكل الحركات المناوئة، لتأمر بقمعها دون رحمة أو شفقة.

بيد أن نفرتيتي مع كل ما وهبها إخناتون من سلطات لم تكن قادرة على أن تهبه ولدًا، صبيًّا، ذكرًا، ليرث عرشه، ليكون خليفة له. كانت تلد له الإناث واحدة تلو الأخرى، وهذا ما أدخل القنوط إلى قلبه، وغابت البسمة عن شفتيه الكبيرتين، فحل الياس والإحباط في نور الشمس فاعتزل الحياة مرة، ليغيب في عالم من الهلوسة.

كانت كيا شقيقته الكبرى وزوجته قد ولدت له ابنًا ذكرًا، أسمر، بل شديد السمرة ففرح به، على الرغم من أنه لم يكن صحيح البنية كأبيه،

كان معتلًا، أعرج ضعيفًا، لكنه ذكر في نهاية المطاف، والشعب لن يراه إلا جالسًا فوق كرسي العرش، والقناع الذهبي على وجهه، وسيتقبله حاكمًا وإلهًا أبديًا لمصر.

شعرت تادوشيبو بالخطر يداهمها من كل صوب، يهز عرشها الملكي، وأُصيبت بالهلع الشديد حين سمعت إخناتون يقول لها: إنه يفكر بالارتداد عن معتقداته، فغيبته عن الوجود، وجلست منفردة على عرش مصر. لكن ذلك لم يدم طويلًا، فقد ثارت طيبة، وأعلنت الاعتصام، واستردت مكانتها حين وقف الشعب إلى جانبها، وأعلن توت إخناتون نفسه ملكًا جديدًا، وكان أول ما قام به، أن استبدل اسمه وصار توت عنخ آمون، معيدًا بذلك عبادة آمون، الذي لم يَعْتَدْ يومًا على بقية الأرباب، بل كان يتحِد معها، يتزاوج منها، ويحرص على توحيدها، فالتوحيدُ بالنسبة له، لم يكن إلغاء وجود الطرف الاخر، كما فعل إخناتون، بل كان يعني التوحيدَ ما بين اثنين، وعادت الريشتان العريضتان اللتان تمثلان الوجه البحري والوجه الجنوبي لمصر، كما تمثلان الذكر و الأنثى تزين تاجه الملكي.

لكن المفاجأة حدثت حين قام عبدة إخناتون بتدبير مؤامرة، اغتالوا فيها توت عنخ آمون لاستعادة ربهم الواحد الأحد، فتصدى لهم خلفه سنكارع، وقام بالتنكيل بهم ليمحو أثرهم من الوجود، فدمر مدينة إخناتون وأحرق معابدها وأمر بإزالتها عن سطح اليابسة.

"وأنّ إلى ربك المنتهى، وأنه، هو أضحكَ وأبكى، وأنه، هو أمات وأحيا، وأنه، خلق الزوجين الذكر والأنثى" (النجم). صدق الله العظيم.
قال الإمام، وخرج من غرفته ليضع العلف للحصانين الأحمر والأزرق. في الوقت الذي فتحت فيه كوثر باب الدار على مصراعيه لتخرج منه عشرات الفراخ الصغار من ديوك الحبش خلف أمهاتن إلى البرية.

***

لايكا.. التحولات الكبرى.

أعلن الملك فيصل الثاني ملك العراق عن خطوبته على الأميرة الساحرة الجمال فاضلة محمد علي وقاما برحلة سياحية على شواطئ البوسفور لينعما بحبهما الذي كبر وترعرع خلال السنوات الثلاث الماضية، فقررا الارتباط لتشكيل أسرة ملكية تنعم بثروات بلاد الرافدين. وأعلن الاتحاد السوفييتي عن إطلاقه لأول "كبسولة" فضائية اخترقت الغلاف الجوي للأرض تحت مسمى "سبوتنيك" والتي تعني المرافق، لتسبح في الفضاء الرحب بين شد وجذب. وقف العالم مشدوهًا أمام هذا الإنجاز العلمي الكبير، الذي أحدث ضجة لا مثيل لها في وسائل الإعلام العالمية. كان اختراق الغلاف الجوي للكرة الأرضية، يعدُّ إعلانًا صريحًا لبداية التحولات الكبرى في العالم أجمع. تراصف المؤمنون، مسيحيون ومسلمون ضد هذا المنجز العلمي للملحدين، واعتبروه تحديًا لقدرة الخالق عز وجل، منهم من شكك بصحة الأنباء، ومنهم من نفى نفيًا قاطعًا إمكانية حدوث ذلك الأمر، في الوقت الذي كانوا يطالبون الناس بالإيمان بإسراء سيد الأنام محمد بن عبد الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في القدس، ومعراجه من قبة الصخرة إلى السماء السابعة، ليلتقي برب العباد، وبقيام السيد المسيح عليه السلام من

الموت، الذي شهدته مريم المجدلية بأم أعينها، تلك المرأة التي أخرج منها السيد المسيح ذات يوم سبعة شياطين، فأخبرت المريمتين الأخريين بالمعجزة ليشهدن صعوده إلى السماء، في حين نظرت الإدارة الأمريكية إلى ما حدث فجأة كتحدٍّ كبير، وخطر شديد، على سلامة أمنها القومي، فالخطر بات يهددها من أعالي السماء، كالشهب والنيازك التي لا يستطيع أحد صدها أو فعل أي شيء تجاهها، سوى الاختباء في قاع الأرض. وهذا ما دفع ياسر الأمي للتباهي برفاقه السوفييت بين الحاضرين الذين لاذوا بالصمت، لأن العالم المتحضر بأجمعه يقر بالمنجز العلمي السوفييتي.. ويخافه. هذا المنجز الذي تحول إلى بروبوجاندا للنظرية الماركسية - اللينينية على ألسنة دعاتها، الذين لا يقلون شعوذة عن المشعوذين.

- لن يسمح الله بحدوث ذلك مرة أخرى - قال رياض بتحدٍّ كبير
- فليجربوا، وعندئذ سيعلمون قدرة الله تعالى، لأن الله يقول في كتابه الحكيم: "وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبا، وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا"، صدق الله العظيم. فرد ياسر مستهزئًا، وهل تظنُّ أن الروس ذهبوا ليتجسسوا على الله، صدقني هذا ليس همهم الآن، همهم أمريكا ولا غير. وعلق الحاج خضر قائلًا: العلم لا يعرف حدودًا. وأطلق السوفييت بعد شهر "مركبة" الفضاء الأولى، التي كانت تحمل على متنها أول رائدة فضاء، الكلبة "لايكا"، وخرجت جمعيات الرفق بالحيوان بأكبر مظاهرات

في باريس ولندن ضد هذا الدب الروسي الذي لا يعرف الرأفة أو الرحمة، وينحصر همه في تحقيق التفوق العسكري على الغرب الذي كان ينعم برفاهية خطة مارشال، التي أطلقها الأمريكان، بعد الحرب العالمية الثانية.

في زحمة هذا الصراع المعلن بين العملاقين الجديدين، جاء التحرك العربي "قويًّا"، فاجتمع مجلسا النواب في سوريا ومصر، وناشدا قيادة البلدين، بالعمل على توحيدهما لمواجهة المخططات الاستعمارية، التي تترصد بهما. "سرًّا". وبمباركة من الرئيس شكري القوتلي، أقلعت طائرة من سوريا إلى مصر، تحمل مجموعة من ضباط الجيش السوري، كان من أبرزهم عبد الغني قنوت وعفيف البزري ومصطفى حمدون وأمين الحافظ لطمأنة عبد الناصر من وقوف الجيش السوري إلى جانب الوحدة، وأعربوا له باسم القوات المسلحة عن تأييدهم التام لقيامها بين مصر وسوريا، فسألهم عبد الناصر: وكيف تريدونها؟ هل تريدون وحدة بنظام فيدرالي أم بنظام كونفديرالي؟

تبادَلَ الضباط النظرات فيما بينهم، فلم يكن هذا السؤال قد خطر في ذهنهم من قبل، وتنطّع المقدم أمين الحافظ المعروف بشعبويته للرد على سؤال الزعيم الكبير، بلهجته الحلبية فقال: "خيو، نحن بدنا وحدة خوش بوش، وأنت الرئيس. أنت بتفصل ونحن منلبس.انتهى."

ضحك عبد الحكيم عامر، واطمأن قلب عبد الناصر، ووصل وزير الخارجية السوري صلاح البيطار ووقّع بالأحرف الأولى على اتفاق الوحدة بين الإقليمين.

لم يتأخر الرد الأمريكي كثيرًا على الاتحاد السوفييتي، فأعلنت الولايات المتحدة عن إطلاقها لأول قمر صناعي أمريكي يجوب الفضاء تحت مسمى إكسبلورر، أي المستكشف، معلنة بذلك عن افتتاح عصر جديد من الصراع الفضائي بين قطبين قويين، كما أجاز أيزنهاور للجيش الأمريكي الحق في التدخل، في أي دولة من دول العالم، لوقف المد الشيوعي، خاصة وأن فيديل كاسترو بدأ بشن أولى عملياته العسكرية في كوبا.

شعر الهاشميون في العراق وسوريا، بخطر القوميين العرب، بقيادة الزعيم عبد الناصر، التي كانت تسانده إذاعة "صوت العرب من القاهرة" كأقوى وسيلة إعلام عربية، فأعلنوا عن قيام الاتحاد الهاشمي بين المملكتين العراقية والأردنية بقيادة ملك العراق فيصل الثاني، على أن تتنقل عاصمة المملكة بين بغداد و عمان كل ستة أشهر، و شكّل نوري السعيد حكومته العتيدة، فسارع عبد الناصر وشكري القوتلي لتوقيع اتفاق الوحدة الاندماجية بين البلدين، سوريا ومصر، وتم تسليم مفاتيح بلاد الشام للقائد الزعيم عبد الناصر، الذي تكرم ومنح الرئيس السوري شكري القوتلي لقب المواطن الأول، لأنه لم يمنح أم خالد لقب السيدة الأولى. وافقت الأحزاب السياسية جميعها على حَلِّ نفسها بنفسها، ووقّع ميشيل عفلق زعيم حزب البعث على حَلِّ الحزب، فيما رفض الحزب الشيوعي السوري حل نفسه بنفسه، وقال على لسان زعيمه خالد بكداش: ليس في الحزب هيئة، أو سلطة، لها صلاحية حله، وفَرَّ إلى موسكو، وأناط بمسؤولية قيادة الحزب للبناني فرج الله الحلو.

في الغرب، كان الصراع واضحًا وجليًا، بين الرؤية الأمريكية الجديدة للعالم المعاصر، والرؤية البريطانية التقليدية، وكان الإخوان المسلمون في سوريا أكثر الناس ترحيبًا بالوحدة بين مصر وسوريا بعد القوميين العرب، لكون عبد الناصر جاء أولًا وأخيرًا من بين صفوف إخوان مصر، وسيمنع سقوط سوريا بيد الشيوعيين، أما القوميون السوريون فلاذوا بالصمت واقتصر نشاطهم على الأرض اللبنانية. في واقع الحال كان البعثيون قد انقسموا إلى تيارين، تيار أيّد الوحدة باعتبارها الهدف المنشود، ووقّع على حلّ الحزب، وآخر رفض ذلك، لكن الظروف لم تكن مهيأة للإعلان عن رفضهم القطعي لهذه الوحدة الهوجاء. وأحدثت الوحدة في لبنان شقاقًا كبيرًا بين رئيس الجمهورية الماروني كميل شمعون، الذي كان قد رفض قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا إبان العدوان الثلاثي على مصر، ورشيد كرامي الذي أعلن عن ترحيبه بالوحدة بين مصر وسوريا. وقد أطلق الموارنة لقب الكركدن على عبد الناصر لأنفه الطويل.

توجه الزعيم الأسمر بعد لقائه الجماهيري الحاشد في دمشق، في جولة استطلاعية إلى المدن والبلدات السورية، وكان من الطبيعي أن تستقبله حمص كأول مدينة بعد العاصمة بحكم موقعها الجغرافي، ولأنها أكبر محافظة من حيث المساحة. أطلّ عبد الناصر على الجماهير المحتشدة من موقع قيادة المنطقة الوسطى العسكرية، و الذي أعُلن منه ذات يوم عن استقلال سوريا عن فرنسا. التقى عبد الناصر بالمسؤولين في مبنى السراي الحكومي، وأصابته الدهشة عندما شاهد سجن مدينة حمص الصغير- الذي كان يقع في القبو، تحت السراي الحكومي، فبسط كفه اليمنى على

زجاج الطاولة، وأمر على الفور، ببناء سجن مركزي يليق بهيبة الدولة، وغادر المدينة مُخلِّفًا وراءه، بصمة أصابعه وراحة يده على الزجاج، فاستلهم المعماريون العباقرة، من شكل كفه المقدسة تصميم بناء السجن المركزي لمدينة حمص. فشيدوا خمس كتل تتناسب أحجامها وأصابع اليد، ملتصقة بكتلة تمثل راحة الكف، لتكون مقرًّا لقيادة السجن، ورمزًا لبسط عبد الناصر سُلطته على البلاد.

مع المساء حملت الريح الأوامر الخفية الصادرة عن القيادة السياسية الجديدة لأهل قرية ديرفول، بأن يجهزوا أنفسهم صبيحة غد، للتوجه فورا إلى الرستن، لاستقبال الزعيم الأسمر، فقد حظيت البلدة بشرف أن تكون إحدى محطات استراحة زعيم الأمة العربية.

حاول الأستاذ بدر التملص من تلك المهمة الصعبة عليه وعلى تلاميذ المدرسة، بحجة المسافة البعيدة، والتي تصل إلى عشرة كيلومترات، تفصل بين القرية والقضاء، كان يجب على التلاميذ الصغار أن يجتازوها ذهابًا إيابًا سيرًا على الأقدام، فتصدى له الأستاذ إلياس وقال له بصيغة الاتهام: كيف ترسل التلاميذ للمشاركة في دعاء الاستسقاء وتمنعهم عن الذهاب إلى الرستن لاستقبال زعيم الأمة؟ ماذا يعني ذلك؟ أحسَّ مدير المدرسة بخوف شديد، من هذا القومجي، الذي بدأ يتصرف وكأنه الآمر الناهي، فسار مطأطئ الرأس، إلى جانب التلاميذ، الذين كانوا يرددون في البرية، الهتافات، خلف الأستاذ إلياس، والتي كانت قد وصلته مكتوبة مساء أمس من جهات لا يعلمها إلا الله.

منذ الصباح الباكر انطلقت العربات التي تجرُّها الخيول محملة بالأطفال والنساء إلى بلدة الرستن، كما تبرع عدنان، الذي كان قد حقق حلمه بشراء جرار زراعي أزرق من طراز فوردسون، بالقيام بعدة رحلات، نقل فيها جموع الجماهير، التي اكتظت فيها شوارع البلدة، وامتلأت ساحتها الصغيرة، استعدادًا لاستقبال زعيم الأمة.

أطلَّ الزعيم من إحدى الشرفات الصغيرة، على الجموع الغفيرة، مُلوِّحًا بيديه، وابتسامة عريضة ترتسم على ثغره المشع بنور الوحدة التي أشرقت شمسها الساطعة على الأمة العربية جمعاء. وتدافعت الجماهير فاغرة أفواها تهتف له، واختلط الحابل بالنابل، وغاب التلاميذ الصغار عن أعين مدير المدرسة، بين الجماهير المحتشدة، التي توافدت من كل فج عميق، كما دفعت موجاتهم الصاخبة المتتالية بإلياس بعيدًا عنهم.

وغاب الملاك عن أعين الحشود الغفيرة المجتمعة في الساحة، بعد أن رفرف قليلًا بجناحيه من فوق الشرفة الصغيرة، وغاب معه المطر مدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر.

قبل أن يعود عبد الناصر إلى القاهرة لم ينسَ أن يُعيِّن رجله القوي عبد الحميد السراج نائبًا له في المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية كافةً، شاكرًا له فضله في قطع إمدادات النفط عن بريطانيا أيام العدوان الثلاثي على مصر، إذ كان عبد الحميد، قد أشرف على عملية تفجير خطوط التابلاين النفطية، مما أثار غضب شركات النفط، وأجبرت أنطوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا، على تقديم استقالته. كما أشرف على إنزال أربعة آلاف مظلي مصري قبل ثلاث سنوات في اللاذقية للتصدي

لحلف بغداد. ولم ينسَ عبد الناصر قبل عودته إلى القاهرة أن يُكلِّف عبد الحميد السراج بالإشراف على مخزون البنك المركزي السوري بهدف سَكِّ عملة جديدة باسم الجمهورية العربية المتحدة.

لم يكترث الحصان الأحمر باقتراب أمينة وتابع بصعوبة بالغة قضم الأعشاب القصيرة معفرًا فمه بالتراب، في حين رفع الأزرق رأسه وشهق بعد أن اشتم رائحتها، وتذكر رحلته معها إلى قرى بعيدة. مسحت أمينة رأسه بيديها، وحكّت بأظفارها غرته السوداء وصدغيه القويين، فعطس منتشيًا وارتعش جسده، فقبلته في رأسه ليعود إلى قضم الحشائش بعد أن دقَّ الأرض الجافة بحافر قائمه الأيسر، معبرًا عن سعادته الغامرة بلقائها.

وضعت أمينة راحة كفِّها فوق جبينها لتقي عينيها من أشعة الشمس الحادة، وبحثت بناظريها عن الإمام الذي كان يجوب الحقل الواسع، يراقب الزرع المكفهر القصير. أخذ الإمام بيده حفنة من التربة وفركها براحتيه، فتناثرت كذرات صغيرة، وتطايرت في الهواء الجاف. رحمتك يا الله، قال الإمام ونظر إلى أعالي السماء، فرآها زرقاء – بيضاء صافية كسماء صيف حارٍّ، بل لعلها أكثر بياضًا منه، لأن الطيور المهاجرة من بطٍّ و أوز وكدري ودجاج الحرش اتخذت مسارًا آخر، بعيدًا عن الأراضي القاحلة الجافة.

جال الإمام بعينيه يمينًا شمالًا، كانت الحقول تبدو كئيبة حزينة شاحبة اللون كمرضى اليرقان. إلهي عفوك ورضاك، رحمتك يا أرحم الراحمين. قال الإمام وتابَعَ خُطاه يتفقد الزرع الذي ينازع الموت.

خيَّم الحزن على قلب الإمام، وأحسَّ بضيق شديد في أنفاسه، فجلس على الأرض الجافة، وغاب عن عيني أمينة. "الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسفًا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون" (الروم). الله لا إله إلا أنت وإليك النشور- قال الإمام في قلبه، واقتلع نبتة قمح صغيرة من التراب وتأملها جيدًا، كانت السويقات ضعيفة ضاربة للصفرة، عطشى. الزرع يموت فأغثنا برحمتك يا الله، قال الإمام والألم يعتصر قلبه.

كانت السماء قد حبست الأمطار منذ أكثر من شهر، بعد أن انبثق الزرع من رحم الأرض، فامتصت النباتات ما في سطح التربة من ماء، وتوقفت عن النمو، وبهتت ألوان الأوراق الخضراء واكفهرت. "والبلدُ الطيبُ يخرجُ نباته بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يخرج إلا نكِدًا كذلك تصرف الآيات لقوم يشكرون"، صدق الله العظيم. (الأعراف). قال الإمام ونهض ليتجه نحو الحصانين، فشاهد أمينة تقف قربهما بانتظاره. توجس قليلًا من رؤيتها...توقفت خطاه، وتساءل في سره: "أتراها وراء هذا الغضب الإلهي؟" لا، لا، هذا مستحيل، فالزرع ذابل في كل الحقول الممتدة على مدّ البصر، والله لا يظلم أحدًا من عباده، بل نحن مَن نظلمُ أنفسنا.

– ماذا تفعلين هنا؟ سألها الإمام عندما اقترب منها.

- لا شيء يا مولاي. جميع أهل القرية ذهبوا إلى الرستن لاستقبال عبد الناصر ولا أحد في البرية.. و..و.. اشتقتُ لهذا الحصان الأزرق.. شاهدتك في الصباح وأنت تصعد الدرب إلى الحقل فقلتُ لنفسي.. لا شيء.. هذا كل ما في الأمر..لقد فرح الحصان كثيرًا بلقائي.. إنه يحبني.. هل أزعجتُك بقدومي؟ لا أحد يرانا فلا تجزع .. الكل مشغول باستقبال الأسمر.

- هل تريدين شيئًا؟

- لا، لا، كل ما في الأمر أني ..لا شيء.. لا أعرف لماذا أتلعثم بكلماتي؟ كان لديَّ كثير من الكلام لأقوله لك.. لكني نسيت..أنت تعرف أن المرأة بنصف عقل ونصف دين.

- لا، لا أعرف، من قال ذلك؟

- كيف لا تعرف وأنت الإمام!

- قلت لك إني لا أعرف. لم يذكر القرآن الكريم ذلك، كما لم تذكره كل الكتب السماوية.. فمن أين يأتون بهذا الكلام؟

- ومن أين لي أن أعرف؟ هكذا سمعتهم يقولون. المرأة بنصف عقل ونصف دين. لكن هذا ليس مهمًّا..أنت لماذا غاضب مني؟ هل أسأت إليك بشيء لا سمح الله؟

- لا يا أمينة. أنا حزين بسبب الزرع. الزرع يبس من قلة الأمطار.

- لا تقل إنك ستدعو أهل القرية إلى صلاة الاستسقاء؟ قالت أمينة وشعرت بخوف شديد.

- لا، لن يغير الله من أمره بهذه البساطة. المسألة في القلوب.

- صحيح. المسألة في القلوب. القلوب تخفق عندما تلتقي بمن تحب. حصانك الأبيض فعل ذلك عندما رآني. قبلته في غرته فعطس منتشيًا. وأطلقت أمينة ضحكة قصيرة.

- قال الله تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السماوات والأرض شيئًا ولا يستطيعون"، صدق الله العظيم. (النحل).

وشعرت أمينة بخيبة أمل عميقة، فقالت له: ألا تجلس لنرتاح قليلًا؟

تلفت الإمام حوله خوفًا من أن يقع تحت أعين مراقب حسود، فلم ير أحدًا، وكمَن استفاق من حلم قال في نفسه: "أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، وقال لأمينة: عين الله ترى كل شيء يا أمينة. أنا لا أخشى البشر ولكني أخشى الله... أنا أتجنب الصدام معهم لأنهم بشر والبشر خطاؤون.

- تقول إن الكتب السماوية لم تقل إن المرأة بنصف عقل ونصف دين.. هل قرأت الكتب السماوية؟ هل تحفظها يا مولاي؟

حدَّجها الإمام بنظرة فاحصة وقال: نعم قرأتُها، لكني لا أحفظها غيبًا، كما أحفظ القرآن الكريم. سؤال غريب. ماذا تريدين؟

- أن تقرأ لي بعضًا من سورهم. ما رأيك؟

جلس الإمام على الأرض ووضع يديه فوق رأسه متفكّرًا وقال في نفسه: ترى ماذا تريد مني؟ هل هذه أمينة التي أعرفها، أم أنها .. إلهي.. لا تعرضني للتجربة، فأنا لستِ مؤهلًا لذلك، ثم نظر إليها وقال: يسوع المسيح يقول: "لم آتِ لأدعو أبرارًا، بل خُطاة إلى التوبة" (لوقا32/5) وقال أيضًا:" الزارع يزرع الكلمة" (مرقس14/4) وقال يسوع أيضًا للشيطان حين عرض عليه أن يملكه ممالك الأرض مقابل أن يخر ويسجد له: "اذهبِ يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب تسجد، وإياه و حده تعبد" (متى9/4) لكن لماذا تسألين عن ذلك يا أمينة؟

أصيبت أمينة بإحباط شديد، وشحب لون وجهها، وتساءلت في نفسها إن كان إلياس يكذب عليها طوال تلك الأيام ويقرأ لها أشعارًا غزلية لذلك الشاعر الدمشقي، ويدعي أنها كلام الله؟ لأنها كانت على ثقة تامة أن الإمام لا يكذب. اقتربت منه وجلست أمامه وقالت: مولاي، أنا.. لا أعرف كيف أفسر لك! لكن ألا يوجد كلام آخر، من نوع آخر في كتبهم؟

- لم أفهم سؤالك يا أمينة؟

- ألم تقرأ ..غزلًا في الكتب القديمة؟ نعم غزل.. غزل.

- وبمن يتغزل الله جل جلاله يا أمينة؟

أشاحت أمينة برأسها جانبًا وقالت في نفسها: يا الله كم يصعب عليَّ أن أوضح له ما سمعته؟ والتفتت إليه وقالت: سمعت من الناس أن الأستاذ إلياس يقرأ لهم من كتابهم أشعارًا كلها غزل وحب، و.. و..

- لعله قرأ لهم شيئًا من نشيد الإنشاد؟

وابتسمت أمينة فرحة وقالت: نعم هذا هو..

- هذا ليس كلام الله يا أمينة. هذه أشعار الملك سليمان، وكتابهم يقول ذلك: نشيد الإنشاد الذي لسليمان.

- أنت أعلم. لكن هل تحفظ شيئًا من النشيد؟

- لا. قال الإمام. ونهض واقفًا واتجه نحو الجوادين. فَكَّ الرسنيين المعقودين بعضهما ببعض، ثم اعتلى جواده الأحمر وقال لها: لا تتأخري بالعودة إلى المنزل.

كانت أمينة قد نهضت واقتربت منه وسألته: يا مولاي لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

ابتسم الإمام ونظر في عينيها مليًا، فرمشت بهما، فقال لها: وداعًا. ثم همز جواده الأحمر ليجر الأزرق خلفه، وسار مبتعدًا عن أمينة التي حبست دمعة في مقلتيها.

مع المساء تقاطر الناس على طول الطريق، عائدين إلى القرية متعبين فرحين بمشاهدتهم العينية لأبي خالد، وقد بعث فيهم روح الأمل، بإشراقة جديدة لشمس الأمة، التي خبا إشعاعها الحضاري منذ زمن بعيد، فهو المنتصر على أقوى قوتين استعماريتين عانتهما المنطقة عقودًا خلت، وهو مَن سيعيد لهم أمجادًا قرؤوا عنها في الكتب، وسمعوا عنها في الموروث الشفهي المتناقل عبر قرون لا تحصى.

فعبد الناصر، قادر على فعل المعجزات التي تثير حماستهم وتدفعهم للتضحية. لن يعرفوا الهزيمة بعد اليوم، لن يعرفوا الذل أو الإهانة، فشعارهم الحرية أولًا والاشتراكية والوحدة. والاشتراكية كانت كلمة جديدة لغالبية الناس. فهموها على أنها تعني العدالة الاجتماعية المنشودة في كل العصور، والتي لم يستطع الشرق خلال آلاف السنين أن يُقنِّنوها، أو أن يجد لها تعريفا عامًّا مفهومًا للناس، لأن مفاهيم العدالة كانت متعلقة بالجزاء والحساب للمجرمين، وفق قاعدة السن بالسن والعين بالعين، أي إنها لم تتجاوز يومًا الحالة الفردية إلى الحالة العامة، أما عبد الناصر فقدْ وَعَدَهم بالعدالة الاجتماعية، بالمساواة، بالحرية، كما وعدهم بنهضة علمية ثقافية تشمل مناحي الحياة كافة. لكن ماذا يفعل عبد الناصر لبلد يعتمد على المطر؟

جفت سويقات الزرع ولم تَحبَل السنابل، وأجدبت الأرض، وتحولت إلى قفراء نفراء، ولم تتحرك قطعان الأغنام وراء الكلأ إلى البادية، كما كانت تفعل في كل عام، لأن الأعشاب لم تنبت قط، وبدأت الاشتباكات الصغيرة بين الرعاة والفلاحين تنتشر هنا وهناك، أما جداول الماء فقد انخفض منسوب المياه فيها، ولم تعد تجري في الأرض الجافة، التي كانت تمتصها بسرعة فائقة، ولا تسمح لها بالمرور، كما جفّت بعض الينابيع الجبلية المنتشرة على سفوح الجبال، والتي كانت تروي قطعان الأغنام والماعز وطيور البرية وخاصة الحجال التي حطت لأول مرة في أزقة القرية، تناقي بصوتها المتعب من العطش الشديد. ولم تظهر الحجة سعاد

مع مخيمها الزاهي الألوان، ولم تحمل أخبارًا لكوثر عن شقيقها المتعب يوشع. وجاء تموز ولم يظهر الحصادون، ولم تعمل المناجل في الحقل لأول مرة منذ عشرات السنين، وتدفق آلاف العمال السوريون إلى لبنان بحثًا عن فرصة عمل، فلبنان يعيش على ما يرده من المغتربين من خلف البحار البعيدة.

هي سنة وتمضي، سيعوضنا الله عمًّا خسرناه، الله كبير لا ينسى عباده، ردد الفلاحون على أمل أن يمر هذا الصيف الحارق بلهيبه، ليبدؤوا عامًا جديدًا مليئًا بالأمل، بموسم قادم من الأمطار.

لكن دموزي الذي دوخته حرارة الشمس، وأشعلت اللهيب في صدره ذات يوم من فجر التاريخ، ذلك اللهيب الذي لم تُخْمدْ ناره حتى كربلائيات الحسين عليه السلام، ظل عطشًا، في بلاد "الرافدين" ولا يروي ظمأه إلا الدم الحار.

كان الملك فيصل الثاني ملك العراق الهاشمي، يستعد للتوجه إلى المطار، للسفر إلى تركيا ومنها إلى لندن، للقاء خطيبته وحبيبته الرائعة الجمال الأميرة فاضلة محمد علي، حين سمع أزيز الرصاص ودوي الانفجارات تعمُّ قصره الملكي، ومن ثم جاءه صوت المقدم عبد الستار العبوسي يطالبه بالاستسلام الفوري دون قيد أو شرط لقوى الثورة. فتح الملك المذعور جهاز المذياع فسمع نشيد: "الله أكبر فوق كيد المعتدي" تلاه صوت عبد السلام عارف الجهوري يقرأ البيان الأول للثورة، التي أطاحت بالحكم الملكي الفاسد، ونعتته بالعميل للاستعمار البريطاني.

كان العميد عبد الكريم قاسم ذو الميول الماركسية وقائد اللواء المدرع من الفرقة الثالثة التي يقودها اللواء الشهير غازي الداغستاني بن اللواء فاضل الداغستاني، يدير عملية الانقلاب الدموي من مركزه في المنصورة، أما عبد السلام عارف، الذي كان قد تلقى قبل أشهر أمرًا عسكريًّا بالاستعداد للتحرك بلوائه المدرع إلى الأردن مرورًا ببغداد، فقرر اغتنام الفرصة للانقضاض على مقار الحكومة، في أثناء عبور اللواء العاصمة العراقية في طريقه إلى الأردن، لحمايته من إسرائيل. عرض عبد السلام عارف خطته على مجموعة الضباط الوطنيين، وصادق عليها عبد الكريم قاسم.

قام القائدان الكبيران بجولات ميدانية داخل العاصمة، لرسم تفاصيل الثورة الكبيرة، ثم حدَّدا ساعة الصفر للشروع بها، حين يأتيهما "أمر التحرك"، إلى عمان، من نوري السعيد، وبهذه الطريقة غدت ساعة الصفر معلقة برئيس الوزراء من دون علمه. وصدرَ الأمر، فاستولى عبد السلام عارف على وزارة الدفاع في بغداد أولًا، ثم قامت الوحدات المكلفة بتنفيذ الخطة المرسومة بدقة متناهية، فاستولت على مبنيي البريد والإذاعة التي أطلقت الأغاني الوطنية المصرية، ثم جاء عبد السلام عارف ليقرأ البيان رقم واحد الذي كان قد هيَّأه مع مجموعة من الضباط الأشاوس بإشراف المغامر الجسور عبد الكريم قاسم.

كان عبد السلام عارف يمثل نقيضًا فكريًّا لعبد الكريم قاسم، فقد كان ذا ميول عروبية وإسلامية، وقريبًا جدًّا من عبد الناصر، ورغم

تناقضهما الكبير، فقد اتفقا على إزاحة الحكم الملكي الهاشمي، ونفّذا مخططهما بدقة متناهية رغم تحذيرات ملك الأردن المتكورة لابن عمه الملك فيصل.

بلَغ المقدم عبد الستار العبوسي قائد الثورة بسيطرته على قصر الرحاب، واحتجازه لأفراد الأسرة الحاكمة وطلب مزيدًا من التعليمات لينفذها، فجاءه الأمر من عبد الكريم قاسم بالتريُّث لحظات قصار. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى ظهر شبح عبد الكريم قاسم في قصرٍ الرحاب، وحمل الرشاش الأتوماتيكي وأطلق النار من دون رحمة أو شفقة على أفراد الأسرة الملكية الحاكمة، كما فعل البلاشفة بأسرة رومانوف. قام عبد الكريم قاسم بإعدامهم رميًا بالرصاص في حديقة القصر الملكي. سقط الملك الشاب صريعًا، كما قُتل خاله الأمير عبد الإله وزوجته وشقيقته وأمه الأميرة نفيسة جدة الملك، الذي لم يسمح له القدر بالزواج بحبيبة قلبه الأميرة فاضلة. كان عبد الكريم قاسم قد ألقى القبض على قائد الفرقة الثالثة غازي الداغستاني أبي تيمور وأودعه السجن.

كان الحَرُّ شديدًا حين سمعت الجماهير المتعطشة للدماء بيانَ عبد السلام عارف من إذاعة بغداد، فعمت الفرحة جماهير الشعب الذي نزل إلى الشوارع يهتف للوحدة العربية، ولعبد السلام عارف.

بحمام الدم هذا، انتقل العراق من النظام الملكي في الحكم إلى النظام الجمهوري، لكن دون رئيس للبلاد، لأن عبد الكريم قاسم، كان قد تسلَّم قيادة البلاد، تحت مسمى رئيس مجلس الوزراء ووزير للدفاع، ومنح عبد السلام عارف منصب وزير الداخلية.

لم يرق لقائد الثورة، أن يكون شخصًا أعلى منه مرتبة في العراق ولو شكليًا، فعلق منصب رئيس الجمهورية إلى أجل غير مسمى.

قبل بدء الثورة على الرجعية العربية المتمثلة بالحكم الملكي الهاشمي، كان الضباط الوطنيون العراقيون قد أجروا اتصالًا بشبح المخابرات في الإقليم الشمالي عبد الحميد السراج الموجود في كل الأمكنة، فالتقى بهم في مدينة الرمثا الأردنية، وأطلعوه على مخططهم الثوري للإطاحة بالحكم الملكي في العراق، وطلبوا منه إخطار عبد الناصر لنيل تأييده ومباركته. ولم يبخل المصريون بتقديم المشورة لهم، ووعدوهم بالدعم الإعلامي، وبالعمل الجاد على الاعتراف بشرعية سلطتهم، في المحافل الدولية كافة، وخاصة في رابطة دول عدم الانحياز، شريطة أن ينضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة، وكان هذا هو الهدف المنشود لعبد السلام عارف... لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

في اليوم التالي للثورة، خرجت غانيات بيروت نصف عاريات لاستقبال القوات البحرية الأمريكية، التي استجابت في الحال، للنداء لعاجل، الذي وجهه لها الرئيس اللبناني كميل شمعون، لحماية لبنان من عبد الناصر، وقامت بإنزال قواتها في بيروت لردع أي ثورة محتملة يقوم ما "بنو خالد" المتعاونون مع السراج، لقلب نظام الحكم في لبنان، الانضمام للجمهورية العربية المتحدة.

وقد اختار أيزنهاور طريقة مبتكرة لدعم اقتصاد لبنان، فبدلًا من تقديم عونة مالية مباشرة له، منح جنوده، من الأسطول السادس، مكافآت

مالية عالية، وأنزلهم على الشاطئ اللبناني، مع أوامر بصرف تلك المكافآت، في السوق اللبنانية، لإنعاش البلد اقتصاديا، ونفّذ الجنود الأمريكيون الخطة بنجاح باهر فغزوا البارات والكازينوهات والأسواق ودور الدعارة، وتحوّل الجندي الأمريكي إلى رمز للكرم والجود والعطاء، وصارت الموانئ العربية تحسد بيروت على استضافتها للجنود الأمريكيين. وتلك كانت فكرة ذكية من دون جدال، لما أحدثته من تأثير كبير في نفوس اللبنانيين عامة، والعمال السوريين خاصة، الذي عادوا إلى ديارهم محملين بالدراهم،وبعشرات القصص، عن كرم الجنود الأمريكيين وبذخهم.

وأطلقت صوت العرب أغنية أم كلثوم "بغداد يا قلعة الأسود"، فرددها إذاعة دمشق وبغداد على الفور، كما انطبعت كلماها على ألسنة الناس كنشيد: "الله أكبر فوق كيد المعتدي".

ظل الهواء ساخنًا، حارًّا، يلسع الوجوه ليمتصَّ ما فيها من رطوبة، رغم مرور أشهر الصيف، وبدأ الفلاحون يخلطون طحين القمح بطحين الشعير ليصنعوا الخبز لأطفالهم الصغار، ثلثين من طحين الحنطة، وثلث من طحين الشعير، ثم نصف بنصف، ومن ثم .. عمَّ العويل والصراخ.

لم يتأثر موظفو الدولة بتلك الجائحة الرهيبة في ذلك العام، وظلوا يهتفون للقائد الخالد عبد الناصر، بل كانوا يستغربون من تذمر الناس وشكواهم، فبالنسبة لهم هبطت أسعار اللحوم إلى أدنى مستوياها، وباتوا يأكلون اللحم صباح مساء، لأن الفلاحين في القرى لم يكونوا قادرين على إطعام حيواناهم ومواشيهم، ويبحثون عن سبل للتخلص منها بأقل

الخسائر، فامتلأت أسواق المدن، بالأغنام والماعز المعروضة للبيع بأبخس الأثمان.

كان الأستاذ إلياس الناصري العتيد، ينتظر قرار تعيينه مديرًا للمدرسة، بدلًا من الأستاذ بدر الذي أفل نجمه، حين وصلت إلى المدرسة، سيارة، تحمل نمرة حكومية، وترجَّل منها ثلاثة من الرجال ببذاتهم الرسمية مع ربطات عنقهم السوداء، أما السائق فلازم مكانه خلف المقود.

تعرف الأستاذ بدر والأستاذ إلياس إلى موظف مديرية التربية الأستاذ خلدون السباعي، الذي قدم لهم الضيفين الكريمين قائلًا: الأستاذ الكبير سيد خالد البرقاوي من دمياط، مصر، والأستاذ محمد محمد حسنين من أسيوط، مصر أيضًا. وهذا قرار تعيينهما في المدرسة. وسلَّم الأستاذ بدر نسخة من القرار الصادر من وزارة التربية والتعليم من عاصمة العرب.. القاهرة.

بعد الترحيب الحار بالوافدين، قرأ الأستاذ بدر قرار التعيين، ثم توجَّه إلى الأستاذ سيد خالد قائلًا: أهلًا وسهلًا بالسيد خالد، وقاطعه خلدون السباعي على الفور وقال له: الأستاذ اسمه سيد..سيد خالد البرقاوي.

- أهلًا وسهلًا سيد خالد، كل ما يجب عليَّ أن أسلمك إياه كوني مديرًا للمدرسة، هو أمام عينيك، في هذا المكتب. إن أردت التأكد، فيمكننا إجراء جرد بالمحتويات، وإن أردت أن تستلم إدارة المدرسة فورًا، فما علينا سوى التوقيع على محضر الاستلام والتسليم، بحضور الأستاذ خلدون السباعي.

خلسة خطف الأستاذ إلياس الورقة المطبوعة، وتأملها عميقًا، وأحسَّ بغصة في حلقه، فكتم غيظه، ورحَّب بالأستاذين الوافدين. انتهت مراسم تسليم "السلطة"، بدون أية منغصات تذكر وساد جَوٌّ من التفاؤل والضحك والترحيب بالضيفين الكبيرين.

أخطر الأستاذ بدر، مختار القرية، بوصول الضيفين الكبيرين، ليستعد لاستقبالهم، وليعمل على تأمين منامتهم.

تحرك المختار سريعًا، فالضيوف من مصر، وكل مصري يمثل عبد الناصر شخصيًّا، أو المشير عبد الحكيم عامر ولا يقل عنهما في شيء، فهرع إلى بيت كوثر، وأمسك بديك حبش أمام عينيها، دون أن تنبس ببنت شفة، ليقدمه للضيوف الكرام على صدر من البرغل الخشن اللذيذ.

في المساء، شاهد الأستاذ بدر لأول مرة الأستاذ إلياس سكرًا مخمورًا حتى الثمالة، فقال له ساخرًا كعادته: من المؤكد أنك تحتفل بقدوم رفاقك الناصريين!

في اليوم التالي اكتشف المعلمان، أن مدير المدرسة الجديد الأستاذ الكبير سيد خالد، لا يجيد القراءة والكتابة كما يليق بمعلم، أما الأستاذ الأسيوطي المتميز بطوله الفارع، فكان يتمتع بمناقب عديدة. كان ضليعًا بعلوم اللغة وأساليب التدريس الحديثة، وكان متفانيًا مخلصًا في عمله، إضافة لدماثة خلقه، فأحبه التلاميذ وأهل القرية جميعًا. كان يردد أمام التلاميذ، وأهالي القرية: بالعلم وحده تنهض الأمة، لا بالسيف.

الأقنوم

جوهر فردي قائم بذاته. وحين يُضرب الجسد لا تتألم النفس.

ودَّع الإمام ضيوفه وحثَّ المعلمين المصريين على معاودة زيارته في وقت فراغهما قائلًا: منزلي مشرع الأبواب لكما في كل الأوقات. تشرفت بزيارتكما الطيبة. وشكرًا للأستاذ بدر الذي اصطحبكما.

كان الأستاذ بدر قد اصطحب المصريين في زيارة للإمام بعد صلاة العشاء، وبُهر الضيفان بمعرفة الإمام العميقة والدقيقة لطبيعة الحياة المصرية اليومية، واطلاعه الواسع على ثقافة أم الدنيا الموغلة في القدم، فتوطدت بينهم عُرى الصداقة والمحبة، وخاصة بين الإمام والأستاذ الأسيوطي، الذي سرد له التفاصيل الدقيقة للعديد من الأحداث التي جرت في مصر خلال الأعوام القليلة الفائتة.

اختار الوافدان السكن في مستودع المدرسة للأدوات الزراعية، بعد أن أفرغاه من محتوياته من فؤوس ومعاول ومجارف نقلها التلاميذ إلى أقرب بيت من بيوت القرية المحاذية للمدرسة. كانت غرفة المستودع كبيرة مشمسة لها العديد من النوافذ المستطيلة المطلة على كل الاتجاهات.

وتبرَّع أهالي القرية للضيفين الكريمين، بالأسِرة والفراش وأدوات المطبخ، وقدم لهما الأستاذ بدر، بابورا يبروديًّا جديدًا، جاء به من المدينة مع صفيحة من الجاز.

بدت الغرفة في غاية الجمال والأناقة، فهي مبنية من الحجر البازلتي كبقية غرف المدرسة، ومطيّنة بالأسمنت،(محارة) ومطلية بثلاثة ألوان زيتية، أخضر بارتفاع متر، وأصفر يصل حتى السقف الأبيض. كانت الغرفة المشمسة تطل على باحة المدرسة، المحاطة بأشجار السرو الباسقة، تليها مساحة تبلغ عشرة دونمات (عشرة آلاف متر مربع) من الأرض الحمراء الخصبة، مخصصة للمدرسة الريفية، ليتعلم فيها تلاميذ المدرسة، فنون الزراعة، وطرق الري الحديثة، ومن ثم بساتين القرية الممتدة بعيدًا نحو الجنوب.

ما أدهش المصريين حقًّا كان أمرين اثنين، أولهما: أن المدرسة مختلطة، يؤمُّها الإناث والذكور، ويتلقون دروسهم في صفوف واحدة، دون فصل جنسي بينهم، ويلعبون مع بعضهم بعضا في أثناء الفسحة دون رقيب حقيقي يتابع تفاصيل ألعابهم، وهم لا يشعرون بالحرج من الإمساك ببعضهم بعضًا في أثناء اللعب، وهذا ما أثار حفيظة المدير الدمياطي الجديد، فقام بمنع الذكور من الجلوس إلى جانب الإناث على المقعد نفسه في الصف الواحد، وكان هذا أول تغيير فعليٍّ يطرأ على حياة التلاميذ، الذين نفذوا أوامره دون تردد. أما الأمر الثاني فكان كثرة حديث الناس عن المطر، وانشغالهم الدائم به، وهذا ما أزعج الأستاذ الدمياطي كثيرًا وقال للأستاذ بدر: نحن نعد المطر نقمة وليس نعمة، لأن

شوارع دمياط تطوف بالمياه حين يتساقط المطر، كما تطوف الأقبية والبيوت، لأن المجارير تُغلق بالرمل الذي تجرفه الأمطار، فتتحول شوارع المدينة لمستنقعات تفوح منها الرائحة الكريهة، وننتظر حتى تجففها الشمس، لتعود الحياة إلى طبيعتها، أما الأستاذ الأسيوطي، فأقسم أنه لم يشاهد المطر طوال حياته ولا يعرف إن كان خيرًا أم شرًّا.

ورزقكم في السماء وما توعدون، قال الإمام سِرًّا في نفسه وأسند رأسه المتعب إلى الجدار الطيني تحت مشكاة قنديل الزيت وأغمض عينيه المتعبتين، فاقتربت منه شيماء بابتسامتها الساحرة وقالت له: إن كنت تحبني بجد فلِمَ لا تتزوجني؟ أنا مستعدة للذهاب معك إلى آخر الدنيا. أحنى الإمام رأسه، وأطرق بنظره في الأرض خجلًا، وقال لها: سأتقدم بطلب يدك عندما أُنهي دراستي. أعدُك بذلك.

– لماذا لا تخبر والدي برغبتك هذه؟ تحدث إليه. أخبره.

– ما زال الوقت مبكرًا لأفعل ذلك، وقد يغضب مني، فأنا تلميذه وأحبُّه وأقدره كثيرًا، أنت لا تتصورين كم أعزُّه في قلبي. أخاف إن أخبرته برغبتي في الاقتران بك، أن يمنعنا من اللقاء، لن يدعوني مرة أخرى إلى منزلكم لألقاك، وأنا لا أستطيع زيارتكم دون دعوته.

– أعرف أن والدي أستاذك في الأزهر، لكنه إنسان متفهم ونحن لا نفعل خطأً. والدي متأثر جدًا بشيخ الأزهر وبالشيخ محمد عبده، كلِّمه ولا تخف.. إن كنت تحبني؟

– صدقيني، أنا لا أتجرأ على الكلام معه بهذا الشأن في هذا الظرف. علينا أن ننتظر قليلًا، فالزمن يمضي بسرعة. لا تقلقي.

- كما تشاء، لن أجبرك على ذلك. أنت حُر. قالت شيماء بعد إن غابت ابتسامتها عن ثغرها الندي، وعضت شفتها السُّفلى بأسنانها العاجية، وانسحبت بصمت دون أن تلتفت إلى الوراء كما كانت تفعل في كل لقاء.

مصر "تُمَصِّرُ" من يأتيها، سواء أكان طالب علم ومعرفة، أم كان غازيًا فاتحًا، أو كان تاجرًا. جاءها الهكسوس ملوك الرعاة كسيل جارف على عرباتهم المقنطرة التي كانت تجرها الخيول، من آسيا فأصبحوا مصريين، وما زالت سلالتهم واضحة المعالم في تكوين الشعب المصري، فهم أصحاب الأصداغ والأحناك والمناكب العريضة، وهم أول من أدخل الحصان إلى مصر، فعرف المصريون منهم استخدام الحصان في شتى مجالات الحياة، وجاءها الإغريق، مع فتوحات ذي القرنين، فاستوطنوا فيها، وأسسوا سلالة البطالمة، التي غدت مصرية الثقافة والمعرفة والدين، وكانت كيليوباترا آخر ملكاتهم العظيمة التي تحولت لعشيقة ليوليوس قيصر ومن ثم عشيقة أنطونيو الذي حارب روما باسم مصر. كل الغزاة تخلوا عن آلهتهم وعبدوا آلهة مصر..وحده إله الصحراء لم يُذعن يومًا، لأنه فوق جميع الآلهة، فمكانه في السماء العالية وهو العلي القدير.

مئات، بل آلاف السنين مرت وآلهة النيل تقاوم، وتصدُّ غزوات آلهة المطر، القادمة من عمق الصحراء، تارة أو من بلاد الشام، التي لا تنفكُّ عن تسيير الغزوات الفجائية واحدة تلو أخرى، لتقتحم وادي

النيل العظيم، وتبسط سيطرتها عليه، فتغيب آلهة مصر عن الوجود ويعود الناس كالثكالى، يبتهلون إليها لتعود إليهم بجمالها ورحمتها، فإله المطر يسلبهم كل شيء، الزرع والأرض والذهب والفضة، حتى ينتفض الفلاح المصري الصبور، محطمًا أغلاله، ليطردهم من أرضه المعطاءة، فيطاردهم عبر الصحراء التي لا يطيقها. لم تثمر كل محاولات إحلال السلام والتفاهم بين الطرفين عن نتائج مرضية. فإما أن تكون حاكمًا أو محكومًا، إما أن تعبد إله الشمس الذي يطل كل صباح حاملًا معه الدفء والنور لتنطلق الحيوانات إلى المراعي، والطيور إلى البراري، والفلاح إلى الحقل، وإما أن تعبد الإله الغائب الحاضر، "وهو الأول والآخر والظاهر والباطن" وهو "القاهر المنتقم" وهو "المهيمن العزيز الجبار المتكبر" وهو "الرحمن الرحيم" الذي لا يقبل قط أن يشرك به. فماذا يتبقى للآلهة المصرية؟ لا شيء. عليها أن تخضع، عليها أن تخر وتركع للواحد القهار.

منذ زمن بعيد حكم إله الصحراء على المصريين أن يكونوا عبيدًا له، فبعد الطوفان الكبير عاد نوح عليه السلام، لغرس الكرمة، وصنع الخمر اللذيذ، من الأعناب الجبلية المتدلية عناقيدها كثريات الذهب، من الجفنات المتراقصة بأوراقها، مع نسمات الهواء العليل. كان نوح يحب النبيذ، ويحتسيه لينتشي بروعة وجمال خلق الله، وفضله الكبير عليه، حين أشار إليه أن يصنع الفلك، ليأخذ معه ذريته، وزوجين من كل حيوانات وطيور البرية، لأن الله قرر إعادة الخلق من جديد، بعد أن عم الفساد في الأرض، فنُجِّي نوح وأولاده سام وحام ويافث من الغرق في الطوفان الكبير.

سكِر نوح وغطّ في نوم عميق داخل خيمته المشرعة للهواء العليل، ودخل عليه حام أبو كنعان ومصرايم " فأبصر عورة أبيه" (تكوين 25/9)، فاسودَّ وجهه، وخرج من الخيمة وأخبر أخويه سام ويافث بما رأى ضاحكًا، مستهزئًا من والده السكران، فقام سام ويافث بتغطية والدهما، وعندما استيقظ نوح علم بما جرى، فلعن ابن حام كنعان قائلًا:" ملعون كنعان! عبد العبيد يكون لإخوته" وأضاف: "مبارك إله سام. وليكن كنعان عبدًا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدًا لهم".

كان المصريون يتساءلون في أنفسهم: أين هذا الإله الذي يتحدثون عنه؟ كيف لنا أن نؤمن بإله مُبهَمٍ وغير مرئي لا في الأرض أو في السماء؟ كيف لنا أن نؤمن بالغيب؟ لماذا يطلبون منا أن نؤمن بإله غائب في حين نرى آلهتنا بأم أعيننا؟ فهذا نجم الشمس يطل علينا صباح مساء، ويطل عليهم كما يطل علينا، وهذا هو النيل المعطاء يأتينا بالماء وبالأسماك والخيرات التي لا تُحصى، فلماذا نعبد إله البرق والرعد والصواعق التي تحرق محاصيلنا الزراعية عندما تقع على الأرض؟ ما الغاية من كل ذلك؟ "هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعا وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء". (الرعد). كيف نصعد إلى السماء في يوم الحساب؟ ألا يمكنه أن يحاسبنا على الأرض؟ نحن لم نر أحدًا من قبل صعد إلى السماء وغاب فيها. كل ذي جناح يعود إلى الأرض، مهما يُحلّقْ عاليًا بعيدًا. نحن من

راقب الفصول والأيام والنجوم والأبراج والكواكب، وسجلنا حركتها وتقلُّباتها المتكررة مع كل يوم، ونحن نعلم متى يحلُّ موعد الفيضان ومتى ينتهي؟ ونحن نعلم أطول نهار في السنة وأقصر نهار، وها هم آلهتنا منذ مئات السنين محنطون لم يحلق منهم أحد! الحساب في بيت الموتى، هناك حيث يتم وزن أفعال البشر الصالحة منها والطالحة ويحدد مصيرهم. فإن كان قلبهم المحنط بوزن الريشة أُنعم عليهم بالحياة في عالم الموتى، وإن كان أثقل فيرمى لحيوان خرافيَ ليلتهمه جزاء شروره التي ارتكبها في حياته الدنيوية. كل شيء واضح ومعلوم فلماذا نؤمن بالمجهول؟ لماذا علينا أن نؤمن بالغيب؟ وهذا يعني أن نُغيِّب العقل والمعرفة، أن نخضع بإذعان لربهم، أو بالأحرى لمن يمثله على الأرض. فلا وجود له من دونهم. فلا وجود للمسيحية من غير المسيحيين، ولا وجود للإسلام من غير المسلمين. لماذا لم يهدنا الله إليه مثلهم؟ لماذا لم يعطنا إشارة، ولو واحدة ليبرهن لنا عن وجوده؟ هم يقولون إن إلههم، خالق السماوات والأرض والجبال والوهاد،ونحن نقول بل آلهتنا من خلقت البحار والأنهار والأنفس وكل شيء. كيف نقنعهم بأننا على صواب وأنهم على خطأ؟ أو كيف لهم أن يقنعونا بأن إلههم من خلق كل ما يدعون؟ كيف؟ إلههم محتجبٌ غائب، وآلهتنا ظاهرة للعيان؟ إلههم في السماء البعيدة.. البعيدة.. لا بد من إعادة إلههم إلى الأرض ليؤمنوا به. لا بد من تجسيد حي له يلامسونه ويلامسهم، يعرفون ويعرفهم، يحدثونه ويحدثهم.. لا بد من الخلاص من هذا الصراع الدموي اللامجدي.. لا بد أن يحمل الإله

روح السلام والمحبة لكل الناس.. لا بد من أن يتخلصوا من عقدة أبرام الذي جهزّه فرعون بالذهب والفضة والماشية، وأعاد له زوجته ساراي بعدما علم أنها زوجته. لا بد من إعادة النظر في كل ذلك من أجل الخلاص.. فالدماء تسيل دون مبرر. حاربناهم مرارًا، ودخلنا بيوتهم وسحبناهم إلى مصر عبيدًا، لكن الأمر لم ينته، ولن ينتهي، ما لم يغيروا من عقيدتهم التي تبيح لهم الغزو والسلب والنهب. علينا أن نجد مخرجًا من هذه الحالة المتكررة، لأننا بأمس الحاجة للمخلص من أجل الخلاص. لنا ولهم، لا بد من التفكير بحلٍّ لوقف سفك الدماء وإحلال السلام. فكيف لنا أن نجد حلًّا وسطًا؟ أن يكون إلهًا سماويًّا أرضيًّا، محسوسًا معلومًا ناطقًا، رؤوفًا رحيمًا بالفقراء والضعفاء، قادرًا على العطاء وتقديم المعجزات العينية المقنعة. هذا ما نحتاجه ويحتاجونه.

رفرف الملاك الطاهر بجناحيه وحطّ في صومعتها وخاطبها قائلًا: "سلام لك أيتها المنعم عليها! الربُّ معك، مباركة أنت في النساء".

ارتعدت "نقطة الماء" العذراء "محبوبة الله" واضطربت وخرَّت على الأرض مذعورة فقال لها الملاك: "لا تخافي يا "محبوبة الله" ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وهأنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه "مخلصًا". وتساءلت نقطة الماء محبوبة الله: "كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رجلًا؟" فقال لها الملاك مطمئنًا: "الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يدعى ابن الله" (لوقا 1.)، وقد وصف القرآن الكريم تلك الواقعة وصورها بلغة أجمل من الكلمات

المترجمة عن اليونانية وأجزلها وأبلغها من حين قال: "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا. فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا .قال إنما أنا رسول ربك لأهبَ لك غلامًا زكيًا. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيًا" (مريم)، "ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكُتبه وكانت من القانتين" (التحريم)، وكانت خالة اليصبات "أم الإله" كما يسميها الأقباط، قد حبلت قبلها بستة أشهر بمن قال عنه المُخلِّص: "لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان" (متى 11)، وقال عنه القرآن الكريم: "وسلام عليه يوم ولدَ ويوم يموتُ ويوم يُبعث حيًا" (مريم).

من أجل أن يكون مُبشِّرًا بظهور الإله وعودته من السماء السابعة إلى الأفق الرحب، متجسدًا بروح الشمس، ولد آخر أنبياء العهد القديم، المبشر بالعهد الجديد، النبي يحيى في الرابع والعشرين من شهر حزيران، شهر بؤونة الفرعوني، أي في اليوم الذي يأخذ فيه النهار في النقصان، وينتقل فيه آمون الشمس من شرق النيل إلى غربه ووُلِد المخلص في الخامس والعشرين من كانون أول، شهر كيهك الفرعوني أي في اليوم الذي يأخذ فيه النهار في الزيادة، وكان عيدًا فرعونيًا قديمًا تتلاقى فيه الأرواح وتجتمع على الخير والعطاء.

كان لا بد من ظهور الغرباء من غير المصريين، ليكونوا شهداء حياديين على مولد جديد للمخلص حورس ابن الآب أوزيريوس وابن العذراء إيزيس، ليطل بعينه الساحرة الجمال، ويضيء معالم الكون، مبشرًا بالسلام والمحبة والتآخي، ومن ثم يغرب نور شمس النهار في عينه السملة التي فقأها ذات يوم الإله ست ليعشى الليل، فيتناوب الزمن بين ليل ونهار متنقلًا بين عينيه السملة والسليمة ليرينا جمال الخالق وروعته وعظمته، فبؤبؤ العين يُمثِّل قرص الشمس المنير، والأهداب تُمثِّل أشعته الذهبية التي تَمتدُّ على أرجاء المعمورة. "ولما ولد..في أيام هيردوس الملك، إذا مجوس قد جاؤوا إلى أورشليم يسألون قائلين: أين هو المولود ملكَ اليهود؟ فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له" (متى إصحاح 2). وسمع هيرودوس الملك بالخبر العظيم "فدعا المجوس سِرًّا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر" (متى الإصحاح 2)، ثم اتفق معهم أن يذهبوا إلى بيت لحم ليتأكدوا من مولده، فتقدمهم النجم وأشار لهم إلى مكان مولد المخلص، فخروا له ساجدين، وقدموا له الهدايا التي حملوها من ذهب ولبان، ثم شاهدوا في الحلم ملاكًا، طلب منهم عدم إخطار الملك بمكان الصبي والعودة إلى ديارهم، فولوا الأدبار ليختفوا عن الأنظار. سمع الملك بخداعهم له، فأرسل جنوده ليذبحوا كل صبي وليد في بيت لحم، فظهر ملاك الرب ليوسف وقال له: قُم وخُذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه" فقام وأخذ الصبي وأمه ليلًا وانصرف إلى مصر. وكان هناك إلى وفاة

هيرودس. لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: "من مصر دعوت ابني".

مرت السنون الطوال، والشمس تشرق في الصباح وتغرب في المساء، ومياه اليم تتهادى حاملة الخير والعطاء لفردوس مصر.. دار الحياة والبقاء الأبدية، فكلمة الفردوس باللغة المصرية القديمة تعني دار البقاء الأبدية، لأنها دائمة الحياة لا تَموتُ. ربع قرن مَرَّ حتى شَقَّ خاتم أنبياء بني إسرائيل طريقه نحو نهر الأردن ممهدًا بقدوم المخلص صارخًا في البرية: "قوّموا طريق الرب"(يوحنا. الإصحاح 23/1)، أعدوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمة" (متى، الإصحاح 3) وظهر المخلص، فصرخ يوحنا بأعلى صوته: "هذا هو الذي قلت عنه: إن الذي يأتي بعدي صار قُدامي لأنه كان قبلي" "الذي لست بمستحِق أن أحُلّ سيور حذائه". (يوحنا، الإصحاح 1. 27) وغطس المخلص في مياه نهر الأردن المقدسة ليتعمَّد بها، "وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماواتِ قد انشقت، والروح مثل حمامة نازلًا عليه. وكان صوت من السماواتِ: "أنت ابني الحبيب الذي به سررتُ".(متى.3.17)

كان لا بد من تغيير رمز الصقر الذي يميز حورس، وعليه قرص الشمس، بطير آخر، يرمز للسلام، فحلت الحمامة البيضاء مكان الصقر اللاحم، فالرسالة لم تأتِ عبثًا، بل جاءت لوقف سفك الدماء والغزوات والحروب التي طال أمدُها بين آلهة النيل وآلهة المطر والتي لم تتوقف خلال آلاف السنين.

كان الملك هيرودس قد نكح هيزوديا امرأة أخيه فيليبس، فوقف يوحنا المعمدان ضد هذا الفعل الشنيع واعتبره إثمًا كبيرًا، فما كان من هيرودس إلا أن زجَّ به في السجن، وفي يوم الاحتفال بعيد ميلاده، دعا الملك العظيم قادة الجند الكبار ووجهاء البلاد لحفل عشاء كبير، وقدمت سلامويا ابنة هيروديا رقصتها الساحرة فخطفت ألباب الحاضرين وعقولهم، ومنهم الملك ذاته، فقد أعجبته كثيرًا، فعرض عليها أن تتمنى أمنية ليحققها لها على الفور، أن تطلب ما تشاء حتى لو نصف المملكة، فهمست لها أمها أن يأتيها برأس يوحنا المعمدان على طبق من ذهب، ونفّذ طلبها على الفور. وبموته فَقَدَ المخلص أحد أهم المؤمنين الصادقين به.

كان أمامَ المخلص العديد من المسائل المعقدة، والتي تطلب حلًّا يضمن نجاحها، فالفريسيون الخبراء يترصدونه في كل زاوية ومقام.

مشى فوق الماء وشفى المرضى وأحيا الموتى، قام بكل المعجزات التي تقوم بها الآلهة، وكثُر تلاميذه وأنصاره وصارت تعاليمه وكلماته مسموعة بين الناس، لكن المسألة لم تكتمل، فسرُّ المسألة هي في تكوينهم العرقي المزعوم، فهم من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكان عليه أن يخلصهم من تلك العقدة المريرة فقال لهم:" يا أولاد الأفاعي، من آراكُمْ أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أب. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم" (متى 3. 7 – 9).

تلك كانت العقدة الرئيسة التي كان عليه أن يحلها، أن يخلصهم من عقدة لازمتهم سنين طوال. باسم إبراهيم أبي الأنبياء، وباسم ذريته المقدسة، كانوا يحللون ويحرمون على هواهم، ويوسعون رقعتهم الجغرافية حسب الحاجة، فتارة تنحصر أرضهم في فلسطين وتارة تمتدُّ من يم النيل إلى نهر الفرات العظيم. كما كان عليه أن يقتلع الروح البدوية العدوانية التي تميزهم وتشرعن لهم أفعالهم، بغض النظر إن اتسمت بالوضاعة أم بالجبروت والطغيان، كانوا يُعيِّرون كل شعوب الأرض ويعتبرونهم كالبهائم. وكان على المخلص أن يخلصهم من تلك السمات القاتلة، التي تجعل منهم مكروهين، أينما حلت رحالهم. كان عليه أن يحارب قانون القتل كنوع من أنواع القصاص فقال لهم:" سمعتم أنه قيل: سنٌّ بسنٍّ وعين بعين، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل مَن لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا". (متى 5 – 38)، وتلك كانت من أهم المعضلات التي واجهته في أثناء تجواله، وتلك كانت لُب رسالته، صُنع المحبة والسلام على الأرض.

أما نظرته إلى الكنعانيين سكان لبنان الذين لعنهم نوح عليه السلام ذات يوم والمتسمين بالتأرجح والتذبذب، فلم يُولِهم أدنى اعتبار وحافظ على نظرة الازدراء العميقة نحوهم، بل يمكن القول إنه كان شديد القسوة نحوهم حين "انصرف إلى نواحي صور وصيداء. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة:" ارحمني، يا سيد، يا بن داود! ابنتي مجنونة جدًّا" فلم يُجبْها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: "اصرفها لأنها تصيح وراءنا!" فأجاب وقال: "ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب". فقالت: "نعم يا سيد! والكلاب

أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها!" حينئذ أجابها قائلًا: "يا امرأة عظيم إيمانك! ليكن كما تريدين"، وشُفيت ابنتها من تلك الساعة. (متى، الإصحاح 15) كان موقفًا غريبًا من مخلص البشرية، حين وصف الكنعانيين بالكلاب، ولم يباركها حتى أقرت بأنها كلبة، لكن من حقها كونها كلبة أن تأكل من موائد الأرباب، فعظم السيد إيمانها.

اهتزَّ عرش إله المطر، لأن قلوب الفقراء والمستضعفين في الأرض، خفقت إيمانًا بالسيد المُخلِّص وانجرفت وراءه كالسيل العرم الذي بات يهدد أسوار المدينة وحصونها وأربابها التجار والعشارين، وكان لا بد من إيقافه.

في الوقت ذاته كان المخلص يعرف جيدًا أنه قد هَزَّ وخلخل العروش الراكنة فوق أكتاف الشعب، الذي لن ينساه أبدًا، لن ينسى تعاليمه وفضله، لن ينسى كلمته ورحمته .. لن ينسى طريق السلام الذي خطَّه لكل شعوب الأرض.

صُلب السيد المخلص ووجهه يُنير الكون كقرص الشمس وعلى رأسه تاج من شوك كأشعة النجم الساطع، وحان وقت غروبه في عين حورس الظلماء، بعد أن أعاد للكون اتزانه، وديمومته.

وقع العقل المطري في مأزق كبير، فقد شاهد الناس بأم أعينهم المخلص يسير بينهم، يحدث الصغير والكبير، يدعوهم إلى التوبة، يعالج المرضى ويهدي الناس للصراط المستقيم، كما قال الصوت الصارخ في البرية، وكان لا بد من رفعه مرة أخرى إلى السماء، إلى المجهول..إلى ما

وراء العقل المعرفي، إلى الغيب المتلاشي، فحلق الناصري من جديد إلى السماء البعيدة، ليغيب عن أعين المجدلية التي كانت أول امرأة شهدت قيامته، لينبجس الصراع من جديد بين آلهة النيل وآلهة الصحراء والمطر، التي لا تكل عن الدعوة لشحذ السيوف والرماح والخناجر والسهام لإدخال الرهبة في قلوب الأعداء، فغرقت المنطقة برمتها في مستنقع الأفكار بين مخلص، أقنوم واحد يجمع ما بين الآب والابن والروح القدس، كمثلث ذهبي متساوي الأضلاع، لا يمكن للعقل أن يميز بين زواياه ورؤوسه المتساوية والمصنوعة من مادة واحدة، وبين مُخلِّص، وُلِدَ من أمٍّ بشرية.. من وعاء حاضن للروح القدس.وعلا صوت نسطوريوس المرعشلي السوري قائلًا: كيف لي أن أعبد طفلًا إلهًا مقمطًا؟! أي أنه كان يأكل ويشرب وكانت أمه نقطة الماء، محبوبة الله.. تُقَمِّطَه.

آتون.

الشمس لا تغيب، بل تغرب. وعندما تغرب عنك فإنها تشرق على غيرك.

أيها المشرق المنير

يا من تملأ الأرض بحسنك

أيها الجميل القوي البديع المتعالي فوق الأرض

يا من يمتد نوره على المعمورة

أنت الظاهر وأنت الباطن

حين تغيب في غرب الكون

يهيمن الظلام على الدنيا كالموت

فيأوي الناس إلى مضاجعهم

يغطون رؤوسهم

وإذا ما أحمر شفق الصباح

وبزغت على الكون شمسًا

فإذا الدنيا وقد أصبحت نهارًا

فتستيقظ الأرض ويهلل البشر

والحيوانات والدواب:

أنت الواحد الأحد لا شريك لك

خلقت الأرض كيف تشاء

فأنت الفرد الأوحد

لك الخلق ولك الحمد.

هزلت أجساد الماشية من قلة الطعام وبرزت عظامها من تحت جلدها، ولم تعد قادرة على السير، فأينما اتجهت كانت البرية قاحلة لا كلأ فيها، وغارت مياه الجداول في قاع الأرض العطشى، ولم تستطع عشتار إيقاظ بعل من سباته الشتوي، رغم معاناتها الشديدة في عبور

الأبواب السبعة المحكمة الإغلاق، فامتنعت الأزهار والأعشاب، عن الانبعاث من جوف الأرض، وانتشرت جيف الأغنام والحيوانات والدواجن في السهول والوهاد. أما الطيور الجارحة من صقور ونسور حليقة الرؤوس والبوم والبواشق فكانت سعيدة بكثرة الحيوانات الصريعة، الملقاة في كل مكان، وامتنعت طيور الحجل عن الإباضة كما تفعل في أيام الربيع، فقد استشعرت دبيب الموت القادم من أتون الشمس الحارقة. وعادت الكنيسة السريانية اليعقوبية المؤمنة بالطبيعة الواحدة للسيد المخلص للاستقرار في دمشق، بعد رحلة طويلة امتدت قرونًا عديدة كانت تبحث فيها عن مستقرٍّ لها ما بين ماردين وحمص..فإلى دمشق، فهي التي وقفت منذ أمد بعيد في المجامع المسكونية ومعها الكنيسة الأرمنية إلى جانب الأقباط المصريين في صراعهم الدائم مع إله المطر.

أخذ الرجال يشدون من أحزمتهم على بطونهم الفارغة، ليبقوا صامدين، واقفين على أرجلهم كيلا ينهاروا، فتنهار معهم أسرهم. لكن الجوع لا يرحم. الجوع مذل ومهين، وصدق من قال:" لو كان الجوع رجلًا لقتلته بسيفي" لكنه يَقتُل ولا يُقتَلُ. وحده المطر قادر على قهره، وحده إله السماء الذي يسير السحاب فيحيي الأرض الميتة حين يشاء قادر على منع وقوع الكارثة المحدقة بالناس، "ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحَبَّ الحَصِيد. والنخل باسقات لها طَلعٌ نضيد. رزقًا للعباد وأحيينا به بلدةً ميتًا كذلك الخروج" قال الإمام وجَرَّ

الحصانين الأحمر والأزرق ليخرجهما إلى باحة الدار لينعما بضوء النهار، فقد تعبت أبصارهم من معاينة الأشياء في الإسطبل المعتم.

لاحظ الإمام نحول جسد الحصان الأحمر وبروز أضلاعه، فاقترب منه يداعب غرته السوداء. لم يستجب الحصان لمداعبة الإمام كما كان يفعل عادة، وبقيَ ساكنًا، هادئًا دون أي ردة فعل، وكأنه فَقَدَ الإحساس بالحب والحنان. حدَّق الإمام إلى عينه، فردَّ عليه الحصان بنظرة ملؤها الأسى والعتاب، ثم رمش بأهداب عينيه المتعبتين وأشاح بنظره عنه. انفطر قلب الإمام من نظرة رفيق دربه وصديقه الودود، وأحسَّ بذنب عظيم وقال مُحدِّثًا نفسه: "كيف لي أن أُفهِمَه أن ما أفعله من أجله، ليبقى على قيد الحياة؟ صحيح أني أقنن الطعام عنه، كما أقننه عن الحصان الأزرق، لكني أقوم بذلك بدافع الحرص عليهما.. ليبقى شيء من المؤونة لهما.. فالأرض للعام التالي لم تنبت زرعًا ولا عُشبًا ولا قمحًا ولا بقولًا ولا.. عفوك ورحمتك يا الله، يا حنان يا منان، وذهب إلى التبان ليحضر للحصانين قليلًا من التبن الجاف، في قفتين مصنوعتين من قعال الكروم.

انطفأت براعم أشجار الجوز العملاقة المزروعة حول السواقي بعد أن جفَّ ماؤها، وبقيت أغصانها الهائلة العارية من الأوراق، مرفوعة نحو السماء في ابتهال أخير لإله الغيث، أن يرسل الودق للعطشى .. لكن من دون طائل. وسالت دمعتان من عيني أمينة، وهي تتجول بين الحقول والبساتين بحثًا عن أعشاب الحويش. فالزرع لم ينبت ولم يبقَ لدى الناس

ما يأكلونه. لقد بذروا الأرض بما احتاطوه من حبوب.. لكن الأرض تشققت وتسرب الهواء الجاف إلى الحبيبات، التي تعفنت وفقدت القدرة على الحياة فاستسلمت للقدر.

اتكأت أمينة بظهرها علي جذع شجرة جوز عملاقة، ومسحت دموعها بطرف منديلها الشاحب وتركته يغطي عينيها.. لم تعد قادرة على رؤية عذاب الموت البطيء، يتسلل إلى جذور النباتات والأشجار المصفرة، فيمتص منها الحياة. يا الله خذني إليك قبل أن أرى أشجار ديرفول يابسة محطمة تحترق بلهيب الشمس. قالت أمينة في نفسها وبكت. بل أجهشت في البكاء.

غدت القرية كجيفة ملقاة وسط البرية، وانسلخ الطين عن جدرانها، وتساقط في قطع كبيرة، ليتعرى اللبن والأحجار الزرقاء، لتبدو البيوت كهياكل عظمية يقشعر البدن من رؤيتها، وهي تنازع الرمق الأخير. فسكان القرية لم يسيّعوا الجدران الطينية كعادتهم، وفضّلوا الحفاظ على التبن طعامًا للمواشي، كما لم يطلوها بالحَوار الناصع البياض، كما كانوا يفعلون في كل عام. وبدأت القرية تفرغ من سكانها، فلم تعد ترى فيها سوى العجز من النساء والرجال والأطفال الصغار، أما الشُّبان فقد غادر نصفهم، من الذين حالفهم الحظ، عبر بحيرة قطينة ونهر العاصي إلى لبنان، هربًا من الاعتقالات التي طالت الصغير والكبير دون تمييز، فالسجن المركزي كبير ويتسع للجميع، أما من بَقِيَ منهم، فكانوا يمضون جُل وقتهم في البرية، وعلى التلال المحيطة، بالقرية يراقبون الطُّرقات،

وسيارة اللاندروفر الجديدة، التي كانت تظهر فجأةً، كحيوان مفترس، ليخرج منها رجال مسلحون بالبنادق والرشاشات الثقيلة، بثياب مدنية، فينقضون على الشبان كالذئاب المسعورة، ليكبلوهم بالحديد ويحملوهم في سيارة اللاندروفر السيئة السمعة ، لزجهم في أقبية السجن المركزي، أو في قبو الشعبة الثانية. لم يعد الدرك يظهرون على جيادهم الأصيلة إلا نادرًا، فالمجرمون الملاحقون سياسيون ومن اختصاص الشعبة الثانية، أي من اختصاص سيارة اللاندروفر، التي مرت مسرعة من أمام عيني أمينة، وقد أثارت عاصفة من الغبار تصاعدت حتى قبة السماء.

توقفت السيارة أمام مترل أبي روزا، وهبط منها الرجال الأشاوس وخلعوا الباب الخشبي المتآكل، واقتحم ثلاثة منهم المترل، في حين اعتلى اثنان منهم سطحه، لإحاطته من كل الجوانب، كيلا يستطيع أبو روزا الفرار من قبضتهم.

كان أبو روزا المشلول، الذي لا يستطيع الحركة إلا زحفًا على يديه، أو بمساعدة عبد الرحمن الأعمى، متمددًا كعادته على سريره الحديدي، قرب النافذة المطلة على باحة الدار، حين اقتحموا غرفته الكئيبة، المسودة، التي لم يلامس الحَوار جدرالها منذ سنوات.

قام الأشاوس المحترفون برمي كتبه في الموقد، وأسقطوه على الأرض ليفتشوا أسفل الفراش، ووجدوا العديد من المنشورات السياسية، التي يعود تاريخها إلى ما قبل أيام الوحدة، بين الإقليمين، فقال له قائد الوحدة: وستقول لنا إنك لست شيوعيًّا ملحدًا كافرًا؟ لكن أبا روزا

وأمام استغراب المقتحمين ودهشتهم، أجاب وهو يحاول أن يجر جسده بيديه نحو الجدار، ليستند بظهره إليه: دمي إن سال على الأرض سيكتب أني شيوعي.

ضحك الأشاوس ساخرين من هذا الجواب الذي لم يسمعوه من أحد قبل هذا اليوم، وعزوه لمرضه، واعتبروه معتوهًا أحمق، فقال قائدهم: أرحتنا باعترافك هذا، فأنت تقر بذنبك بأنك عدو للوحدة العربية وتقف ضدها، وضد الزعيم الخالد عبد الناصر. فأجاب أبو روزا بغضب شديد: أنا ضد سياسة القمع والإرهاب والاعتقال، التي تمارسونها بحق الشباب. القرية خلت من سكانها، وأنتم تسوقونهم كالحيوانات إلى زرائبكم النتنة. فرفسه قائد الوحدة في رأسه، وتدفق الدم الحار من أنفه وفمه، فابتسم أبو روزا ابتسامة منتصر وقال:

سيحاسبكم الشعب على جرائمكم. انهالوا عليه ضربًا ولكمًا ورفسًا ومن ثم سأله قائد الوحدة: والآن أخبرنا أين يختبئ رفاقك الحقراء؟ نظر أبو روزا بعينيه الخضراوين في عيني محدثه ومسح الدم بطرف كُمِّه وقال: لم يبقَ أحد منهم. لقد فروا جميعًا إلى لبنان أو العراق. يمكنكم ملاحقتهم هناك. لن تجدوا أحدًا غيري في القرية كلها، فمن بقي من الشبان ليس لهم أي علاقة لا من قريب أو من بعيد بالسياسة. إنهم فلاحون بسطاء، فقراء. أنا الوحيد الذي بقيَ منهم. خذوني إلى زنزاناتكم العفنة، لأنضم إلى رفاقي. الموت أشرف لي من هذه الحياة. فلطمه قائد الوحدة وقال لرفاقه: لن نحمل هذه الجيفة معنا، فلن يهرب إلى أيِّ مكان. اجمعوا المستندات والأوراق واحرقوا هذه الكتب اللعينة.

نفذ العناصر المهمة بنجاح تام، وخرجوا خلف قائدهم إلى باحة الدار ليشاهدوا الأستاذ إلياس في انتظارهم، فهو الإنسان الوحيد الذي تجرأ على الاقتراب من مترل أبي روزا في ساعة الغضب تلك. وقف إلياس وحيدًا في الزقاق، ينتظر خروجهم، فحيّاه قائد الوحدة وهو يستقلُّ سيارة اللاندروفر قائلًا: أهلًا أستاذ إلياس، لا تقلق، سنقضي على هؤلاء الجرذان. الكلب يعترف بكل وقاحة أنه كافر. وانطلقت السيارة، بعد أن زعقت عجلاتها الخلفية على الطريق الترابي، لتطلق خلفها الغبار الذي تساقطت ذراته الناعمة على الأستاذ إلياس.

شيع الأستاذ السيارة بناظريه حتى غابت خلف البيوت، وهُرع إلى غرفة أبي روزا ليجده قد زحف نحو الموقد يحاول إطفاء النار المولعة في الكتب الحمراء، فاشتعلت النار في الحصير العتيق، كما احترقت يداه وشعيرات حاجبيه. سحبه الأستاذ إلياس بعيدًا عن النار، وهو يشتم ويتمتم بكلمات لا معنى لها حتى قال: هؤلاء أعداء الوحدة، هؤلاء ليسوا عربًا، إنهم قتلة مأجورون وعبد الناصر لا يعلم ماذا يفعلون.. لهم يوم وإن ناظره لقريب.

في ذات اليوم ليلًا، كانت وحدة من الشعبة الثانية قد انطلقت من شارع بغداد في دمشق لتلقي القبض على صبحي الحبل المسؤول عن أحد البيوت السرية، والمراقب جيدًا من قبل أجهزة الأمن، فقادوه إلى السجن وجلسوا مكانه في البيت، ينتظرون الصيد الثمين، القادم إليهم من لبنان، فرحبوا به حين وصوله باسمه الحركي: أهلًا بأبي فاضل. ثم قادوه إلى التحقيق.

كانت صدمة فرج الله الحلو أبو فاضل كبيرة وعميقة.

لم يصمد جسده أمام أساليب التحقيق الحديثة والمبتكرة، خاصة الصعق الكهربائي، فسلم روحه لبارئها خلال أقل من ساعة من التعذيب المستحدث. وفوجئ عبد الحميد السراج بموته السريع، فأمر العناصر بالتخلُّص من جثته على الفور، وفقًا للمبدأ القائل: "إن كانت هناك جثة فهناك جريمة وإن اختفت فتختفي الجريمة معها". قام العناصر في نفس الليلة بحفر قبر له في التربة ودفنوه فيه، فسألهم عبد الحميد بعد ساعة عما فعلوه بالجثة، فأخبروه بأنهم تخلصوا منها، وقبروه في المقبرة، فزمجر الضابط العتيد وتوعدهم بأشد العقوبات قائلًا لهم: يا كلاب ألن يكتشف حارس المقبرة أن قبرًا جديدًا ظهر في الليل؟ قلت لكم غيبوا جثته عن الوجود..لا أريد أن يبقى لها أثرًا، فهو لبناني ودخل الحدود عن طريق المهربين، أي إن أحدًا لا يمكنه المطالبة بجثته. فهو والهواء سواء.

عند الفجر نبشوا القبر وأعادوا الجثة إلى الشعبة من جديد، وأحضروا برميلًا من حمض الأسيد وضعوه في الحديقة الشمالية للبناء بين أشجار النخيل، ثم قاموا بتغطيسه رويدًا رويدًا في برميل الحمض ليحترق جسده ويتحوَّل إلى بخار تصاعد وتلاشى في سماء دمشق، قلب العروبة النابض.

اتَّجه ياسر الأممي شرقًا نحو العراق، الذي رفض الانضمام إلى دولة الوحدة العتيدة، بل جمَّد عضويته في جامعة الدول العربية، وقام عبد الكريم قاسم بتنحية عبد السلام عارف وأرسله سفيرًا إلى ألمانيا الاتحادية،

لينفرد في حكم العراق، معتمدًا على ميلشيات ماركسية بدأت تبث الرعب والخوف والهلع في قلوب المواطنين، وتحوَّل قائد ثورة تموز، لعدو لزعيم الأمة العربية جمال عبد الناصر.

كانت بحيرة قطينة التي شيَّد الفرنسيون سدها لإرواء سهل الغاب، قد أغلقت منافذها تمامًا بكمائن عناصر الأمن، الذين نشطوا في أعمال تهريب البضائع من لبنان إلى الأسواق السورية، فاختار ياسر التوجُّه نحو العراق بدلًا من لبنان. وكانت مفاجأته الكبرى حين ربت يوشع على كتفه قائلًا: أهلًا بابن البلد.

كان يوشع مع الذئب يعمل في تهريب الفارين من وجه "العدالة" إلى العراق مقابل مبالغ كبيرة من المال، وكانوا قد نقلوا أكثر من عشرة آلاف شخص عبر الطرق الصحراوية التي يسيطرون عليها فعليًّا، ولم يكن السراج الذي كان يعمل على خياطة الجميع بمسلة واحدة قادرًا على إزعاج الشيخ يورنس أو الاقتراب منه، بل كان يتحاشى الصدام معه، أو يؤجله لزمن لاحق، لمعرفته الدقيقة بقوة رجاله وانتشارهم في البادية، التي تمتدُّ بعيدًا في عمق الصحراء، كان همُّه الأول ينحصر في تثبيت الأمن من الساحل وانتهاء بخط المطر الأول الذي يشمل كبرى المدن السورية مرتع القلاقل التي لا تنتهي.

شربا حتى الثمالة، ضحكا كثيرًا وتشاركا في البكاء، ولم يستطع ياسر صبرًا حتى قال له: أنت أسوأ من السراج يا يوشع. على الأقل السراج يلاحق أعداءه، أما أنت فقد قتلتَ صديقك ورفيق عمرك، ولطخت

سمعة أختك كوثر. كوثر أشرف من أن يلطخَ اسمها بالعار، فأنت العار يا يوشع. كوثر نقية كحمامة بيضاء في عالم أسود. كوثر أكبر وأسمى منك ومني. فهي ما زالت صامدة ترفض مغادرة القرية لأي سبب كان.

– ولماذا تغادرها؟ إلى أين يمكنها الذهاب؟

– قبل أن تقودني قدماي إليك، عرضتُ عليها أن تصحبني في طريقي فرفضت. قالت: إنها لن تغادر بيوت الطين. هي تعمل في تربية ديك الحبش، وتدبر أمر معيشتها، لكن الأحوال ساءت في السنتين الماضيتين. لم نحصد "شمالًا" واحدًا. لم ينبت الزرع، لم ينبت العشب، كأن لعنة حلت بنا، مع أني لا أؤمن بالخرافات.

– أنا لا أفهمك جيدًا؟ أوضح لي. لماذا تخاف على أختي كل هذا الخوف؟

– كوثر رفيقة لنا. قال ياسر وجحظت عينا يوشع، وتدفق النار إلى رأسه.

– أختي كوثر رفيقة ..لكم!؟

– هي أشرف الرفيقات وأنقاهن. هي شرفنا جميعًا.

– لولا محبتي لك لقتلتك –قال يوشع– ألم تجدوا غير أختي لتجعلوها رفيقة للشياطين؟

وخيَّم صمت ثقيل. لم يعودا يسمعان فيه سوى أنفاسهما الحارة، فقال ياسر: كيلا تُلوِّث يداك بجريمة أخرى، يمكنك أن تسلمني إلى شركائك، وهم يتكفلون بي.

- اخرس - قال يوشع - في الفجر سأقلك إلى العراق، كيلا أرى وجهك مرة أخرى. كنتُ عازمًا على إبقائك إلى جواري، لكن من الأفضل لنا أن نفترق.

- بالتأكيد. قال ياسر الأمي وغطّ في نوم عميق بانتظار الفجر.

اصطفت النساء البائسات المعذبات الكالحات الوجوه، مع أطفالهن في ساحة القرية، في طابور "الإعاشة" ليحصلن على معونة الغذاء البسيطة، المقدمة من هيئة الأمم المتحدة، المكونة من رطل من الطحين وكيلوجرام من الأرز وأوقية من السكر وأخرى من العدس لكل فرد يمتلك شهادة "فقر حال"، أي لكل من قام بتسجيل نفسه وعائلته عند الدولة طلبًا للمعونة. امتنع الرجال عن الوقوف في طابور "الشحاذين" كما سموه صونًا لكرامتهم، وأرسلوا نساءهم بدلًا عنهم ليتلقوا الإهانة والسباب والشتائم، من الموظفين المشرفين على عملية التوزيع، قبل حصولهم على حصتهم الغذائية.

بعد أن أفَلَتْ الشمس الحارقة، جلس رهط من الرجال، على المقاعد الحجرية، مستندين بظهورهم إلى جدار المسجد، ليتنفسوا الصعداء. كانت الأحجار البازلتية لا تزال تختزن حرارة النهار فقام الحاج يعقوب برشّها بقليل من الماء البارد، من خابية (الجرة الكبيرة) المسجد فأطلقت الأحجار صوت هشيش، لتتنفس الصعداء هي الأخرى، كحشرجة صدورهم المتعبة. كان بعض الفتيان قد جاؤوا بحصة من معونات الأمم المتحدة، للشيخ عبد الله، فوضعها إلى جانبه وقال: سيعاقبكم الله على

آثامكم بأشد من ذلك، لأن الله يقول: "من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد" (فصلت). نحن أسأنا لأنفسنا، ونستحق هذا العقاب.

– خير إن شاء الله؟ ما الذي فعلناه لنستحق كل هذا العقاب؟ سأل عبد الرحمن الأعمى. نحن نكاد نموت جوعًا، ما الذنب الذي اقترفناه؟

– أنتم لا تعيرون اهتمامًا لكلام الله، ولا تنفذون أوامره، ثم تسألون: لماذا يغضب الله عليكم؟ الله يحاسبنا في الدنيا والآخرة، ليس فقط في الآخرة.

– قل لنا إن كنت تدري ماذا نفعل حتى يرفع الله عنا هذا الغضب.

– الفواحش تُرتكب أمام أعينكم وأنتم صامتون. الزناة يدنسون طهارتنا لأنهم بيننا، ولا تفعلون شيئًا لهم. سبق وحذرتكم، لكنكم "ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَلِ الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً صم بكم عمي فهم لا يعقلون"، صدق الله العظيم.

– يا شيخ عبد الله، لقد تغيرت الأحوال والأيام – قال الأستاذ بدر– وهناك من هم مسؤولون عن هذه المسائل..أقصد الدولة بأجهزتها المتنوعة والمختلفة الاختصاصات. نصف شباب القرية صاروا في السجون وأنت تطلب منهم رجم زانية.

– يستحقون. لو لم يكونوا مذنبين، لما قدر الله لهم ما أصابهم. الزناة هم أساس المشكلة في أمتنا الإسلامية. وأنتم جالسون تتفرجون عليها وتضحكون كالعاهرات.. بماذا تختلفون عنهن؟

كانت الإهانة الموجهة للجميع ثقيلة ومريرة، لكن أحدًا لم يرغب بالرد على الشيخ عبد الله تجنُّبًا للعناته.

حمل الإمام الأزهري حصته التي حصل عليها من الإغاثة وأراد الانصراف بعد أن لاحظ الصمت المطبق الذي خيَّم على الحاضرين، لكن الأستاذ بدر أوقفه قائلًا: إلى أين أنت ذاهب؟ لماذا لا تدلي برأيك في هذا الشأن؟

– وماذا يمكنه أن يقول؟ – سأل الشيخ عبد الله. النص واضح وصريح وقد أجمعَ عليه فقهاء الأمة، كما أن أحاديث رسول الله يعرفها الجميع بهذا الخصوص.

– أنا، لا أحبذ الخوض في موضوعٍ كهذا لا قيمة له. قال الإمام بتلكؤٍ واضح للجميع.

– ماذا تقصد بكلامك يا عبد الواحد؟ سأل الشيخ عبد الله. أتريد أن تنتقص من كلام معلمك؟

– معاذ الله يا مولاي. فأنت أول من علمني قراءة القرآن. اعذروني أيها السادة الأفاضل. أستودعكم الله.

لكن مجموعة من الرجال، وبأسلوب المزاح، اعترضوا طريقه قائلين له: لن تذهب قبل أن تدلي بدلوك، وإلا سنذهب في صباح الغد لرجمها ليغدق الله بالمطر علينا. وأعادوه إلى مكانه. فقال الإمام: إن سمح لي شيخي ومعلمي فسأقول ما عندي، وإن منعني فلا مطلب لكم عندي.

– هاتِ، أسمعنا. قال الشيخ عبد الله، مستهزئًا.

أطرق الإمام برأسه في الأرض وقال في سره: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير. ثم جال بعينه في الحاضرين.. وللحظة التقت عيناه بعيني الحاج يعقوب، الذي وقف في وجهه في المسجد ذات يوم معترضًا على كلامه، ثم قال: إخوتي في الإيمان، من يقول إن آية الرجم قد وردت في القرآن الكريم وتم نسخها ولم يُنسخ حكمها فهو يُشكِّك في صحة كتاب الله وكماله، فالله يقول في سورة الحجرات، بسم الله الرحمن الرحيم: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، صدق الله العظيم.

– أتُكذِّبَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا عبد الواحد؟

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهل هناك مسلم يجرؤ على فعل ذلك؟ من أنا لأكذب الفاروق يا مولاي؟ لكن.. من يثبت لنا أن هذا ما قاله خليفة خليفة رسول الله؟ انتظروا قليلًا.. انتظروا.. عليكم أن تعلموا قبل أن ترددوا كالببغاوات، أن أول جَمعٍ لأحاديث رسول الله، تم بعد مائة واثنين وعشرين عامًا من وفاته.. هل أنا مخطئ يا مولاي؟

– لا. قال الشيخ عبد الله، فتابع الإمام قائلًا: فكيف لنا أن نتيقن من صحة الحديث أو ذاك أو عدم صحته؟ كيف؟ أقول ببساطة إن كل ما يخالف ما ورد في كتاب الله، فهو باطل، حتى لو أجمع عليه فقهاء الأمة. وهذا حديث يخالف شرع الله، لأنه يخالف القاعدة الفقهية القائلة إن أول مصدر للتشريع في الإسلام هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد بن عبد

الله، وقد ورد حكم الزانية في سورة النور التي يقول الله تعالى في مطلعها بسم الله الرحمن الرحيم: "سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون". صدق الله العظيم. هنا يحذرنا الله من الجدل في هذه الأحكام لأنه يقول: "أنزلناها وفرضناها" فلا تجادلوا فيها. ثم يأتي على حكم حد الزاني والزانية، وليس الزانية فقط، فيقول: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين"، وهل هناك أوضح من هذا الكلام؟ هل هذا الكلام يحتاج لتفسير أو تأويل؟ فماذا يشهد المؤمنون؟ عذابهما وليس موتهما، والرجم يعني الموت، ولا يعني العذاب. هذا هو حكم حد الزاني والزانية، لكن كيف لنا أن نثبت ذلك؟ كيف لنا أن نتهم فلانًا أو فلانة بالزنا؟ هل يكفي مجرد الاتهام لننفذ الحكم؟ طبعًا لا، لأن الله يقول في السورة نفسها: "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون" فعلى كل مدعٍ أن يأتي بأربعة شهداء، يشهدون بحدوث الواقعة، ليتم تنفيذ حكم الجلد، أما من لم يأتِ بالشهداء، ويرمي المحصنات، أي المتزوجات، فيحكم عليه بالجلد ثمانين جلدة، وهل هناك أعظم وأرفع من هذه العدالة.. عليه أن يأتي بأربعة شهداء وإلا كان من الفاسقين ويجلد ثمانين جلدة .. رحمتك يا الله، ما أعظم شأنك!

وفي حال اتهم زوج امرأته بالزنا.. وهل هناك أعظم من حالة كهذه؟ إن اتهم زوج امرأته بالزنا، فعليه أيضًا أن يأتي بالشهداء الأربعة، وإن لم يستطع فعليه أن يشهد خمس مرات بصدق كلامه، للحكم فيها، لكن الله العادل الرحيم، لم يترك الأمر هكذا، فأعطى المرأة حقها أيضًا أن تشهد خمس شهادات، فإن شَهِدَت خمس مرات بأنها بريئة، فيدرأ الله عنها العذاب..قال الله تعالى: "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين".. تلك هي أحكام الله يا إخوتي في الإيمان.. فاخشوا الله لأنه يريد بكم الرحمة والعفة والأخلاق الحميدة وفوق كل ذلك الصدق. أما حكم الزانية من ما ملكت أيمانكم من النساء ولا أريد الدخول في تفسير معنى قوله تعالى: "ما ملكت أيمانكم" فقد جاء مخففًا إلى النصف، حين قال في سورة النساء: "فإذا أُحصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهم نصفُ ما على المحصناتِ من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم"، فهل هناك رجم ونصف رجم!؟ انتبهوا جيدًا لقوله تعالى: "عليهم نصف ما على المحصنات"، فكيف نقسم الموت بالرجم إلى نصفين..لا يمكن ذلك، في حين، يمكننا تقسيم عدد الجلدات، فنصف المائة خمسون جلدة، وهي حكم من ملكت أيمانكم، فلماذا يا إخوتي ننسى كلام الله الصريح الواضح، ونذهب إلى أحاديث ما أنزل

الله بها من سلطان؟ وفي نهاية الأمر أقول ما قاله الله تعالى: "الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحُرم ذلك على المؤمنين". صدق الله العظيم. فلماذا تريدون الإساءة إلى سيد الأنام محمد بن عبد الله؟ والسلام عليكم. قال الإمام وحمل حصته الصغيرة من المعونة وغادرهم دون أن يلتفت خلفه.

ساد صمت ثقيل لم يسمع فيه سوى شخير الشيخ عبد الله الذي غطّ في نوم عميق مع نسمات الهواء الذي خفّت حرارته قليلًا.

***

شُعوبيون

كلمة حديثة دخلت معجم المنهاج المدرسي، ويجب على تلاميذ مدرسة القرية حفظها، ولعن أصحابها، دون أن يعلموا أنهم المقصودون بذلك، فهم على حين غرة، باتوا أعداء للأمة العربية والإسلامية. فالعروبة والإسلام صنوان، يكمل بعضهما بعضًا كالليل والنهار، فتأججت المشاعر القومية العربية،وتدفقت الدماء الحارة، لتسبب صداعًا وألمًا في الرؤوس التي حميت بلهيب شمس العروبة الساطع، وكانت تبحث عن مخرج تنفس فيه هواءها الساخن المتدفق في موجات حارقة.

لأسباب مجهولة لم يعد الأستاذ الأسيوطي من مصر ليتابع عمله في التعليم، وسرت إشاعتان متناحرتان حول غيابه، فمنهم من قال إنه قدَّم استقالته من سلك التعليم، وأخرى قالت إنه اعتُقل وهو موجود في سجن الرمال المخصص للسياسيين من الإخوان المسلمين والماركسيين العرب.

كان القوميون العرب في ذروة قوتهم وعنفوانهم وجبروتهم، وكانت شعاراتهم تؤجج الحماسة في قلوب الناس، فالوحدة العربية قامت من أجل الرد على هزيمة حرب ثمانية وأربعين، ولاسترداد كرامة العرب وحقهم في فلسطين، فقادة الثورات كانوا جميعًا من الضباط المهزومين في

تلك الحرب المشؤومة، لكن حلف بغداد الاستعماري كان يعوقهم من أخذ زمام المبادرة، فانقلبوا عليه ونجحت ثورة العراق التي اطاحت بالحكم الملكي المتهم بالعمالة والرجعية..فماذا يفعلون الآن؟ هل يوجهون جيوشهم نحو إسرائيل لتحطيمها وإزالتها من الوجود، أم يوجهونها نحو الأكراد المنتفضين في شمال العراق، بدعم من شاه إيران الإمبراطور محمد رضا بهلوي؟ وهذا ما سبَّب قلقًا كبيرًا لسلطات الإقليم الشمالي، فأكراد العراق على صلة مباشرة بأكراد سوريا، وهم يتنقلون بحرية تامة، إذ كان يكفي أن تجتاز نهر دجلة الذي يقفز بمائه كالأسد الهصور لتصبح في العراق، والعكس صحيح، لكن تهريب المناوئين السياسيين، لم يكن يتم عن طريقهم، بل عن طريق الشيخ يورنس، فأرسل له السراج وفدًا برئاسة أحد ضباطه الكبار ليقدم له عرضًا للتعاون مع وزارة الداخلية، من أجل حفظ أمن حدود البلاد وسلامتها، من نزوات عبد الكريم قاسم ومغامراته من جانب، ومن الأكراد من جانب آخر.

قرأ الشيخ لائحة أسماء المطلوبين الطويلة، التي سلمها له الضابط الكبير، وفكّر مليًّا، قبل أن يجيب طلب السراج المعروف بخداعه وأساليبه الشيطانية للإيقاع بخصومه، فقال في نفسه: إن وافقت على طلبه فسيكون ذلك كأنه اعتراف مني بأني أقوم بتهريبهم إلى العراق، وستلصق بي تهمة الخيانة، وإن لم أوافق سيتهمني السراج بعدم التعاون مع السلطات في دمشق، وإن استطاع أي شخص من ذوي النفوذ، الهرب عبر الحدود دون علمي، سأُتَّهم بتهريبه! أدار وقلّب الأسئلة في رأسه مطولًا، وطلب من أحد عبيده السود، أن يجول على الحاضرين بالقهوة

المرة، ليكسب مزيدًا من الوقت. لم يكن قادرًا على تأجيل الإجابة وقتًا آخر، فطلبُ السراج لا يحتاج لتفكير كبير، لأنه واضح وصريح، ولم يكن أمامه خيار آخر، فإما أن يعلن موافقته ليُحَمّلة السراج كل المسؤولية، ولينقض عليه عندما تتهيأ له الفرصة، أو يرفضه ليعلن السراج الحرب عليه، والخياران أمران أحلاهما مُرٌّ، فقال الشيخ يورنس للضابط الكبير: أوافق على ذلك، شريطة أن تصدروا أوامركم لحرس الحدود من الهجانة والجمارك، ونقاط العبور، للتعاون معنا لتنفيذ المهمة. ضحك الضابط الكبير وقال: أتريد منا أمرًا بتسليمك السلطات في البادية، أن تخضع الهجانة والجمارك لأوامرك يا شيخ يورنس؟ هذا مستحيل!

حمل الضابط الكبير كلمات الشيخ يورنس الأخيرة، وعاد بها إلى حلب، ليبلغ السراج ببرقية عاجلة بمطلب الشيخ يورنس، وهذا ما كان ينتظره السراج في شارع بغداد، من حيث انطلقت سيارتان محملتان بالعناصر المدربة، لتشن هجومًا مُباغتًا على قصر مدام ديانا الخوري زوجة يورنس في بلودان.

كانت ديانا وابنها سمير يديران في بلودان قصرًا مخمليًا خاصًّا للقاءات الحميمية للنخبة السياسية والاقتصادية في دمشق. لم يكن القصر المعروف للجميع باسم "قصر مدام ديانا" يحمل أي لافتة تشير إلى طبيعة عمله، كمطعم أو ملهى أو كازينو، لكن أنواعًا من السيارات الفخمة كانت تتوقف عنده في كل يوم، بعد العاشرة ليلًا، كما كانت السيارات التي تحمل اللوحات اللبنانية، تظهر بين الفينة والأخرى، لتمضي ليلتها أمام القصر، حتى يخرج أصحابها مع الفجر، وينسلون عائدين من حيث

قدموا. أحاط الرجال بالقصر من كل جانب في حركة لا تخلو من عرض مسرحي أمام أعين الناس جميعًا، بهدف التشهير وإثبات التهمة التي لم تكن بحاجة للإثبات، وأخرجوا من القصر عددًا من النساء شبه العاريات بملابسهن الغريبة، وشعورهن المستعارة، وطلاء وجوههن الفاقع.

كانت التهمة جاهزة والأدلة الجنائية متوفرة، وجاء دور القبض على سيدة البيت، مدام ديانا التي كانت ترفل بثوبها الحريري الشفاف، الذي يبرز مفاتن جسدها الأسمر، فلم يستطع سمير رؤية أمه، وسيدته، تخرج مهانة بهذه الطريقة الوقحة، فأخرج مسدسه، وأطلق النار على قائد الوحدة في قلبه وأرداه قتيلًا.

كان الهدف من العملية القيام "بفركة أذن" للشيخ يورنس ليذعن للأوامر الصادرة، بعد أن يدفع قليلًا من الرشا، لإخراج زوجته من قبضة العدالة، لكن الأمر تطوَّر بشكل مفاجئ ودراماتيكي. كان قائد الوحدة يطمئن سمير حين ظهرت أمه شبه عارية، يقودها عنصر قوي البنية، من معصمها المجلل بأساور الذهب حتى المرفق: لا داعي للقلق – قال القائد – يومان أو ثلاثة وتُحلُّ المشكلة، ويُفرج عنها. لكن سمير الذي اعتاد ألَّا تقع كلماته على الأرض، لم يستطع صبرًا على رؤية والدته مُكبَّلة بالأغلال، فارتكب حماقته الكبيرة، ثم فر هاربًا بأعجوبة من بين يدي عناصر الأمن، الذين أصيبوا بالصدمة للوهلة الأولى، ثم قاموا بملاحقته وإطلاق النار عليه من مسافات بعيدة فأصابته إحدى الرصاصات في ذراعه إصابة طفيفة، ليغيب بعدها عن أعين مطارديه ويظهر في صبيحة اليوم التالي في بيروت.

أعلن الشيخ يورنس الاستنفار بين صفوف قواته الخاصة، وأمرهم بالتخفي في أماكن محددة من البادية، كما قام بنقل المضارب فورًا إلى ماكن مختلفة، وطلب من ابنه سمير السفر فورًا إلى تركيا، لتقوم عناصره بتهريبه عبر الحدود إلى البادية السورية، ليلتقي بأبيه في بادية الله الواسعة.

لم يعد في وسع الشيخ يورنس الظهور في المدن الكبرى كحلب أو دمشق، كانت التعليمات صارمة لكل أجهزة الدولة، بإلقاء القبض عليه، وعلى كل شخص يمتُّ له بصلة قريبة، وخاصة رجاله، الذين باتوا يَقتُلون ويُقتَلون، في معارك شبه يومية، مع أفراد حرس الحدود. وأرسل السراج تهديدا للشيخ يورنس قال فيه: عليك أن تسلم ابنك الفار من وجه العدالة إلى القضاء، إلا سنقضي عليك، إما أن نعلق مشنقتك في ساحة المرجة أو مشنقة ابنك سمير، الذي ارتكب جريمة لا يمكننا السكوت عنها" رفض الشيخ أمر حاكم البلاد، مدعيًا أنه لا يعرف مكان ابنه، فأخبره الحاكم بأمر زعيم الأمة العربية، بعلمه بمكان وجود ابنه وبنوع لباسه التنكري، وبأشياء دقيقة أدخلت الشك والفزع في قلب الأمير، وعرف من خلالها أن للسراج عيونًا تراقبه عن قرب، وقد تغدر به في أي لحظة، فقرر نقل ابنه عبر الصحراء إلى الجزيرة العربية، قبل أن يفاجئه السراج بخدعة لا تخطر في البال، فكلمات السراج واضحة لا لبس فيها، إما أن نعلق مشنقتك في ساحة المرجة أو مشنقة سمير، فجريمته لا تغتفر ولا يمكن التهاون فيها، لأنها تمسُّ هيبة الدولة وسلطاتها الوطنية.

الحِبْر بِحيرا

تُوفّي الشيخ عبد الله، وجرى له تأبين مهيب، شارك فيه كل أهل القرية وكثير من رجال القرى المجاورة، الذين توافدوا على المقبرة من كل حدبٍ وصوب حالما سمعوا بوفاته. وبكاه الإمام طويلًا ونذر لروحه الطاهرة "ختمة" من القرآن الكريم. كما بكته أمينة وابتهلت إلى الله أن يغفر لها وله ذنوبهما.

كان الشيخ عبد الله قد تغيب عن صلاة المغرب في المسجد لأول مرة منذ سنين طويلة، وربما لم يتغيب قط منذ أن سجد لله في المرة الأولى تحت سقفه. بعد صلاة العشاء تساءل المصلون عن سبب غيابه وتفقدوه. فوجدوه جثة هامدة فوق المصلاة وقد انزاحت عمامته البيضاء قليلًا عن رأسه الصغير. لم يكن في غرفته سوى سرير من الخشب العتيق، وكتبية ملأى بالكتب الدينية، وصندوق خشبي قديم، لم يجدوا فيه سوى بقجة بيضاء مطرزة بخيوط من الكنويشا السماوي اللون، وبداخلها قطعة كبيرة من قماش قطني ناصع البياض، عليها ورقة صفراء قديمة كُتب عليها: الحمد لله ثم الحمد لله. هذا كفني. كتبي لتلميذي المحب لله الإمام عبد الواحد. تحت الصندوق تجدون حجرًا أسود، تحت الحجر حفرة، تجدون فيها خمس عشرة ليرة من الفضة تنفق لصالح الأولاد اليتامى، لأن

دعوتهم مستجابة من عند الله. أما قطعة الأرض الصغيرة التي أمتلكها في السعن الأسود، فهي وقف للمسجد. أستودعكم الله. وتلا ذلك خاتم الشيخ عبد الله المصنوع من النحاس الذي وجوده في الحفرة الصغيرة محفوظًا مع الليرات الفضية.

في ساعة لحده، قال الإمام بصوت مسموع: إلى اللقاء يا مولاي. أحببتك حبًا في الله الواحد الأحد. وأجهش في البكاء فأخرجوه من حافرة القبر، وأقعدوه جانبًا، ثم أخذوا برمي التراب فوق الكفن الناصع البياض.

شعر أهل القرية بالخوف، وبالضياع، لفقدانهم الشيخ عبد الله. كانوا ينظرون إليه كشيء دائم الوجود، كالشمس، كالهواء كالأحجار البازلتية التي تقاوم الزمن السرمدي ولا تفنى إلا بفنائه، كالبيوت الطينية التي كانت تتجدد مع كل ربيع، وبموته اكتشفوا أنفسهم، أنهم مجرد ضيوف في حياة وهمية، فالحياة الأبدية في الآخرة، وبعد الحساب العسير، هناك في جنة الخلد والفردوس المفقود، سينعمون بأنهار من اللبن والعسل والخمر. كم هو غبي ذلك الذي قال إن خمر الجنة غير مسكر! حتى كلماتك الواضحة الصريحة يريدون تزييفها وحرفها واحتقارها يا الله – قال الإمام في سره – فالله القادر على كل شيء يستطيع أن يصنع أنهارًا وبحارًا مما يشاء، لكنه حدد كلماته بفصيح الكلام، حين قال في سورة محمد: "مثلُ الجنة التي وُعِدَ المتقونَ فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصفى"،

فالله يقول ماء غير آسن، أي إنه غير راكد وصالح للشرب ولبن لم يتغيّر طعمه، أي إن الحموضة لم تنل منه، والعسل مصفى، أي دون شوائب، وأنهار من خمر يتلذذ بها الشاربون، وإن كان الخمر غير مسكر لذَكَرَه وقال وأنهار من خمر غير مسكر، كما قال عن الماء غير آسن، وعن اللبن الطازج الذي لم يغيَّر طعمه، وعن العسل المصفى، لكنه لم يقل غير مسكر، بل جعله لذة للشاربين، كما أنه قال "أنهار" جمعًا وليس نهرًا واحدًا، أنهار من الماء والعسل واللبن والخمر، سبحانك يا الله! ما أعظم شأنك! كيف لنا أن نعرف العسل واللبن والماء والخمر دون إرادتك؟ بل كيف لنا أن نميز الطعم ونقول هذا عسل وهذا لبن وهذا ماء عذب فرات لو لم تقل لنا ذلك؟ اللهم اجمعني مع أحبائي من أهلي وأصحابي ومعلمي الشيخ الجليل جمال الدين والشيخ عبد الله وشيخ الأزهر الشريف لنتذوق من تلك الأنهار الخالدة كالنيل العظيم. إلهي نحن الآن بحاجة لقطرة ماء من سمائك العالية، فلقد تعبت الأنفس وعم الهلاك والخراب، إلهي خذنا برحمتك واغفر لنا ذنوبنا. إلهي يا حنان يا منان نحن على أبواب الهلاك، أطفالًا وشيوخًا ونساء، خلت القرية من أهلها وجفت الينابيع وغارت المياه في قاع الأرض، فلم يعد الطير يجد قطرة ماء يروي بها ظمأه. إلهي أبتهل إليك في عتمة الليل وأنت المنير، أن ترحم عبادك، أن ترأف بخلقك، بيدك الملك وإليك نبعث في يوم النشور. لا إله إلا أنت. ثم غطى الإمام رأسه بمنديله الأبيض ليحلق بعيدًا في عالم

أحلامه التي لم يجرؤ يومًا على البوح بها لأيٍّ مَن كان، وكان يرتعد منها عندما تتسلل إلى ذهنه المتعب، القلق.

حين وصل الراهب بحيرا إلى تخوم الصحراء في حوران قادمًا من منبع الفرات كانت الكنيسة قد تمزقت إربًا وتشظّت إلى كنائس لا حصر لها، ولم يعد الخلاف الكنسي قائمًا حول الثالوث المقدس المكون من الآب والابن والروح القدس، الذي تعتبره الكنيسة القبطية أقنومًا واحدًا، بل تعداه كثيرًا، ودخل في طور صراع جديد، حول كُنه الذات الإلهية، وماهيتها المادية والروحية، وتجسدها العقائدي الجدلي المتنامي، حول طبيعة السيد المسيح ابن مريم العذراء، الذي رأت فيها الكنيسة المصرية أما للإله الواحد، وليس مجرد وعاء احتضن السيد المسيح طوال تسعة أشهر، وأضافت الكنائس، التي أخذت بمقررات مجمع أفسس إلى الصلاة المريمية: يا قديسة يا مريم يا والدة الله صلي لأجلنا نحن الخطاة"، أما أتباع الفيلسوف الكبير نسطوريوس المرعشلي، فقد رفضوا تلك التسمية التي تجعل من مريم العذراء أمًّا للإله، قائلين: كيف للإله أن يولد في زريبة حيوانات، ويقمط، ويوضع في مزود، كما جاء في إنجيل لوقا: "فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المزود إذ لم يكن لها موضع في المنزل".(لوقا 8/2)، كما أنهم رأوا أن الروح القدس لم يحل في جسد المسيح، إلا في ساعة التعميد، بعدما غطس في المياه المقدسة، وخرج منها يرى نور الله، أما قبل ذلك وخاصة عندما كان طفلًا مُقمَّطًا، يأكل ويشرب، فكان ناسوتًا ولم يكن بعد لاهوتًا، ومن هنا فإن المسيح يجمع ما بين طبيعتين إنسانية وإلهية، وبالتالي فهو ليس الله بحد ذاته، بل أدنى قليلًا منه باعتبار أن الناسوت يشكل أحد مكونيه، أما بخصوص مريم العذراء،

فقد رفضوا اعتبارها أمًّا للإله وقالوا كما قال معلمهم: "إن التي حملت السيد المسيح كانت والدة الطفل التي حملته وليست والدة الله خالق الكون"، وكان نسطوريوس قد حدَّد هدفه في الحياة حين قال: "إن هدفي في الحياة هو أن يمجد جميع من على الأرض اسمَ الله كما هو في السماء".

كان الدم الحار الذي يُسفك باسم السيد المسيح دفاعًا عن العقيدة، يفوق بآلاف المرات المداد الذي تُدون فيه التعاليم المتناقضة، والمعبرة عن الخلاف الجوهري، بين آلهة المطر وآلهة الأنهار. وكانت الكنائس المتصارعة تسجل انتصاراتها، بفضل دعم الكنيسة البيزنطية في القسطنطينية لهذا التيار أو ذاك. فبيزنطة التي رسّمت نسطوريوس بطريركًا عليها هي نفسها من نفته إلى بلاد العرب، ومن ثم سلمته لأعدائه اللدودين، من الأقباط المصريين، ليموت ذليلًا منبوذًا في صعيد مصر، في بلدة صغيرة تُدعى إخميم، ولترمي على قبره فضلات القمامة كل يوم حتى يومنا هذا. كانت بيزنطة تلعب على الحبال، للحفاظ على إمبراطوريتها التي تضم بلاد الشام ومصر، ولم تعر انتباهًا لانتقال طريق الحرير التجاري إلى الجزيرة العربية، ليمر عبر الصحراء بدلًا من بلاد القفقاس وآسيا الصغرى، بسبب الحروب الدامية التي طال أمدها بين الإمبراطوريتين العظميين، اللتين كانتا تتبادلان جولات النصر والهزيمة، كما لم تعر القسطنطينية أذنًا صاغية، أو اهتمامًا للتيارات الفكرية المنبعثة من عمق رمال الصحراء، واعتبرتها مجرد حركة إصلاحية يهودية لا قيمة لها، فالعدو الحقيقي كان في بلاد فارس لدى الساسانيين، الذين كانوا قد

دخلوا بيت المقدس، واستولوا على الصليب المقدس ونقلوه إلى ديارهم البعيدة، ليجردوا القدس من أهميتها كونها مدينة للأنبياء.

بعد معركة نينوى الدامية، استطاع هرقل الروم، القوقازي الأرمني، استرداد الصليب المقدس، وإعادته إلى القدس في احتفال مهيب، مستردًّا بذلك عظمة بيزنطة، وسيادتها على العالم القديم، وقام كباز شيرويه بقتل والده كسرى المهزوم، واستولى على السلطة، لكنه سرعان ما تُوفِّي لتدخل بلاد فارس في حرب داخلية دموية، استمرت أكثر من سبع سنين، تمزقت فيها المملكة، وقُتل فيها آلاف البشر الأبرياء، حتى جاء ليزرجد الثالث بدعم من هرقل، ليستولي على السلطة، وليعقد اتفاق سلام دائم يعترف فيه بتبعيته لبيزنطة، وبذلك وضع هرقل عرش بلاد فارس تحت وصايته.

كان هرقل بعد وفاة زوجته الأولى فابيا والمعروفة باسم إيدوكيا، قد تزوج بابنة أخته مارتينا، مما أثار حفيظة الناس، وسخطًا كبيرًا لدى شتى الكنائس المشرقية، التي اعتبرت ذلك إثمًا عظيمًا لا يمكن غفرانه، حتى وإن استعاد هرقل الصليب المقدس من بلاد فارس. كان المشرقيون ينظرون إليه كفاسق فاجر، ومدعٍ، لا يمت بصلة إلى دين السيد المسيح عليه السلام، وأطلقوا عليه فيما بينهم، لقب هيرودوس الذي تزوج بامرأة أخيه فيليبس وأمر بقطع رأس يوحنا المعمدان. لم يجاهر الرهبان ورجال الكهنوت برأيهم علانية لأن سيف هرقل كان أقوى من حناجرهم.

كانت الخلافات مستعرة بين أقطاب مفكري الكنائس، وكانت تهدد وحدة الإمبراطورية البيزنطية السياسية، فابتدع هرقل مع بطريرك العاصمة سيرجيوس مذهبًا جديدًا للكنيسة، دُعيَ بمذهب المشيئة الواحدة للسيد المسيح، ومعناه أن الطبيعتين الإلهية والبشرية للسيد المسيح أفضت نتيجة اتحادهما إلى مشيئة واحدة، وأمر الإمبراطور بجدع أنف كل من يخالف هذا المذهب، ففَرَّ الرهبان والقساوسة من كنائسهم إلى مناطق مجهولة خوفًا من عقاب حاكم العالم آنذاك.

توجَّه هرقل مع زوجته مارتينا إلى موطنهما في أرمينيا التي كان قد استردها من أيدي الفرس ليبني فيها حصونًا وقلاعًا تستطيع الصمود أمام أي غزو فارسي محتمل في المستقبل، وبقيَ فيها سنواتٍ طوالًا. ويقال إنه لم يعد إلى القسطنطينية إلا جثة هامدة ليتم دفنه فيها.

استقبل الرهبان اليعاقبة الراهب بحيرا المستتر وأعطوه صومعة صغيرة مبنية من الحجر البازلتي الصلد، بنافذة واحدة تتجه نحو الجنوب، مزينة بعقود محفورة في الصخر. رتب الراهب كتبه في الكتبية الحجرية وقال في نفسه: كيف لي أن أعبد مخلوقًا مولودًا؟ فالإله الخالق لا يُخلق، لأنه الخالق، وما دام قد خُلق فهذا يعني أنه تابِع .. الله وحده مصدر الخلق لم يلد ولم يولد، وليس كمثله أحد، فالله هو الخالق والمعطي، والمنظم لهذا الكون وفقًا لمشيئته. "لأن الله الكلمة كامل قبل العوالم والأزمنة وفي آخر الزمان من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا اتخذ منا إنسانًا كاملًا وسكن فيه". لكننا نحن البشر الخطاؤون مستمرون في ارتكاب المعاصي، وقتل بعضنا بعضًا باسم السيد المخلص.

الله أكبر الله أكبر، واستيقظ الإمام على صوت المؤذن عثمان.

ساحة المرجة

باءت كل محاولات الشيخ يورنس لنقل ابنه إلى صحراء الجزيرة العربية بالفشل الذريع، وقُتل الذئب في إحدى المعارك مع حرس الحدود، الذين كانوا يضيقون الخناق يومًا بعد يوم على حركته، وشعر الشيخ بالخطر الشديد يداهمه شخصيًّا، وأدرك أن لا خيار أمامه سوى القتال حتى الرمق الأخير، أو تسليم ابنه سمير للعدالة لتأخذ مجراها الطبيعي، وهذا يعني إعدام ابنه في ساحة المرجة، على مرأى من عيون الناس، ليتوج السراج بطلًا كبيرًا.

كان الشيخ يورنس يبحث في ذهنه طوال الليل والنهار، عن عين حورس السرية اللصيقة به، والتي تراقبه ليل نهار. ترى من يكون؟ حدث الشيخ نفسه. لقد فقدت أقوى وأخلص رجالي، سقطوا صرعى في ساحة المعارك، وأكلت الطيور الجارحة جثثهم؟ كيف يحدث كل هذا؟ من صلة الوصل المقربة، التي تخبر حرس الحدود ليفاجئونا بكمائن معدة مسبقًا؟ جالت الأسماء والصور والشكوك في رأسه، و لم تستقر أفكاره إلا بعد طول تفكير وتدقيق كبيرين..يوشع.. لا غيره. قال الشيخ في سره. فهو الوحيد الغريب عن القبيلة، ويمكنه ببساطة شديدة أن يرتكب

مثل هذه الخيانة الفظيعة. يوشع لا يعرف معنى الانتماء القبلي أو العشائري، ولا يقدّر ذلك، وهو غريب في كل الأحوال، وربما يقدم تلك الخدمات ليتم العفو عنه.. هذا مؤكد. وأمر الشيخ بصلب يوشع على الأرض على ظهره، وسكبَ عليه ماءً مُحلّى بالسكر، وتركه تحت الشمس الحارقة، لتجتمع عليه الحشرات من كل ما هبَّ ودب، مطالبًا إياه بالاعتراف بخيانته والكشف عن طرق اتصاله بحرس الحدود، الذين يتربصون بهم.

ثلاثة أيام أمضاها يوشع تحت التعذيب، بات على شفا الموت، تورم جسده من لسع الحشرات السامة. وغاب محجراه تحت بطانتيهما، وبقي يردد ما قاله منذ اللحظة الأولى: أنا لستُ بخائن، وروحي فداك أيها الأمير.

مع غروب شمس اليوم الثالث، أحسَ يوشع بأنه لا محال سيفارق الحياة، وشعر بالحيف الشديد، فطلب من الحارس أن يدعو الشيخ ليبلغه بشيء في غاية الأهمية، جاء الشيخ مهرولًا، فقال يوشع: أنا على شفا الموت يا سيدي..وأعرف أنك ستدعني أموت بلا فائدة، فالذين رحلوا ليسوا أفضل مني بشيء، وهم أقرب إليك. أنا مدين لك بحياتي ما حييت، ويمكنك أن تقتلني حين تشاء، وأنا أطلب الموت..أطلبه بحق.. خاصة أني فقدتُ أعزَّ رفاقي.. الذيب..كما فقدتُ ثقتك بي، وهذا يعني، أن حياتي ومماتي سيان بالنسبة لك ولي.. من أجل هذا كله، لديَّ مقترح يا سيدي.. قد ينقذ ابنك الأمير سمير من موت محتم.

- كيف؟ سأله الأمير.

- سيدي يمكنني أن أسلم نفسي لحرس الحدود باسم سمير، هم لا يعرفونه.

- الموت واحد يا يوشع، وأنا اخترت لك طريقة أفضل، لأنك خائن قذر.

- أنا لم أخنك يا سيدي، أدرك أنهم سيعدمونني ..لكن، على الأقل سيكون لموتي معنى.. أنا محكوم عليَّ بالإعدام،وسأموت عاجلًا أم آجلا.. لكن قد أنجح في إنقاذ ابنك. فكر بالأمر يا سيدي، لأني أشعر أني سأفارق الحياة في هذه الليلة.

أمر الشيخ بفك وثاقه ونقله إلى الخيمة لإطعامه ومعالجته على الفور، وراح يفكر بكلام يوشع ومدى إمكانية تحقيق ذلك؟ وكيف له أن يثق به، فلعله قدَّم ذلك العرض لينجو بنفسه، فمن يعلم ما تخبئه النفوس سوى علام الغيوب؟

مضت عشرة أيام حتى استعاد يوشع عافيته، وزال الورم من حول عينيه، وعاد ليبصر بهما، وجلس إلى الشيخ وقال: من الأفضل أن تعطيني الهوية الشخصية لابنك، سأحاول الفرار عبر الحدود،وسيتم إلقاء القبض عليَّ لا محالة.. سأسلم نفسي بهذه الطريقة، وعندما يفتشونني سيجدون هوية سمير معي.. سأدعي أنها هويتي الشخصية.. هذا أفضل ما توصل إليه رأسي يا سيدي. فقال الشيخ: لكنك لا تشبهه في شيء. أنتما

مختلفان تمامًا، يمكنهم معرفة ذلك من أول نظرة، فأنت لست بسمير.. قد تكون صورة الهوية سببًا في كشف اللعبة بأكملها إن تمت.

– لا أعرف يا سيدي ماذا أقول لك! سأنفذ ما تأمرني به. هذا ما توصلتُ إليه.

– لو استطعنا تزوير هويتك، بمعنى، أن نكتب اسم سمير إلى جانب صورتك على هويتك، لكان أفضل. أليس كذلك؟

– لا أعرف يا سيدي، كل الاحتمالات واردة، قد أنجحُ وقد أفشلُ. حياتي بين يديك. مُرني وأنفذ في الحال.

عاد الشيخ إلى عزلته بعيدًا عن العيون المترصدة، ليقلب المسألة في ذهنه على انفراد، قبل أن يُقدِم على خطوة جديدة قد تكون الأخيرة. وبقي يوشع في الخيمة لا يفارقها، ينتظر أمر الشيخ ليبدأ التنفيذ حالًا. كان على ثقة أن الشيخ سيقبل خطته، لأنه في نهاية الأمر لن يخسر شيئًا، بل كاد يقدمه قربانًا لحشرات الصحراء السامة دون أن يرف له جفن.

لم يغب الشيخ طويلًا، وعندما عاد، عرف يوشع من هدوء عينيه أنه اتخذ قراره. اقترب الشيخ من يوشع واحتضنه بصمت، ثم أخرج مبلغًا كبيرًا من المال مع هوية سمير وسلمهما له قائلًا: هذه هوية ابني سمير، وهذا مبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة.

– النقود لا تلزمني يا سيدي، فأنا ذاهب إلى الموت.

تنفَّس الأمير بصعوبة شاقة وقال له: سيقتنعون بأنك سمير عندما يجدون بحوزتك مبلغًا كهذا. سامحني. وابتعد الشيخ وقد أحسَّ بغصة في حلقه. لم يرغب مطلقًا أن يراها يوشع كيلا تضعف من عزيمته.

انطلق يوشع بسيارته مسرعًا نحو الجنوب وكأنه يسابق مصيره، من دون أن يعلم أن الشيخ قد عقد صفقة في الخفاء، وتحت جنح الظلام، مع دمشق لقبول اللعبة، مع رشوة صغيرة لتسهيل العملية.

سمع يوشع أذان الفجر يملأ فراغ السكون من مآذن المسجد الأموي في دمشق لأول مرة وآخر مرة في حياته، وحلّقت روحه نحو السماء العالية مع بزوغ نجم الشمس على مدينة أرهقها صمت الأرواح المعذبة.

***

أيلول المبلول

شارفَ أيلول على الانتهاء، وتحرَّكت قوات البادية من موقعها في قرية الضمير الواقعة إلى الشرق الشمالي من العاصمة دمشق بقيادة حيدر الكزبري لتنصب خيامها في ساحة الأمويين، بعد أن سيطرت على أهم شوارع العاصمة ومفارقها، كما تحرك اللواء المدرع من قطنا بقيادة مهيب الهندي ليحتل الإذاعة والبريد، وفي الساعة السابعة والنصف صباحًا أذاع المذياع بيان عبد الكريم النحلاوي الذي كان يشغل رئيس مكتب المشير عبد الحكيم عامر، يعلن فيه باسم القيادة الثورية العربية العليا للقوات المسلحة عن قيام مجموعة من الضباط الوطنيين بانقلاب الانفصال: "لقد قام جيشكم الذي كان وسيبقى أبدًا دعامة وطنية راسخة، قام بالحفاظ على أرض الوطن وسلامته وحريته وكرامته، قام لإزالة الفساد والطغيان ورد الحقوق الشرعية للشعب..." وصدح صوت سلوى مدحت بأغنيتها الوحيدة، أغنية الاستقلال عن فرنسا، والتي مُنعت عن البث في الأثير طوال أيام الوحدة: "كم لنا من ميسلون نفضت عن جناحيها غبار التعب" وغدت الأغنية التي كتب كلماتها الشاعر عمر أبو ريشة ولحّنها فليمون وهبي رمزًا للانفصاليين.

لم يكن أحد من الشعب السوري مع إجهاض أول تجربة وحدوية عربية معاصرة، وكانوا يكبسون الملح على الجرح ليبقوا صامتين حفاظًا

على وحدة البلدين، لكن الفساد والجرائم الكبيرة والشنيعة التي ارتكبت باسم الوحدة، وباسم الزعيم عبد الناصر، كانت فوق الاحتمال، فطفح الكيل. كانت سوريا قد غدت شبه فارغة من أهلها الذين فروا خارج البلاد، بينما كانت السجون تغصُّ بالسجناء "حفاظًا" على الوحدة، وكانت السلطات الأمنية قد أبعدت كل الضباط الذين طالبوا بالوحدة عن قيادة الجيش، ونقلت غالبيتهم إلى مصر، ليتسلموا مسائل إدارية تافهة لا تليق بسمعتهم ومكانتهم، وشعر عبد الناصر بخطورة الوضع، وما سبَّبه عبد الحميد السراج من نقمة شعبية داخل البلاد، فحاول الإسراع لتدارك الأمر، فأرسل المشير عبد الحكيم عامر ليتسلم قيادة الإقليم الشمالي بدلًا من السراج، وهذا ما فتحَ صراعًا جديدًا بين السراج وعبد الحكيم عامر، وحصل الذي لا بد أن يحصل.

قدَّم الانقلابيون مطالبهم لعبد الحكيم عامر، وكانت تنحصر في إعادة بعض الضباط المصريين الذين يستبيحون البلاد ويكممون الأفواه إلى بلدهم، وأن يتم رد الاعتبار للضباط السوريين، وأن يتم مشاركتهم في قيادة البلاد، لم يكن في ذهن أحد من الضباط الذين تحركوا لمحاصرة الأركان والاستيلاء على المراكز الحساسة في العاصمة أن يفصلوا البلدين إحداهما عن الأخرى، بل كانت مطالبهم تنحصر في إجراء عملية إصلاحية لإدارة شؤون البلاد، إذ كان الإصلاح الزراعي قد طال أصحاب الأراضي من الملاكين المناوئين للوحدة، وأبقى على ممتلكات المناصرين لها الذين ازدادوا ثراءً ونفوذًا. وافق المشير عبد الحكيم عامر

على مطالب الضباط السوريين وأبرق للقاهرة بشروط الاتفاق الذي تم بينه وبينهم، وجاء رد عبد الناصر بتوجيه المظليين ومجموعة من السفن الحربية نحو اللاذقية وطرطوس، معتبرًا الحركة مجرد تمرد، قامت به مجموعة من الضباط الصغار، وأعلن أنه سيقضي عليهم خلال ساعات. قام الضباط باحتجاز المشير عبد الحكيم عامر في مكتبه، وألقوا القبض على المظليين، وأودعوهم في أحد أجمل المنتجعات على الساحل السوري، وجهزوا أنفسهم للصدام مع القوات المصرية القادمة عن طريق البحر، فأعلنت حلب انضمامها للانفصاليين، كما أعلنت قيادة الطيران بقيادة موفق عصاصة عن استعدادها التام للتصدي لأي قوة غازية. واتصل السفير السوفييتي في القاهرة بقيادته في موسكو وأبلغهم عن تحرك القوات البحرية المصرية باتجاه الساحل السوري، فوصلت إلى عبد الناصر برقية من موسكو تقول له: "دع سوريا وشأنها".

في الخامسة مساء، أُطلق سراح عبد الحكيم عامر ليغادر العاصمة دمشق مع مجموعة من الضباط المصريين، وعادت السفن المصرية إلى موانئها في أرض الكنانة، وتلاشت أحلام الجماهير العربية في قيام دولة عربية موحدة. في اليوم التالي تم تكليف مأمون الكزبري بتشكيل الحكومة، تلته الانتخابات التشريعية بعد ثلاثة أشهر وفاز ناظم القدسي بمنصب رئيس الجمهورية، الذي أعاد العمل للمصارف والبنوك الخاصة في سوريا، بعد أن كان عبد الناصر قد وضع يده عليها، كما أبطل مفعول قرارات الإصلاح الزراعي وصكوك التمليك التي أصدرتها دولة

الوحدة. لكن المفاجأة الكبرى والحقيقية الملموسة حدثت في السماء، إذ عاد المطر ليهطل بغزارة على البلاد التي اكتوت بجحيم السراج، وبلهيب الشمس طوال سنوات الوحدة، وصعدت نساء القرية إلى أسطح البيوت المتهالكة وهن لا يصدقن حدوث المعجزة وعودة الأمطار لتتساقط من كبد السماء، لتطهر الأرض والأنفس، وأطلقت أمينة الفَرِحَةُ بعودة الغيث زغرودة قوية تردد صداها في الأثير الرحب، فتبعتها النساء، وأطلقن الزغاريد وهن يتمتمن بابتهالات، لرب السماء أن يتم رحمته على الناس، وينعم عليهم بموسم أمطار ينقذ ما تبقى من الموت، الذي عشعش في بيوتهم بدلًا من طيور الحمام وعصافير الدوري.

فغر الأطفال أفواههم يلتقطون حبات المطر بألسنتهم الصغيرة، فمنهم من كان يرى المطر لأول مرة يهطل من السماء، وابتلت العروق وخفقت الأفئدة، وارتعشت الأجساد، وسجد الشيوخ لرب السماء، وقد ظهرت على وجوههم، بسمة أمل، بأن الله العزيز الرحيم قد غفر عن سيئاتهم وسيطَهِّرُهم بماء الغيث، وعلا صوت محمود الحايك الذي غدا شابًّا في مقتبل العمر، يصيح وهو يجول في الشوارع حاملًا "أم الغيث"، داعيًا الأولاد للسير خلفه ليرددوا كلمات النشيد الشعبي المطري: "أم الغيث غيثينا، وشتي على زراعينا، زراعينا عطشانة، يا ربي تصبح رويانة"، واندفع الأطفال من بيوتهم، يرددون بحماسة منقطعة النظير، كلمات الدعاء، ليمروا في شوارع القرية وأزقتها شارعًا شارعًا، وزقاقًا زقاقًا، فهللت النساء للأولاد وتصاعدت الزغاريد من حناجرهن، وانهمرت الدموع من محاجرهن، لتختلط مع حبات الودق.

كان الإمام قد فَقَدَ رفيق دربه الحصان الأحمر، وسحبه جيفة بعيدًا عن بيوت القرية لتأكله العقبان، أما الأزرق فكان على وشك الموت، إذ لم يعد لدى الإمام ما يقدمه له. كان الحصان الأزرق يأكل عيدان العنب الجافة ويمضغها بصعوبة بالغة، ويطحن لحاء جذوع الأشجار اليابسة بأسنانه مقاومًا الموت الرهيب.

أخرج الإمام الحصان الأزرق من الإسطبل ليشاهد المطر، فارتعش جلده عندما لامسته قطراته، وأغمض عينيه وكأنه في حلم، وقد عاد له الأمل بالبقاء على قيد الحياة. ابتسم الإمام في وجه الحصان الأزرق ثم قرأ في صدره: "لئن سألتهم من نَزَّلَ من السماء ماءً فأحيا به الأرضَ من بعد موتها لَيَقُولنَّ الله قلِ الحمدُ للهِ بل أكثرُهم لا يعقِلون"(العنكبوت)، صدق الله العظيم. وترك الإمام الحصان حُرًّا في أرضِ الدار، ليبحث عن نصيبه من الطعام، فلعله يجد ما لم يخطر بباله. وعاد إلى غرفته بعد أن شاهد ماء السماء ينسال من مزراب السطح كخيط رفيع بدأ يثخن رويدًا رويدًا.

عاد الأستاذ الدمياطي سيد خالد البرقاوي إلى مصر حزينًا، بعد أن ودعه أهل القرية، وقدموا له هدية صغيرة ليتذكرهم. وعند توديعه للأستاذ إلياس، سمع منه كلامًا ارتعدت له مفاصل ساقيه إذ قال له: أمثالك يا سيد سيد من خربوا الوحدة بين البلدين. لا تظن أننا لا نعلم لماذا لم يعد زميلك من أسيوط. ومع ذلك أتمنى لك دوام الصحة، وأرجو منك إن التقيت بزميلك محمد محمد حسنين أن تعتذر منه، وتبلغه

سلامي. كان معلمًا حقيقيًا، وطنيًا مخلصًا للعروبة وللشعب. ودمعت عينا إلياس حسرة على ما حل بالوحدة بين البلدين الشقيقين وقال: لن يرحمنا التاريخ أبدًا.

بدأ الناس المنفيون والمبعدون والفارون يعودون إلى مدنهم وقُراهم من البلدان المجاورة، من لبنان والأردن والعراق ليتفقدوا أهاليهم وممتلكاتهم وبيوتهم المنهوبة. من بينهم كان ياسر الأممي الذي دمعت عيناه كثيرًا عندما التقى الأستاذ بدر وقال له: حتى الطبيعة وقفت ضد الوحدة، لكن أنصارها من الديماجوجيين هم من قضوا عليها. فعلق بدر ساخرًا: قلت لي ديماجوجيين! يبدو أنك تعلمت مصطلحًا سياسيًا جديدًا ستردده طويلًا على مسامعنا. وضحكا طويلًا.

لكن ما حمله ياسر الأممي لكوثر التي تحولت إلى هيكل عظمي كان كبيرًا وثقيلًا عليها. حدثها عن لقائه بأخيها قبل سنوات، وعن طريقة إعدامه في ساحة المرجة التي عرف حقيقتها من الحجة سعاد، التي التقاها في أثناء عودته من العراق على ضفاف نهر الفرات، ووعدته بالقدوم إلى القرية صيفًا في حال استمرت الأحوال المبشرة بالخير الوفير على هذا المنوال.

لم تفرّ الدموع من عيني كوثر كما توقع ياسر، بل رمقته بحادقتيها بنظرة عميقة وقالت: ارتاح، ارتاح أخي. لا بد أن عذاب ضميره ما دفعه لتلك التضحية. الرحمة له.

نظر إليها ياسر، تأملها طويلًا، وقال: الوقت غير مناسب، لكن إن قبلت بي زوجًا مخلصًا فإني أتقدم إليك بكل جوارحي. فترت شفتاها عن ابتسامة بلهاء، ونظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم وقالت: بات الحديث مضحكًا في مثل هذه المواضيع، لقد جفت قلوبنا، ولم يعد فيها مكان للحب. فقال لها: نحن تعساء يا كوثر. قاومنا قسوة الحياة فدمرتنا، لكنها ها هي من جديد تمنحنا فرصة أمل، فلماذا نزدريها؟ تعالي لنصنع الحياة التي نقدسها. لن أقول إني أشعر أنك لي، بل أشعر أني لك، أنا لك وحدك. سنبني حياتنا من جديد، فأنا أحب العمل كما تعلمين، وأحب الحياة ولا أخجل أن أقول: إني أحبك. طوال أيامي في العراق وأنا أفكر بك. كنتُ ألومُ نفسي لأني لم أتقدم إليك بالوقت المناسب.

هزت كوثر رأسها قليلًا وقالت: دع ذلك للأيام.

بدأ رذاذ المطر الناعم يتساقط عليهما، وهما يقفان أمام باب الدار. لم يفترقا. ظلّا واقفين، يسترقان النظرات، يتأملان كلٌّ منهما الآخر بخجل، وقد خفق قلباهما لنسمة هواء باردة بعثرت حبيبات المطر في كل الاتجاهات، مسحت كوثر وجهها بماء السماء ثم قالت: إنها تمطر. فقال ياسر: من أجل أن ينبت العشب، من أجل أن نعود لنزرع الأرض، لتنبعث سنابل القمح من جديد.

– أنت متفائل. قالت كوثر وهي تلملم خصلات شعرها المتطاير وتدككها تحت شالها المهترئ الحواف.

– متفائل بك، فلا تخذليني.

– لم يسبق لي. قالت كوثر.

تنفس ياسر الصعداء، وقال: اعتبريني ملكك منذ هذه اللحظة. أنا لك ما حييت. أنا مستعد لأسرح معك طوال النهار لنرعى ديوك الحبش في البرية.

زمَّت كوثر شفتيها لتخفي ابتسامتها الطَّروب لسحر كلماته، ثم امتدت يدها إلى باب الدار لتغلقه، بينما ظل ياسر واقفًا ليخطف من عينيها أول نظرة حب ارتعش لها قلبه. ولبست الطبيعة ثوب زفافها الثلجي ناصع البياض.

***

اللقاء الكبير

تراكم الثلج فوق أسطح المنازل والأزقة، وشقَّ أهالي القرية دروبًا لهم من أبواب الغرف إلى باب الدار بالجارف، كما رفعوا أكوام الثلج من أمام أبواب الدور الكبيرة، ليستطيعوا فتحها بعد أن أغلقتها الثلوج المتراكمة، ولم يشعروا بالبرد القارص، لأن الحطب كان وفيرًا جدًّا، فالأشجار اليابسة كانت لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهي مكومة كالجبال، بعد أن تم اقتلاعها من جذورها، لغرس أشجار جديدة في مكانها، لتحيا الأرض الميتة من جديد. و عبق الجو برائحة الحطب المحترق من الدخان المتصاعد من فوهات المداخن كقطارات الفحم الحجري، وعادت أسراب الطيور المهاجرة من بط وإوز وزرازير لتظهر في قبة السماء، وهي تلقي بتحياتها على الناس المفتونين برؤيتها تحلق عاليًا، لتمضي في مجموعات منتظمة متناسقة نحو الجنوب الدافئ.

سيبعث بعل من جديد، قال إلياس في سره بعد أن أشعل قنديل الزيت، وعاد إلى كتبه التاريخية لينفض الغبار العالق عليها. كان إلياس قد علق دراسته الجامعية، وانهمك في العمل السياسي التوجيهي صونًا وحفاظًا على الوحدة بين مصر وسوريا، وكان يرى بأم عينه كيف بدأت تنهار من الداخل، وأن كل الشائعات حول مؤامرة كونية تُحاك من قبل

الدوائر الاستعمارية لهدم الوحدة بين البلدين كانت مجرد شائعات أطلقتها أجهزة الأمن لتبرر تعسفها غير المعهود، فلقد انهزمت الوحدة، وتحطمت في قلوب الناس، التي بقيت متعلقة الفؤاد بزعيم الأمة جمال عبد الناصر، فلعله ينقذ ما يمكن إنقاذه، لكن كيف لشخص واحد أن يدير الكون كله، فهو بنهاية المطاف إنسان وغير معصوم عن الخطأ. عبد الناصر، ليس إلهًا. قال إلياس في سره، مَن حاول أن يصنع منه إلهًا مسؤول عن كارثة الانفصال، فالإله قادر على صنع المعجزات، أن ينزل المطر فتحيا الأرض التي عانت جفافًا لا مثيل له.

كان إلياس قد قرر الانسحاب من التنظيم الناصري، والانضمام للبعث الذي عاد لينظم صفوفه، كما عادت بقية الأحزاب إلى العمل العلني بين الجماهير التي لم تتخل قط في أعماقها عن إحياء مشروع الوحدة العربي للوقوف في وجه إسرائيل التي تقف كالخنجر المغروز في قلب الأمة.

كان الأستاذ إلياس غارقًا في أفكاره، محتارًا من أين يبدأ حياته الجديدة وماذا يعمل؟ هل يشرع في كتابة مذكرات شخصية يُدوِّن فيها ما رآه بأم عينه من أخطاء ارتكبت بحق حلم الجماهير الغفيرة. أم يعود لمتابعة دراسته لإكمال تعليمه الجامعي؟ حين لفحت ظهره نسمة هواء باردة جاءته من الخلف، فالتفت نحو باب الغرفة ليرى ثغرها الوردي منبلجًا عن ابتسامتها الساحرة.

- أمينة!

دخلت أمينة الباب وأغلقته خلفها وقالت: أين كنت سارحًا بأفكارك حتى لا تسمع ما يدور خلفك؟

– أنا لا أصدق ما أرى؟ لقد يئستُ من لقائك، وهأنت تعودين كحلم. مضت سنوات وأنا أنتظرك لتطلين عليَّ كفراشة زاهية الألوان.

أخرجت أمينة من بقجة صغيرة ثوب النوم الذي كان قد قدمه لها ذات يوم، وقالت: خطر ببالي أن ألبسه مرة ثانية، أنا لم ألبسه منذ تلك الليلة، فقلت لنفسي: أنت أحقُّ به لأنه منك، كما أنك وعدتني بمفاجأة.. هل نسيتَ؟

– لا، لم أنسَ. كيف يمكنني أن أنسى. أنا عشتُ أيامًا طوالًا أنتظر هذه اللحظة.. لا أخفيك إن قلت لك إني أصبتُ بالإحباط الشديد، قطعت الأمل في رؤيتك على انفراد مرة ثانية. لماذا تمنَّعت عن القدوم كل تلك الأيام؟

جلست أمينة على الأرض ونظرت حولها تبحث عن إجابة عن سؤاله وقالت: صدقني لا أعرف. لم أرغب. لم أكن قادرة، كأن حَبْلَ الحياة انقطع في جسدي، وقد عاد إليَّ منذ أيام ليذكرني بك. أنت جميل ورقيق ومخلص يا إلياس، خاصة عندما تُسمعني أناشيدَ الحب. هل تحفظ الكثير منها؟

جلس إلياس إلى جانبها، ومسح كفها براحة كفه، ونظر في عينيها طويلًا، فرمشت بهما متسائلة فقال: سأنشد آلاف القصائد لك يا أمينة.

لثمته أمينة في شفتيه سريعًا وقالت: اشتقتُ إليك.

أطبق إلياس بفمه على شفتيها واعتصرها بذراعيه، فأعادت أمينة رأسها إلى الخلف وقالت: لا تتعجل. ألا تريدني أن ألبس ثوب النوم؟

أومأ إلياس بعينيه مبتسمًا موافقًا. فطلبت منه أن يخرج من الغرفة لدقائق ريثما ترتدي ثوب النوم الشفاف الذي كانت تشعر فيه بالخجل أكثر مما لو كانت عارية. خرج إلياس من الباب ليراقب القمر العائم، وهو يختفي تارة ويظهر في أخرى، بين ركام السحاب الذي تسوقه الرياح في أعالي السماء كلعبة "المستخباية"، إلى أن سمع صوت حمحمة أمينة تدعوه للدخول إلى الغرفة، بعد أن تدثرت باللحاف الصوفي.

– أنا لا أصدق أنك رجعت لي! هل أنا في علم أم في وهم؟ وامتدت يداها إليه تدعوانه للاقتراب منها. أجلسته على حافة الفراش وقالت له: أسمعني ما تحفظه من كلام جميل. نظر إلياس إليها ولَثَمَ يدها وسألها: أتحبينني يا أمينة؟

جالت أمينة بناظريها في سقف الغرفة، ثم رست على قنديل الزيت الناعس وقالت: أعرف أني اشتقت إليك، إلى سماع صوتك الحنون، أنشدني. ابتسم إلياس ونظر في عينها وقال:

لا أطلب من ربي

إلا شيئين

أن يحفظ هاتين العينين

ويزيد بأيامي يومين

كي أكتب شعرًا

في هاتين اللؤلؤتين.

ولثمها بنعومة في عينيها المغمضتين، واستراح برأسه على صدرها النابض بالحياة، فداعبت شعر رأسه بيدها الدافئة، فسمع إلياس خفقات قلبها من تحت اللحاف وقال:

عامان.. مرًّا عليها يا مقلتي

وعطرها لم يزل يجري على شفتي

كأنها الآن لم تذهب حلاوتها

ولا يزال شذاها ملء صومعتي

إذ كان شعرك في كفي زوبعة

وكأن ثغرك أحطابي ..وموقدتي

قولي . أأفرغت في ثغري الجحيم وهل

من الهوى أن تكوني ..أنت محرقتي.

احتضنت أمينة رأسه بصدرها الحار، وحبَته عشرات القُبل في وجنتيه ورأسه وعينيه وشفتيه، وغرق إلياس في حضنها المتوقد كقطع الجمر الحار، الذي مرت به نسمة هواء فتأججت النار فيه، و

تصاعدت ألسنتها كشموع الكنائس، تتنافس في إضاءة معالم جسدين عاشقين، أخذا يسترجعان حقيقتهما الأزلية منذ بدء الخلق.

في حالة من الهستيريا، توقف إلياس عن تقبيلها ليقف أمام محجريها عاريًا كآدم قبل ارتكابه لخطيئته الأولى، وكانت النار المتأججة تنير جسده المتعرق، فنظرت إليه أمينة مشدوهة، بعد أن فاجأها بحركته الاستعراضية، ورأت ما رأت. جحظت عيناها، وفغرت فمها، ثم أطلقت ضحكة صاخبة وقالت: هل تطهرت؟ متى فعلت ذلك؟ فأجاب إلياس: منذ مدة بعيدة. قبل الوحدة.. نزلت إلى دمشق خصيصى و أجريت هذه العملية الجراحية. لقد طهرني طبيب يهودي عتيق في المشفى الفرنسي. فعلت ذلك من أجلك. لأحظى بك.

ضحكت أمينة طويلًا وهي تتأمله واقفًا عاريًا أمامها، فأخذت ثوبها الأصفر وارتدته بسرعة فائقة وقالت: أنا لا أستحقك يا إلياس. أنت أكبر مني، أعظم مني، أرق مني. أنت ملاك للحب الطاهر، لن ألوث حبك. وانفجرت باكية ونهضت من الفراش، لتتجه نحو باب الغرفة فأمسكها إلياس من يدها وسألها والدهشة في عينه: إلى أين أنت ذاهبة؟

انتزعت يدها من يده واندفعت خارج البيت وهي تحاول كتم صوت نحيبها وشهقات صدرها الذي ضاقت أنفاسه.

***

لورنس العرب

قرَّر ملك الأردن زيارة موقع تصوير الفيلم السينمائي "لورنس العرب"، الذي كان يجري إعداده بمساهمة فعالة من القوات المسلحة الأردنية، ليتعرف هناك إلى منسقة العمل بين الجهتين، الفتاة الإنجليزية الشقراء أنطوانيت غاردنير، ابنة الضابط النقيب المتقاعد والتر غاردنير، ليعلن الملك عن زواجه بها مع بداية الصيف من شهر أيار، وليطلق عليها بعد عام لقب الأميرة منى، بعد أن أنجبت له غلامًا سمَّاه على اسم جده عبد الله، ويمتنع عن منحها لقب ملكة العرش الهاشمي، لرفضها اعتناق الإسلام دينًا لها، في حين توَّج ياسر الأمي كوثر ملكة لقلبه، وخرج برفقتها خلف صيصان ديك الحبش الصغيرة، التي انطلقت منذ الصباح الباكر خلف الأمهات إلى البرية، أرض الله الواسعة، بارًّا بوعده الذي قطعه لها ذات يوم ماطر.

كان الإمام يرفض ممارسة الأعمال الاجتماعية التي يقوم بها عادة رجال الدين، من عقد القران، أو الطلاق وكتابة الحجب، لكنه وافق على عقد قران ياسر بكوثر بكل سرور، وقدم لهما هدية متواضعة كانت عبارة عن عشر بيضات من بيوض ديك الحبش جاء بهم من المدينة، لتشهد القرية أكبر احتفال بعروسين وأجمله وأسعده مَرَّ في تاريخها

الطويل، رقص فيه إلياس من كل جوارحه، تمايل وقفز في الهواء مستعرضًا رشاقته البدنية، وغنى بشكل جنوني، دون أن يدري أحد السبب الخفي وراء ثورته العاطفية هذه، التي تفجرت كبركان أذهل الحاضرين وحيرهم.

انقسم ضباط الجيش بين قوميين ووطنيين، واصطدم ناظم القدسي بمجلس الأمن القومي الذي لم ترُق له نمط الحياة البرلمانية المتقلبة، واستشعر النحلاوي خطر القوميين العرب من ناصريين وبعثيين بدؤوا يتكاتفون مع بعضهم البعض للعودة إلى الحكم تحت شعار إحياء مشروع الوحدة العربية أمل الجماهير من المحيط إلى الخليج، فقام بانقلاب فاشل على الحكومة، ليثبت للمرة المئة أن الديمقراطية والعسكر في العالم العربي كالزيت والماء لا يجتمعان، إذ كان من المستحيل أن تُقنِعَ من يمسك بالبندقية وتتلألأ النجوم والنسور والسيوف النحاسية المتقاطعة على كتفيه، أن يتلقى الأوامر من مدنيٍ هزيل، حتى لو كان منتخبًا من أبناء الأمة جمعاء.

***

جسد من نار

آبَ آبُ اللهابُ وشُحِذت شفرات المناجل الصدئة بأحجار الصوان البللورية، وعادت لتعمل في الحقول الشاسعة، لجمع سنابل القمح الذهبية، وقد حان موعد جَنْيِها، كما صدحت أغاني الحصادين ومواويل العتابا والميجانا بعد أفول شمس كل نهار من أيام العمل الشاق والشائق، و امتنع الناس عن التأفف من العمل المضني طوال النهار تحت أشعة الشمس، بل كانوا يدعون الله أن يديمها نعمة عليهم، ليعملوا ويجنوا ثمرة أتعابهم وعرق جبينهم رزقًا طيبًا، حلالًا زلالًا ومتعة للناظرين.

هُرِع الإمام إلى منزل عبد الغفار، بعد أن أخطره شقيقه أبو بشير بحالته الخطرة الاستثنائية التي ألّمت به منذ الصباح.

كان عبد الغفار يذرف العَبَرات من عينيه كقطرات المطر دون توقف، وقد اصطبغ حجر الدرج الأزرق البازلتي بلون السواد، بعد أن امتصت مساماته الدموع المتساقطة من مقلتيه طوال النهار. كان عبد الغفار قد أجهش في البكاء مع بزوغ الشمس، وانتحب طويلًا، وشهق ليسترد أنفاسه، بعد عناء فظيع، من الاحتراق في جوفه المتلظي، بنار الحسرة المتدفق، من قلبه الخافق، من الوله الجنوني بالزرقاء، التي كان يمر طيفها، كنسمة هواء حارقة، تلهب فؤاده، وتطرحه صريعًا على فراش الموت عشقًا.

عند الظهيرة توقف عبد الغفار عن البكاء، ولم يتوقف الدمع المنهمر من عينيه المخضبتين المنتفختين. فطلب من شقيقه الإسراع في استدعاء الإمام لنجدته وإنقاذه من تلك الحالة الفريدة التي تعصف بروحه والتي لم يمر بها من قبل.

كانت العبرات تنسكب من محجريه في إيقاع منتظم، قطرة إثر أخرى، ليمتصها الحجر الأزرق الناشف من حرارة شمس موسم الحصاد، عندما وصل إليه الإمام. نظر عبد الغفار إلى الإمام بطرف عينيه وقال مُعاتبًا: لقد تأخرت يا مولاي. سمع الإمام كلمة "مولاي" لأول مرة من لسان عبد الغفار وأدرك أن انقلابًا كبيرًا حدث في قلبه، فاقترب منه وقال له: لا يحدث شيء خارج مشيئة الله، فثق بالله العلي القدير، فهو مَن يمنحنا الحياة وإليه نعود. أومأ عبد الغفار برأسه وقال: لا أستطيع إيقاف الدمع النازف من عيني.

- قل لي ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟

- لقد سرقتني. تآمرت عليَّ مع زوجها وسرقتني. لقد استوليا على كل شيء.

- وماذا لديك يا مسكين ليسرقوك؟

وسمع صوت نحيب عبد الغفار وقد تصاعد من جديد.

طلب الإمام ماءً باردًا، فأحضره أبو بشير على عجل من جرة الفخار، أخذ الإمام قليلًا من الماء البارد، وغَسَلَ به وجه عبد الغفار، وأحسَّ بلسعة نار تحرق يده. يا إلهي - قال الإمام - جسدك يحترق من

اللهيب. اشربْ قليلًا من الماء البارد.. ووضع كيل الماء في فمه فرشف عبد الغفار منه قليلًا، وسَمِعَ الإمام صوتًا نابعًا من صدره، يشبه إلى حد بعيد صوت انطفاء الجمر بالماء. وطلب منه مرة أخرى، أن يعيد الكرة، فأخذ عبد الغفار الماء البارد ودلقه في حلقه دفعة واحدة.

لا يدري الإمام إن كان ما شاهده حقيقة أم وهمًا، لقد شاهد الماء البارد يغلي في فمه ويتصاعد منه البخار الحار، قبل أن يبتلعه عبد الغفار في بلعومه، ليسمع الإمام صوت هشيش صدره. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال الإمام في سره وأخذ يسكب الماء البارد على رأس عبد الغفار ليطفئ لظاه. كان يبسمل ويتمتم بسور من القرآن الكريم ويسكب الماء فوق عبد الغفار الذي أخذ يشهق وكأنه في نزاعه الأخير حتى سقط مغشيًا عليه.

ساعد أبو بشير الإمام في حمل عبد الغفار إلى باب الغرفة، وامتنع عن الولوج إلى داخلها، فقفز الإمام من فوق الفوهة إلى الداخل، ليتلقى جسد عبد الغفار، الذي كان أبو بشير يدفع به إليه.

مدد الإمام عبد الغفار على السرير، وأشعل سراج الزيت بعود ثقاب، فلمعت عينا عبد الغفار بومضة، وفغر فاه ليصرخ بصوته عاليًا، لكن صوته لم يخرج من صدره، وغاب عن وعيه من جديد.

لاحظ الإمام وجود كوة كبيرة محفورة في الجدار الشمالي للغرفة، يتنسم منها الهواء المنعش فاقترب منها بحذر شديد ليتفحصها. لم يجد فيها شيئًا مميزًا، سوى أنها كانت تطل على الفراغ المعتم خلف المنزل. عاد الإمام ليمسح رأس عبد الغفار بقطعة من القماش، مبللة بالماء البارد، ولاحظ أن الحرارة كانت تنتقل إلى قطعة القماش فيتبخر الماء منها، كما

يحدث عندما تعرضها للمكواة. ودُهش الإمام من بقاء عبد الغفار حيًا وجسده يتلظى بحرارة لا تتحملها النفس البشرية. بلّل الشيخ أصابع يده، ورش الماء على وجه عبد الغفار، ففتح فمه ليلتقط نقاط الماء، فأسند الإمام رأسه تحت ذراعه، وقدم له جرعة من الماء ليستمع الهشيش مرة أخرى من صدره الملتهب. رحمتك يا أرحم الرحمين يا الله، قال الإمام وقرأ بصوت خافت في أذن عبد الغفار: "قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس". كان جسد عبد الغفار ينتفض بين لحظة وأخرى، وتابَعَ الإمام قراءته لآيات سورة البقرة فالنساء، وكان يتوقف بين فترة وأخرى ليسقي عبد الغفار الماء البارد، أو ليرش وجهه بقطرات الماء، فانقطعت دموعه عن السيلان من عينيه المخضبتين بلون الدم.

طوال الليل، ظل الإمام يقرأ القرآن، ويدعو الله، أن يطرد الأرواح الخبيثة عن جسد "المبروك"، الذي استعاد شيئًا من عافيته مع اقتراب الفجر وسألَ الإمامَ: هل أعدتَ لي ما سرقوه مني؟ سنعيد المسروقات عندما تنهض معافًى بإذن الله. أجاب الإمام مطمئنًا عبد الغفار الذي عاد ليبكي من جديد.

– الله لا إله إلا أنت. قال الإمام وسكب مزيدًا من الماء على رأس عبد الغفار وقال: قلتُ لك لا تخفْ، سنعيد ما سرقوه منك.

– لن تفعل. لقد تأخرت. قال عبد الغفار.

– ماذا سرقوا منك؟ سأل الإمام.

– لن أقول لك ما دمتَ لا تعلم. قد تسرقهم أنت.

– حسنًا، لا تقل لي شيئًا عن كنزك يا عبد الغفار.

– هأنت تعلم إذا أن لدي كنزًا كنت أخفيه في الجدار. أعدْهُ إليّ.

– الله ولي الأمر والتدبير. سنسترجعه في الصباح بإذن الله فلا تقلق. اشرب الماء.

شرب عبد الغفار مزيدًا من الماء، وتصاعد البخار من فمه، ليغيب عن وعيه من جديد. وعاد الإمام لمتابعة قراءة سور القرآن الكريم بالتتالي.

سمع الإمام صوت آذان الفجر فهدأت نفسه القلقة المتعبة قليلًا، وتنفّس الصعداء بعد أن أحسَّ بحلول الفجر، ليساعده على إزالة هذا الكابوس المرعب، الذي كان يعيشه في تلك اللحظات مع عبد الغفار.

سبحان الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، قال الإمام بعد أن رأى انبلاج الفجر فنهض ليصلي صلاة الفجر مغمض العينين.

سلم الإمام على المَلَكين بعدما انتهى من صلاته، وفتح عينيه ليجد سرير عبد الغفار فارغًا. تلفت حوله في فزع شديد، ثم نهض ليتفقد المكان، فلم يعثر على أثر له. اقترب من كوة الجدار ونظر في الفراغ، فشاهد أولى خيوط الشمس تضيء معالم جثة عبد الغفار، ملقاة على الأرض وقد تفحمت، والدخان يتصاعد منها، لتتحول إلى رماد تذروه نسمات هواء الصباح البارد ليصبح هباء منثورًا.

البعث

بعد شهر بالتمام والكمال من عرض تلفزيون بغداد لجثة الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم مقتولًا في أحد استديوهاته إعدامًا رميًا بالرصاص، وتولي عبد السلام عارف منصب رئيس الجمهورية، وأحمد حسن البكر رئاسة مجلس الوزراء، قامت وحدات المغاوير بقيادة سليم حاطوم ابن السويداء، بالاستيلاء على مبنى الإذاعة والتلفزيون في دمشق، وتم إعلان البيان رقم واحد الذي أطاح برئيس حكم الوطنيين الانفصالين، وبشَّر بعودة القوميين إلى السلطة في عاصمة الأمويين. أُلقي القبضُ على رئيس الجمهورية المنتخب ناظم القدسي الذي كان قد صوت قبل ثلاث سنوات ونصف في البرلمان ضد الوحدة بين الإقليمين السوري والمصري، أما رئيس الوزراء خالد العظم، فقد لجأ إلى السفارة التركية القريبة من منزله في حي أبي رمانة. كانت اللجنة العسكرية السرية التي تشكلت في مصر أيام الوحدة باسم حزب البعث المنحل والمؤلفة من خمسة أعضاء هم: محمد عمران وصلاح الجديد وحافظ الأسد وأحمد المير وعبد الكريم الجندي، قد فتحت الباب أمام انضمام عدد آخر من الضباط السوريين كان أبرزهم سليم حاطوم وحمد عبيد، إضافة لعدد من الضباط المسرحين والمدنيين كان من أبرزهم أمين الحافظ وأحمد سويداني ورباح الطويل وموسى الزعبي ومصطفى الحاج علي. تميزت اللجنة العسكرية بقدرتها الفائقة على كتم أهدافها وإخفائها

بالاستيلاء على السلطة السياسية، ومدت يدها أولًا إلى الضباط القوميين كافة، وخاصة الناصريين منهم، تحت شعار جماهيري كان يخطف ألباب الناس البسطاء وعقولهم، إعادة الوحدة بين البلدين سوريا ومصر، كما مدت يدها إلى كل الضباط المستقلين الذين تراودهم أفكار عن وحدة الأمة العربية كسبيل وحيد، لإعادة مكانتها التاريخية، بين الأمم الكبرى في العالم، وأصبح الضباط البعثيون لولب الجيش والممثل القوي لأهدافه، فدفعوا بالناصريين أولًا للتحرك العسكري تحت رقابهم المشددة، ثم تحركوا بأنفسهم كدعم للناصرين، واستولوا على السلطة في البلاد، فرفعت الجماهير أعلام الوحدة وصور جمال عبد الناصر، وخرجت المظاهرات لتعم الشوارع منادية بإعادة الوحدة الفورية بين البلدين الشقيقين، لكن الضباط اعتذروا عن ذلك، ريثما يتم القضاء المبرم على ضباط الانفصال، فصدر قرار من رئاسة الأركان بتسريح مئة وأربعة ضباط، بعد أسبوع واحد من صدور البيان الأول، وأعلن في اليوم التالي، عن الشروع بمباحثات إحياء الوحدة بين مصر وسوريا وانضمام العراق إلى تلك المحادثات، وبعد أسبوع ثان، تم تسريح مائة وخمسين ضابطًا من صفوف الجيش، أي قادة الكتائب في الجيش العربي السوري كافة، ووضعوا مكانهم بعض الضباط المجندين والمسرحين، الذين وفدوا من مدينتي طرطوس واللاذقية. كانت محادثات القاهرة أشبه بحوار الطرشان، ولم تُسفر عن شيء ملموس، فالضباط الذين استولوا على السلطة، أرادوا ألَّا يكرروا أخطاء الوحدة السابقة، بين البلدين، أما قيادة العراق وكانت من أنصار القيادة القومية لحزب البعث بقيادة ميشيل عفلق فكانت ترى أنها أقوى بكثير من عبد الناصر ليتسلم

السلطات، فالبعث غدا مسيطرًا على العراق وسوريا رغم الصراع الخفي والمعلن والمرير بين القيادتين.

قامت اللجنة العسكرية بالتحالف السري مع الضباط الوطنيين المستقلين بإقصاء الضباط الناصريين من صفوف الجيش بحجة أنهم يريدون وحدة اندماجية غير مدروسة بين البلدين، ليكرروا بذلك مأساة الشعب السوري خلال أيام الوحدة، وكان الضباط المستقلون معروفين باستقامتهم وحرفيتهم، فعزلوا الناصريين وأبعدوهم عن مراكز القرار، ثم قامت اللجنة العسكرية بتصفية الضباط المستقلين لتنفرد بالسلطة عمليًا، دون أن يغيب عن عينها تعيين واجهات وهمّية، لا قدرة لها على الحركة، كما فعل البعثيون في العراق، حين عينوا عبد السلام عارف رئيسًا للجمهورية.

لم يكن أحد من السياسيين المتابعين للشأن السوري يعرف من يحكم دمشق، أهو سليم حاطوم، أم صلاح الجديد، أم لؤي أتاسي، أم أمين الحافظ، وتطول قائمة الأسماء التي تتحدث باسم الشعب وباسم الجماهير، وتُطلِقُ الشعارات الطنانة الرنانة التي انتفخت بها صدور الناس.

أمام دهشة أهل القرية وحيرتهم، وحدهم أشقاء أمينة الثلاثة خرجوا هاتفين مهللين مبشرين بانبعاث فجر جديد، فانضم إليهم الأستاذ إلياس، الذي عرف أن رفاقًا له في الجيش، لم يسمع بهم من قبل، قد استولوا على السلطة في دمشق قلب العروبة النابض، وأن الرفيق ميشيل عفلق مؤسس الحزب يدير دفة الحكم في البلاد. وبمبادرة ذاتية وغير متوقّعة قام

الأستاذ إلياس بجمع التلاميذ منذ الصباح وأنشد معهم النشيد الوطني بحماسة شديدة، ثم أجرى تفتيشًا مفاجئًا على شعرهم، وأخرج من الصفوف، كل من كان شعره يلمع ببيوض الصيبان، ثم أخذ عصاة الأستاذ بدر، وطلب من التلاميذ أن يخلعوا أحذيتهم، ليكشفوا عن أقدامهم الصغيرة ورفعهم "فلقا" جنونيًا، تكسرت فيها عصاة الأستاذ بدر، فانتزع "نصاب" أحد الفؤوس، وتابع ضربه الشديد والثوري، على كواحلهم وأعقابهم دون رحمة أو شفقة، ثم استدعى حلاق القرية أبي منصور، ليعمل على حلاقة شعرهم "على القرعة" على الصفر، ثم أمرهم بالعودة إلى بيوتهم، للاستحمام، مع إنذار بفصلهم من المدرسة في حال عدم الالتزام بأوامره.

كان صراخ التلاميذ الذي شَقَّ السماء قد وصل إلى مسامع سكان البيوت المجاورة للقرية، فخرجت النساء من البيوت، ووقفن قرب الشريط الشائك، الذي يحيط بأرض المدرسة ليشاهدن بأم أعينهن ما كان يجري في باحتها.

حمل التلاميذ أحذيتهم المطاطية، وخرجوا من بوابة المدرسة، برؤوسهم الحليقة، ليجلسوا على العشب المبلل بماء المطر، يتفقدون أقدامهم الحمراء، والدموع الحارة تنهمر من عيونهم المخضبة. كانت أقفاصهم الصدرية تنتفخ بالهواء البارد، ليخرج منها على شكل موجات حارة من الغضب والقهر والحيرة، مما فعله الأستاذ إلياس بهم، وهم الذين كانوا يحبونه حبًا جمًّا، ويفضلونه على الأستاذ بدر، الذي كان يبدو بنظرهم قاسيًا، صلبًا لا يلين ولا يرحم.

غاب إخوة أمينة عن القرية بضعة أيام عادوا بعدها ليظهروا في الأماكن العامة شامخي الرؤوس، يفصحون عن رأيهم في المسائل كافة، وخاصة السياسية منها، وعادت السجون لتغص بالمعتقلين من التيارات والتوجهات السياسية كافة، وكان الضباط العسكريون يحتلون المرتبة الأولى بين المعتقلين، ألوية وعمداء وعقداء، كان أشهرهم الفريق محمد الصوفي واللواء موفق عصاصة، كما تم إعدام العديد من الضباط برتبة عقيد.

على مرأى من أعين الناس، قام الأستاذ إلياس بزيارة علنية لبيت أمينة، استقبله الإخوة الثلاثة بترحاب وافتخار كبيرين، أما أمينة فقد لاذت بالصمت، وجلست مصعوقة قرب أمها تراقب ما يحدث، دون أن تتجرأ على طرح السؤال على أحد. لم تكن أمينة تثق بأحد من أفراد أسرتها سوى والدتها، التي فقدت الكثير من عزيمتها وقدرتها على استيعاب ما يدور حولها، وأمام عينيها.

لم تكن أم أمينة سعيدة بما يجري من تغيرات كبيرة داخل البيت، فأصوات الأولاد الشبان باتت تهدر وتُهدِّد وتتوعد، لقد امتلأت صدورهم وأفئدتهم بالكبرياء والعزيمة، وصاروا يتناولون أسماء أشخاص من رجال القرية بازدراء واحتقار شديدين، كالمختار و أعضاء مجلس القرية المسؤولين التقليديين عن القرية أمام السلطات. لكنها لم تتوقع أن يقدم الأستاذ إلياس وأمام أعين الناس، على زيارتهم عصرًا، ليشاهده أكبر عدد من أهالي القرية بعيونهم الحذرة.

– الله يستر يا ابنتي. قالت الأم، وامتدت يدها لتداعب شعر أمينة من تحت الغطاء.

كانت أمينة، خائفة، مرتعدة من ظهور إلياس في بيتهم دون سابق إنذار لها. كانت متوجسة من أن يُفتضح أمرهما. أن يرتكب إلياس حماقة، ويكشف عم دار بينهما من لقاءات حميمية، خاصة وأنها سمعت بعض النساء يتحدثن عن تصرفاته وأفعاله الجنونية واللامعقولة فسألت أمها: "شوصاير بهالدني؟".الله أعلم يا ابنتي، لكني لم أعد مطمئنة البال. لا أعرف. أشعر بوخز في قلبي.. وأشعر بضيق في أنفاسي، لربما، اقترب موعد رحيلي يا ابنتي، وما زال قلبي قلقًا عليك. وسمعت أمينة صوت ضحكات إلياس، وقد تمازجت مع ضحكات أشقائها عند باب الدار وهم يودعونه قائلين: حلت البركة، وشرفتنا بزيارتك، نحن طوال الليل سهرانون.. تستطيع زيارتنا متى شئتَ.

اطمأنت أمينة قليلًا، وهدأ خفقان قلبها، بعد أن أوصد شقيقها الأكبر الباب خلف الأستاذ إلياس فخرجت إليه وقالت بمزاح: أراك تتحدث إلى الأساتذة، ما الذي تغيّر؟

– سدي بوزك، وأجلسي إلى جانب أمك ولا تتدخلي في شؤون الرجال. وجاءه الرد من أمه التي سمعت إجابته فقالت: "فصك حميان" يا أبو رأس.

– الدنيا تغيرت يا أمي. تبدلت الأيام.

– هل باتت تغرب الشمس في الشرق، أم تشرق من الغرب؟ ما الذي تغير؟

– الدنيا كلها تغيرت، و"زمان أول حول". وغاب مع إخوته الذين تبعوه إلى غرفة الجلوس ليتابعوا أحاديثهم بصوت عالٍ على غير العادة.

في هجيع الليل الا صوت الأم صارخًا يشقُّ الفضاء: أمينة اهربي، اهربي إلى بيت المختار.

كان الشقيق الأكبر، قد اقتحم منامة أمه وشقيقته في تلك الليلة الظلماء، وخلفه شقيقاه يحملون الخناجر والأمواس الحادة وهو يقول: أين هذه العاطلة لأشرب من دمها؟ وشاهد الشقيقان أختهما تفتح باب الدار وتهرب منه راكضة بكل عزم لتنجو بنفسها.

كانت الأم بفطنتها وخوفها على ابنتها، قد شعرت بأن شيئًا ما يدور في ذهن أولادها الشباب، وأنهم لا بد سيقدمون على ارتكاب جريمة لغسل العار، ليحتلوا مكانتهم الموعودة في مجتمع لا يتوقف عن التغيير، فطلبت من ابنتها أن تنام في الحظيرة بين الماشية حرصًا على سلامتها من غدر الليل.

– والله لو لم تكوني أمي لغرست خنجري في قلبك – قال أبو رأس وهو يهدد ويتوعد – لقد أفشلتِ مخططنا، لكننا لن نتركها تنعم بالحياة ما دمنا أحياء. سنقتلها عاجلًا أم آجلًا، وليكن بعلمك ذلك، لن تنفعك حيلك مرة أخرى. وقد أضطر لقتلك معها إن تصديتِ لنا بمكرك هذا. الموت لك ولابنتك الساقطة. إن كيدكن عظيم.

ليلًا، أبلغ المختار الشرطة بوجوب حضورها حالًا لتفادي جريمة قتل على وشك الوقوع، وأعلن عن عدم قدرته أو قدرة أيٍّ من أهالي القرية على حماية أمينة من ثورة أشقائها والتصدي لهم، بعد أن سمعوهم يقسمون بالله على غسل عارهم بأيديهم، ليطهروا أرواحهم بسفك دمائها.

تجمهر شبان القرية ورجال أمام نزل المختار واكتظت الساحة بالأولاد من مختلف الأعمار، فالشرطة تحيط بأمينة من كل جانب في المنزول المكتظ برجال القرية الكبار، الذين جاؤوا ليشهدوا الحدث الجلل. كانت الأفواه تتناقل الأحاديث الدائرة داخل المنزول بسرعة كبيرة كالبرق لتنتشر على ألسنة جميع الحاضرين.

فتح الشرطي المساعد السجل الكبير، وأخرج منه أوراقًا لتدوين المحضر، وسلمها لأحد عناصر الشرطة، الذين يجيدون الكتابة، لتدوين ما يُملى عليه من أسئلة وأجوبة.

– إذًا – تساءل المساعد موجها سؤاله لأمينة – أنت تعترفين بارتكابك للفاحشة مع رجالٍ وشباب من القرية، أليس كذلك؟

لم تفهم أمينة كلمة "فاحشة"، وظنت أنها تعني شيئًا آخر، كارتكاب جريمة قتل، أو سفك دماء، فنظرت إلى المساعد بعينين تائهتين تسأله عما يريد. شعر المساعد بالحرج الشديد في إيجاد كلمات مختلفة لطرح السؤال من جديد، فقال: حسنًا سنبدأ الآن تدوين المحضر، وأنت

ستبصمين عليه بإصبعك، فكوني صادقة ولا تخفي عنا شيئًا لنستطيع حمايتك من إخوتك الذين يريدون قتلك. ما اسمك؟ وضحكت أمينة باستغراب من سؤال المساعد وقالت له: ألم تحفظه حتى الآن؟

عمّ الضحك في المنزول، وانتشر كنسمة هواء في أرجاء الساحة، فقهقه الحاضرون بملء أشداقهم، فأمر المساعد بإغلاق باب المنزول، وطرد الشبان الواقفين على بابه إلى الخارج، كما أمر بخروج كل من ليس له علاقة بالموضوع، خارج المنزول، ليبقى على المختار وأعضويته لا غير، فتكوم الشبان على النافذتين المطلتين على الساحة، يصغون بإنصات شديد للأسئلة التي كان المساعد يوجهها لأمينة، و لأجوبتها التي كانت تثير لديهم مزيدا من الضحك المتواصل. لكن ضحكهم انقطع فجأة، وفروا هاربين، عندما سمعوا المساعد يطلب منها ذكر أسماء الذين قضوا معها الليالي الحمراء.ساد صمت ثقيل..كسكون ما قبل العاصفة، وخفقت القلوب،وارتعدت الأوصال،وارتعشت الأجساد..فهم سيغدون متهمين.. ما هذه الفضيحة التي ستطالهم؟ أي عارٍ سيجللهم؟

أطرقت أمينة رأسها في الأرض لحظاتٍ طوالًا.. ثم تنفست الصعداء ورفعت رأسها عاليًا، جالت بعينيها في سقف المنزول، وانهمرت عبراتها من عينيها الشهلاوين، وظهرت ابتسامة تائهة على مُحيَّاها اختلطت بدموعها وقالت: قبل أن أجيب عن سؤالك يا سيدي، أريد أن يحضر الإمام هذه الجلسة. أرجوكم أن تنادوه.

– ما علاقة الإمام بهذا الأمر؟ هل تتهمينه بشيء يا أمينة؟ سأل المساعد.

– لا – صرخت أمينة بأعلى صوتها وانفجرت في نحيب مرير – أنا لا أتهمه. فهو أنقى و أطهر من ماء العين. أنتم مجرد حمقى. وحوش. أريد الإمام أن يقف إلى جانبي. لن أنطق بحرف بعد الآن حتى لو قتلتموني قبل أن أرى الإمام بعيني.

وصل الخبر إلى الإمام سريعًا، فدمعت عيناه في الحال، وحمل نفسه المتألمة على ساقيه المخدرتين، واتّجه نحو منزل المختار، ليشق طريقه بصعوبة، بين المتجمهرين الصامتين المترقبين بخشوع ورهبة حدوث شيء غريب ومفاجئ..

دخل الإمام وألقى التحية بيده على الحاضرين، وجلس على كرسي من القش، ونظر في عيني أمينة، فمسحت الدمع عن محجريها وابتسمت له، فعض الإمام شفته السفلى ليمنع نفسه عن البكاء. مضت لحظات قصار، والناس في حيرة مما يحدث، وما الذي سيقوله الإمام؟ وبالأحرى، ما الذي تريده أمينة العاهرة من أطهر الناس، وخرج صوت الإمام مرتلًا يتلو من الذكر الحكيم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سِنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرضِ من ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاءَ وسِعَ كُرسيُّه

السماوات والأرضَ ولا يَئُودُه حِفظُهُمَا وهو العلي العظيم. صدق الله العظيم.

في تلك اللحظة حدث ما لم يتوقعه أحد.

قالوا هو القدر، وقالوا تلك مشيئة الله، وقالوا "طق عقله"، وقالوا هو الحب.. وقالوا أشياء كثيرة عن الأستاذ إلياس، الذي اقتحم المزول كالمجنون وجلس على الأرض قدام الإمام وقال بصوت عالٍ اهتزت منه الأبدان وسرت قشعريرة في ثنايا الأرواح وخمدت الأنفاس لتقترب، من العدم: أشهد أن لا إله إلا الله. وشعر بغصة في حلقه، جال بعينيه في وجوه الحاضرين، كانوا مجرد هياكل هلامية لا وجود لها إلا في ذهنه المضطرب، لكن عينا أمينة أعادتاه من سكرات الأحلام الخفية إلى الحلم الحقيقي المتجسد أمامه، فأضاف بصوت متحشرج: وأن محمدًا رسول الله. مولاي، أيها الشيخ الجليل تقبل مني إعلان إسلامي، فأنت أدرى بحالي.

انحنى الإمام وقبّل إلياس في جبينه وهو يمسح دمعة هربت من عينه وقال:

– الله وحده من يتقبل ذلك يا أستاذ، أما أنا فأشهد أنك تعلن إسلامك أمامنا، فماذا تريد؟

– أن تشهد يا مولاي، ويشهد الحاضرون بأني أصبحت مسلمًا. هل تشهدون بذلك؟ أومأ الحاضرون المذهولون قائلين: نعم نشهد أنك أعلنت ذلك على الملأ. فقال إلياس: والآن يحق لي التقدم بطلب يد أمينة

لتصبح زوجة لي على سنة الله ورسوله، فهل تقبلين بي يا أمينة زوجًا مخلصًا محبًّا لك؟

فقالت أمينة: أوكل مولاي الإمام ليجيب عني، فهو سيدي ومولاي ما دمتُ أتنفسُ الهواء.

عندئذ قال الإمام: أعرف أن القانون في بلادنا يمنع زواج غير المسلم بمسلمة، لكني أقول أمامكم جميعًا، أن القرآن لا يحرم ذلك أبدًا، فلا توجد بين جلدتيه آية تمنع زواج أهل الكتاب المؤمنين بالله بالمسلمات. والآن أجيبك عن أمينة. أمينة تقبل بك زوجًا لها.. ثم أشار للشرطي، أن يعطيه ورقة وقلمًا ليعقد قرانهما أمام ذهول الحاضرين.

أخذ إلياس أمينة من يدها، ومَرَّ بها بين الحشود، الذين أطرقوا برؤوسهم في الأرض يجللهم العار من رأسهم حتى أسفل أقدامهم.

اقترب نيسان من نهايته، ورقصت أزهار البرية تحت رذاذ المطر الناعم، وارتسم قوس قزح في الفضاء مع نهار جديد، وعادت طيور الدرغل لتملأ السماء بأسرابها المتجهة نحو الشمال في رحلتها السنوية المعتادة، وصدحت طيور الفري (السمّن) بأغانيها العذبة بين أزهار شقائق النعمان، التي غطت مساحات كبيرة من أراضي القرية، لتزين برؤوسها القرمزية سندس الأرض الزاهي الألوان.

– أحبك، وأموت فيك يا أمينة، فأنت سعادتي و أنت شغفي، وأنت أجمل وأرق وأعذب ما عرفته في حياتي. قال إلياس وهو يضع يده على كتف أمينة بعد أن جلسا في درء صخرتهما البازلتية يحتميان بها من رخ

رذاذ المطر، يتأملان سحر الطبيعة وجمال الخلق وصفائه التام الكامل واللامحدود.

توقد الجمر وتلاعبت نسمات الهواء بألسنة النار المشرئبة في الموقد، واستحمت أمينة بالماء الحار، وتفتحت مسامات جلدها لتلقي جرعةً جديدةً من الحب، ولبست ثوب النوم السماوي الشفاف، واندست في الفراش، وأطلقت بشفتيها الورديتين قبلة في الفضاء تدعو إلياس إليها، فانخلع الباب وتهاوى على الأرض، ولمعت نصال الخناجر، كما لمعت عيون الضباع التي انقضت عليها لافتراسها بخناجر العار. قفز إلياس ليتصدى للإخوة، ليحمي كنزه الثمين من غدر الكرامة المزيفة، فأمسكوه وشدوا وثاقه، وألقوا به جانبًا على الأرض، وهددوه بالقتل إن علا صوته.

اندفعت أمينة بجسدها النازف وجراحها المثخنة، لتشقَّ طريقها نحو الباب المخلوع، ولتسقط متدحرجة على درجات السلم الحجري إلى أرض الديار، لتنهض من جديد، ولتقفز من فوق جدار اللبن المتآكل، وطعنات نصال الخناجر الحادة، تلاحقها وتُصيبها في كل شبر من جسدها، الذي بدأ يفقد القدرة على الجري قُدمًا، فنخت على ركبتيها، ورفعت يديها لتصد الضربات الموجعة، التي باتت تنغرز عميقًا في جسدها، ثم هوت على الطين ليأخذها بأحضانه المشرعة لكل المخلوقات، بينما كانت السماء تطهر جسدها بحبيبات المطر المنهمر بغزارة، وتجرف بدمائها الحارة بعيدًا عنها، إلى مجرى السيل العرم، الذي أخذ يتكوَّن، ويسمع هديره الصادم، القادم من بعيد، ليحمل جثة أمينة مع بزوغ الشمس، إلى أرض الساحرات البعيدة.

الصِّفر

من بين كل الأعداد، ومهما تكبرت أو تصغرت، كان الصفر يشغل ذهن الإمام الذي استند برأسه إلى الجدار البارد، تحت مشكاة قنديل الزيت، وأغمض عينه وتحدث في سره: لا عدد دون معدود، وليتكوّن الواحدُ، أي واحدٍ، لا بد له أن يبدأ من الصفر، والصفر هو العدم، هو اللاشيء، هو التلاشي في اللاوجود، هو نقطة افتراضية في هذا الكون، لا أثر لها في العالم المحسوس بحواسنا الخمس، ولا يمكن إدراكه بالعقل البشري، مهما نجرد الفكرة من حيثياتها ومعطياتها الذهنية أو المادية، ومن الصفر، من العدم، من اللاشيء، تنبعث كل الأشياء صعودًا أو نزولًا، طولًا أو عرضًا، يمينًا أو شمالًا، هو الفاتحة لكل الوجود المادي والافتراضي، ولا يمكن استثناء الأفكار من منبعها العدمي الأزلي، من الحي الباقي، والصفر غير مرئي، ولا يمكن إدراك ماهيته أو كنهه، لأنه لا يقبل الجمع أو الطرح أو التقسيم أو الضرب، فهو صفر، وسيظلُّ صفرًا، ليس واحدًا، مهما نحاول أن نجمع من أصفار، ومهما نضرب الأصفار بالأصفار فستبقى النتيجة واحدة لا تتغير، لأنه الأول لا أول له، والآخر لا آخر له، وهو الظاهر والباطن لكل الأشياء ومنه نُبعثُ وإلى حالته نعود.

الفاتحة.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.....!